

ديبا كومار

فويا الإسلام
والسياسة الإمبريالية
ترجمة: أماني فهمي



المركز القومي للترجمة



2671



يقول أرون كونداني، مؤلف كتاب "نهاية التسامح: العنصرية في بريطانيا القرن الحادي والعشرين" إن كتاب "فوبيا الإسلام والسياسة الإمبريالية" سيكون عملاً صحيحاً جوهرياً لأولئك الذين لا يفتنون إلى أن أصول "مشكلة الإسلام" تكمن في النزعة الإمبريالية لا في الشريعة؛ فديبا كومار تدلل على أن الأكاذيب النابعة من فوبيا (أي إرهاب) الإسلام لم تنشأ تلقائياً بعد انتهاء الحرب الباردة، بل تضرب بجذورها في قرون من الغزو والاستعمار، بدءاً بالحروب الصليبية وانتهاءً بـ "الحرب على الإرهاب". وهي تبين، بما تسوقه من حجج دقيقة وبيّنة، كيف قام الليبراليون، تماماً مثل المحافظين، بنشر هذه الأكاذيب، وتعريّ الكيفية التي استغلت بها مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية، في سياقات مختلفة، الحركات السياسية الإسلامية، واستغلت العنصرية المضادة للمسلمين.

ووصف طارق رمضان، أستاذ الدراسات الإسلامية المعاصرة بجامعة أكسفورد، هذا الكتاب بالغ الأهمية بأنه كتاب جوهري وجاء في حينه. وأضاف قائلاً إن الكتاب يتناول إرهاب الإسلام تناولاً كلياً ومتعمقاً وجدياً. وسيفهم من يقرأ الكتاب السبب الذي يحتم علينا أن نكف عن سذاجتنا وعن عدم إبصارنا للحقيقة. فلن يكون هناك مستقبل يرفرف عليه السلام والعدل في مجتمعاتنا الديمقراطية إذا لم نكافح هذا النمط الجديد من العنصرية الخطيرة.

فويا الإسلام

والسياسة الإمبريالية

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2671
- فوبيا الإسلام والسياسة الإمبريالية
- ديبا كومار
- أماني فهمي
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

Islamophobia and the Politics of Empire

By: Deepa Kumar

© 2012 Deepa Kumar

Published in 2012 by Haymarket Books

"First Published in English by Haymarket Books"

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأويرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

فويا الإسلام والسياسة الإمبريالية

تأليف : ديبا كومار
ترجمة : أماني فهمي



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

كومار، ديبا

فويا الإسلام والإسلام الإمبريالية / تأليف : ديبا كومار؛

ترجمة وتقديم : أماني فهمي

ط ١ - القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦ .

٣٠٨ ص، ٢٤ سم

١- الإسلام والإمبريالية .

(أ) فهمي ، أماني (مترجمة ومقدمة)

٢٠١٤/٣٢٥٣

(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٠١٤/٢٠٠٦٦

I.S.B.N. 978 - 977 - 718-876 -0 الترميم الدولي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

9 الباب الأول: التاريخ والسياق
11 المقدمة
21 شكر وعرفان
23 الفصل الأول : صور الإسلام فى أوروبا
24 الاحتكاك المبكر بالإسلام
26 الأندلس والحكم الإسلامى فى أوروبا
29 الحروب الصليبية وإعادة الاستيلاء
34 من الجدل إلى اللامبالاة
34 العثمانيون
39 الحركة الرومانسية والتنوير
45 الفصل الثانى : الاستعمار والاستشراق
46 نابليون والاستعمار " المستنير "
50 خصائص الاستشراق
56 الإمبريالية الأمريكية
67 الفصل الثالث : استمرار أكاذيب المستشرقين

68 الأكنوية الأولى: الإسلام ديانة أحادية الخواص
71 الأكنوية الثانية: الإسلام ديانة متحيّزة جنسيا بشكل فريد
77 الأكنوية الثالثة: " العقل الإسلامى " غير قادرة على المنطق والعقلانية
82 الأكنوية الرابعة: الإسلام ديانة تتسم بالعنف بطبيعتها
 الأكنوية الخامسة: المسلمون غير قادرين على اتباع الديمقراطية وعلى
86 الحكم الذاتى
93 الباب الثانى: الإسلام السياسى وسياسة الولايات المتحدة
95 الفصل الرابع : الحلفاء والأعداء: الولايات المتحدة والإسلام السياسى
97 الإسلام والتحديث
102 المملكة العربية السعودية وملك الإسلام
105 إيران وأفغانستان: الملأى اللاعقلانيون والمقاتلون فى سبيل الحرية ...
111 أعداء إسرائيل
113 الإسلاميون وحقبة ما بعد الحرب الباردة
121 الفصل الخامس : الفصل بين المسجد والدولة
122 أكاذيب الاستشراق
123 فصل الديانة عن السياسة بحكم الأمر الواقع
127 التحديث والعلمانية
130 أوجه فشل الإحياء الإسلامى
133 القومية العلمانية الراديكالية

135 الفصل السادس : الإسلام السياسي: تحليل تاريخي
136 ما الإسلام السياسي؟
139 نمو الإسلام السياسي
150 الإسلام السياسي: مآلات متفاوتة
153 الإسلام السياسي فى إطار مناهض للإمبريالية
161 الفصل السابع : مؤسسة السياسة الخارجية و" التهديد الإسلامى"
162 المحافظون الجدد
167 الصلة الإسرائيلية
175 الإمبريالية الإنسانية
182 ١١ سبتمبر وعقيدة بوش
187 أوباما والإمبريالية الليبرالية
195 الباب الثالث: فوبيا الإسلام والسياسة الداخلية
197 الفصل الثامن : شرعة العنصرية المسلمون والتعدى على الحريات المدنية
199 ترويع العرب والمسلمين
204 المراقبة والاحتجاز والترحيل
209 المقاضاة الاستباقية
215 مشهد الإرهاب
220 نظريات التحول إلى الراديكالية
225 الفصل التاسع : الرعب الأخضر: صنُّع العدو المسلم الداخلى

227 صُنِعَ الرَّعْبُ الْأَخْضَرُ
233 الجدل بشأن "مسجد جراوند زيرو"
240 تصاعد شبكة فوييا الإسلام
247 الفصل العاشر : فوييا الإسلام والمكارثية الجيدة
249 المكارثيون الجدد
261 "التثقيف" والدعاية الإعلامية
164 الممكنون فى وسائط الإعلام العامة والليبراليون
268 العنصرية العامة
273 خاتمة: مكافحة فوييا الإسلام
283 الهوامش

الباب الأول

التاريخ والسياق

المقدمة

فى ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ تابعتُ المشهد التليفزيونى لانهيار البرجين التوأم والإحساس بالهلع يتملكنى. كنت أشعر بأسف بالغ للأشخاص الأبرياء الذين دفعوا ثمنًا لولايات الإمبراطورية، وكنت أخشى أن أياً من أصدقائى أو أقاربنى كان موجوداً فى البرجين. ولكن بدأ على الفور تقريباً ينتابنى إحساس بالرعب مما سيأتى: ما الذى ستفعله الولايات المتحدة رداً على ذلك؟ وأخذتُ أتساءل، بإحساس عميق بالخوف، كم عدد الأشخاص الأبرياء الذين سيقتلون فى مختلف أنحاء العالم فى السنوات اللاحقة؟

وعندما توجهتُ إلى الكلية فى ذلك اليوم، كان أحد أول من التقيت بهم زميلاً لى قال ساخراً " أنت سعيدة؟" وبعد أن أجمنى تساؤله لحظةً، لم يكن بوسعى سوى أن أتمم قائلةً إننى لم أكن سعيدة، وإننى قد علمتُ توأ أن بعض الأشخاص الذين أعرفهم ربما كانوا فى البرجين التوأم وقت انهيارهما. وفى وقت لاحق من ذلك اليوم، توجهتُ إلى متجر Winn-Dixie المحلى، حيث لم يتمكنُ المحصلُ من إخفاء احتقاره لى. وفى النهاية طلب منى صراحةً أن أعتذر عما حدث فى ذلك اليوم. ومرة أخرى، أجمتتى هذه المفاجأة. ولم أعرف كيف أردتُ. فلم أكن معتادة، بصفتى ناشطة فصيحة عادةً، على هذا الإحساس بالخرس؛ فقد ظللت واقفة هناك أتطلع إليه، معقودة اللسان مؤقتاً. وكان الشيء الوحيد الذى أعرفه دون أدنى شك فى تلك اللحظة هو أن ردى، عندما يخرج من فمى، لن يكشف أننى لست مسلمة ولست عربية. وعندما تماكنت نفسى، سألتها عما إذا كان قد سمع بتيموثى ماكفى Timothy Mc veigh والأصوليين

المسيحيين الآخرين الذين قتلوا علي نفس النحو أشخاصاً أبرياء، وسألكه عما إذا كان يعتقد أن جميع المسيحيين مسؤولون عن هذه الأفعال. فلم يرد.

وسمعت بعد ذلك بفترة وجيزة أن طالباً عزيزاً شاباً في جامعة مجاورة قد تعرّض للضرب وأن شرطة الجامعة لم تُعر الأمر أى انتباه. ونُشرت في المجمع السكنى الخاص بنا إعلانات تطلب من الناس الإبلاغ عن السلوك " المثير للشبهات" وعن الأشخاص " المثيرين للشبهات". وقُتل رجل هندي من طائفة السيخ يرتدى عمامة في أريزونا. وفي الأشهر التالية، قامت الولاية بعملية " استجواب" لعشرات الآلاف من المسلمين، وسُجن آلاف منهم وتعرّضوا للتعذيب وتم ترحيلهم؛ إذ كانت قد بدأت عملية شيطنة كاملة للمسلمين. وبدعم جماهيرى واسع النطاق، استُخدمت الآلة العسكرية لقتل الأفغان الأبرياء بأعداد كبيرة. وأصبحت العنصرية ضد المسلمين - أو فوبيا الإسلام - تعمل في خدمة النزعة الإمبريالية.

وأدركتُ عندئذ أن عليّ أن أنظّم عملى وأن أتحدث وأكتب عن هذا الظلم. وهذا الكتاب ثمرة عشر سنوات من هذا العمل مع النشاط في الحركة المناهضة للحرب، والطلبة والزملاء في الجامعات في مختلف أنحاء الولايات المتحدة، والتعليقات من محررى وسائط إعلام مستقلة شتى على مقالاتى عن فوبيا الإسلام. فهو نتاج جماعى، بهذا المعنى، كان الدافع إليه هو ضرورة إنتاج معرفة يمكن أن تصدّ بفعالية الدعاية العنصرية وتساعد على تعزيز الحركات الاجتماعية المضادة للحرب والعنصرية.

أولاً، ملحوظة بشأن ما لا يتناوله هذا الكتاب. هذا ليس كتاباً عن الدين الإسلامى. فلستُ متفكّهة في الدين ولا أزعّم أن لدى أى معرفة واسعة خاصة بشأن هذا الموضوع. فهذا الكتاب يتناول صورة " الإسلام"، تلك الصورة الكاذبة المنبثقة من احتياجات السيطرة الإمبريالية التى أدت إلى جعل التقدميين أنفسهم يزعمون أن المسلمين أكثر عنفاً من أى فئة دينية أخرى. إنه كتاب عن " العبود المسلم" والكيفية التى استُخدمت بها هذه الصورة الملفقة لإثارة الخوف والكراهية.

وحتى قبل أن أبدأ دراستي لتاريخ الإسلام، وللبلدان ذات الأغلبية المسلمة، وللعلاقة بين الشرق والغرب، كُنْتُ أدرك بالفطرة أن طنطنة فوبيا الإسلام التي كانت تُقبل كشيء منطقي في الولايات المتحدة خاطئة تماماً. فقد نشأتُ في الهند في منزل كان جيراننا من كلا الجانبين مسلمين، وكان صوت الأذان (الدعاء الإسلامي إلى الصلاة) صوتاً مسموعاً كل يوم. فالهند يوجد فيها أكثر من مائة مليون مسلم - أي أكثر من عدد المسلمين الموجودين في معظم الدول العربية - ولعلمي من خلال التجربة أن المسلمين يمثلون فئة معقدة تماماً مثل أي فئة أخرى من البشر، فإنني أشعر بالغيثان من الصور النمطية المقبولة كمرحلة لها مصداقية في الولايات المتحدة، ذلك البلد الذي قضيت فيه حياتي في سن الرشد.

وإنني أدين بالامتنان لعشرات الباحثين في مجال دراسات الشرق الأوسط وغيرهم قبلي الذين درسوا "العالم الإسلامي" لأنهم عززوا معرفتي بهذا الموضوع وساعدوني على فضح العنصرية الكامنة في منطق فوبيا الإسلام. وإسهامي في هذا البنيان هو التركيز على فوبيا الإسلام في السياق الأمريكي، الذي لا توجد أبحاث كثيرة بشأنه (وأنا أستخدم مصطلح "أمريكي" للإشارة إلى الولايات المتحدة في هذا الكتاب لأغراض أسلوبية فحسب، وأتقدم باعتذاري لقرائي في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية). واعتماداً على تدريبي الأكاديمي منظرّة ثقافية، فإنني أضع طنطنة فوبيا الإسلام داخل السياق السياسي والتاريخي والقانوني والمجتمعي الأوسع نطاقاً الذي انبثق منه كي أبين أن العنصرية ضد المسلمين كانت في المقام الأول أداة للنخبة في مجتمعات شتى. وهناك قدر من الجدل بشأن ما إذا كان مصطلح "فوبيا الإسلام" كافياً للإشارة إلى ظاهرة العنصرية الثقافية ضد المسلمين. وأواصل استخدام هذا المصطلح، رغم ما ينطوي عليه من بعض القيود، ليس فحسب لأنه أصبح الآن مقبولاً على نطاق واسع بل أيضاً لأنني أدرس في هذا الكتاب تحديداً الخوف (والكراهية) المتولدين ضد "الخطر الإسلامي".

ولذا يبدأ الكتاب يبحث الحالات الأولى فى الغرب التى صورَّ فيها المسلمون على أنهم يمثلون تهديداً لأوروبا. وقد حدث ذلك فى القرن الحادى عشر فى سياق الحروب الصليبية وإعادة الاستيلاء على شبه جزيرة أيبيريا. ثم يحدد ذلك الفصل العلاقة التاريخية بين الشرق والغرب بدءاً من القرن الثامن حتى القرن الثامن عشر. وهذه النظرة الطويلة المدى تتيح لنا أن نرى أن صورة المسلمين والإسلام فى أوروبا مرّت بسلسلة من التحولات والتغيرات التى كانت مقابلة للتغيرات الحاصلة فى العالمين السياسى والاجتماعى. ومن ثم، وعلى النقيض من فكرة أن العلاقة بين الشرق والغرب كانت تتسم دوماً بالتعارض أو " صدام الحضارات"، فإننى أبين أن التحيز ضد المسلمين أوجدته النخبة الحاكمة واستخدمته عمداً فى لحظات معينة. وبينما تقبل الأشخاص العاديون فى أوروبا هذه الأفكار، مثلاً أثناء الحروب الصليبية، فإنهم قاوموها أيضاً. ووجود هاتين الظاهرتين معاً محاه تقريباً باحثون مستشرقون من أمثال برنارد لويس، صاحب مصطلح " صدام الحضارات". فلويس يسطح نظريته ليحاجج بأن

الصراع بين هذين النظامين الغريمين [المسيحية والإسلام] دام نحو أربعة عشر قرناً حتى الآن. وقد بدأ بقدم الإسلام. فى القرن السابع، واستمر حتى وقتنا هذا تقريباً. وقد انطوى على سلسلة طويلة من الهجمات والهجمات المضادة، والجهاد والحروب الصليبية، وعمليات الاستيلاء وعمليات إعادة الاستيلاء^(١).

وبالنسبة للويس، العلاقة بين " الغرب المسيحي" و " الشرق المسلم" هى علاقة مدفوعة فى المقام الأول بالتعارض؛ ولذا فإن هذه السمة الأساسية من سمات التعامل بين الشرق والغرب استمرت بالضرورة فى أواخر القرن العشرين. ويفنّد الفصل الأول هذا المفهوم بوضع صورة الإسلام فى أوروبا فى سياقها التاريخى الصحيح.

ويركز الفصل الثانى على القرنين التاسع عشر والعشرين، وهى حقبة شهدت استعماراً واسع النطاق من قِبَل الدول الكبرى. فإنجلترا وفرنسا على وجه الخصوص استولتا على أجزاء كبيرة من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وبررتا عملية الاستعمار

هذه باللجوء إلى مجموعة من الأفكار تسمى " الاستشراق ". ففي القرن التاسع عشر، أقامت دول أوروبية شتى مراكز لدراسة الشرق انبثقت منها مجموعة ضخمة من المنح الدراسية للمستشرقين ترتبط ارتباطاً عضوياً بالإمبريالية والاستعمار. وأركَز بصفة رئيسية في هذا الفصل، وفي ثنايا الكتاب بوجه عام، على الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، لأن هاتين المنطقتين هما اللتان تولدت منهما إلى حد كبير، نتيجة لقربهما من أوروبا، المعلومات التي أوجدت مفردات غريبة نخبوية عن " الإسلام ". وبعد الحرب العالمية الثانية، تولت الولايات المتحدة زمام الأمر من فرنسا وإنجلترا، حرفياً وعلى سبيل الكناية على حد سواء. فقد بدأت في ممارسة هيمنتها في المنطقة ليس فقط عن طريق لغة الاستشراق المستعارة، ولكن أيضاً عن طريق مفردات التحديث الرأسمالي، التي كانت أنسب للشكل الجديد من الإمبريالية الذي بدأته الولايات المتحدة. ويتناول الفصل الثالث استمرار وجود الآراء الاستشراقية (وبعض الآراء التي تنتمي إلى القرون الوسطى) في القرن الحادي والعشرين. وهو يبيِّن خمسة أقاويل عنصرية مقبولة على أنها أقاويل صحيحة عن المسلمين تنتشر اليوم ويبين أن هذه الأكاذيب ذات تاريخ أطول.

ويتناول الباب التالي النهج الأمريكي إزاء الإسلام على المسرح السياسي. وهو يبيِّن أن الإسلاميين لم يكن يُنظر إليهم يوماً على أنهم يشكلون تهديداً للولايات المتحدة. ويتناول فصلان من الكتاب هذا التاريخ، هما الفصل الرابع والفصل السابع. ويبيِّن الفصل الرابع السياسة المتناقضة التي اتبعتها النخبة السياسية في الولايات المتحدة إزاء أحزاب الإسلام السياسي. فإبان الحرب الباردة وحتى الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩، كانت الولايات المتحدة تؤيد بحماس القوى التي يمكن أن تؤسلم الشرق الأوسط وتكون بمثابة حركة مضادة لأولئك الذين كانوا يمثلون تحدياً لسيطرتها، وهم القوميون العلمانيون واليسار. وفي فترة ما بعد سبعينيات القرن المنصرم، أقام واضعو السياسات في الولايات المتحدة تحالفات مع أولئك الإسلاميين الذين كانوا يقفون إلى

جانب الإمبريالية الأمريكية وعملوا ضد أولئك الذين كانوا يرفضون أداء هذا الدور. وحتى بعد ١١ سبتمبر، عندما صوّرَ الإسلاميون بوجه عام على أنهم عدو الولايات المتحدة اللدود، استمر النهج المذكور أنفًا.

ويبحث الفصلان الخامس والسادس ظاهرة الإسلام السياسي حسب وصفه لنفسه. ويبين الفصل الخامس أن أحزاب الإسلام السياسي ليست الامتداد الطبيعي للمجتمعات التي تسيطر عليها أغلبية مسلمة، مثلما حاجج البعض. إذ إن "العالم الإسلامي" (وهي تسمية خاطئة) شهد، مثلما حدث في المجتمعات التي توجد فيها أغلبية مسيحية، فصلا للدين عن السياسة أيضاً. وفهم هذا التاريخ يتيح لنا أن نرى أن الإسلام السياسي ظاهرة معاصرة. ويبين الفصل السادس أن التأسلم، الذي كثيراً ما يسمى الأصولية الإسلامية، هو نتاج ظروف تاريخية معينة في أواخر القرن العشرين كان ما دفع إليها أيضاً هو تنامي الأصولية المسيحية والهندوسية واليهودية.

ويتناول الفصل السابع فكر ما بعد انتهاء الحرب الباردة داخل مؤسسة السياسة الخارجية والمسار الذي أفضى إلى حقبة "الحرب على الإرهاب". ويفكك الفصل أسلوبين سائدين في التفكير في دوائر صنع السياسة، هما أسلوب المحافظين الجدد وأسلوب المعسكر الواقعي/ الليبرالي. وعلى الرغم من الاختلافات بين هذين الجناحين فيما يتعلق بمسائل الخطاب والاستراتيجية، فإنهما يتقاسمان التزاماً مشتركاً بالإمبريالية الأمريكية. فنقاط الاختلاف بينهما تدور حول أفضل السبل للحفاظ على سيطرة الولايات المتحدة وهيمنتها على العالم. بيد أن هذه الاختلافات نُحيَت جانباً في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر مباشرة، عندما تألف المحافظون/المحافظون الجدد والليبراليون المتخوفون من الإسلام لشن الحرب على الإرهاب. ومنذ ذلك الحين، كانت الولايات المتحدة على استعداد لعقد صفقات مع طالبان أو مع الإخوان المسلمين المصريين.

أما الباب الأخير في الكتاب فهو يتناول استخدامات فوبيا الإسلام في السياق الداخلي. ويبيِّن الفصل الثامن الطرائق التي جرى بها لى عُنق النظام القانوني بعد

١١ سبتمبر لمقاضاة المواطنين والمهاجرين المسلمين، لا سيما أولئك الذين ينحدرون من منطقة الشرق الأوسط وجنوب آسيا. وجددير بالذكر أن العرب والمسلمين كانوا يتعرضون للاضطهاد قبل عام ٢٠٠١ من قبل الأجهزة القانونية وكانوا يعاملون كإرهابيين محتملين. وشهدت فترة ما بعد ١١ سبتمبر التلاقى بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، مما أسفر عن تكوين صورة العدو " الإرهابى الإسلامى" الذى يجب مكافحته فى الخارج وفى الداخل. و " الرعب الأخضر" (الأخضر هو اللون الذى يرمز إلى الإسلام) المقابل مماثل لمختلف أشكال " الرعب الأحمر" المناهضة للشيوعية التى كانت من سمات السياسة الداخلية للولايات المتحدة فى القرن العشرين. وعندما تدخل دولة حرباً مع عدو خارجى، فإنها تتحول حتماً ضد أولئك الذين تعتبرهم تجسيداُ لذلك العدو داخل حدودها: وحالة المسلمين فى الولايات المتحدة الآن تشبه شبيهاً شديداً حالة الأمريكين اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية. وإحصائياً، تزيد احتمالات وفاة الأمريكين من جراء صاعقة برق عن احتمالات وفاتهم من جراء عمل "إرهابى". والتركيز على الأمريكين المسلمين " الذين أصبحوا راديكاليين" لا يخدم هدف الحفاظ على سلامة الأمريكين، بل يعمل على إثارة إحساس بالخوف وجنون الشك وهو ما يمكن عندئذ استخدامه لإخماد المعارضة وكسب التأييد لانتهاكات الحريات المدنية فى الداخل وللحروب فى الخارج.

ويبحث الفصل التاسع التحول داخلياً إلى " الإرهاب الداخلى المنشأ" فى نهاية العقد ويبين الدور الذى قام به الرئيس أوباما والحزب الديمقراطى فى إيجاد منفذ لأقصى اليمين. ويركز الفصل تحديداً على الجدل الذى تولد نتيجة للاقتراح الداعى إلى إقامة مركز إسلامى على مقربة من موقع مركز التجارة العالمى السابق. فقد أظهر الجدل بشأن " مسجد جراوند زيرو"، الذى يمثل تسمية خاطئة، العوامل الدينامية القائمة: فبينما أشعل المتخوفون من الإسلام الذين يمثلون أقصى اليمين الكراهية ضد المسلمين، أخذ الليبراليون والديمقراطيون يؤججون النيران. وكانت المحصلة النهائية هى تعزيز المتعصبين العنصريين والتمكين من إحداث طفرة فى رهاب الإسلام لم

تُشهد منذ أحداث ١١ سبتمبر. وكان هذا هو أول انتصار واضح لليمين الصهيوني المتخوف من الإسلام، الذي كان ضالماً في حملات شتى منذ أحداث ١١ سبتمبر. وأدت المناورات السياسية المتعلقة بالفوبيا الليبرالية للإسلام على قمة المجتمع إلى تمكين الفوبيا المتطرفة للإسلام لدى اليمين. وبذلك استطاع أقصى اليمين أن يستغل جو العنصرية هذا، بحيث قام ببناء صفوفه عن طريق آليات تقديم كبش فداء. كذلك، استغل الساسة فوبيا الإسلام لكسب الأصوات والنفوذ السياسى.

أما الفصل العاشر فهو يتناول تحديداً محاربي الجناح اليميني المتخوفين من الإسلام - وهم المكارثيون الجدد - وصلاتهم بالمؤسسة الأمنية، ووسائل الإعلام، والأوساط الأكاديمية، والطبقة السياسية. وحجتي التي أسوقها في هذا الفصل هي أن المتخوفين من الإسلام الذين يمثلون الجناح اليميني ليسوا أقلية هامشية بل هم جزء لا يتجزأ من هياكل المجتمع الأمريكى العام. فالمكارثيون الجدد، مثلهم مثل السيناتور جوزيف مكارثى من قبلهم، يلعبون دوراً جماعياً فى تصعيد الخوف والكراهية ضد المسلمين، بموافقة كاملة من جانب الحزبين الجمهورى والديمقراطى على حد سواء. وتاماً مثلما أصبح مكارثى ممكناً بواسطة نظام سياسى وجد أن أساليبه الغربية مفيدة فى شن الحرب الباردة، فإن المكارثيين الجدد الموجودين الآن مفيدون فى تجاوز الحدود والمضى قُدماً فى الحرب على الإرهاب.

وأخيراً، تتناول الخاتمة الطرائق التي يمكن بها مكافحة فوبيا الإسلام ومقاومتها. فأننا أحاجج بأن فوبيا الإسلام يتعلق بالسياسة لا بالدين فى حد ذاته؛ ولذا من اللازم مكافحته على تلك الأرض. وقد كان هناك قدر كبير من الأمل لدى الأمريكين المسلمين وبين شرائح من اليسار فى أن رئاسة أوباما ستخفف، إن لم تكن تقضى على، العنصرية ضد المسلمين. ومع ذلك، وكما يبين ذلك الفصل الختامى من فصول الكتاب، لم يتحقق هذا الأمل فى التغيير: فأوباما تبنى وقتن تماماً سياسات عهد بوش. وبعد سنوات من مظاهر الخيانة من جانب الحزب الديمقراطى، تكاثفت شرائح من الأمريكين المسلمين، إلى جانب حلفائهم فى الحركة المناهضة للحرب والحركات

الاجتماعية الأخرى، لمقاومة العنصرية ضد المسلمين. وبدأت حركات محلية للدفاع عن الأمريكيين المسلمين المستهدفين دون وجه حق تندمج في حركة على نطاق البلد. وربط منظمو حركة الدفاع عن حقوق المسلمين بين تحرّش إدارة شرطة نيويورك بالسود واللاتينيين وبين حملة المراقبة التي تستهدف المسلمين، مما أوجد أواصر تضامن متعدد الأعراق. واختتم بسوق الحجة القائلة بأن النجاح في إلحاق الهزيمة بفوبيا الإسلام لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق بذل جهود من هذا القبيل، وعن طريق سياسة تضامن بولى تربط بين الهجمات الداخلية على المسلمين وبين أهداف الإمبريالية.

ولم يكن من الممكن أن أختار سنة أفضل من عام ٢٠١١ للعمل في تأليف هذا الكتاب. فقد شهد الجزء الأول من ذلك العام مولد " الربيع العربي": ففي غضون أسابيع، أطاح أناس عاديون في تونس ومصر بديكتاتورين كانا مكروهين منذ أمد طويل ويحظيان بمساندة الولايات المتحدة. وجعلت التغطية الإعلامية التي تلت ذلك في الولايات المتحدة الأمريكيين يرون صوراً للعرب والمسلمين لم يشاهدوها من قبل، على الأقل على هذا النحو المتواصل. وقطع النشاط الذاتي من جانب العرب والمسلمين العاديين شوطاً طويلاً صوب تحطيم الصور النمطية الراسخة منذ أمد طويل التي تنم عن فوبيا الإسلام؛ وحمل المحتجون الموالون للنقابات في ماديسون وويسكونسن لافتات اعتصامية تقول " مراقب حسنى" و " كافح كمصرى". وفي غضون أشهر قليلة، كان ما حققه الناس في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لمكافحة الصور الكاريكاتيرية التي تنم عن فوبيا الإسلام عن طريق أنشطتهم أكبر مما حققته جميع الكتب التي كُتبت عن الموضوع. ومن ثم فإننى أهدى هذا الكتاب بكل التواضع إلى نساء الربيع العربي بالاسلات وإلى رجال الربيع العربي البواسل.

شكر وعرفان

لقد أسعدنى الحظ على مدى العقد المنصرم للتفاعل مع أشخاص أذكيا ورائعين وذوى عواطف جياشة كثيرين دفعونى إلى التفكير فى هذا الموضوع بطرائق لم أكن لأتبعها لو أننى قُمت بتأليف هذا الكتاب وأنا منعزلة فى برج عاجى. فكل سؤال وكل تعليق وكل تفاعل مع مئات من الأشخاص فى محادثات واجتماعات وحلقات عمل فى الولايات المتحدة والخارج كان له تأثيره على هذا الكتاب وشكل الكتاب. ومن ثم يجب أن أبدأ بالإعراب عن تقديرى لهم، حتى وإن لم يكن بوسعى أن أذكر كل شخص بالاسم.

ويأتى بين أولئك الذين بذلوا جهداً شاقاً ومكثفاً بشأن الكتاب، أولاً وفى المقدمة، بول داماتو، المحرر الإدارى لصحيفة *International Socialist Review*. فقد نُشرت نُسخ مبكرة من بعض فصول الكتاب فى تلك الصحيفة، واستفادت تلك النسخ من معرفة بول الواسعة بجميع الأشياء المهمة (وغير المهمة!). وقد قرأ أيضاً الفصول الأول والثانى والثالث والسابع وقدم تعليقات مفيدة. ويجب أن أتوجه بالشكر إلى أحمد شوقى، رئيس تحرير الصحيفة والمفكر الرائع الآخر، لما قدّمه من مساندة للمشروع ولوقوعه على العديد من الأخطاء التى كانت فى الكتاب. وقرأ لانس سيلفا الفصول الرابع والسابع والعاشر، وكانت معرفته المتعمقة بالمؤسسة السياسية الأمريكية لا تقدر بثمن. وقام محاميان رائعان، هما ستيف داونز وأمنة أكبر، بقراءة وتصحيح الفصل الثامن الذى يتناول الأجهزة القانونية. ونُشرت نسخة من الفصل الثالث فى صحيفة *Journal of Communication Inquiry*؛ وأعرب عن شكرى مرة أخرى للمجهولين الذين استعرضوا ذلك الفصل.

ويجب أيضاً أن أشكر يوشى فورواشى، صديقتى من الكلية التى درستُ فيها، لنشرها أول مقالة لى عن فوبيا الإسلام فى MRZine. وقد أبلغتني أن المقالة قرأها أكثر من عشرة آلاف شخص فى الأيام القليلة الأولى. واعتبرتُ ذلك مؤشراً على أننى ربما ينبغي أن أوصل الكتابة عن الموضوع. وأود أن أشكر أيضاً طالبتى هدى متولى وطالبي برايان ساكس لرغبتهما الشديدة فى مساعدتى فى البحث عن مرجع أو التأكد من صحة حقيقة. وأخيراً وليس آخراً، محررة نسختي، سارة جراى. فأى أحد عمل مع محرر جيد للنسخ يدرك مدى أهمية ذلك المحرر للعملية، وقد كانت سارة هى الأفضل. وبينما شارك كل منُ أسمىته هنا فى إعداد الكتاب وقام بتشكيله بطرائق كبرت أو صغرت، فإن أية أخطاء باقية فى الكتاب أتحمل أنا المسؤولية عنها.

وأخيراً، أتوجه بالشكر الكبير إلى جميع أصدقائى الأعزاء لما أبدوه من عطف ومساندة أثناء سنة صعبة، ولا سيما هيلين سكوت، وميجان بيهرينت، وأنجالى جاناباثى، وسرينيفاس ريدى، وأشلى سميث، وسارة جراى، وجو كليفى، وسوزان مناحم، ولى وينجراف، وسوزان دواير، وفيرجينيا هراين، ورجينا مارشى.

الفصل الأول

صور الإسلام فى أوروبا

فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر مباشرة، ارتفعت معدلات بيع القرآن ارتفاعاً هائلاً فى الولايات المتحدة. فالأشخاص الذين لم يكن ليعينهم كثيراً الإسلام اتجهوا إلى هذا الكتاب المقدس لعلهم يجدون تفسيرات لأسباب حدوث الهجمات. ولكن ما الذى دفع إلى هذا الربط التلقائى بين أفعال بعض الأفراد وديانتهم؟ إذ يمكن القول بأن أحداً لم يتجه إلى الإنجيل، سواء العهد القديم أو العهد الجديد، ليفهم السبب الذى جعل تيموثى ماكفى يفجر قنبلة فى مبنى فيدرالى فى مدينة أوكلاهوما. فلماذا إذاً يُنظر إلى العرب والمسلمين من خلال عدسة الإسلام فى المقام الأول؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نتجه إلى الصور السائدة للإسلام والمسلمين فى الغرب. ويوجه خاص، يبحث هذا الفصل الطرائق التى قامت بها النُخب الحاكمة فى أوروبا على مر التاريخ بتكوين صور معينة " للعدو المسلم " تعزيراً لمطامحها السياسية. وإيجازاً، تاريخ " الإسلام والغرب "، كما يسمى عادةً، ليس قصة نزاع دينى بل هو بالأحرى قصة نزاع وُلد من رحم تنافسات سياسية وأجندات إمبريالية متنافسة.

بيد أن هذا لا يعنى أن الالتقاء بين " الشرق " و " الغرب " كان مريباً وعدائياً دوماً. وأضع كلمة " الشرق " وكلمة " الغرب " بين أقواس تنصيص إقراراً بعدم وجود شرق أحادى الخواص، تماماً مثلما لا يوجد غرب وحيد. فالشعوب التى عاشت فى المواقع

الجغرافية التي نسميها أوروبا والشرق الأدنى في الفترة المتناولة بالدراسة في هذا الفصل، بدءاً من القرن الثامن وحتى القرن الثامن عشر، كانت تتسم بأشكال اختلاف ثقافية ولغوية وعرقية وطبقية وقومية وأشكال اختلاف أخرى. وهذا الفصل، مثله مثل الكتاب بأكمله، يتجنب الفهم التبسيطي لأوروبا والشرق الأدنى على أنهما يمثلان "نظامين غريمين" استناداً إلى الانتماء الديني.

ولذا فإن الغرب لم تكن لديه صورة واحدة فقط للإسلام بل كانت لديه صور متعددة. فعلى سبيل المثال، وجد في بعض الأحيان الأوروبيون العاديون الذين التقوا بنظرائهم في الشرق الأدنى الكثير في أولئك النظراء الذي يبعث على إعجابهم واحترامهم؛ ومع ذلك من الخطأ التقليل من شأن سيطرة الأفكار السائدة في أى مجتمع على أفراد ذلك المجتمع. فحتى بينما يمكن للأشخاص العاديين أن يقاوموا الأفكار السائدة، وبينما يقاومون تلك الأفكار بالفعل، فإن من يحكمون مجتمعاً هم الذين يحددون عادةً شروط النقاش. وعلى نفس المنوال، عندما تغير النخب أفكارها عن موضوع بعينه، فإنها تُقرز تحولاً مقابلاً في المجتمع الأوسع نطاقاً.

وقد شهدت صورة الإسلام في أوروبا سلسلة من التحولات من هذا القبيل. فالمواجهة بين الشرق والغرب، البعيدة كل البعد عن كونها "صدام حضارات" بسيطاً، هي مواجهة معقدة ودينامية ومتناقضة. ويبين هذا الفصل الظروف التاريخية المتغيرة التي أفرزت صوراً مختلفة للإسلام والمسلمين في الغرب.

الاحتكاك المبكر بالإسلام

لقد نشأ الإسلام في القرن السابع في منطقة الحجاز بشبه الجزيرة العربية، التي تضم مدينتي مكة والمدينة. وكانت هذه المنطقة مركزاً رئيسياً للنشاط التجاري، وكان العرب الذين يعيشون هناك على اتصال مستمر بجيرانهم البيزنطيين المسيحيين وجيرانهم الساسانيين الفُرس. وفي هذا السياق بدأ محمد، الذي كانت مهنته هي

التجارة، يكرس وقتاً للشؤون الروحية. وعمل مُحمَّد لحساب زوجته الثرية الأكبر منه سناً، التي كانت قوافلها تتاجر مع سوريا. ويؤمن المسلمون بأن مُحمَّداً بينما كان معتكفاً في التلال على مقربة من مكة عام ٦١٠ ظهر له الملاك جبريل لينقل له رسالة من الله. وعلى مدى العقدين التاليين (٦١٠-٦٣٢)، تلقى مُحمَّد العديد من هذه التجليات، وعلى ذلك الأساس دعا إلى دين جديد يسمى الإسلام. وكلمة الإسلام تعني "الخشوع"؛ فالمسلم هو شخص يخضع لإرادة الرب. والقرآن، وهو الكتاب المقدس للإسلام، هو تجميع لكلمة الله التي أنزلت على مُحمَّد، نبيّه.

وفي البداية كان معتنقو الإسلام قليلين للغاية. فقد قابل أهل مكة في البداية مُحمَّداً بالعداء. وكان هذا ناجماً جزئياً عن الرسالة التي أتى بها، وهى أن الله يتوقع من الناس أن يتقاسموا ثروتهم مع من هم أشد حاجة منهم. وفي عام ٦٢٢ غادر مُحمَّد وأتباعه مكة إلى المدينة، وهى رحلة يُشار إليها باسم الهجرة. وفي المدينة أصبح مُحمَّد قائداً روحياً وسياسياً واجتذب أعداداً متزايدة من المؤمنين؛ وعند وفاته فى عام ٦٣٢، كان الإسلام قد انتشر فيما يتجاوز الحجاز وإلى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية.

وفي غضون عقدين من وفاة مُحمَّد، لم تهزم جيوش المسلمين العرب حكم الساسانيين (الذين ظلوا يحكمون بلاد فارس والمناطق المجاورة لعدة قرون) فقط بل استولت أيضاً على أجزاء من أراضى الإمبراطورية البيزنطية. واستمر التوسّع فى ظل الحكم الأموى (من عام ٦٦١ حتى عام ٧٥٠) بحيث بلغ شمال أفريقيا، ثم وصل إلى أوروبا فى أوائل القرن الثامن. وبدأت عمليات غزو تلك الجيوش فى إسبانيا، واستمرت فى شبه جزيرة أيبيريا بأكملها، ووصلت إلى إيطاليا.

وهذا الغزو لأوروبا أثار الانزعاج. ولكن فى هذه المرحلة كان يُنظر إلى الغزاة المسلمين على أنهم مجرد وبال آخر، لا يختلف عن الجيوش الأخرى التي اجتاحت الحدود. ويصف نورمان دانيليل السنوات الأربعمئة الأولى من الاحتكاك (بين عامى ٧٠٠ و ١١٠٠) بأنها "عصر الجهل". فإبان تلك الفترة كان الغرب "لا يعرف شيئاً

تقريباً عن الإسلام كديانة. وبالنسبة له كان الإسلام مجرد واحد من عدد كبير من الأعداء الذين يهددون المسيحية، من كل حدب وصوب، ولم يكن لدى الغرب أى اهتمام بالتمييز بين النورمان والسلافيين والمجريين البدائيين من عبدة الأوثان وبين دين الإسلام التوحيدى ... ولا يوجد أى مؤشر على أن أحداً فى شمال أوروبا كان قد سمع حتى باسم محمد^(١).

بيد أن انعدام المعلومات هذا عن الإسلام لم يوقف النخب فى شمال أوروبا عن تكوين صورة الناس الذين أطلقت عليهم السراسنة. وأعرب القس بيد، وهو أحد علماء الإنجيل فى القرن الثامن، عن الاعتقاد السائد وقتئذ، قائلاً إن السراسنة هم نسل هاجر، إحدى زوجات إبراهيم. وكان هناك ربط بين اسماعيل ابن هاجر والسراسنة، وكان مفهوماً أن شقيقه إسحاق هو جدّ اليهود (وجدّ المسيحيين لذلك)^(٢). وعلى الرغم من هذا الارتباط العائلى، صورّ السراسنة مع ذلك فى صورة البرابرة.

ولكن فى إسبانيا تحت حكم المسلمين كان هناك مزيج من الأفكار. " فقد كانت الأكاذيب المسيئة والمهينة عن السراسنة منتشرة على نطاق واسع بين جموع المسيحيين واليهود. ولكن هذه الأكاذيب كانت ممزوجة بانطباعات أكثر موثوقية تستند إلى الاحتكاك اليومي الفعلى^(٣). وقد دام حكم المسلمين لشبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال وأجزاء من جنوب فرنسا) ثمانية عقود قبل أن يخرجهم المسيحيون فى نهاية الأمر عام ١٤٩٢، وأثناء هذه الفترة، كان هناك تسامح إزاء المسيحيين واليهود باعتبارهم " من أهل الكتاب" وكان يُسمح لهم بممارسة شعائر ديانتهم إذا دفعوا جزية. وهذا الاحتكاك المستمر خفف من الصور الأكثر عداءً.

الأندلس والحكم الإسلامى فى أوروبا

بينما كانت بقية أوروبا تمر بفترة ركود ثقافى تُعرف باسم عصور الظلام، شهدت الأندلس، وهو الاسم الذى أُطلق على شبه الجزيرة الأيبيرية تحت الحكم الإسلامى،

نمو المعرفة البشرية وتطورها. فأعمال مختلف المجتمعات العظيمة، بدءاً من الإغريق إلى الفُرس، تُرجمت إلى اللغة العربية في المكتبات الكثيرة التي أنشأها الحكام المسلمون (ليس في الأندلس فحسب بل أيضاً في بغداد في ظل الحكم العباسي). وكانت مدينة قرطبة بإسبانيا أحد المقار العظيمة للمعرفة. ففيها، كما في أماكن أخرى، تحققت أوجه تقدم هائلة في ميادين الفلسفة والطب والفلك والعمارة، بل وحتى في مجال التنمية الحضرية. وبينما كانت بقية أوروبا قابضة في الظلام، كان مواطنو قرطبة يتمتعون بأنوار الشوارع وبالمياه الجارية⁽⁴⁾.

وليس مما يبعث على الدهشة، في سياق حضارة مزدهرة، أن تتبدد المواقف السلبية تجاه "المور" (مسلمى إسبانيا). وشكا كاتب مسيحي، متحدثاً عن تغيير المواقف هذا، من أن:

المسيحيين مغمومون بقراءة قصائد العرب وقصصهم الغرامية؛ وهم يدرسون المنظرين والفلاسفة العرب، لا لحضهم بل لتكوين لغة عربية صحيحة وأنيقة [منقولة بون تعديل]. فأين هو رجل الشارع الذي يقرأ الآن التعليقات اللاتينية على الكتاب المقدس، أو الذي يدرس الأناجيل أو الأنبياء أو الرُسل؛ وأسفاه! إن المسيحيين الشبان الموهوبين يقرأون ويدرسون بحماس الكتب العربية؛ وهم يقتنون مكتبات ضخمة بتكلفة باهظة؛ ويحتقرون اللغة المسيحية باعتبارها غير جديرة بالاهتمام. وقد نسوا لغتهم. فمقابل كل شخص يستطيع أن يكتب حرفاً باللغة اللاتينية إلى صديق يوجد آلاف يستطيعون التعبير عن أنفسهم باللغة العربية بثاقبة ويكتبون قصائد بهذه اللغة أفضل من قصائد العرب أنفسهم⁽⁵⁾.

وتقول ماريا روسا مينوكال، التي درست أوجه التقاطع بين الفكر اليهودي والمسيحي والإسلامي في الأندلس، إن هذا المجتمع، ولا سيما عوالمه الفكرية والفنية، كان يتسم بـ *convivencia*، أي التعايش، في ونام نسبي. ومع أن ذلك العصر لم يكن خالياً من الصراع – مثلما أشار إلى ذلك من ينتقصون من شأن ما تقوله ماريا روسا مينوكال – فإنه بمثابة مثال للتسامح والتناغم النسبي بين أناس نوى ديانات مختلفة. بل إن Park51، وهو المركز المجتمعي الإسلامي في الجزء الجنوبي من مانهاتن الذي

أشعل بناؤه جدلاً في عام ٢٠١٠، كان يسمى أصلاً دار قرطبة إحياء لروح التعايش (convivencia) هذه^(٦). يرد مزيد من المناقشة لهذا الجدل في الفصل التاسع.

ومن الناحية الفكرية، على أوروبا أن تدين بالعرفان للباحثين في الشرق الأدنى. فإمبراطوريات إسلامية شتى لم تستهل فحسب حقبة شهدت ترجمة الأعمال العظيمة لثقافات مختلفة بل شهدت أيضاً فترة تطور. فعلى سبيل المثال، بنى الباحثون المسلمون على المفاهيم العلمية الفارسية واليونانية، ومهدت أعمالهم السبيل لعصر النهضة ولنشوء العلم الحديث^(٧).

وفي النهاية بدأت أوروبا عملية الخروج من عصور الظلام في أوائل القرن الثاني عشر، وتدافع المثقفون أفواجاً على المكتبات المختلفة في الإمبراطوريات الإسلامية لكي يستعيدوا المعرفة المفقودة. وشهدت تلك الحقبة ترجمة الأعمال العظيمة التي أنتجتها الإنسانية من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية. وخلال تلك العملية استوعب المثقفون الأوروبيون المساهمات المتعمقة التي قدمها مفكرو الشرق الأدنى. وكما كتب زاكاري لقمان،

لقد استُخدمت لمدة قرون المؤلفات العربية المترجمة عن الطب والرياضيات والفلك والعلوم الأخرى ككتب مدرسية في أوروبا العصور الوسطى، بينما كانت مؤلفات الفلاسفة المسلمين من أمثال ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧، المعروف في الغرب باسم Avicenna) وابن رشد (١١٢٦-١١٩٨، المعروف باسم Averroes)، والفلاسفة اليهود الذين كانوا يكتبون باللغة العربية بصفة رئيسية من أمثال الحاخام موسى بن ميمون (Maimonides)، (١١٣٥-١٢٠٤)، تُقرأ بشغف وتناقش وأثرت في أجيال متعددة من الفلاسفة وعلماء اللاهوت المسيحيين في القرون الوسطى^(٨).

ومع أن الكنيسة اللاتينية رفضت أعمال ابن سينا، فقد فتحت هذه المساهمات الباب لفهم أدق للإسلام وللمسلمين. وكان أحد الأشخاص الذين ساهموا مساهمة

كبيرة فى ذلك هو بطرس الناسك، الذى كان من بين أشياء أخرى قام بها إصداره تكليفاً بترجمة القرآن. ومع ذلك بينما أفرز الاطلاع على القرآن (وكذلك على نصوص عربية أخرى مترجمة) صورة للإسلام أكثر واقعية لدى غير المسلمين، فقد كانت الكنيسة تستشهد به أيضاً بطريقة انتقائية لتكوين دعاية مضادة للمسلمين^(٩).

الحروب الصليبية وإعادة الاستيلاء

لقد كانت حقبة النمو الفكرى الأوروبى فى القرن الحادى عشر مصحوبةً بنمو فى التجارة داخلياً وخارجياً. وبدأت تنبثق أسواق ومدن. ولكن فى تلك المرحلة لم يعد المسلمون عدواً واحداً بين كثيرين؛ فالغزاة الوثنيون الآخرون (من قبيل النورمان والمجريين البدائيين) الذين غزوا أوروبا المسيحية بلا هوادة فى القرنين التاسع والعاشر اعتنقوا المسيحية. وجرى إدماجهم. وكان العدو الوحيد الذى بقى هو المسلمون. لكن هذا لا يعنى أن أوروبا كانت موحدةً وتحيا فى وئام. بل أصبح الإسلام، بالأحرى، هو "الآخر" المناسب لحشد الدعم لما يطمح إليه حكّام شتى من غزو للأراضى. وفى إسبانيا، بدأ الحكام المسيحيون فى الشمال حرباً لاستعادة شبه الجزيرة الأيبيرية من "العدو المسلم" فى ما أصبح يُعرف باسم إعادة الاستيلاء (reconquest).

وفى الشرق، تعرضت الإمبراطورية البيزنطية المسيحية (أو روما الشرقية) لسلسلة من الهزائم على أيدى الأتراك السلاجقة المسلمين. وكتب الإمبراطور رسالة إلى البابا أوربان الثانى يلتمس فيها المساعدة من أوروبا ضد الأتراك. ولقى نداؤه استجابة. فقد شنَّ أوربان حرباً مقدسة (تُعرف باسم الحروب الصليبية) فى عام ١٠٩٥ ودعا جميع المسيحيين فى أوروبا إلى الاتحاد ومحاربة "أعداء الله". وهذه التهمة لم تكن تتعلق ببساطة، أو حتى فى المقام الأول، بالديانة. فكما يوضّح جون إزبوريتو، "بالنسبة للبابا، كانت الدعوة إلى الدفاع عن الدين وبيت المقدس تتيح فرصة

مثالية لكسب الاعتراف بالسلطة البابوية وبورها في إضفاء الشرعية على الحكام الديويين، وإعادة توحيد الكنيستين الشرقية (اليونانية) والغربية (اللاتينية)^(١٠). وأصبحت الديانة هي الستار الذي كانت تدور وراءه الصراعات الاجتماعية والاقتصادية. ومن المؤكد أن المسلمين لم يكونوا هم وحدهم الذين قتلهم الصليبيون: فقد جرت مذابح ممنهجة ضد اليهود في أوروبا، وكان المسيحيون في الإمبراطورية البيزنطية يُذبحون أيضاً بلا رحمة. وإضافة إلى ذلك، في مراحل شتى تعاون المسلمون والمسيحيون معاً، وانقلب كل منهما على معسكره، من منطلق المصلحة الذاتية.

وقد استجاب حكام أوروبا للدعوة إلى الحرب المقدسة لأسباب مختلفة. فالحكام والفُرسان والتجار المسيحيون كانوا مدفوعين بالمزايا السياسية والعسكرية والاقتصادية التي كانت ستنتجم عن إقامة مملكة لاتينية في الشرق الأوسط^(١١). وإضافة إلى ذلك، كانت أوروبا تتكون من عدد من الأنظمة الإقطاعية المتنافسة التي تحارب بعضها بعضاً باستمرار. وكانت الحروب الصليبية بمثابة وسيلة للحد من هذا الصراع الأوروبي الداخلي وصرف الانتباه إلى عدو خارجي. وعندما أطلق أوربان الحرب الصليبية الأولى، فإنه أعلن ما يلي: "دع أولئك ... الذين اعتادوا على شن حرب خاصة غاشمة على المؤمنين يزحفون على غير النصرانيين. ... دع أولئك الذين كانوا لصوصاً منذ أمد طويل يصبحون الآن من جُند المسيح. دع أولئك الذين حاربوا يوماً ما أشقائهم وأقاربهم يحاربون الآن عن حق ضد البرابرة. دع أولئك الذين كانوا مرتزقة يتقاضون بضع قطع من الفضة ينالون الآن جائزة أبدية"^(١٢). فباستخدام الدين لترسيخ الهوية والولاء، سعت البابوية إلى إيجاد أوروبا مسيحية موحدة يمكن أن تملك سلطة روحية عليها. بيد أن أولئك الذين استجابوا لهذا النداء وانضموا إلى الجيوش الصليبية كانوا مدفوعين بكل شيء بدءاً من الحماسة الدينية وانتهاءً بثمار النهب.

ومن ثم فإن صورة العدو المسلم وصورة الإسلام كديانة شيطانية بدأت تبرز في هذا السياق في أواخر القرن الحادي عشر. وكان حشد السكان من أجل شن حرب

مقدسة يقتضى حججاً دينية؛ وأصبح من الضروري اكتساب معلومات عن الإسلام وتعاليمه وحياة النبي مُحَمَّد وما إلى ذلك من أجل سَوِّق الحجج ضدها. وهنا مثَّلت أعمال بطرس الناسك وآخرين مادة مفيدة للكنيسة لمهاجمة الإسلام على أنه هرطقة ولهاجمة مُحَمَّد على أنه نبي زائف.

وكان ما جابهه المسيحيون آنذاك هو ديانة مماثلة لديانتهم ولكنها تطعن في تفوِّق نظامهم العقائدى. فالله المسيحية هو نفس إله إبراهيم الذى يُعبد فى الإسلام، ولكن المسيحية تزعم أن تجسَّد الرب فى يسوع يمثِّل نهاية الآيات الربانية ونهاية النبوة. والإسلام يقول نفس الشيء ولكنه يؤكد أن مُحَمَّدًا هو آخر نبي تلقى كلمة الرب الأخيرة والصحيحة.

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى واجهت فيها المسيحية تحدياً من هذا القبيل. فاليهود، كذلك، لا يقبلون النسخة المسيحية من الآيات الربانية ولا يقبلون نبوة المسيح. بيد أن اليهود لم يكونوا يدخلون بجيوش فى العواصم المسيحية. ولم يكونوا يشكلون تهديداً للنُّخب على النحو الذى كانت الإمبراطوريات الإسلامية تشكله. ومن ثم، كما يقول ريتشارد ساذرن Richavrd Southern، كان من السهل على المسيحية ألا تعير التحدى اليهودى انتباهها بسبب "تدنى مكانة اليهود اقتصادياً واجتماعياً"^(١٣). وبعبارة أخرى، لم تكن لدى اليهود السلطة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية التى تمكِّنهم من تهديد العالم المسيحى. وعلاوة على ذلك، كان بإمكان المسيحيين الحصول على "مجموعة هائلة ومحرجة من المواد للرد على قضية اليهود"^(١٤). وهذه المواد تُجمع الآن من أجل القضية المضادة للإسلام.

وقد أجرى نورمان دانييل Norman Daniel واحدة من أكثر الدراسات موثوقة عن صورة الإسلام التى أوجدها النخبة الثقافية فى الغرب منذ أوائل القرن الثانى عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر فكتابه "الإسلام والغرب" يبيِّن أن أهم ما رد بين خطوط هجومهم المختلفة هو الحجة القائلة بأن آيات الإسلام كانت "وحيًا زائفًا، استناداً ليس فحسب إلى الكتب المقدسة المسيحية بل أيضاً إلى فكرة أن مُحَمَّدًا لا يمكن

أن يكون نبياً. وبدلاً من ذلك، صورَ مُحَمَّدٌ على أنه "شخص متواضع ووثني النشأة، تمكّن من أن يكتسب سلطة، وحافظ عليها بآيات مدّعاة، ونشرها بواسطة العنف وبواسطة السماح لآخرين بنفس الممارسات الفاسقة التي انغمس فيها"^(١٥). وذرى في تلك المرحلة الربط بين الإسلام والعنف، وهو موضوع سيتكرر على مر القرون. وكان المحور هنا هو أن أولئك الذين لا يخضعون لسحر مُحَمَّدٍ، مثلما خضع العرب "السُدُج"، إما يتم إخضاعهم بالقوة العنيفة أو إغراؤهم بالانغماس في الشهوات الجنسية.

فما الأسس التي استندت إليها الكنيسة في زعمها أن الإسلام اجتذب أتباعاً من خلال الانحراف والضلال الجنسيين؟ بالنسبة للمسيحيين، كان الزواج يعني قراناً مع شريك واحد، لا ينفصم إلا بالموت، بحيث كانوا يشيرون إلى تعدد زوجات مُحَمَّدٍ على أنه دليل على انجرافه. (بيد أن تعدد زوجات إبراهيم كان خارج النقاش). فالإسلام سمح للرجال بأربع زوجات، وسمح بالطلاق، بل وسمح للمرأة المطلقة بأن تتزوج مرة أخرى، وكان المسيحيون ينظرون إلى ذلك بهلع. وعلى مستوى الباحثين وعلى المستوى الشعبي على حد سواء، بدأت تنتشر قصص سامة (وخيالية تماماً) من مختلف الأنواع:

قيل إن مُحَمَّدًا ساحر ومشعوذ استخدم قدراته الشريرة لإنتاج معجزات زائفة وإغواء الرجال بذلك على اعتناق عقائده الزائفة؛ وإنه قس مسيحي مرتد، بل وربما كان كاردينالاً، دفعته شهوته المحبطة للسلطة إلى السعى إلى الانتقام من الكنيسة بنشر تعاليمه الخبيثة؛ وإنه منحل جنسياً، وزانٍ، ويدعو إلى الفسق لكي يُوقع الرجال في الفجور؛ وإن وفاته كانت لا تقل إثارة للاشمئزاز والخزي عن حياته، لأن الكلاب التهمت، أو الخنازير خنقته أثناء نوبة صرع^(١٦).

وبدأت هذه القصص الشائنة والمشكوك في صحتها تنتشر بدون حاجة فيما يبدو إلى دليل من أي نوع كان. (وما زال من الممكن الآن أن نجد بعضها ينشره أشخاص من أمثال جلين بيك.) وكانت النتيجة هي أن الإسلام تعرّض للتحقير وصورَ على أنه عنو خطير.

وكان الشيء الخطير بالذات بشأن هذا العدو هو أنه لم يكن يستولى فحسب على أراضٍ مسيحية بل الأسوأ من ذلك أنه كان ينجح في تحويل الناس إلى الإسلام. فعندما اجتاحت جيوش المسلمين أراضٍ أوروبية بدءاً من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر، اعتنق رعايا كثيرون من غير المسلمين (من بينهم مسيحيون ويهود) الإسلام. فعلى سبيل المثال، رحّب بالحكم الإسلامى المسيحيون غير الأرثوذكس الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد من الكنيسة اليونانية. وتحوّل كثيرون منهم إلى الإسلام على مدى عدة قرون.

ولذا صورَّ الإسلام على أنه تهديد خطير يجب القضاء عليه وكان هذا معناه هو تعبئة جيش لاستعادة الأرض المقدسة، وتخليص إسبانيا من المتطلفين، وإعادة الهيمنة المسيحية. واقتضت تلك المهمة نشر أنواع الصور الشيطانية والسلبية تماماً والتي وردت مناقشتها أعلاه. ومع ذلك، حتى إبان تلك الفترة، كانت توجد جيوب من عمليات التصوير والعلاقات الأكثر تعاطفًا . وكانت ثقافة الأندلس استثناء من هذا القبيل، وكذلك الموقف الذى كان سائدًا فى أوساط الباحثين المسيحيين فى بقية أوروبا فى أعقاب حقبة إعادة الترجمة.

وإضافة إلى ذلك، أفرز الاتصال المباشر مع المسلمين صوراً مضادة للصور التى كانت سائدة. فالتجارة بين التجار المسلمين والتجار المسيحيين كانت على الأقل تجرى بناءً على الاحترام المتبادل، وإن لم تكن ودية. كذلك، فى ميدان القتال، كان الصليبيون ينقدون غير النصرانيين ولكنهم كانوا يمتدحون قدراتهم الحربية وكانوا يروون قصصاً عن شجاعة المحاربين المسلمين^(١٧). وكان صلاح الدين، الذى استولى مرة أخرى على بيت المقدس من الصليبيين ولذا كان يُعتبر عدوًّا للوداء، مثار إعجاب لفروسيته. وكُتبت عنه قصص كثيرة، وكان اسمه يُطلق على أطفال أوروبيين لعدة أجيال بعد ذلك. بيد أن معظم باحثى العصور الوسطى يتفقون على أن النظرة السائدة إلى الإسلام والمسلمين أثناء تلك الحقبة كانت سلبية للغاية. وإيجازاً، كانت الروح " الصليبية " - أى مزيج الغزو العسكرى مع الحماسة الدينية - هى التى طبعت المواقف الأوروبية وقتئذ.

من الجدل إلى اللامبالاة

فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولما بدأت أوروبا تخرج من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، تغير تصويرها الجدلى للإسلام. ومع الاضمحلال المتزايد لرؤية الإسلام كتهديد للوجود، زحف موقف اللامبالاة. وهذا التحول كان نتاج عدد من التطورات. أولاً، بدأ ازدياد انهيار مشروع أوروبا المسيحية الموحدة الذى لم يتحقق قط تماماً فى حوالى هذا الوقت نتيجة لتصادم القومية وعمليات تحديد الهوية الأولية. وبدأ المسيحيون يعرفون أنفسهم بأنهم فرنسيون أو انجليز أو إسبان وما إلى ذلك. وكما كتب مكسيم رودنسون Maxime Rodinson، "حلت محل خطة توسع أوروبا مسيحية موحدة مرة واحدة وإلى الأبد [بدءاً من حوالى القرن الرابع عشر] مشاريع سياسية قومية".^(١٨) وهذا الانقسام الداخلى فيما بين المسيحيين صرف الاهتمام عن عدوهم الخارجى. ثانياً، أدت نهضة الثقافة الأوروبية إلى زيادة إضعاف سلطة الكنيسة، فالكنيسة، التى كانت المصدر الأساسى للحماسة الدينية ضد المسلمين، لم تعد قادرة على تأجيج حروب مقدسة؛ وانتهت الحروب الصليبية. ثالثاً، كان المغول قد دخلوا فى الصورة وأصبحوا يشكلون تهديداً لأوروبا. وكان هذا الاعتراف بالأراضى التى تتجاوز أوروبا، وبالتهديدات التى تتجاوز المسلمين، يعنى أن العالم لم يعد من الممكن أن ينقسم بشكل واضح إلى مسيحيين مقابل مسلمين بطريقة ضيقة وتبسيطية. وأدى التلاقى بين هذه العوامل إلى نظرة إلى الإسلام أكثر تسامحاً^(١٩).

ولكن هذه الحقيقة، التى اتسمت بعلاقات سلمية نسبياً بين الشرق والغرب، وازدهار التجارة، ووجود موقف لا مبالاة عام، سرعان ما خرقها عدو جديد هو: الإمبراطورية العثمانية البازغة.

العثمانيون

انقلب عثمان، مؤسس الإمبراطورية العثمانية، على الحكم المغولى فى أواخر القرن الثالث عشر وبدأ عهداً من الغزو. وفى القرن الذى تلاه، اجتاحت الجيوش

العثمانية منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط ومنطقة البلقان. وتاماً مثلما حدث أثناء الغزوات المبكرة لجيوش المسلمين في القرنين السابع والثامن، رحب بعض الناس في الدول المسيحية بالأتراك من أجل الإفلات من الاضطهاد الديني، هذه المرة على أيدي كنيسة الروم الكاثوليك. وكانت السياسة العثمانية المتمثلة في مبدأ "عش ودع الآخرين يعيشون" تتناقض مع التعصب الذي واجهته أقليات المسيحيين الأرثوذكس والأقليات الدينية الأخرى تحت حكم الكنيسة. وعبر الفلاحون البلقان عن هذه الحالة المزاجية بقولهم "عمامة التركي أفضل من تاج البابا"^(٢٠).

وفي عام ١٤٥٢ استولى العثمانيون على القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وأنهوا الحكم المسيحي في الشرق. ثم وجهوا اهتمامهم إلى أجزاء أخرى من أوروبا، بحيث غزوا بلجراد في عام ١٥٢٢، وهذه الغزوات في عمق أوروبا جعلت العدو المسلم الجديد في بؤرة التركيز. ولكن هذه المرة كان يُنظر إلى العدو من ناحية علمانية ويُعتبر تهديداً سياسياً أكثر من كونه تهديداً دينياً (حتى وإن أصبح مصطلح "تركي" مرادفاً لكلمة "مسلم"). وتلت ذلك حقبتان: الأولى حقبة الإعجاب بالأعداء العثمانيين الجدد، الذين كان يُنظر إليهم على أنهم قوة أوروبية عظمى؛ والثانية، حقبة انقلاب تام لهذه الحالة المزاجية، عندما بدأ العثمانيون فترة تراجع بالنسبة إلى أوروبا.

المرحلة الأولى: الآراء المتناقضة بشأن العثمانيين

أصبح يُنظر في هذه المرحلة إلى العدو المسلم الجديد على أنه جزء من أوروبا لا على أنه طرف خارجي. ولم يكن يُنظر إلى التهديد الذي يشكله ذلك العدو بالنسبة لجيرانه على أنه تهديد ديني؛ بل كان يُنظر إليه بالأحرى على أنه تهديد تمثله دولة أوروبية قوية، يمكن أن يقال إنها أقوى دولة في أوروبا. ففي حقيقة الأمر، كان الأتراك يُنظر إليهم إلى حد كبير على أنهم أوروبيون عرقياً. وأشارت إحدى النظريات إلى أنهم، مثل الفرنسيين والإيطاليين، من نسل أهالي طروادة.^(٢١) وهذه النظرية تنطوي

على قدر من الشبه بقصة إبراهيم وهاجر من حيث إن المسلمين كان يُنظر إليهم على أنهم يشكلون جزءاً من تاريخ أوروبا؛ وحتى مع كونهم أعداء فإنهم لا يزالون جزءاً من الأسرة، كما يمكن أن يقال.

وهذه النظريات عن نسب العثمانيين الأوروبي كان يتقبلها البعض ويرفضها آخرون. ومع ذلك، أقامت شخصيات أوروبية شتى تحالفات مع العثمانيين. فقد تحالف ملك فرنسا مع سلطان تركيا ضد إمبراطورية هابسبورج؛ وأقام البابا تحالفاً كذلك معارضاً لخطط إمبراطور هابسبورج شن حرب صليبية على العثمانيين^(٢٢). ووجد اليهود الفارون من أوروبا، لا سيما بعد طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢، وطناً لهم في الإمبراطورية العثمانية. وكان هذا يصدق أيضاً على البروتستانت والمسيحيين المنشقين الآخرين الذين يسعون إلى الإفلات من الاضطهاد الكاثوليكي. وإيجازاً، وجد التنوع الذي اتسمت به الأندلس انعكاساً له في الأراضي العثمانية؛ ولم يعيش المسيحيون واليهود في ظل التسامح فحسب بل شهدوا رخاءً.

أما أوروبا، على العكس من ذلك، فقد كانت تشهد حقبة صراع مرير وعنيف بين البروتستانت والكاثوليك. فقد شهد النصف الأول من القرن السادس عشر ظهور حركة الإصلاح. وهذا الشقاق داخل المسيحية أوجد مناخاً أصبح الإسلام يُنظر إليه فيه على أنه انقسام آخر فحسب، وإن يكن خطيراً. ومن ثم، حتى عندما كانت توجد لدى مارتن لوثر، الذي قاد حركة الإصلاح البروتستانتية، أشياء سلبية يقولها عن الإسلام، فإنه كان يعتبر الفاتيكان هو العدو الأكبر. وبالنسبة للوثر، كان لا يمكن هزيمة الإسلام إلا بعد هزيمة الكاثوليكية^(٢٣). أما المدافعون عن الكاثوليكية فقد كانوا يهاجمون البروتستانتية بمقارنتها بالإسلام، بحيث كانوا يعتبرونها أسوأ من الإسلام في بعض الحالات. وفي ظل ذلك، أصبح العثمانيون ضالعين في هذا الصراع إلى جانب البروتستانت ضد عدوهم المشترك، أسرة هابسبورج، التي كانت المدافعة الأساسية عن الكاثوليكية.

وقد كانت صورة العثمانيين فى تلك الحقبة متناقضة. فمن ناحية، كان الأدب الشعبى يصور العثمانيين على أنهم متوحشون ويتسمون بالعنف، اعتماداً فى بعض النواحي على التصوير الكاريكاتيرى الأسبق للمسلمين، وكان هناك أيضاً انبهار مرضى بحياة الأتراك الجنسية وفضول شديد بشأن الحريم. ولكن، من الناحية الأخرى، كان هناك فى أوساط من كانوا يفهمون نظام الإدارة العثمانى تقدير لكفاءة ذلك النظام فضلاً عن تقدير لعظمة الإمبراطورية بوجه عام.

وشهد القرن السادس عشر أيضاً ظهور بعض الدراسات الأولى عن الشرق التى كانت نبرتها أكثر انفتاحاً وأكثر ابتعاداً عن التغرّص. وعلى المستوى الأعم، أدى عصر النهضة إلى الثورة العلمية التى شهدها القرنان السادس عشر والسابع عشر، والتى كانت بمثابة تحول إلى دراسة عالم الطبيعة من خلال استخدام الطرق العملية والعلمية (على العكس من الطرق الدينية). وقد ترك ذلك أثراً على كيفية دراسة الإسلام فى مراكز شرقية شتى أنشئت حديثاً فى باريس وأكسفورد. ويوضح رودنسون أن هذا " الفهم الأكثر موضوعية للشرق الأوسط" انبثق من عوامل من قبيل " القرب الجغرافى، والعلاقات السياسية الوثيقة، وتزايد التفاعلات الاقتصادية، [و] تزايد عدد المسافرين وأعضاء البعثات التبشيرية الذين سافروا إلى الشرق" (٢٤).

ولكن الإمبراطورية العثمانية بدأت تتداعى، لا سيما بعد هزيمتها فى فيينا عام ١٦٨٣، وتلاشى موقف الإعجاب بها، بل وحتى موقف التسامح والحياد إزاءها، الذى كانت تنعم به.

المرحلة الثانية: الاستبداد الشرقى

أثناء القرن السابع عشر بدأت الإمبراطورية العثمانية تفقد تفوقها العسكرى على أوروبا، ووجد الرحالة الأوروبيون إلى الأراضى العثمانية ما يبعث على الانتقاد أكثر مما يبعث على الاحترام. ويقول زاكارى لقمان إن الأتراك أصبحوا فى تلك المرحلة

يصورون على أنهم " أجلاف وجهلة وغير جديرين بالاحترام وعديمو الأخلاق وغير فعالين وفاسدون وغير عقلانيين. وتلاشت الصورة الأقدم للدولة العثمانية كدولة تتسم بالكفاءة والعدل والفضيلة والتسامح وقائمة على الجدارة، وحل محلها تصوير لتلك الدولة على أنها فاسدة وقمعية ووحشية"^(٢٥). وقد كان هذا، جزئياً، دقيقاً: فالنظام العثماني شهد في حقيقة الأمر تدهوراً، كما وصفه مؤرخوه أنفسهم.

ولكن احتقار أوروبا للشرق كان مرده بدرجة أكبر إلى الصورة الذاتية الجديدة لأوروبا. فالمفكرون الأوروبيون أثناء عصر النهضة وبعده كانوا يتخيلون تاريخهم في شكل خط متصل لم ينقطع من اليونان وروما القديمتين حتى الوقت الحاضر، بحيث كانوا يستبعدون في تلك العملية تاريخ أوروبا الإسلامي. وأصبحت أوروبا تتخيل نفسها في صورة المتفوقة، وريثة نظم الإغريق والرومان السياسية الديمقراطية، والشديدة الاختلاف بالتالي عن النظم الاستبدادية التي أصبحت تعتبرها سمة من سمات الشرق. وعلى العكس من الغرب الديمقراطي، أصبح يُنظر إلى العثمانيين على أنهم مظهر " الاستبداد الآسيوي". ولذا كان اندماج العثمانيين في أوروبا قصير الأمد، ومرة أخرى أصبح العدو المسلم هو " الآخر" بالنسبة لأوروبا.

وقد أوضح الكاتب الفرنسي مونتيسكيو، في عام ١٧٤٨، أن آسيا كان مقدراً لها أن تكون استبدادية بسبب مناخها الحار الذي أثر على أمزجة سكانها. وقال إن الناس في المناطق الأكثر برودة من قبيل أوروبا يكونون عادةً نشطين ومن ثم أكثر شجاعة، بينما في أجواء آسيا الأدفاً يكون الناس غير نشطين ومن ثم يكونون أذلاء ومخنتين^(٢٦). ويتبع ذلك أن الديمقراطية موطنها هو المناطق الأولى، في حين أن شعوب الشرق الذليلة ليست قادرة إلا على الاستبداد. ومع أن نظرية مونتيسكيو الغربية والتي تبعت على السخرية أصبحت عتيقة منذ أمد طويل، فإن فكرة " الاستبداد الشرقي" والاعتقاد بأن شعوب الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من الأنسب لها النظم الديكتاتورية قد داما.

ومنشأ هذه الأكاذوبة يستند إلى تحوّل أوروبا وصعودها لاحقاً إلى مرحلة السيطرة العالمية. فحتى عام ١٥٠٠ أو نحو ذلك، كانت أوروبا جهة فاعلة هامشية على المسرح العالمي بالنسبة إلى القوى الكبرى الأخرى (من قبيل العثمانيين والصينيين والهنود). وقد تغلبت على تخلفها ويرجع الفضل في ذلك إلى حد ليس بالقليل إلى صعود الرأسمالية. ومسألة أصول الرأسمالية هي قضية معقّدة وتُنَاقش بشكل محموم، ولن أناقشها هنا. فبالغرض كتابنا هذا، دعوني أقل إن نمو الرأسمالية أضفى مزايا شتى - تكنولوجية وعسكرية واتصالية وما إلى ذلك - أدت أولاً إلى سيطرة أوروبا على التجارة العالمية ثم أدت في نهاية المطاف إلى الاستعمار والإمبريالية.

ويحلول القرن الثامن عشر، فقد العثمانيون الذين كانوا لا يُقهرُونَ يوماً ما قدرتهم حتى على مقاومة الغزوات الأوروبية لأراضيهم. وشهد "العالم الإسلامي"، الذي لم يعد يشكل تهديداً عسكرياً، تحولاً في صورته مرة أخرى، هذه المرة إلى عالم الغرائب. ففي أوائل القرن الثامن عشر، تُرجمت مجموعة "ألف ليلة وليلة" الملحمية من القصص الفولكلورية إلى اللغات الأوروبية. فقصصها عن "عالم المسلمين" كأرض غرائبية وخيالية مأهولة بالجن والحريم وجميع الأشياء الساحرة والمسلية بالنسبة للغربيين كان لها أثر كبير على نظرة الأوروبيين إلى الشرق الأدنى. وأثناء عصر التنوير، حدث تحول مرة أخرى في هذه النظرة عندما بدأت تنبثق بعض الروايات الدقيقة عن الإسلام.

الحركة الرومانسية والتنوير

كان نمو الحركة الرومانسية، وهي حركة فنية وفلسفية ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، هو الذي أوجع الاتجاه نحو ما هو غرائبي. ويمكن العثور على صورة الشرق الغرائبي المرتبطة بـ "الحسية، والوعد، والرعب، والسمو، والمتعة

الرعوية، والطاقة المكثفة في أعمال الموسيقيين والرسامين والروائيين والفلاسفة بدءاً من موزارت إلى بايرون وهيغو وجيته^(٢٧)، وإحفاقاً للحق، لم يكن الرومانسيون ينظرون إلى الشرق فحسب بحثاً عما هو غرائبي، بل كانوا ينظرون أيضاً إلى ماضيهم، مستفيدين من قصص العصر القوطي وقصص البرابرة الأوروبيين. ويلخص رودنسون الرؤية الرومانسية للشرق بقوله إنها " تتسم بمناظر جبارة وثرية في مجموعة جامحة من الألوان؛ والحريم وسرايات السلطان؛ والأجساد المقطوعة الرأس، والنساء اللائى يُقذف بهن في البوسفور داخل أجولة؛ والفلكات والمراكب الشراعية التى ترفع علماً عليه صورة الهلال؛ والمآذن المستديرة ذات القباب التركوازية والبيضاء التى ترتفع إلى عنان السماء؛ والوزراء، والمخصيين؛ والينابيع المنعشة الموجودة تحت أشجار النخيل؛ والجوارى بطوقهن المشقوقة؛ والأسيرات اللائى يُجبرن على الخضوع لآسيريهن الشبقيين"^(٢٨).

وصورة الشرق الجامحة الحسية الغرائبية هذه ستتعايش مع تصوير أدق للإسلام أثناء حركة التنوير، تلك الحركة الفلسفية التى ساقطت حججاً ضد العقيدة المسيحية الدوجماتية ودعت إلى اتباع المنطق والعقلانية كوسيلة لتحقيق التقدم البشرى. إلا أن الحركة الرومانسية رفضت تأكيد الفلاسفة التنويريين على العقلانية وأعطت قيمة بدلاً من ذلك للعاطفة والحدس والخيال. وبالنسبة للشعراء والفلاسفة والروائيين والرسامين الرومانسيين كان الشرق مصدراً لحكمة عظيمة ولتقدم روحى. وعكسوا هذه الصورة كنعيقض لمجتمعاتهم، التى فقدت خصائصها فى ظل التدافع الجنونى على التصنيع والحداثة الرأسالية، ونهلوا من الأساليب الشرقية فى التعبير الأدبى والمعمار ومجالات إبداعية أخرى من هذا القبيل.

وشهد عصر التنوير مولد دراسات عن الإسلام كانت واقعية ومتعاطفة على حد سواء^(٢٩). فعلى سبيل المثال، على العكس من شيطنة القرون الوسطى الشريرة لمُحمَّد، نشر فلاسفة متعددون دعايات تقول إن مُحمَّداً لم يكن دجالاً. فقد دافع فولتير عن مُحمَّد باعتباره مفكراً عظيماً ومؤسس ديانة عقلانية حتى مع أنه (وغيره من منتقدي

الديانة المنظمة الذين ينتمون إلى حركة التنوير) أذان الإسلام بفظاظة إلى حد ما. ويفسر دانييل مواقف فولتير المتناقضة هذه بقوله: "علينا أن نقول إن فولتير كان يظن في البداية أن الهجوم على الإسلام مفيد للهجوم على الدين بوجه عام؛ وتبينت له ميزة التعامل مع الحقائق بطريقة أقل انفعالا، من أجل تزكية عقيدة الطبيعة على حساب العقيدة المسيحية"^(٣٠)، ومن المؤكد أن حركة التنوير أفرزت آراء متناقضة بشأن الإسلام والمسلمين.

وكما يرد بالتفصيل في الفصل التالي، بدأت تظهر النظريات العنصرية أثناء تلك الحقبة، وأعرب كثيرون من كبار مشاعل حركة التنوير - من قبيل مونتيسكيو وكانت وهيجل وهيوم - عن آراء تُعتبر الآن آراء عنصرية بشكل صادم. ويقول الفيلسوف إمانويل شوكوودي إيزي، في مقتطفاته الأدبية عن العرق في فلسفة حركة التنوير، إن بعض المفكرين كانوا عنصريين بلا ريب بيد أن آخرين طرحوا نظريات عن العرق كانت محايدة، بينما كان آخرون مناهضين للتحيز العرقى. وكان مفكرو حركة التنوير يصنفون البشر في أعراق وأفرزوا في تلك العملية نظاماً أصبح هناك ربط فيه بين بياض البشرة والتفوق الثقافى والعرقى، بينما كان من المريح أن يُنسب "اللامنطق والوحشية إلى غير البيض"^(٣١). وفيما يتعلق بالمسلمين، يقول رودنسون إن "القرن الثامن عشر كان ينظر إلى الشرق الإسلامى بأعين أخوية ومتفهمة؛ وأثناء عصر التنوير، لم يكن المسلمون هم وحدهم الذين كانوا يُعتبرون مختلفين عن الآخرين"^(٣٢). وقد حدث تحول في هذا الموقف مع نشوء الاستعمار الأوروبى ومولد الاستشراق، وهو مجموعة جديدة من الأفكار التى استُخدمت لتبرير الغزو. وسنتطرق إلى ذلك فى الفصل التالى.

* * *

لقد حدد هذا الفصل الخطوط العامة لبعض التحولات الأساسية فى الصورة الأوروبية للإسلام بدءاً من القرن الثامن حتى القرن الثامن عشر. وتبين لنا هذه الرحلة

عبر التاريخ أن غزوات المسلمين في أوروبا كانت، خلال الفترة ما بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر، لا يُنظر إليها نظرة مختلفة عن الغزوات الوثنية الأخرى. بل إن السراسنة كان يُعتقد أنهم من نسل إبراهيم وأنهم بالتالى ينحدرون من نفس "الأسرة" التى ينحدر منها المسيحيون واليهود. ولكن حالما أُدمج الوثنيون الآخرون فى أوروبا المسيحية، أصبح العدو المسلم القوى هو "أخر" يجب القضاء عليه من خلال حروب مقدسة. وسعت البابوية إلى توحيد أوروبا المنقسمة تحت لواء المسيحية كسبيل لتعزيز سلطتها.

ومع ذلك، حتى فى القرن الحادى عشر، عندما كانت الكنيسة تنتشر صوراً عدائية للإسلام لحشد المسيحيين من أجل الحروب الصليبية وإعادة الاستيلاء على شبه جزيرة أيبيريا، ظهرت صورة إيجابية أيضاً من خلال أعمال الباحثين الأوربيين. فعندما بدأوا فى إعادة ترجمة الأعمال العظيمة التى أفرزتها المعرفة البشرية، فإنهم أصبحوا يقدرون مساهمات الباحثين الشرقيين. وحُكم المسلمين فى الأندلس لم يساعد فحسب على تحقيق قفزات فكرية هائلة، بل كان أيضاً حقبة تعايش (convivencia) أو تسامح عاش فيها المسلمون والمسيحيون فى وئام نسبي.

وعندما بدأت أوروبا، الموحدة روحياً تحت قيادة الفاتيكان، تنقسم على أساس القوميات، ابتعد التركيز عن العدو المسلم. ولذا شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر ابتعاداً عن الجدل واتجهاً نحو اللامبالاة، إلى أن بدأت الإمبراطورية العثمانية تتوغل فى أوروبا فى أوائل القرن السادس عشر، إيذاناً بتهديد جديد. ولكن العدو كان هذه المرة يُنظر إليه على أنه تهديد علمانى وسياسى أكثر من كونه تهديداً دينياً. وكان العثمانيون يصورون على أنهم أوربيون تقريباً ويحظون بالإعجاب لإنجازاتهم الكثيرة؛ وأقام الحكام الأوربيون تحالفات معهم ضد منافسيهم الأوربيين الآخرين. ومن المؤكد أن تحالفات المصلحة هذه التى تجاوزت الخطوط الدينية تعود حتى إلى حقبة الحروب الصليبية.

وقد حدث التحول التالي في التصور عندما نهضت أوروبا من كبوتها التاريخية التي دامت فترة طويلة بالنسبة إلى القوى الأخرى لتبدأ فترة صعود. وأدى صعود أوروبا وتراجع العثمانيين النسبي إلى تحويل الإعجاب إلى احتقار. وأصبح يُنظر إلى الشرق بوجه عام وإلى العثمانيين بوجه خاص على أنهم أدنى من الغرب وغير قادرين إلا على إفران مجتمعات استبدادية. ثم تحولت هذه الصورة الجدلية إلى صورة غرائبية أثناء الحقبة الرومانسية. وتعايشت هذه الفانتازيا مع رؤى أدق للإسلام ظهرت أثناء عصر التنوير.

وإيجازاً، على العكس من أكنوية أن الغرب والشرق كانا دائماً في حالة صراع، فإن الصراع تعايش في حقيقة الأمر مع التعاون. وبعيداً عن فكرة أن "الشرق شرق والغرب غرب والاثنتان لا يمكن أن يلتقيا أبداً"، فإن ما شهدناه هو أن تاريخ الشرق وتاريخ الغرب، بقدر ما يمكننا حتى أن نتحدث عن شرق منفرد وغرب منفرد، يوجد بينهما تداخل وثيق. وأقل ما يمكن أن نقوله هو أن التوصيفات الجغرافية والدينية العامة من قبيل "الإسلام والغرب" هي توصيفات تنطوى على قدر بالغ من الجدلية، ومرد ذلك ليس أقله إلى أن الإمبراطورية البيزنطية المسيحية انتعشت في الأراضي التي كانت تسمى "الشرق" حتى القرن الخامس عشر، وأن حكم المسلمين في الأندلس دام نحو ثمانمائة عام. ومن ثم فإن فكرة "صدام الحضارات" عبر التاريخ بين غرب مسيحي موحد وشرق مسلم هي فكرة معيبة إلى حد بالغ.

ويتضح أيضاً من التاريخ المبين في هذا الفصل أن "الغرب" لم تكن لديه يوماً صور سلبية عن الإسلام. ففي أوقات الصراع، كانت النُخب السياسية تحشد فويبا الإسلام وسيلة للدفع بمآربها الأوسع نطاقاً، سواء كانت تلك المآرب هي السيطرة البابوية على أوروبا أو الطموحات التوسعية للحكام المسيحيين. وكان الطعن في الإسلام أداة مفيدة في مناورات السلطة لمدة طويلة جداً. وفي القرون التالية، وأثناء حقبة الاستعمار الحديث، استمرت شيطنة الإسلام والمسلمين. ولكن هذه المرة أضيفت عليها مشروعية جديدة في الأوساط الأكاديمية وتحولت إلى علم.

الفصل الثاني

الاستعمار والاستشراق

عندما بدأ في عام ٢٠١٠ عرض فيلم " الجنس في المدينة ٢"، الذي تدور أحداثه في أبو ظبي، انتقده بشدة عن حق نقاد متعددون لما تضمنه من صور نمطية عنصرية للعرب والمسلمين. وبدا وكأننا ارتد منتجو الفيلم إلى عشرينيات القرن العشرين، وبعثوا من جديد نموذج أفلام على بابا، وأضافوا بضعة أجهزة "iPhones" وبضعة فنادق خمسة نجوم كإشارة إلى حداثة أبو ظبي، تاركين كل شيء آخر كما هو تقريباً. فكيف نفهم هذه النظرة إلى الشرق الأوسط كمكان لا يتغير، كمكان يظل فيه الناس، رغم التكنولوجيا العالية والكماليات الاستهلاكية، على جمودهم وهم أساساً "مسلمون"؟

وهذه النظرة إلى الإسلام تنبثق من مجموعة من الأعمال تسمى الاستشراق ظهرت في سياق الاستعمار الأوروبي، الذي بلغ ذروته في القرنين التاسع عشر والعشرين. فبينما تمسكت الإمبراطورية العثمانية بمعظم أراضيها أثناء القرن الثامن عشر، بدأت قبضتها تضعف في القرن التاسع عشر.

وبدأت الدول الإمبريالية، لا سيما النمسا وروسيا، تستولى على الأراضي العثمانية. وإضافة إلى ذلك، انفصلت مقاطعات مسيحية شتى كانت واقعة تحت الحكم العثماني وشكلت دولاً جديدة، لا سيما اليونان. وبذلك كانت الإمبراطورية العثمانية الأسطورية تتهاوى.

وبدت دول مسلمة أخرى غير قادرة بنفس القدر على الحيلولة دون الانقراض على الإمبراطورية. فقد غزت فرنسا الجزائر واحتلتها عام ١٨٣٠، ثم استولت أيضاً على تونس في الفترة من عام ١٨٨١ حتى عام ١٨٨٣، وفي عام ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر، وفي عام ١٨٩٨ استولت على السودان. وفي النهاية انهارت الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى. وقامت الدول الظافرة في الحرب بتقسيم أراضي الإمبراطورية العثمانية، والشرق الأوسط بوجه عام، فيما بينها. ورسمت حدوداً تعسفية حول الدول الجديدة - ومن بينها لبنان وسوريا وما وراء نهر الأردن والعراق وفلسطين - التي سيطرت عليها فرنسا وبريطانيا عن طريق نظام الانتداب. وبعد الحرب العالمية الثانية، بدأت الولايات المتحدة تمسك بزمام الأمور بدلاً من الحكّام الاستعماريين القدماء.

وفي هذا السياق وُلد الاستشراق، وهو ميدان كامل من ميادين الدراسة مكرّس لدراسة "الشرق". وبينما كانت قد أنشئت في وقت أسبق معاهد لدراسة الشرق، فقد أصبحت تلك المعاهد صناعة نامية في القرن التاسع عشر. وكرّست مجموعة كبيرة من الباحثين نفسها لمشروع تعلّم لغات الشرق المختلفة، وترجمة طائفة متنوعة من الكتب، ومراكمة المعرفة عن الشرق بطريقة منتظمة.

ويلقى هذا الفصل نظرة على صورة "العالم الإسلامي" في القرنين التاسع عشر والعشرين كما تنعكس من خلال لغة الاستشراق، دارساً افتراضاتها والطرائق التي استُخدم بها الاستشراق كأداة للاستعمار. وسنبداً بإلقاء نظرة على نشوء الاستشراق في فرنسا وبريطانيا، ثم نتجه إلى الولايات المتحدة.

نابليون والاستعمار المستنير

لقد كانت فرنسا رائدة أولى الفكر الاستشراقي. ففي عام ١٧٩٥، أنشئت في باريس كلية الدراسات الشرقية الحية. وعندما غزا نابليون مصر بعد بضع سنوات،

فإنه استطاع أن يأخذ معه مستشرقين يمكن استخدام معرفتهم تحقيقاً لأغراض استعمارية. ويبرز غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ كأول مثال أصبحت فيه المعرفة عن السكان المحليين محورية بالنسبة لبعثة احتلال.

وهذا ليس معناه أن المعرفة عن العدو لم تكن جوهرية في الفترات السابقة. فحتى أثناء القرون الوسطى، كان الحكام الأوروبيون يجمعون معلومات دقيقة عن الممالك الإسلامية من خلال الجواسيس والمسؤولين والمخبرين من أجل وضع استراتيجيات عسكرية. ولم يطلعوا الجمهور على تلك المعلومات بطبيعة الأمر. وبدلاً من ذلك، استخدموا الطنطنة اللاذعة عن الحروب المقدسة للتحفيز على الحروب الصليبية وإعادة الاستيلاء^(١). وبينما استمر هذا الأسلوب العام حتى في القرن الحادي والعشرين، فإن ما دشّنه غزو نابليون هو الاستخدام المنهجي لمعرفة الباحثين من أجل خدمة احتياجات الإمبراطورية، سواء في الخارج أو في الداخل.

وهذا النموذج من الاستعمار المستنير ينطوي على ثلاثة جوانب. أولاً، يجب أن يُعد المستعمر العدة بشكل وافٍ قبل بدء الغزو وذلك لكي يكون قادراً على معالجة العقبات. ثانياً، ينبغي أن يجنّد الباحثين كي يعملوا إلى جانب الجنود في عملية الاستعمار. وقد اصطحب نابليون معه نحو ١٦٠ باحثاً للمساعدة في العملية اليومية لإدارة الاستعمارية وتكوين مجموعة من المعارف عن مصر من أجل استخدام الفرنسيين لها. ثالثاً، يجب أن تضع الدولة المستعمرة أساساً منطقياً تبريرياً. وكانت فرنسا، التي كانت قد تخلصت للتو من نير نظامها الملكي الإقطاعي القمعي، تعتقد أن مهمتها هي إعادة مصر إلى عظمتها السابقة. ويمكن أن نرى هنا سلانف ما سيُعرف لاحقاً باسم "mission civilisatrice"، أي " مهمة الحضنة".

وكان نابليون مستعداً بشكل جيد لهذه المهمة، كما يقول لنا إدوارد سعيد في كتابه الكلاسيكي " الاستشراق". إذ كان، لولعه بالشرق منذ فترة صباه، قد قرأ المؤلفات الأوروبية عن الموضوع باستفاضة، سواء كانت المؤلفات حديثة العهد أو كلاسيكية. ويركز سعيد بوجه خاص على كتاب الرحالة الفرنسية كومت دي فولني

الذى يقع فى مجلدين ويحمل عنوان " رحلة إلى مصر وسوريا ". ووجد نابليون أن تقييم فولنى للشرق الأوسط كموضع للاستعمار الفرنسى مفيد على وجه الخصوص، وكذلك قائمة العقبات التى أوردها والتى قد تصادف البعثة الاستعمارية. وكان من بين تلك العقبات تشكك المصريين فى الأوروبيين. واستخدم نابليون كتاب " رحلة إلى مصر وسوريا " كدليل استعمارى.

وفى هذا المانيفستو، الذى انتشر على نطاق واسع فى مصر، حاول نابليون أن يكسب أفئدة المصريين وعقولهم:

يا أهل مصر، سيُقال لكم إننى جئت لأدمر دينكم. وهذه أكذوبة واضحة؛ فلا تؤمنوا بها! بل قولوا للمفترين إننى جئت إليكم لأعيد حقوقكم لكم من أيدي القامعين وإننى، أكثر من المالك [الذين حكموا مصر وقتئذ]، أخدم الرب ... وأقر نبيّه محمداً والقرآن الكريم. ... وفى أرض مصر سابقاً كانت هناك مدن عظيمة، وقنوات واسعة، وتجارة مزدهرة. فما هو الذى ألحق الغراب بكل هذا، إن لم يكن جشع المالك وطمعانهم؟ ... قولوا لأمتكم إن الفرنسيين مسلمون مخلصون أيضاً. فالمحقيقة هى أنهم غزوا روما ودمروا عرش البابا، الذى حرّض دائماً المسيحيين على شن الحرب على المسلمين^(٢).

وعدا عن التلفيقات الواضحة عن كون الفرنسيين مسلمين وتدميرهم البابوية، فإن ما تجدر ملاحظته بشأن هذا المانيفستو هو محاولته كسب المصريين من خلال الثناء على الإسلام. فقد أصر نابليون مراراً على أنه يكافح فى سبيل الإسلام. ودعا ٦٠ باحثاً مسلماً من الأزهر إلى مقره وأثار إعجابهم بما لديه من معرفة عن القرآن واحترامه له. وكل شيء قاله نابليون تُرجم للاستهلاك الشعبى إلى اللغة العربية القرآنية. وقد نجحت هذه الاستراتيجية: فقد تخلى أهل القاهرة عن عدم ثقتهم فى المستعمرين الفرنسيين^(٣).

وعندما رحل نابليون من مصر فإنه أعطى تعليمات صارمة إلى نائبه تقضى بأن تُدار مصر وفقاً للتمودج الذى حدده: أى استشارة المستشرقين قبل سنّ أى سياسات، وضرورة أن يكون الزعماء الدينيون المسلمون الذين كسبهم إلى جانبه جزءاً أيضاً من

ترسانة الحكم الاستعماري. وكلف نابليون جيشه الصغير من الباحثين بمهمة جمع كميات هائلة من المعلومات المباشرة عن مصر. وكما يقول إدوارد سعيد، فإن فريقاً:

من الكيميائيين والمؤرخين وعلماء الأحياء وعلماء الآثار والجراحين وجامعي العاديات [أصبحوا] فرقة الجيش المتعلمة. ولم تكن مهمتها أقل عنوانية، وهي إدخال مصر ضمن الدولة الفرنسية الحديثة. وكان نابليون حريصاً منذ لحظات الاحتلال الأولى على أن يبدأ المعهد [أي المعهد المصري الذي أنشأه] اجتماعاته وتجاربه، ومهمة تقصى الحقائق كما نطلق عليها الآن. والأهم هو أن كل شيء يقال أو يُشاهد أو يُدرس كان يجب تسجيله،^(٤).

وقد أسفر هذا العمل عن نشر كتاب "وصف مصر"، وهو خلاصة تقع في ٢٢ مجلداً صدرت خلال الفترة ما بين عامي ١٨٠٩ و ١٨٢٨، ووُضعت معلوماته المفصلة عن كل جانب من جوانب المجتمع المصري، بدءاً من الآثار ووصولاً إلى تكوينات الوجه، لا يستخدمها المصريون بل يستخدمها الفرنسيون. وبينما يوجد قدر كبير من المعلومات الدقيقة والقيّمة في ذلك الكتاب، فإن النقطة المهمة التي يبرزها إدوارد سعيد هي أن تلك المعرفة الواسعة جُمعت بدون مدخلات من أهل البلد. ويقول إدوارد سعيد إن هذا التصوير لمصر حقق غرضاً أن تحل محل إحساس مصر بنفسها وبمكانياتها في العالم رؤية استعمارية فرنسية لمصر. وكان الهدف منه في نهاية المطاف هو مساعدة الفرنسيين على السيطرة على المصريين.

ولم يكن الفرنسيون، بطبيعة الأمر، يرون غزوهم لمصر من زاوية مصطلحات حقيرة من قبيل التحكم والسيطرة. بل كانوا يدعون، كما يشير الاقتباس من مانيفيستو نابليون، أن هدفهم هو إعادة مصر إلى مجدها التليد الذي يتسم بـ "المدن العظيمة"، و "القنوات الواسعة". وكانوا يعتقدون أنهم سينقذون بلداً كان عظيماً من الخراب ويبينون لأهالي البلد ما كانوا عليه يوماً ما وما يمكن أن يصبحوا عليه مرة أخرى تحت وصاية الفرنسيين. وأصبح هذا المنطق الأبوي أكثر تطوراً مع نمو البعثات الاستعمارية الأوروبية؛ وقد خلّده روديارد كيبلنج في قصيدته التي كتبها عام ١٨٩٩ "عبء الرجل الأبيض". واستخدمت الصيغة الفرنسية البديلة لها، وهي "مهمة

الحضرة، بنجاح كبير لكسب الموافقة الداخلية على الغزوات الاستعمارية في دولة قامت على أساس مبادئ الحرية والمساواة والإخاء.

وقد دام احتلال الفرنسيين لمصر حتى عام ١٨٠١، فقد كان التنافس الإمبريالي الداخلى مع بريطانيا هو الذى أجبرهم فى نهاية المطاف على أن يرحلوا من مصر، ولكن المصريين سرعان ما أدركوا أيضاً أن الفرنسيين لم يكونوا حريصين على أفضل مصالحهم. ومع ذلك، فإن هذا الأسلوب فى الاستعمار كان يُنظر إليه على أنه نموذج يحاكي. ويقول إدوارد سعيد إن " لغة الاستشراق نفسها تغيرت تغييراً جذرياً بعد نابليون؛ فمنذ ذلك الحين " أعيد تكوين صورة الشرق، وأعيد تجميعها، وأعيدت صياغتها، وإيجازاً، فإن صورته " وُلدت " من رحم جهود المستشرقين^(٥). ولم يعد الشرق غريباً وغرائبياً بل أصبح منطقة يمكن فهمها والتحكم فيها. وكانت دراسات المستشرقين هى السبيل الذى من شأنه أن يفض أسرار الشرق.

خصائص الاستشراق

لم يكن مستشرقو القرن التاسع عشر يرون أنفسهم بالضرورة على أنهم عملاء وإمبرياليون؛ بل كانوا يرون أنهم، بوجه عام، يُنتجون معرفة غير مفرضة. إلا أن بعضهم كان يسدى مشورته إلى الحكومة الفرنسية ويؤدى دوراً هاماً فى تمكين الاستعمار، من قبيل سيلفيستر دى ساسى، وهو مستشرق هام كان له تأثير على أجيال من الباحثين. وقد أنتج المستشرقون، سواء بوعى منهم أو بدون وعى، مجموعة من الأعمال التى ساعدت مشروع الإمبريالية. وقبل أن ننظر فى بعض الافتراضات التى قام عليها الاستشراق، من المفيد التمييز بين الطنطنة الاستعمارية الخاصة بالقرن التاسع عشر وبين سلائفها.

فقبل القرن التاسع عشر كان الاستعمار الأوروبى يفسر أساساً من خلال عدسة المسيحية. وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر، برر الأوروبيون ذبحهم

واستغلالهم " للهنود" في العالم الجديد من خلال الحجة القائلة بأن الهنود "المتوحشين" هم حيوانات برية، ووثنيون قضى الرب بأن يسيطر المسيحيون عليهم^(٦)، ويرروا على نفس الغرار استعبادهم للأفارقة من خلال كتاب سفر التكوين، قائلين إن الأفارقة شعب ملعون (وهو أمر مستمد من أكلوبة لعنة حام) يدل لون بشرتهم الأسود على لعنتهم. وكانت " اللعنة" تعنى، بشكل مريح للأوروبيين، أن حتى العبيد الأفارقة الذين اعتنقوا المسيحية يظل من الممكن مع ذلك الإبقاء عليهم كعبيد^(٧).

ثم بدأ التحول عن التبريرات الدينية إلى التبريرات "العلمية". فقد قسم فلاسفة عصر التنوير البشر إلى أعراق أو "أنواع" شتى تتسم بخصائص مميزة. وبمرور الوقت، أدى نظام التصنيف هذا إلى استخلاص الأوروبيين البيض أنهم متفوقون على "الشعوب الملونة ذات البشرة الداكنة بدرجة أكبر من" الأخرى، التي كانت "قبيحة" وكانت في أفضل الحالات "شبه متحضرة"^(٨). وكان هذا مكوناً هاماً في التطور المبكر للعنصرية كعقيدة لتبرير الاستعباد والغزو^(٩). وإضافة إلى ذلك وكما يوضح الفصل الأول، شهد القرن الثامن عشر تطور مفاهيم التفوق الأوروبي، لا سيما من خلال ربط الغرب بالديمقراطية وربط الشرق بالاستبداد. ومع ذلك، كما يقول رودنسون، "في القرن الثامن عشر، كان هناك إحساس غير مدرك بالمركزية الأوروبية ولكن كانت توجهه عقيدة التنوير الشمولية ولذا كان ينطوي على احترام الحضارات والشعوب غير الأوروبية"^(١٠). غير أنه بحلول القرن التاسع عشر سرعان ما حل محل شمولية التنوير هذه تشديد على الاختلافات بين الناس والحضارات. وتكون لدى أوروبا ما يُطلق عليه إتيان بالييار "عقدة التفوق الامبريالية"^(١١).

وهذا التشديد على الاختلافات اتخذ شكلاً عقائدياً في مجموعة الأفكار التي أصبحت تعرف باسم "الاستشراق". ويتسم الاستشراق بوضع سمات مميزة له. واعتماداً على أعمال زاكاري لقمان في "معارضة رؤى الشرق الأوسط"، وكذلك على آخرين، فإننى أحدد أربع سمات أساسية للاستشراق. أولاً، أنه يستند إلى رؤية للتاريخ من زاوية الحضارة، وهي فكرة أن الحضارات تنشأ وتزدهر ثم تتراجع. ثانياً،

أنه يفترض، لأنه نشأ من الفلسفة ومن الدراسة التاريخية والمقارنة للغات، أن كل شيء يحتاج المرء إلى معرفته عن أى حضارة يمكن العثور عليه فى نصوصها ولغاتها. ثالثاً، أن الاستشراق يرى الإسلام ونصوصه الكلاسيكية كسبيل لفهم المسلمين المعاصرين ومجتمعاتهم. رابعاً، أنه يعتمد على نظريات العرق وفكرة أن المسلمين عرق متميز.

وكان من بين النظريات المقبولة على نطاق واسع فى القرن التاسع عشر أن المجتمع البشرى ينقسم إلى حضارات مختلفة ومتميزة وجدت بمعزل بعضها عن بعض، وكانت تقف وراء كل منها مجموعة قيمة الأساسية الخاصة به. ووفقاً لهذه النظرية كانت للغرب، كحضارة فريدة تضرب بجذورها فى بلاد الإغريق القديمة، خصائص ميّزته عن جميع الحضارات الأخرى. وتضمّنت هذه الخصائص " الحرية، والقانون، والعقلانية، والعلم، والتقدم، والفضول الفكرى، وروح الاختراع، والمغامرة، والمبادرة"^(١٢). ثم حدّدت مكانة كل حضارة أخرى بالنسبة إلى فكرة " الغرب" المتفوق هذه. وكما كان متوقعا، كان يوصف عالم الإسلام بأنه عالم يرجع إلى ما قبل العصر الحديث، ومتخلف وبدائى، واستبدادى، وجامد، وغير ديمقراطى، ومتصلب.

وترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظريات الحضارة فكرة أن أى شعب يمكن فهمه من خلال لغاته ونصوصه الأساسية. فقد نادى علماء اللغة من أمثال ساسى بفكرة أن دراسة النصوص المكتوبة لأى مجتمع يمكن أن تسفر عن التوصل إلى أفكار متعمقة عن الجوهر السرمدى لأى حضارة. لذا كان المستشرقون يتعلمون اللغات العربية والفارسية والتركية ويترجمون نصوص الشرق ويحلّلونها. وسعى علماء اللغة إلى تحليل النصوص فحسب بدلاً من أن يدرسوا السياق التاريخى للمجتمعات الإسلامية. ولا غرو إذاً أن يقول رودنسون إنه على الرغم من " الكم الهائل من المعلومات الدقيقة والوثائق المحكمة، التى استطاع المتخصصون تجميعها، فإن الانقسام بين جهودهم الفكرية وعالم الحقيقة الموضوعية استمر فى الاتساع"^(١٣).

ويترتب على ذلك أن الإسلام، كما تحدده نصوصه الكلاسيكية، كان هو العدسة الأساسية التى يمكن من خلالها فهم المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة. فإذا تعرضت

المرأة للقمع فذلك يرجع إلى تعاليم القرآن؛ وإذا كان المسلمون يفتقرون فيما يُفترض إلى روح المبادرة فإن ذلك يرجع إلى " التراث الإسلامي "؛ وإذا كانت الحداثة مرفوضة، فإن القرآن هو مرة أخرى المسؤول عن ذلك. وإيجازاً، كان من الممكن تفسير مجموعة كاملة من الخصائص المرتبطة بالغرب ولكنها فيما يُزعم غير موجودة في " العالم الإسلامي " بالرجوع إلى النصوص الدينية والعقلية التي أوجدتها تلك النصوص فيما يُفترض. وفي هذا الكتاب، يوضع مصطلح " العالم الإسلامي " بين أقواس تنصيص اعتراضاً على فكرة أن الإسلام هو أهم عامل وحيد في تحديد هوية الناس الذين يعيشون في الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، وأماكن أخرى، أو أن هناك كياناً واحداً لا يمكن التمييز فيه يسمى " العالم الإسلامي ". فأتنا أحاول، بدلاً من ذلك، أن أُبين أن الديانة هي، كما في أي مكان آخر من العالم، عامل واحد بين عوامل أخرى تؤثر على حياة الناس الذين يعيشون في مجتمعات يشكل المسلمون أغلبية فيها (وهو مصطلح أفضله عن " العالم الإسلامي ").

وإضافة إلى النظريات القائمة على الحضارة، اعتمد المستشرقون على نظريات العرق التي وردت مناقشتها أعلاه والتي وضعت القوقازيين الأوروبيين على قمة التراتب العرقي. وكما يوضح رودنسون:

ربما كان الشرقي يوصف يوماً بأنه عدو متوحش، ولكنه كان أثناء العصور الوسطى يُعتبر على الأقل على نفس مستوى نظيره الأوروبي. وبالنسبة لرجال حركة التنوير، منظرى الثورة الفرنسية، كان الشرقي قبل كل شيء، ورغم غرابة مظهره وملبسه، رجلاً مثل أي رجل آخر. ولكنه في القرن التاسع عشر أصبح منفصلاً نوعاً ما وحييس خصوصيته، ومع ذلك كان جديراً بنوع من الإعجاب المتذمر. وهذا هو منشأ " التماثل الإسلامي "، وهي فكرة مقبولة على نطاق واسع حتى يومنا هذا^(١٤).

وزعم المستشرقون، انطلاقاً من فكرة أن المسلمين يمثلون عرقاً هذه، أنهم قادرون على تفسير " عقلية المسلم " أو " عقلية العربي ". وبالنظر إلى أن النظريات المستندة إلى العرق تفترض أن أفراد أي عرق متماثلون جميعاً، استطاع الباحثون في إطار هذه

التقاليد أن يصدروا تعميمات كاسحة عن الكيفية التي يفكر بها المسلمون ويتصرفون. وقبل كل شيء، كان هناك حط من قدر " عقلية المسلم"؛ وكما كتب الشاعر البريطاني روديارد كيبلنج، " لن تتمكن أبداً من سبر أغوار عقل الشرقي. وحتى إذا فعلت، فإن ذلك لا يستحق العناء"^(١٥).

ويستتبع منطق التفوق الحضاري والعرقى هذا أنه كان على الغرب أن يقود الأمم والشعوب الأدنى مرتبة منه. وفي أواخر القرن التاسع عشر، عندما كتب كيبلنج " عبء الرجل الأبيض"، فإنه كان يعزز فحسب فكرة كانت وقتئذ واسعة الانتشار. فقد كتب كيبلنج عن تفوق الغرب بحكم طبيعته، وعن ما يقع عليه من " عبء" حضرة وترويض شعوب الشرق. وكان يُنظر إلى من يُستعمر، مع وصفه بأنه " نصف شيطان ونصف طفل"، على أنه شرير وبربري وأشبه بالطفل على حد سواء ولذا فهو بحاجة إلى حماية. وعندما نُشرت القصيدة أصلاً، استخدم كيبلنج العنوان الفرعي "الولايات المتحدة وجزر القلبين" كسبيل لحث الأمريكيين على تولى نفس المسؤوليات التي تولها البريطانيون^(١٦).

وقد تولى الأمريكيون تلك المسؤوليات فعلاً. وجمع صحفى أمريكى فى تقرير كتبه فى عام ١٩٢٦ افتراضات المستشرقين عن الحضارة والعرق على النحو التالى:

من ظلال ما قبل التاريخ اندفعت الأعراق البيضاء إلى الصدارة وأثبتت بطرق متعددة صلاحيتها للهيمنة على البشرية. وتدريباً أقامت حضارة مشتركة؛ ثم، عندما مُنحت فرصتها الفريدة للسيطرة على المحيطات قبل أربعة قرون، فإنها انتشرت فى أنحاء المعمورة، فملأت أماكنها الفارغة بسلاسلها المتفوقة وضمنت لأنفسها تفوقها الذى لا نظير له من حيث الأعداد والسيطرة. ... وأخيراً، أصبح الكوكب مندمجاً تحت هيمنة عرق وحيد ذى حضارة مشتركة^(١٧).

أما وودرو ويلسون، الذى يُنظر إليه على أنه كان صاحب رؤية لناصرته حق تقرير المصير، فهو يطرح الأمر على النحو التالى:

من الضروري أن نعرف التاريخ السياسي للإغريق واللاتينيين والتيوتيين
والسليبيين بصفة أساسية من أجل تتبّع تسلسل الحكومات الأوروبية والأمريكية
التي أسهمت في نظام الحياة الاجتماعية لتلك الأعراق الأقوى والأكثر نبلاً التي
حققت أكبر تقدم ملحوظ في الحضارة^(١٨).

وإيجازاً، كانت نظرة المستشرقين إلى الشرق كما انبثقت في القرن التاسع عشر
تستند إلى الحط عرقياً وحضارياً من شأن المسلمين. إلا أن هذا ليس معناه أن
دراسات المستشرقين وُجِدَت أو استُخدمت في السياقات الاستعمارية بدون وجود ما
يناقضها. فقد كان هناك مستشرقون رفضوا أفكار التفوق العرقى؛ ولكنهم كانوا
يُجمِعون في الوقت ذاته على أن العرق هو فئة مفيدة من فئات التحليل. وكان
هناك أولئك الذين يُعجبون بالإسلام وغيرهم ممن يذمّونه؛ وكان هناك البعض الذين
عاينوا بنشاط مهمة الاستعمار بينما كان هناك آخرون ممن اعتبروا أنفسهم ينتجون
معرفة موضوعية. واستُخدمت أفكار المستشرقين استخداماً مختلفاً في سياقات شتى.
ولكن العلاقة بين الفكر الاستشراقى ومشروع بناء إمبراطورية هي علاقة معقدة،
ببسيط العبارة.

ومع ذلك، مما لا سبيل إلى إنكاره أن الافتراضات المذكورة آنفاً التي قامت عليها
جميع دراسات المستشرقين تتناسب جيداً مع الدعوة إلى الغزو الاستعماري. والرؤية
العالمية التي يطرحها المستشرقون هي رؤية يُرى فيها " الغرب " كمجتمع مفعم بالحيوية
ومعقد ويتغير باستمرار لا يمكن اختزاله في ديانته الأساسية أو أى عامل آخر منفرد،
بينما يصوّر " الشرق " أو " عالم الإسلام " كعالم لا يتغير وبربري وكاره للنساء وغير
متحضر واستبدادي. والاستنتاج المنطقي الوحيد الذي ينبع من هذا هو أن الغرب تقع
عليه مسؤولية التدخل في هذه المجتمعات الجامدة وإحداث تغيير فيها. إذ كان الغرب
قد اكتسب عقدة تفوّق وكان على بقية العالم أن تخضع لما يمليه عليها.

وهذه الأفكار ربما كانت قد ساعدت على تبرير الغزو الفرنسي والإنجليزي للشرق
الأوسط وشمال أفريقيا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكن الولايات المتحدة هي

التي بعثت حياة جديدة فى تلك الأفكار بعد الحرب العالمية الثانية. وحتى يومنا هذا، يمكن العثور على تنويعات لهذه الأفكار فى المجتمع الأمريكى. فعلى سبيل المثال، تمثل كتب من أمثال كتاب "العقل العربى" (١٩). لرافائيل باتاى، الذى استخدمته المؤسسة العسكرية الأمريكية لابتكار أساليب التعذيب التى استُخدمت فى أبو غريب وأماكن أخرى، إعادة تأكيد لفكرة " التماثل الإسلامى " وقد حاجج مستشرقون معاصرون من أمثال برنارد لويس وسمويل هنتينجتون بأن الصراع بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط هو " صدام حضارات "، ووفقاً لهنتينجتون، الذى فعل الكثير للترويج لفكرته، " كثيراً ما لا يكون هناك سوى قدر ضئيل من الصدى فى المجتمعات الإسلامية للأفكار الغربية المتمثلة فى الفردية والليبرالية والدستورية وحقوق الإنسان والمساواة والحرية وسيادة القانون والديمقراطية والأسواق الحرة وفصل الكنيسة عن الدولة (٢٠)". وفى الفصل التالى، سنستكشف استمرارية مجموعة مؤلفات المستشرقين الكلاسيكية. ونتطرق هنا إلى الإمبريالية الأمريكية ورؤيتها للسلطة الإمبراطورية ولغة السيطرة.

الإمبريالية الأمريكية

قبل القرن التاسع عشر لم يكن معروفاً فى الولايات المتحدة سوى النزح اليسير عن " العالم الإسلامى ". فقد كانت غزوات أمريكا تركز أكثر على التوسع فى القارة إلى الغرب والجنوب الغربى؛ ولم تكن تعبير أجزاء أخرى من العالم اهتماماً كبيراً. وفى القرن الثامن عشر، كانت مصادر الأمريكين الأساسية للمعلومات عن الشرق الأوسط هى " ألف ليلة وليلة " وإنجيل الملك جيمس (٢١)، وكانت النخبة السياسية التى أسست الأمة الأمريكية وأشرفت عليها " بعد عام ١٧٧٦ تعتبر العالم الإسلامى، المنكوب بالاستبداد الشرقى، والفساد الاقتصادى، والتسفيه الفكرى، نقيضاً للمذهب الجمهورى الذى تعهدت باحترامه احتراماً مقدساً " (٢٢).

أما المعرفة الكبرى عن الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر فقد كان مصدرها هو زوار الأراضى المقدسة وأعضاء البعثات التبشيرية. فقد كتب مارك توين، الذى أصبح مناهضاً للإمبريالية بشدة، فى عام ١٨٦٩ عن رحلته إلى الأراضى المقدسة فى كتاب بعنوان " الأبرياء الموجودون فى الخارج"، بيع منه ما يقرب من مائة ألف نسخة^(٢٣). وبينما انتقد توين بشدة (وبفكاهة) زملاءه المسافرين لتعاليمهم وصلفهم وعدم حساسيتهم الثقافية - وهى سمة من سمات السياح الأمريكين استمرت حتى القرن التالى وأصبحت مادة لطاحونة هوليوود - فقد كانت لديه أيضاً انتقادات قاسية للمسلمين. فقد وصفهم بأنهم " أناس، بطبيعتهم وبالتدريب، قذرون ومتوحشون وجهلة وغير تقدميين [و] يؤمنون بالخرافات، [ورأى أن العثمانيين يمثلون " حكومة فضائلها الثلاث هى الطغيان والسلب [و] الدماء]"^(٢٤).

وكانت الأفكار الرومانسية عن الشرق تسيطر على الثقافة الشعبية. إذ كانت تُباع على نطاق واسع نُسخ مصورة من " ألف ليلة وليلة"، وكذلك كتب عن النبى صوّرت العالم العربى على أنه عالم متخلف ومتوحش. وإضافة إلى الروايات والمحاضرات المصوّرة عن الرحلات، نقلت سلسلة من الوسائط الشعبية الأخرى من قبيل الأسواق والمعارض والصور الفوتوغرافية وحدائق الملاهى ذات الموضوع صورة الشرق الغرائبية الموجودة لدى أوروبا إلى الولايات المتحدة^(٢٥)، وفى أوروبا القرن التاسع عشر وجدت معاً صورة المستشرقين والصورة الغرائبية عن الشرق، وسارع الجمهور فى الولايات المتحدة إلى تبني الصورة الأخيرة. فعلى سبيل المثال، أنتج الرسام الأمريكى فريدريك بريدجمان عشرات من اللوحات عن الشرق محمّلة بإيحاءات جنسية تماشياً مع أعمال أستاذه، الرسام الفرنسى جان - ليون جيروم، الذى يشتهر بلوحتيه " ساحر الثعابين" و " العبد"^(٢٦)، وعززت هوليوود هذه الصور الغرائبية فى أفلامها البصامتة الأولى من قبيل " العربى" (١٩١٥)، و " كليوباترا" (١٩١٧)، و " سالومى" (١٩١٨)، و " الفارس العربى" (١٩٢٠)، بين أفلام أخرى. وأدى رودلف فالنتينو دور الشيخ على غرار " لورانس العرب" فى فيلمين، هما " الشيخ" (١٩٢١) و " ابن الشيخ" (١٩٢٦)، صوراً الشرق على أنه مشحون جنسياً، بين أشياء أخرى.

وخارج نطاق الثقافة، في عالم السياسة، لم تتراكم عن الشرق سوى معرفة منهجية هزيلة. وقد تأسست جمعية المستشرقين الأمريكيين عام ١٨٤٢، ولكن الولايات المتحدة لم تبدأ في الاقتراب من دراسة الشرق الأوسط بطريقة منهجية، مثلما فعلت أوروبا، إلا بعد الحرب العالمية الثانية^(٢٧)، وقبل هذه المرحلة، كان باحثو الولايات المتحدة القليلون نسيباً الذين درسوا الإسلام والشرق قد فعلوا ذلك في المقام الأول من خلال عدسة الاستشراق وكانوا موجودين في أقسام أو معاهد "دراسات الشرق الأدنى" أو "الدراسات الشرقية"^(٢٨)، وكان المستشرقون الأوروبيون يحظون بمكانة ثقافية في هذا الميدان^(٢٩).

وقد غير انتهاء الحرب العالمية الثانية هذا الوضع، لأن الولايات المتحدة خرجت من تلك الحرب وهي أقوى دولة غربية، وانبرت لتأخذ مكانة بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط وتفرض سيطرتها على المنطقة. ولكن الولايات المتحدة كانت بحاجة، كي تحقق ذلك، إلى معلومات لتوجه سياستها. وفي البداية، كان بإمكانها أن تعتمد فحسب على شبان نشأوا في المنطقة، هم أبناء أعضاء البعثات التبشيرية أو أساتذة الجامعات، المعروفين باسم "المستعربين". ولكن في سياق الحرب الباردة، ومع تطور حركات التحرر الوطني، كانت النخب تحتاج إلى معلومات موثوقة لكي تعزز مصالحها في المنطقة. وبدأت الحكومة والمؤسسات الخاصة ترعى وتمول برامج وأقساماً "لدراسات المناطق" لم تكن تركز على دراسة الشرق الأدنى فقط بل تركز أيضاً بوجه أعم على آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وفي ذلك السياق اتجهت الجامعات الأمريكية إلى إنتاج معرفة تكون لها فعاليتها في خدمة احتياجات الإمبراطورية. وكان هناك نهجان يوجهان دراسة الشرق الأوسط هما: الاستشراق، الذي ما زال علماء اللغة يسيطرون عليه، والبحث العلمي الاجتماعي، الذي تطور منه نموذج جديد يُعرف باسم "الحدائثة".

وقد عبر باحثون مستشرقون بارزون من أوروبا المحيط الأطلنطي كي يتولوا مناصب أكاديمية في الجامعات الأمريكية أثناء حقبة ما بعد الحرب. فقد ترك هـ. أ. ر.

جيب، الذي كان محورياً في تطور نهج الاستشراق في الولايات المتحدة، أكسفورد كى يتولى منصباً في جامعة هارفارد عام ١٩٥٥، وأثر جوستاف فون جرونباوم، المستشرق النمساوى، على جيل جديد من الباحثين في جامعة شيكاغو ثم في جامعة كاليفورنيا (٣٠)، وقد جلبوا فيما بينهم أساليب المستشرقين في التحليل إلى الولايات المتحدة وواصلوا عمل المستشرقين المؤثرين في أواخر القرن التاسع عشر من أمثال إرنست رينان. فجيب، مثلاً، قال إن "العقل العربى" و "عقل المسلم" ينطويان على جوهر يمكن فهمه بقراءة نصوص الإسلام الكلاسيكية. وقال جرونباوم إن الثقافة الإسلامية الجامدة يمكن أن تساعد على تفسير جميع الظواهر المعاصرة. وهذه التعميمات الكاسحة، التى تتسم بها دراسات المستشرقين، كان لها تأثيرها فى الولايات المتحدة لأنها وفّرت طريقة سريعة وسهلة لفهم منطقة كبيرة ومعقدة.

وفى العقود اللاحقة، طعنت بحوث علم الاجتماع فى الاستشراق لدرجة أن جيب اعترف ببعض أوجه القصور فى أسلوب المستشرقين وحث علماء الاجتماع والمستشرقين على العمل سويًا (٣١). ولكن، بالرغم من نشر عدد من الأعمال التى انتقدت افتراضات الاستشراق وأساليبه فى الفترة اللاحقة لسبعينيات القرن العشرين، فقد ظل الاستشراق قائماً. ويمكن أن يُعزى إلى برنارد لويس، المستشرق البريطانى، الفضل فى مواصلة إرث الاستشراق وتأثيره. وقد قبل لويس منصباً فى جامعة برينستون عام ١٩٧٤ وأصبح شخصية رئيسية فى الفكر الاستشراقى فى الولايات المتحدة منذ ذلك الحين.

بيد أن الولايات المتحدة لم يكن بإمكانها أن تقبل ببساطة لغة الإمبراطوريات القديمة فى مجملها. فقد كان تاريخها المناهض للاستعمار يعنى وجود أصوات فى الساحة السياسية تقاوم عباءة الإمبريالية. ومع أنها دخلت الساحة الإمبريالية بالحرب الإسبانية - الأمريكية فى عام ١٨٩٨، كتب سيدنى لينز يقول إن "مسألة الحكم الذاتى كانت مترسخة فى الروح الوطنية لدرجة أنه بدأت تتشكل معارضة مناهضة للإمبريالية (٣٢)، ولم تكن العصبية المناهضة للإمبريالية، التى تأسست فى نوفمبر

١٨٩٨، تشمل شخصيات من أمثال مارك توين فقط بل شملت أيضاً ساسة بارزين يمثلون الاتجاه السائد. وقد خف اتجاه المعارضة السائد هذا أثناء القرن العشرين؛ إلا أنه أدى إلى صورة للولايات المتحدة تبدو فيها قوة عالمية من نوع مختلف، أى أنها قوة مختلفة عن " الإمبريالية القديمة" فى أوروبا.

وقد اعتملت هذه العوامل الدينامية بشكل ملموس فى حقبة ما بعد الحرب. فقد أضعفت انتفاضات الحرب العالمية الثانية الإمبراطوريات القديمة وأوجدت عالماً ثنائى القطبية يدور حول القوتين الجديدتين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى. وفى هذا السياق، كانت الولايات المتحدة تعقد الأمل على تخفيف قبضة القوى الإمبريالية القديمة على مستعمراتها. ولذا زعمت حكومتا ترومان وأيزنهاور أنهما تدعمان حركات التحرر الوطنى المناهضة للاستعمار؛ وأعلنتا التزامهما مساعدة البلدان النامية بدعم مشاريع لإقامة البنية التحتية وتعزيز النمو الاقتصادى. ولكن هذه المساعدة الاقتصادية كان لها ثمنها، فقد طالبت الحكومتان بالولاء السياسى للولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال، سعت الولايات المتحدة فى البداية إلى انضواء مصر فى عهد جمال عبد الناصر تحت جناحها عن طريق وعود بتقديم مساعدة مالية لها. بيد أن ناصر غازل الاتحاد السوفييتى، وعاقبته حكومة أيزنهاور بأن حنثت بوعدها بتقديم تمويل لبناء سد فى أسوان. وعلى الفور قام ناصر بتأميم قناة السويس، مما دفع بريطانيا وفرنسا وإسرائيل إلى شن حرب على مصر. ثم تدخلت الولايات المتحدة (والاتحاد السوفييتى) فى صف ناصر، وسمحا لمصر بأن تتخلص فى نهاية الأمر من سيدها الاستعمارى السابق، وهو بريطانيا. ويكشف هذا المثال نهج الجزرة والعصا الذى استخدمته النخبة الأمريكية مرة تلو الأخرى أثناء الحرب الباردة: أى استخدام الحوافز النقدية لكسب الحلفاء، ومعاقبتهم عندما يبتعدون عنها، ولكن مع العمل أيضاً على إضعاف قبضة الدول المستعمرة السابقة متى أمكن ذلك.

وقد قال جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية عن أزمة السويس إن ما فعله البريطانيون والفرنسيون ليس سوى الطراز المباشر والقديم من الاستعمار

بأوضح أشكاله^(٣٣)، وعلى العكس من ذلك، قامت الولايات المتحدة بصياغة نموذج جديد للإمبريالية على أساس ما أسمته ميلاني ماركاليستر "التفوق المحسن". وكان هذا النموذج يقوم على فكرة أن العالم الذي تسيطر عليه أمريكا سيكون الحرية والديمقراطية للجميع عن طريق آلية حرية الأسواق. وعبر هنري لوس، رئيس تحرير مجلتى "لايف" و"تايم"، عن هذا الدور العالمى الجديد للولايات المتحدة فى مقال افتتاحى بعنوان "القرن الأمريكى الجديد". وقال إن الولايات المتحدة "محسنة جيدة" وستحقق "الحرية والعدالة" فى مختلف أنحاء العالم فى فترة ما بعد الحرب^(٣٤).

وتذكر ميلاني ماركاليستر أن "التفوق المحسن" كان يعنى، على صعيد السياسة، ربط "قوة الولايات المتحدة الاقتصادية والعسكرية ببرنامج مناهض للشيوعية، ومناهض للاستعمار، ومؤيد لحرية الأسواق"^(٣٥)، وكانت سياسة مناهضة الاستعمار هى الطول محل القوى الاستعمارية القديمة ولذا فإنها كانت شديدة الانتقائية. فقد دعمت الولايات المتحدة نضالات مناهضة للاستعمار فى بعض الحالات التى توافقت فيها أهدافها مع أهداف مناهضى الاستعمار بينما أحبطت نضالات أخرى (فهى، على سبيل المثال، وقفت إلى جانب فرنسا فى الجزائر والهند الصينية)، وكان لها بضع مستعمرات خاصة بها فى منطقة الكاريبى والمحيط الهادى. وقبل كل شيء، كان على الدول التى انتهى استعمارها حديثاً ألا تعارض الإمبريالية الاقتصادية ووصول الولايات المتحدة إلى الأسواق والفرص الاستثمارية فى مختلف أنحاء العالم. ويوضح سيدنى لينز أن استراتيجية واشنطن كانت تدور حول ثلاثة أهداف هى: إيجاد سياسة "باب مفتوح" تتيح للولايات المتحدة دخول الأسواق التى كانت لولا ذلك ستغلق فى وجهها وإقامة تجارة متعددة الجنسيات كركيزة للسياسة الاقتصادية؛ وإضعاف وعزل القوى التى تعارض سياسة الباب المفتوح (والتي كان من بينها الدول الاستعمارية السابقة فضلاً عن القوميين والشيوعيين الراديكاليين)؛ وكسب، كما قال الرئيس كنيدي، "نفوذ وسيطرة" على الحكومات الطيبة، التى تمثل الجناح اليميني عادةً، من

خلال " المنح والقروض المقيدة بشروط، والمعونة العسكرية، والمعدات، وتدريب الجيوش العميلة، والأحلاف العسكرية، وحركات التمرد التي ترعاها وكالة المخابرات المركزية، وكذلك أحياناً، عندما لم تكن الأساليب الأخرى كافية، التدخل المباشر من جانب قوات الولايات المتحدة المسلحة نفسها" (٣٦).

وكان هذا الشكل الجديد من الإمبريالية يتطلب لغة جديدة؛ وأطلق على تلك اللغة اسم " نظرية التحديث". وكان هذا النهج سائداً في دراسات المناطق التي أجريت في الولايات المتحدة بدءاً من خمسينيات القرن العشرين حتى سبعينياته. وتعتمد نظرية التحديث على أعمال ماكس ووبر، التي تميز بين المجتمعات " التقليدية" والمجتمعات " الحديثة". والمجتمعات التقليدية كانت مجتمعات زراعية وريفية، تتغير ببطء، وسلطوية سياسياً. أما المجتمعات الحديثة فقد كان يُنظر إليها على أنها مجتمعات صناعية، تتغير بسرعة، وديمقراطية وقائمة على المساواة سياسياً. وقدم الباحثون الذين وضعوا هذا النهج تفسيرات شتى لعدم تقدم المجتمعات التقليدية؛ فأشار بعضهم إلى عوامل ثقافية، بينما أشار آخرون إلى عوامل اقتصادية. ولكن، في النهاية، اتفق على أن التغيير لن يتأتى من داخل هذه المجتمعات بل يجب أن يتأتى من الخارج.

وإيجازاً، كان ذلك أسلوباً جديداً لتقسيم العالم إلى " نحن" و " هم". ووفقاً لمنظري التحديث، كان " مجتمعنا" مفعماً بالحركة، وذا وجهة علمية، وعقلانياً، ومسانداً للتطور الفردي، وديمقراطياً، وقائماً على المساواة، بينما كانت " مجتمعاتهم" جامدة، وضيقة التفكير، واستبدادية، وسلطوية. وما كان يلزم بالتالي هو تدخل غربي من أجل " مساعدة" المجتمعات التقليدية على التحول إلى الحداثة. وهذه النظرة لم تكن تختلف كثيراً عن أفكار المستشرقين السابقين، ولكنها مغلفة بمصداقية علم الاجتماع، ولم يتكهن منظرو التحديث بالمجتمعات المعاصرة المستندة إلى النصوص الكلاسيكية: فقد أجروا بحثاً على أساس التجربة العملية وجمعوا بيانات جرى تقييمها باستخدام أساليب تحليل البيانات تحليلاً كمياً. وهذه المرة كان ذلك هو العلم الحقيقي، ولا بد أن يكون صحيحاً!

وقد قال دانييل ليرنر، مؤلف كتاب " زوال المجتمع التقليدي: تحديث الشرق الأوسط" ذى التأثير البالغ، إن الناس الذين يعيشون فى مجتمعات حديثة مميزون بشخصياتهم، التى فسرها بعبارات سيكولوجية. فالأفراد العصريون لديهم " تعاطف"، يتيح لهم أن يضعوا أنفسهم موضع الآخرين ويتيح لهم بالتالى أن يتصوروا الأمور ويجعلوا الحراك الاجتماعى ممكناً. أما الأفراد التقليديون فهم يفتقرون إلى هذه القدرة ولذا فهم بحاجة إلى التأثير الغربى لمساعدتهم على التخلص من أساليبهم الجامدة العتيقة^(٢٧)، وكان أسلوب ليرنر فى التحليل يستند إلى أساليب علم الاجتماع واستخدام بيانات كمية. وفى ميدان الاتصال الجماهيرى، نشر إيفيريت رودجرز كتابه " نشر الابتكارات"، الذى درس الكيفية التى يمكن بها نشر الأفكار الجديدة فى المجتمعات التقليدية. وقد خلص رودجرز إلى أن من هم ليسوا منفتحين بالنسبة لـ " الابتكار" الذى يقدمه الغرب يصورون فى أفضل الحالات على أنهم " متخلفون"^(٢٨)، وإيجازاً، لم يكن يُنظر إلى أولئك الذين قاوموا الدعاية الغربية/"الابتكار الغربى" على أنهم أفراد يتصرفون بما يحقق مصالحهم بل كان يُنظر إليهم على أنهم تقليديون ضيقو التفكير يعوقون التقدم.

وبينما توجد لكل من الاستشراق ونظرية التحديث تقاليد وأساليبه البحثية، فقد كانت تجمع بينهما نظرة مستقطبة للعالم: الشرق متدنٍ والغرب متفوق. وبالنظر إلى أن أياً منهما لم يكن ممكناً أن يرى تغيراً متأتياً داخلياً فى المجتمعات الشرقية، فقد دعا كلاهما إلى التدخل الغربى، الذى زعما أنه سيعود بالفائدة على الشعوب المحلية/التقليدية. وإجمالاً، كانت قلة، إن وُجدت، هى التى شككت فى مبدأ أن البحوث المتعلقة بالشرق الأوسط (وفى دراسات المناطق بوجه عام) ينبغى تكييفها لتلبية احتياجات حكومة الولايات المتحدة. وقد كان هذا هو الاتجاه السائد حتى سبعينيات القرن العشرين. وفى تلك المرحلة، أدت عوامل شتى، لا سيما أثر نضالات التحرر الوطنى الناجحة على ميدان دراسات الشرق الأوسط، إلى تكاثر الكتب والمقالات التى تنتقد كلاً من الاستشراق ونظرية التحديث.

ورغم هذه الانتقادات، استمر ازدهار مدارس الفكر الاستشراقى والتحديثى. بل إن تلك المدارس تلاقت فى صورة صمويل هنتجتون، أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد. وفى مقال نُشر فى مجلة "Foreign Affaires" فى عام ١٩٦٨، اعتمد هنتجتون على نظرية التحديث لتبرير قذف الولايات المتحدة للريف الفيتنامى بالقنابل على نطاق هائل. ولاحقاً، فى عالم ما بعد الحرب الباردة، طوّر هنتجتون مفهوم لويس عن "صدام الحضارات" وساعد على إكساب دراسات المستشرقين شعبية.

* * *

لقد ركّز هذا الفصل على مولد الاستشراق فى أوروبا أثناء حقبة الاستعمار الحديث، بحيث ناقش الطرائق التى كان بها الاستشراق كمجموعة من الأفكار مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بمشروع الغزو الإمبريالى. وبينما تبدأ القصة فى أوروبا، فإنها تستمر فى الولايات المتحدة، التى استولت على عبادة السيد الأعلى الإمبريالى فى "العالم الإسلامى" بعد الحرب العالمية الثانية. وقد تصورت الولايات المتحدة نفسها فى صورة طراز من القوة العالمية مختلف عن "أوروبا القديمة"، وانعكست مصالحتها الإمبريالية من خلال عدسة "الإحسان". وكان هذا معناه، من حيث الجوهر، مناهضة الشيوعية واعتناق رأسمالية حرية الأسواق. وقد انبثقت نظرية التحديث فى هذا السياق لتلبية احتياجات الإمبراطورية "الجديدة". بيد أن مكانة الاستشراق وهجرة الباحثين المستشرقين من أوروبا إلى برامج دراسات المناطق فى الولايات المتحدة كانتا تعنيان أن التحديث أيضاً كان مؤثراً فى المجال السياسى. وسيتناول الفصل الرابع بشكل ملموس كيف استخدمت الولايات المتحدة كلتا النظريتين لوضع سياستها فى الشرق الأوسط. ونحن نتناول، على وجه الخصوص، "سياساتها بالنسبة للإسلام" والطرائق التى تعاملت بها مع منظمات الإسلاميين.

ومن المعروف الآن جيداً أن الولايات المتحدة كانت تعتبر أحزاب الإسلام السياسى بمثابة حلفاء أثناء الحرب الباردة. ولكن فى ثمانينيات القرن العشرين بدأ

الجناح اليميني الإسرائيلي ومجموعة من المتشددين في مجال السياسة الخارجية يطلق عليهم " المحافظون الجدد" يصيوران " الإرهاب الإسلامي" على أنه تهديد عالمي مماثل للتهديد الذي كان يمثله الاتحاد السوفييتي (انظر الفصل السابع). وفي حقبة ما بعد الحرب الباردة، بدأت هذه الحجج - التي عززها لويس وهنتنجتون وآخرون - تكسب أرضاً لدرجة أن عملية تفجير قنبلة في مدينة أوكلاهما نُسبت في البداية إلى "إرهابيين إسلاميين" قبل التعرف على من قام بعملية التفجير، وهو تيموثي ماكفي الأمريكي. وفي أعقاب هذا الحادث مباشرة، واستناداً إلى محاولة تفجير قنبلة في مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣، أدى إصدار قانون مكافحة الإرهاب الشامل إلى تعزيز مناخ الخوف من " الإرهابيين" العرب والمسلمين (انظر الفصل الثامن). ومع ذلك، وعلى مستوى السياسة الخارجية، تحاشت إدارة بوش الأب وإدارة كلينتون هذه الطنطنة عن " صدام الحضارات" في صالح موقف " واقعي يوازن بين العوامل". وبعد أحداث ١١ سبتمبر فقط تلاقت السياسة الداخلية والسياسة الخارجية للولايات المتحدة للتعبير عن التهديد الشامل الذي يمثله المسلمون. وسنرى في الفصل التالي أن هذا لم يكن بالمهمة الصعبة، بالنظر إلى أن افتراضات المستشرقين عن " العالم الإسلامي" كانت مقبولة بل وحتى مسلماً بها من قبل المؤسسة الليبرالية.

الفصل الثالث

استمرار أكاذيب المستشرقين

ووجه جون ماكين، المرشح الجمهوري، في أثناء وقفة له في حملته الانتخابية للفوز بالرئاسة في عام ٢٠٠٨، بامرأة بيضاء مسنة قالت إنها لا تثق في باراك أوباما. وأوما ماكين برأسه علامة على اتفاقه في الرأي معها إلى أن أضافت قائلة إن أوباما عربي. فأجاب ماكين قائلاً: " كلا يا سيدتي، كلا ياسيدتي إنه رجل أسرة ومواطن مذهب، اختلف معه فحسب" ^(١)، وكانت وراء هذا الحوار مجموعة كاملة من الافتراضات عن العرب: أنهم سيئون، ولا يمكن الثقة بهم، وليسوا أمريكيين (لأن الأمريكيين العرب لا يُحسبون، وليسوا مهذبين، ولا يقدرون الأسرة). ورغم عدم الاتفاق البادي، كانت تجمع بين ماكين ومؤيديته نظرة ضمنية إلى العرب على أنهم إرهابيون أجنب.

ورد أوباما - المرشح " الليبرالي " - على الاتهامات التي وُجّهت إليه بأنه مسلم وإرهابي بالإصرار على أنه مسيحي. وفي أعقاب الحملة الانتخابية أكد أنه كان يتردد على نفس الكنيسة المسيحية لمدة عقدين، وأنه أدىيمين منصبه باستخدام إنجيل أسرته، وأنه يتعهد باستمرار بولائه للعلم في مجلس الشيوخ ^(٢)، وإيجازاً، فإنه ام يفعل شيئاً للاعتراض على ربط المسلمين والعرب بالإرهاب، متقبلاً ضمناً المنطق المناهض للمسلمين الذي يُنظر إليه على أنه الرأي التقليدي في السياسة السائدة التي تتبعها الولايات المتحدة.

ومنذ أحداث ١١ سبتمبر، لم يروجّ الساسة ووسائط الإعلام لفوبيا الإسلام فحسب، بل أصبحوا يؤرخون بهذا الحدث. وهذه الطنطنة لم تُخترع بعد سبتمبر ٢٠٠١؛ فتاريخها طويل، مثلما شاهدنا في الفصلين السابقين. وسيتناول هذا الفصل بعض صور المسلمين التي استمرت إلى حد أنها أصبحت تمثل شيئاً بديهياً، أي أنها أصبحت أفكاراً يُعتقد أنها صحيحة وجيلية للغاية بحيث لا تحتاج إلى التحقق منها. وبوجه خاص، سنبحث خمس أكاذيب عن الإسلام والمسلمين. وإنى أستخدم مصطلح "myth" لمعنييه الاثنيين، كقصة تقليدية لأحداث يُفترض أنها تاريخية تلقى ضوءاً على النظرة العالمية إلى أناس، وكقصة زائفة ويمكن الطعن فيها. فالأكاذيب عن الإسلام في القرن الحادى والعشرين هي أكاذيب تاريخية بالفعل، ولكنها تستند إلى تفسير مشوه أو انتقائى للماضى. والهدف من هذا الفصل هو تبيان كيف نشأت هذه الأكاذيب المعبرة عن فوبيا الإسلام من رحم الفكر الاستشراقى والتقاليد السابقة، ثم تنفيذ تلك الأكاذيب.

الأكذوبة الأولى: الإسلام ديانة أحادية الخواص

في القرن الحادى عشر، عندما بدأت صورة العدو المسلم تتبلور، لم يبذل الباحثون الدينيون الذين أصدرت النخبة الأوروبية تكليفاً لهم إلا بضع محاولات لفهم مختلف فروع الإسلام وممارسته الفعلية من قِبَل المسلمين فى مختلف أنحاء العالم. فقد أرادوا، بدلاً من ذلك، كشف مُحمد كمدع وكشف الإسلام كدين زائف. ولم يُستثمر قدر كبير من الوقت فى معرفة كيف دمج الإسلام الممارسات الثقافية للإمبراطوريات والشعوب التى قهرها أو كيف تحولَ بفعل الثقافات المختلفة بحيث اتخذ أشكالاً مختلفة فى المناطق المختلفة.

ومع أن أولئك الذين يمثلون أقصى اليمين هم الذين من شأنهم أن يزعموا الآن أن الإسلام ديانة زائفة، كثيراً ما يكون من المسلم به كشيء بديهى أن الإسلام متجانس الخواص. وهذا يرجع إلى حد كبير إلى ترويج المستشرقين، مثلهم مثل

نظرائهم فى القرون الوسطى، لاكنوبة أن الإسلام دين أحادى الخواص يمكن فهمه تماماً من خلال نصوصه الكلاسيكية. فالعمل من منطلق افتراض من هذا القبيل هو وحده الذى يمكن أى أحد من أن يطلق مزاعم عن كيان جامد يسمى " الحضارة الإسلامية" ذى مجموعة أساسية من القيم التى لا تتغير، أو عن " العقل الإسلامى" (الذى يُنظر إليه، بطبيعة الأمر، فى صيغة المفرد، وكأن جميع المسلمين لديهم عقل خلية). وإنكار تنوع التاريخ الإسلامى وتنوع الممارسات الإسلامية هو وحده الذى يمكن أن يجعل المرء يقول إن الإسلام له خصائص متأصلة معينة لا تتغير تجعله يتسم بمناهضته للديمقراطية ويعنفه وبتحيزه الجنسى وما إلى ذلك. والأكاذيب التى ترد مناقشتها فى هذا الفصل تنبع من هذا الافتراض الأساسى وهو أن الإسلام أحادى الخواص.

ويتضح حتى من إلقاء نظرة خاطفة على ممارسة الإسلام فى مختلف أنحاء العالم أن هذه الأكنوبة زائفة تماماً. فمليار ونصف مليار شخص فى مختلف أنحاء العالم مسلمون، ٨٥ فى المائة منهم سنّة و ١٥ فى المائة منهم شيعة^(٢). وداخل هاتين الطائفتين الرئيسيتين، هناك فروع أخرى كثيرة. وتوجد على امتداد المعمورة بلدان ومناطق يمثل المسلمون أغلبية فيها، بدءاً من إندونيسيا إلى بنغلاديش إلى بلدان متعددة فى وسط آسيا إلى الشرق الأوسط وصولاً إلى شمال أفريقيا. وفى معظم هذه البلدان الإسلام هو الدين السائد، ومن هنا ينبع مصطلح " البلدان التى يشكل فيها المسلمون أغلبية". ولكن هذه البلدان تؤوى أيضاً مسيحيين ويهوداً وأشخاصاً ينتمون إلى ديانات أخرى، فضلاً عن الملحدين. ويوجد فى الهند، وهى بلد يشكل فيها الهندوس أغلبية مهيمنة، أكثر من مائة مليون مسلم.

ويبدو الإسلام مختلفاً فى كل منطقة من هذه المناطق وكل بلد من هذه البلدان، ويرجع هذا إلى حد كبير إلى أن الناس مزجوه، عندما انتشر، بعاداتهم وتقاليدهم المحلية. فالإسلام الصوفى الذى يُمارس فى شمال الهند يختلف اختلافاً كبيراً عن الإسلام الشيعى الذى يُمارس فى لبنان، الذى يختلف بدوره عن الإسلام السنّى الذى

يُمارَس في باكستان. وحتى داخل أى فرع منفرد من فروع الإسلام توجد عادات وممارسات تتباين بحسب المنطقة وعبر الزمن. ومن ثم، يختلف إسلام شبه الجزيرة العربية في القرن السابع عن المذهب الوهابى الموجود الآن فى المملكة العربية السعودية. وقد تكون النصوص الدينية ثابتة تقريباً، ولكن ديانات العالم، ومن بينها الإسلام، تغيرت وتكيفت استناداً إلى التحولات التاريخية.

ويسعى قدر كبير من الطنطنة الحالية المعبرة عن فوييا الإسلام إلى شيطنة العرب على وجه الخصوص. فكما شاهدنا فى المثال الذى سقته فى بداية هذا الفصل، " أنَّهُم " أوياما بأنه عربى، وهو اتهام يمثل اختزالاً لـ " المسلم " فى بعض الأوساط. ولذا دعونا نلاحظ نقطة بسيطة: المسلمون ليسوا جميعهم عربياً، والعرب ليسوا جميعهم مسلمين. فالعرب هم أناس يتحدثون اللغة العربية، وتجمع بينهم تقاليد ثقافية مشتركة معينة، ويزعمون أن لديهم هوية عرقية عربية مشتركة⁽⁴⁾، ومن الناحية الجغرافية، كان العالم العربى ينقسم تقليدياً إلى جزأين: منطقة المغرب العربى أو الغرب، التى تشمل كلاً من المغرب وليبيا والجزائر وتونس والسودان وبلداناً أخرى تقع غربى نهر النيل، ومنطقة المشرق العربى أو الشرق، التى تشمل كلاً من مصر وسوريا ولبنان وجميع البلدان التى تقع شرقى نهر النيل حتى إيران ولكن بما لا يشملها. وبسبب الاختلافات اللغوية والثقافية، لا يُعتبر الإيرانيون والأتراك عربياً.

ومن ثم، إذا نظرنا نظرة فعلية، حتى ولو موجزة مثلما فعلنا أنفاً، إلى تنوع البشر الذين يتبعون الإسلام، فإننا لن نجد فحسب أى أساس بيولوجى أو عرقى للإسلام المتماثل بل إن فكرة الإسلام الأحادى الخواص تنهار على الفور أيضاً. وكذلك ادعاء المستشرقين أن هناك " حضارة إسلامية " عبر التاريخ تستند إلى مجموعة أساسية من القيم ويمكن انطلاقاً منها أن يفسر المرء طائفة من الظواهر المعاصرة. ومع ذلك فإن هذا هو على وجه التحديد المنطق الذى سنجد أنه السائد فى الأكاذيب التالية، التى تجزم بأن الإسلام بحكم طبيعته متحيز جنسياً، ولا عقلانى، ويتسم بالعنف، وغير ديمقراطى. وإضفاء طابع التجانس على الإسلام والمسلمين يُعتبر أمراً بديهيّاً لدرجة

أنه يمثل أساس جميع الأكاذيب الأخرى. وقد لاحظ إيوارد سعيد أن المستشرق ذا النفوذ جرونياوم " أنتج عملاً متيناً ركز على الإسلام كثقافة كلية وظل يطرح بشأنها، منذ بداية حياته المهنية حتى نهايتها، نفس مجموعة التعميمات السلبية الانتقاصية بصفة جوهرية"⁽⁶⁾، وهذا النمط يمكن العثور عليه ليس فحسب في دراسات الباحثين بل أيضاً في الثقافة الشعبية⁽⁷⁾.

الأكذوية الثانية: الإسلام ديانة متحيزة جنسياً بشكل فريد

بينما كانت أوروبا المتسمة بالاضطهاد الجنسي مبهورة ومأخوذة بالعادات الإسلامية المتعلقة بالزواج حتى أثناء القرون الوسطى، لم تجر أى مناقشة منهجية بشأن المرأة والإسلام إلا في القرن التاسع عشر. وقد ذكر أحد الباحثين، تعليقاً على استحواز أوروبا في القرن التاسع عشر بشأن المرأة المسلمة، أن " ما من موضوع مرتبط بالإسلام اعتبره الأوروبيون أهم من وضع المرأة المسلمة"⁽⁸⁾، وكانت الحكاية السائدة التي انبثقت من ذلك الاستحواز هي حكاية تصور المرأة المسلمة على أنها امرأة يخضعها الرجل لسيطرته إخضاعاً شديداً، ومقمعة، ولا تزيد كثيراً عن كونها عبدة. وكان يُقال إن المسلمين المستبدين كانوا، تماماً مثلما مارسوا طغيانهم على رعاياهم، يمارسون طغيانهم على زوجاتهم وبناتهم أيضاً. وكما أظهر باحثون شتى، لم يكن الرجال الأوروبيون الذين كتبوا عن محنة المرأة المسلمة يحتكون كثيراً في حقيقة الأمر بتلك المرأة للتحقق من افتراضاتهم. وتكشف قصص كثيرة سردتها نساء غربيات عن النساء المسلمات اللاتي التقين بهن عن وجود واقع أكثر تعقيداً⁽⁹⁾. ومع ذلك، فقد خدمت هذه الأقاويل عن المرأة المقمعة المشروع الاستعماري، إذ كان باستطاعة الرجال الغربيين بذلك أن يمتطوا ظهور خيولهم وهم يرتدون سراويل الفرسان والخوذات المصنوعة من اللباب لإنقاذهم.

وكان إيفلين بارينج، الذي كان في البداية إيرل كرومر، وأصبح أكثر شهرة باسم اللورد كرومر، واحداً من الإنجليز الذين يرتدون الخوذات اللبابية واستغل

الفرصة. فعندما غزت بريطانيا مصر واحتلتها فى عام ١٨٨٢، عهد إلى كرومر بمهمة الإشراف على الاحتلال. وقد كتب يقول إن "الإسلام كنظام اجتماعى أثبت فشله التام ... فتخقير المرأة فى الشرق هو داء مُهلك يبدأ فتكه فى مرحلة مبكرة من الطفولة واستشرى فى منظومة الإسلام بأكملها." وكان الحل هو "حض المسلمين أو إجبارهم على تشرب الروح الحقة للحضارة الغربية"^(٩). أما داخلياً، فإن نصير حقوق المرأة المصرية هذا كان يعمل بشكل محموم على حرمان المرأة البريطانية من حقها فى التصويت وذلك بوصفه عضواً مؤسساً لعصبة الرجال العاملة على معارضة حق المرأة فى الاقتراع، وبوصفه رئيساً لتلك العصبة. ولم يكن هذا يمثل تناقضاً بالنسبة لكرومر، الذى كان محافظاً من الناحية الاجتماعية فى الداخل، ولكنه كان مستعمراً مستتيراً فى الخارج. ولم يكن، كسيد أعلى استعماري، يطرح أى بيان مبادئ بل كان يستخدم ببساطة حججاً مفيدة للمهمة الاستعمارية.

وبعد انقضاء أكثر من قرن، لم يكن من قبيل المفاجأة أن يتخفى الرئيس جورج دابليو بوش، الذى كان سجله السياسى مناهضاً للمرأة بشكل ثابت، فى صورة المنقذ للمرأة الأفغانية. فقد كان من بين أعمال بوش الأولى بعد أن تقلد منصب الرئاسة خفضه للتمويل الذى تقدمه الولايات المتحدة للجماعات الدولية التى تقدم خدمات الإجهاض للمرأة، ومع ذلك فقد وصف الحرب على أفغانستان بأنها ضرورية لإنقاذ المرأة الأفغانية: "من الواضح أن لدينا مشاكل خطيرة مع حكومة طالبان. فهى حكومة قمعية بدرجة لا تصدق، حكومة لديها منظومة قيم من الصعب على كثيرين فى أمريكا أن يتقبلوها. فهى تضطهد المرأة اضطهاداً لا يصدق"^(١٠). ولعل الجزء "الذى لا يصدق" هو الذى أثار انبهار دوبيبا، لأن حياته موهلة فى الافتراضات والممارسات التى تنم عن التحيز الجنسى. وعلى أية حال، انبرت مجموعة كاملة من السياسيات، بل وحتى المنظمات النسائية من قبيل منظمة "الأغلبية النسائية"، لتأييد الحرب. وزعمت لورا بوش، التى كانت قد اتخذت مؤقتاً صورة المدافعة العتيدة عن المرأة، أنه: "نتيجة لمكاسبنا العسكرية التى تحققت مؤخراً فى أجزاء كبيرة من أفغانستان، لم تعد المرأة الأفغانية حبيسة بيتها. فقد أصبح بإمكانها أن تستمع إلى الموسيقى وأن تتعلم بناتها

دون خوف من العقاب. ومع ذلك فإن الإرهابيين الذين ساعدوا على حكم ذلك البلد يتآمرون ويخططون الآن في بلدان كثيرة. ويجب إيقافهم. ومكافحة الإرهاب هي أيضاً مكافحة في سبيل حقوق المرأة وكرامتها^(١١). وفي واقع الأمر، تدهورت أوضاع المرأة في أفغانستان، لا سيما في المناطق الريفية، بعد غزو الولايات المتحدة لأفغانستان. وقد أبرزت هذه النقطة تماماً مالالاي جويبا، أصغر امرأة تُنتخب في البرلمان الأفغاني والمدافعة عن حقوق المرأة؛ وردت الولايات المتحدة على ذلك بحظر دخولها البلد للقيام بجولة لإلقاء كلمات في عام ٢٠١١ إلى أن اندلع احتجاج عام^(١٢).

ورغم هذا الواقع، فإن المنطق القائل بأن المرأة المسلمة مقمعة ولذا فهي بحاجة إلى إنقاذ على يد الغرب ما زال هو المنطق السائد. وكان الحجاب الإسلامي موضوع قدر كبير من الجدل. فقد جرى حظر الحجاب، أو تحقيره، أو استخدامه تعزيراً للحجة الاستعمارية أنفة الذكر، من منطلق رؤيته يوماً كرمز لقمع المرأة المسلمة. وفي أبريل ٢٠١١، أعادت الحكومة الفرنسية تدوير هذه الحجة عندما منعت النساء من ارتداء الحجاب في الأماكن العامة، منتهكة بذلك الحرية الدينية في العملية. وتغيب عن هذا الخطاب أصوات المرأة المسلمة ذاتها، التي كان يمكن أن تقدم سرداً بديلاً للأمر، سرداً يتحدث عن الاختيار الواعي من جانب أفراد يتمتعون بالاستقلال الذاتي. وكما قلت في مواضع أخرى، فإن خطوة من هذا القبيل من شأنها أن تستتبع تحولاً في شروط النقاش: ففي هذه الحالة تصبح المرأة المسلمة عنصراً فاعلاً قادراً على تغيير ظروفها الخاصة، بدلاً من تصويرها على أنها ضحية معدومة الصوت^(١٣). وغنى عن البيان أن هذا لن يكون فعالاً، على الأقل ليس بالنسبة للدول الإمبريالية العاقدة العزم تماماً على "إنقاذ" المرأة المسلمة سواء شاعت أم لم تشأ.

ومع ذلك، حالما نتخلص من مغالطة إمبريالية، فإن السؤال المنطقي التالي هو ما إذا كان الإسلام متحيزاً جنسياً بشكل فريد. وتعزيراً لهذه المقولة، قد يشير المرء إلى أن حقوق المرأة تقلصت بشدة على يد النظم الإسلامية اليمينية من قبيل طالبان في أفغانستان وتحالف المحافظين في إيران. وقد نرد على هذه النقطة بطريقتين. أولاً،

أحزاب الإسلام السياسى تكيف الدين لخدمة أهدافها السياسية بنفس الطريقة التى استخدم بها الأصوليون الأمريكيون المسيحية لمهاجمة حقوق المرأة. ثانياً، جميع ديانات العالم الرئيسية متحيزة جنسياً بدرجة قد تكون أكبر أو أقل. والتحدث عن الإسلام وحده لممارساته المتحيزة جنسياً فى وسائط الإعلام السائدة وفى الخطاب العام ليس سهواً تاريخياً بل هو محاولة ممنهجة لتصوير " قيمنا " وديانتنا على أنها مستنيرة على العكس من " قيمهم وديانتهم".

فمن الممكن، مثلاً، الإشارة إلى التحيز الجنسى فى تاريخ المسيحية وفى المجتمعات التى يشكل فيها المسيحيون أغلبية بسهولة تامة. فأسطورة الخلق المسيحية تخبرنا أن حواء خلقت من ضلع آدم، وأن الألم الذى تعانيه المرأة أثناء الولادة هو عقاب على عدم طاعة حواء للرب. وكانت النساء اللاتى يُعتقد أنهن ساحرات يُحرقن وهن مشدودات إلى خازوق ليس فحسب فى أوروبا بل أيضاً فى أمريكا الاستعمارية، قبل ثلاثة قرون بالكاد. وتحظر كل من نيكارا جوا وشيلى والسلفادور ومالطة، وجميعها بلدان يهيمن عليها الكاثوليك، الإجهاض دون استثناء، حتى ولو كانت حياة المرأة فى خطر^(١٤). ولم تنتخب الولايات المتحدة حتى الآن رئيسة لها، بينما نجد بلداناً يمثل فيها المسلمون أغلبية، مثل باكستان وبنغلاديش وإندونيسيا، سبق لها أن فعلت ذلك. والأسوأ هو أن الولايات المتحدة " المستنيرة " تواصل قمع حقوق المرأة. فنسبة لا تتجاوز ١٣ فى المائة من مقاطعات الولايات المتحدة هى التى تتيح خدمات الإجهاض. وقد أصدرت ولايات متعددة قوانين تتيح للصيادلة أن يرفضوا صرف التذاكر الطبية الخاصة بتنظيم النسل، بما يشمل الحمل الطارئ. وفى نفس الوقت الذى جرى فيه تقييد حق المرأة فى التحكم فى جسدها، زاد الاهتمام بالجنين. وهذه القيود على حقوق المرأة ترجع، إلى حد لا يستهان به، إلى تأثير اليمين المسيحى على سياسة الولايات المتحدة. وهذا يماثل العوامل الدينامية الموجودة فى كثير من البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية، حيث أدى نشوء جماعات الإسلاميين إلى حدوث تدهور فى وضع المرأة.

وحتى إذا درسنا الإسلام دراسة موضوعية فإن هناك قدراً كبيراً من الجدل بشأن دور المرأة. فالقرآن، مثله مثل أى نص ديني، قابل لتفسيرات متعددة. فثمة آيات فى القرآن تمنح المرأة نفس الحقوق الممنوحة للرجل فيما يتعلق بالطلاق وتسمح لها بأن تكون لديها وترث ممتلكات، مما يمثل خطوة إلى الأمام بالنسبة للمرأة فى المجتمع العربى وقتئذ^(١٥). ومع ذلك هناك أيضاً آيات تبيح تعدد الزوجات وتقتصر حق المرأة فى الميراث على نصف ما يحصل عليه الرجل^(١٦).

وقد حاجج باحثون من أمثال ليلى أحمد وأسماء برلس بأن الإسلام ليس كارهاً للمرأة بطبيعته. وهما تشيران إلى آيات المساواة فى القرآن التى تدل على المساواة بين الرجل والمرأة. وتقول أسماء برلس إن تفسيرات القرآن المتحيزة جنسياً هى نتاج مجتمعات معينة تحتاج إلى سند ديني لتبرر انعدام المساواة بين الجنسين^(١٧). وتذكر ليلى أحمد أن المرأة فى المجتمع العربى قبل مأسسة الإسلام كانت تشارك فى الحرب والدين وكان لها استقلالها الذاتى الجنسى. ويذهب مونتجمرى وات حتى إلى أبعد من ذلك قائلاً إن المجتمع العربى وقتذاك كان يُنسب فيه المرء إلى الأم فى الأغلب^(١٨). بيد أن مكسيم رودنسون يرفض هذا التحليل، واصفاً شبه الجزيرة العربية فى تلك الحقبة بأنها كانت مجتمعاً يُنسب فيه المرء إلى أبيه تسود فيه ممارسات تعدد أزواج المرأة، المقرونة بأنوار اجتماعية جوهريّة للمرأة، فى بعض المناطق^(١٩). وكانت السيدة خديجة الزوجة الأولى للنبي محمد امرأة ثرية فى الأربعين من عمرها عندما عرضت على النبي محمد وهو فى الخامسة والعشرين من عمره الزواج. وكانت قد سبق لها الزواج مرتين وترملت؛ بينما كان هذا هو الزواج الأول لمحمد.

ومع انتشار الإسلام فإنه تبنى الممارسات الثقافية للإمبراطوريات المختلفة، بما فى ذلك ممارسات الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية المجاورتين. أما المسيحيون الذين أقاموا فى الشرق الأوسط ومنطقة البحر الأبيض المتوسط فقد كانت لهم عادات أكثر صرامة فيما يتعلق بالمرأة. ففي الإمبراطورية البيزنطية المسيحية، كان هناك فصل بين الجنسين. ولم يكن مسموحاً للمرأة بأن تُشاهد فى الأماكن العامة،

وكانت ترتدى حجاباً، وكان لا يسمح لها إلا بالحصول على تعليم أولى فقط. ومع دمج الإمبراطورية الإسلامية الآخذة في التوسع لهذه المناطق، فإنها استوعبت أيضاً هذه الممارسات الثقافية والاجتماعية^(٢٠)، وبعبارة أخرى، فإن الممارسات المعينة المضادة للمرأة التي تبناها الإسلام كانت موروثاً إلى حد كبير من العادات الدينية المسيحية واليهودية الخاصة بالمجتمعات المجاورة التي غزاها المسلمون. والنقطة الهامة هي أن المواقف التي تتم عن تحيز جنسى نحو المرأة هي بعيدة تماماً عن أن تكون مقصورة على الإسلام بل كانت سائدة بين المسيحيين واليهود كذلك.

وقد شهدت المرأة في هذه المنطقة تقليص حقوقها في ظل النفوذ الغربي من قبل. وتبين ليلى أحمد أن مصيراً مماثلاً تعرضت له المرأة المصرية عندما غزا الإغريق مصر في عام ٢٢٢ قبل الميلاد^(٢١). ففي المجتمع الإغريقي، كانت للمرأة حياة منعزلة، وكانت ترعى الصغار، وكانت في حكم "الطفلة الحقيقية" بموجب القانون. وكان الفيلسوف الإغريقي أرسطو يعتقد أن الذكر "متفوق بحكم طبيعته، وأن المرأة أدنى بحكم طبيعتها، وأن الأول يحكم والآخر يُحَكَّم"^(٢٢). وعلى العكس من ذلك، في المجتمع المصري، كانت للمرأة مكانة سامية، لا سيما المرأة التي تنتمي إلى الطبقة العليا. ففي الملكة الجديدة (١٥٧٠-٩٥٠ قبل الميلاد)، كانت المرأة المصرية وكان الرجل المصري يُعتبران متساويين بموجب القانون. وكان يحق للمرأة أن تترك أملاكاً وأن تكون لها أملاك وأن تديرها، وكانت قوانين الزواج قائمة على المساواة، وكان بإمكان المرأة أن تنتقل بحرية وبدون عزل. وهذا ليس معناه أنه لم يكن مجتمعاً يسيطر عليه الرجل، ولكن قيود القمع كانت أخف من تلك الموجودة في المجتمع الإغريقي.

وهذا ما ينم عن وجود الكثير بالنسبة للاكثوية التي يروجها المستشرقون عن الحرية وحقوق المرأة بوصفهما "قيمتين أساسيتين" في الغرب مستمرتين من بلاد الإغريق القديمة حتى وقتنا الحاضر. ففي حقيقة الأمر، التراث الغربي "الليبرالي" العظيم ليس غارقاً في التحيز الجنسي فقط بل إنه - كما تبين حالة مصر - لعب دوراً في تقليص حقوق المرأة في الشرق. وعلاوة على ذلك، من الجوهري أن نتذكر أن

الحقوق التي تتمتع بها المرأة في أي مكان في العالم الآن هي نتاج ضروب الكفاح التي خاضتها المرأة (وخاضها الرجل) في سبيل تلك الحقوق. فنيل المرأة لحق التصويت في الولايات المتحدة لم يستغرق أقل من مائة عام من الكفاح المرير.

الأكذوبة الثالثة: «العقل الإسلامي» غير قادر على المنطق والعقلانية

في خطاب ألقى عام ٢٠٠٦، بعنوان "الإيمان والمنطق والكونية"، ساوى البابا بينديكت السادس عشر بين الكاثوليكية والمنطق وبين الإسلام والعنف وانعدام المنطق. فقد قال، معيداً صياغة عبارة لإمبراطور بيزنطي يرجع إلى القرن الرابع عشر، إنه عندما تنتشر ديانة (مثل الإسلام) عن طريق العنف فإنها تكون مضادة للمنطق ومضادة أيضاً للطبيعة، لأن "عدم التصرف وفقاً للمنطق يتناقض مع طبيعة الرب" (٢٣)، وقد انضم البابا، بقوله هذا، إلى رتل طويل من المستشرقين الذين قالوا إن المنطق والعقلانية والعلم هي أمور غريبة بالنسبة لعالم الإسلام.

فقد ذكر المستشرق الفرنسي إرنست رينان، الذي ناصر العلم والمنطق، في مقالته التي نشرها عام ١٨٨٣ بعنوان "الإسلام والعلم" أن "الإسلام في عصوره الأولى والعرب الذين اعتنقوه كانوا معادين للروح العلمية والفلسفية" (٢٤). وقال في محاضرة في السوربون:

إن أي أحد لبيه أي معرفة بالشؤون الحالية يمكن أن يرى بوضوح تام التننى الفعلى لمنزلة البلاد الإسلامية، وانحطاط الدول التي يحكمها الإسلام، والعقم الفكري للأجناس التي تستمد ثقافتها وتعاليمها من تلك الديانة وحدها. فجميع أولئك الذين سافروا إلى الشرق أو إلى أفريقيا هالهم ضيق تفكير المؤمن الحقيقي، ونوع القيد الحديدي الملفوف حول رأسه والذي يعزله تماماً عن العلم ويجعله غير قادر إلى حد كبير عن تعلم أي شيء أو فتح عقله لتقبّل أي أفكار جديدة (٢٥).

وقد أصدر رينان تعميمات كاسحة عن " العقول الضيقة" لمن يعيشون في الشرق وفي أفريقيا، الذين يمثلون جنساً عقيماً فكرياً بسبب تمسكهم بالإسلام. وما نراه هنا ليس ادعاءات عنصرية فحسب عن المسلمين بل أيضاً فكرة أن الإسلام أدى إلى وقف النمو العلمى. وعندما طُلب من رينان، تحدياً لمقولته، أن يفسر ازدهار العلم فى الإمبراطوريات الإسلامية فى القرون الوسطى، فإنه أجاب قائلاً إن العرب، مثل " الساميين" الآخرين، كانوا غير قادرين على العلم. وأضاف قائلاً إن الخلافة العباسية كانت أساساً إغريقية وفارسية، حتى وإن استخدمت اللغة العربية. ومن ثم فإن "الآريين" هم الذين كانوا مسؤولين عن ازدهار العلم هذا (٣٦).

أما كرومر، الذى التقينا به وهو يرتدى خوذته اللبابية فى مصر من قبل، فقد كان لديه ما يلى ليقوله فى كتابه الذى يقع فى مجلدين ويحمل عنوان " مصر الحديثة":

إن الأوروبى يتبع المنطق تماماً؛ فتعبيراته عن الحقيقة تخلو من الغموض؛ وهو يتبع المنطق بشكل طبيعى، حتى وإن كان لم يدرس المنطق؛ وهو متشكك بطبيعته ويحتاج إلى دليل قبل أن يتمكن من قبول حقيقة أى قول؛ وذكاؤه المدرب يعمل كالة. أما عقل الشرقى، من الناحية الأخرى، فهو، مثل شوارعه الجديرة بأن تكون موضوعاً لصورة، يعوزه التماثل إلى حد شديد. وأسلوبه فى المنطق يمثل أقصى درجات التخلف. ومع أن العرب الأقدمين اكتسبوا علم الديالكتيك (الجدل المنطقى) بدرجة أعلى نوعاً ما، فإن من خلفهم لديهم قصور متفرد فى ملكة المنطق. فكثيراً ما يكونون غير قادرين على استخلاص أوضاع الاستنتاجات من أى فرضية بسيطة قد يكونون معترفين بحقيقتها (٣٧).

وكرومر، على الاختلاف من رينان، كان شفوفاً بدرجة تكفى لاعترافه بأن العرب والمسلمين كانوا يفهمون يوماً ما " علم الديالكتيك"، ولكنهم الآن، كما يزعم، قاصرون تماماً فى المنطق والاستنتاج المنطقى. وبينما يستمر هذا التصوير الكاريكاتيرى حتى فى أوائل القرن الحادى والعشرين، كما أوضحت لنا أقوال البابا، فإن العنصرية البيولوجية من النوع الذى شاهدناه قد حلت محلها تقريباً عنصرية ثقافية (٣٨).

وبينما لا يسوق الآن حججاً عنصرية سافرة بهذا الشكل مثل حجج كرومر إلا أولئك الذين يمثلون أقصى اليمين، ليس من الصعب أن نرى كيف يتخلل المنطق العام لانعدام العقلانية مناقشات كثيرة. فكثيراً ما يصور أولئك الذين يُعتبرون "إرهابيين" على أنهم مصابون بالجنون، وليسوا عقلانيين، ومتعصبون: أى أنهم يصورون على أنهم أفراد يرتكبون أهوالاً غير مسبوقه بدون أى منطق أو دافع واضح (٢٩). فالفلسطينيون الانتحاريون الذين يفجرون القنابل، مثلاً، يصورون على أنهم ملتاثون متطرفون، لا كأشخاص يُدفعون إلى اتخاذ تدابير متطرفة فى ظل ظروف الاحتلال (٣٠). ويقال لنا إن الإرهابيين لا يمكن التحاور منطقياً معهم، إذ تحركهم دوافع غير عقلانية ويجب لذلك وضعهم على "قوائم المطلوب قتلهم".

والجدل بشأن ما إذا كان ينبغي السماح لإيران بامتلاك أسلحة نووية تابع من هذه الحجج. فقد قال رودلف جوليانى، المرشح الجمهورى وعمدة مدينة نيويورك السابق، إن "حقيقة الأمر هى أن استخدام القوة العسكرية ضد إيران سيكون أمراً بالغ الخطورة. ... إذ سيكون استفزازياً للغاية. ولكن الشيء الوحيد الأسوأ من ذلك هو أن تصبح إيران دولة نووية. فهذا هو أسوأ كابوس من كوابيس الحرب الباردة. ليس كذلك! وجود أسلحة نووية فى أيدي شخص غير عقلانى، فى أيدي قوة غير عقلانية. ومن الواضح أن أحمدي نجاد غير عقلانى" (٣١). وخطوط الفصل هذه شائعة. إيران "اللاعقلانية" والغرب "العقلانى". ولا يكرس سوى قدر ضئيل من النقاش للسبب الذى يجعل إيران، كجهة فاعلة سياسية عقلانية، قد ترغب فى الحصول على أسلحة نووية؛ فهى، بعد كل شيء، محاطة بدول نووية من قبيل الهند وباكستان والصين وروسيا وإسرائيل، ومحاطة بقواعد الولايات المتحدة فى قطر والعراق وتركيا وأوزبكستان وأفغانستان، التى قد توجد فيها أسلحة نووية.

وثمة طرائق كثيرة لتفنيد هذه الأكذوبة عن الإسلام والعلم والعقلانية، وتوجد أيضاً كتب ومقالات ممتازة تقضى تماماً على نفس مفهوم الأعراف المحددة بيولوجياً والصلة الكاذبة بين التكوين البيولوجى والقدرة الفكرية. (انظر، مثلاً، المقالات النقدية

المتأثرة المختلفة التي تناولت كتاب "The Bell Curve"^(٢٢)، ولكنى، هنا، سأسهب بمزيد من التفصيل بشأن النقطة المثارة في الفصل الأول، وهى أن الغرب لم يكن ليمر بعصر النهضة لولا المساهمات العلمية المقدمة من العباسيين وممالك الأندلس.

إبان القرن السابع، بينما كانت أوروبا غارقة فى مستنقع عصور الظلام، برز الإسلام على الساحة وأقامت جيوش المسلمين إمبراطورية شاسعة امتدت من آسيا الوسطى وحتى أجزاء من أوروبا إلى أن وصلت إلى المحيط الأطلنطى. وقد اعترف الحكام المسلمون الذين ينتمون إلى الأمويين والعباسيين (٦٦١-١٢٥٨ بعد الميلاد) بالتطور المتقدم للممالك والثقافات التى غزوها وألوا على أنفسهم أن يستوعبوا هذه الثقافات ويتبنوها. فأقاموا مكتبات ومراكز للترجمة جُمعت وترُجمت فيها الأعمال العظيمة المتعلقة بالعلم والطب والفلسفة، الشرقية والغربية على حد سواء. وتلت عصر الترجمة هذا حقبة إبداع عظيم بقيام جيل جديد من المفكرين والعلماء المسلمين بالبناء على هذه المعرفة وتقديمهم مساهمات خاصة بهم.

فقد أرسى العلامة الفارسي ابن سينا - المعروف فى التاريخ الغربى باسم "Avicenna" الأساس لدراسة المنطق والعلم والفلسفة والسياسة والطب. وقام ابن رشد بمنهجة فكر أرسطو لتقديم العقلانية والمذهب المناهض للمذهب الاستبطانى إلى جمهور جديد؛ وتجاوز أرسطو أيضاً بالدعوة إلى الفكر العقلانى بوصفه فضيلة فى حد ذاته. وألف ابن رواندى عدة كتب تشكك فى المبادئ الأساسية ليس فحسب للمسيحية واليهودية بل أيضاً للإسلام. وكان ابن رواندى ينتمى إلى طائفة المعتزلة، التى بلغ بها الأمر التساؤل عما إذا كان القرآن هو حقاً مجموعة من الآيات التى أنزلها الرب على مُحَمَّد. واستخدم المعتزلة التفكير العقلانى، وشذرات من الفلسفة اليونانية، وملاحظاتهم الخاصة بهم لوضع نظريات لتفسير العالم المادى^(٢٣)، وإيجازاً، ازدهر العلم فى عالم الإمبراطوريات الإسلامية.

وعندما تخلصت أوروبا من فترة ركودها، استقاد عصر النهضة فيها فى مجالات الفن والثقافة والعلم من هذا الإرث المستديم لأن المفكرين الأوروبيين توافدوا على

المكتبات الإسلامية العظيمة، ليس فحسب ليعاودوا معرفتهم عن تاريخهم وتراثهم بل أيضاً لاستيعاب التطوير الإضافي لهذا التراث الذى أحدثه المفكرون المسلمون^(٣٤). وهذا التاريخ إما موضع تجاهل أو موضع تنقيح من قِبَل المستشرقين السابقين والمستشرقين الحاليين، الذين يصورون " الغرب " ككيان أسطوري تطور فيما يبدو بمعزل عن بقية العالم.

ومن المهم أيضاً أن البابا، فى استنكاره للإسلام على أساس أنه يفتقر إلى المنطق، لم يثر موضوع المعارضة العدائية من جانب الكنيسة الكاثوليكية للثورة العلمية ولمولد الطرائق غير الدينية والعقلانية لفهم العالم. فالثورة العلمية، والتنوير بوجه أعم، كانا يتعارضان مع العقيدة الجازمة المسيحية وكانت الكنيسة تنظر إليهما على أنهما يشكلان تهديداً. وتعرض لعقاب شديد أولئك العلماء الذين استخدموا المنطق والعقلانية لتفسير العالم المادى. فجيوردانو بروتو، الذى ناصر نظام كوبيرنيكوس لعلم الفلك، سجنته محاكم التفتيش التابعة لروما والتابعة لمدينة البندقية لمدة ثمانى سنوات لرفضه التخلّى عن معتقداته. وقد حُرّق لاحقاً وهو مشدود إلى الخازوق. ومثّل جاليليو أيضاً أمام محكمة التفتيش وحُددت إقامته فى منزله بقية حياته.

وخطاب البابا يضرب بجذوره بشكل عميق فى أكاذيب المستشرقين؛ وهو يعرض رؤية معينة لـ " غرب " عقلانى ومستنير بينما يحجب تاريخ العنف الخاص بالمسيحية. وهو يستشهد بالإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى باليولوجوس، الذى قال " فلتظهروا لى الجديد الذى أتى به مُحمد، ولن تجدوا سوى أشياء شريرة وغير إنسانية، من قبيل أمره بنشر الدين الذى كان يدعو إليه بواسطة السيف"^(٣٥). ومن دواعى السخرية أن جوزيف راتزينجر - الذى انتُخب حاملاً اسم البابا بنيديكت السادس عشر بعد أن كان قد تولى منصب رئيس مكتب لجنة الكرادلة الداعية إلى عقيدة الإيمان (التي كانت معروفة سابقاً باسم محكمة التفتيش) - كان بإمكانه أن يستنكر انتشار ديانة عن طريق العنف ثم يواجه انتقاداً هزياً أو لا يواجه انتقاداً على الإطلاق لانتمائه إلى تلك اللجنة. وهذا يرجع إلى حد ليس بالقليل إلى أكنوية أخرى مترسخة بعمق: هى أن الإسلام هو فى جوهره دين يتسم بالعنف.

الأكذوبة الرابعة: الإسلام ديانة تتسم بالعنف بطبيعتها

بعد انهيار البرجين التوأم بدقائق بالكاد، بدأ سياسة الولايات المتحدة ودهاقتها يربطون بين هذا العمل من أعمال العنف والإسلام بطرائق ليست مختلفة عن تأويلات المستشرقين السابقين. فبدأً من الخُطب العامة للشخصيات السياسية التي تمثل التيار السائد ومروراً بتبجحات من يمثلون الجناح اليميني من قبيل أن كولتر وانتهاءً بتصريحات البابا وآخرين، ربطت مجموعة وافرة من التعليقات، التي يصعب تعدادها هنا لكثرتها الشديدة، أفعال حفنة من المتطرفين بالدين الإسلامى.

ولهذه الأكذوبة تاريخ طويل. فكما شاهدنا فى الفصل الأول، تعود أصولها إلى القرن الحادى عشر وبداية الحروب الصليبية. ويمكن العثور على صدى معاصر لها فى الرسم الكاريكاتيرى للنبي مُحَمَّد الذى نُشر فى الصحيفة الدانمركية "Jyllands-Posten" فى عام ٢٠٠٥، فقد صورَ ذلك الرسم الكاريكاتيرى النبى وهو يحمل قنبلة فوق عمامة، مما يوحي ضمناً بأن الإسلام نشأ مع كون العنف يمثل أساسه. وقد احتج المسلمون فى مختلف أنحاء العالم بغضب، ولكن نتيجة لتصرفات عدد ضئيل من الإسلاميين، فُسرت فى الغرب الاحتجاجات لا على أنها اعتراض مشروع على فرية قديمة بل على أنها رد دوجماتى على نشر صورة للنبي. وأيد أصحاب أعمدة صحفية ليبراليون هذا الموقف، مدافعين عن رسام الكاريكاتير بدعوى حرية الكلام، ونشرت صحف أمريكية كثيرة الرسم الكاريكاتيرى استناداً إلى نفس الأسس، بدون الاعتراف بأن الرسم الكاريكاتيرى نفسه كان يؤيد أكذوبة أن الإسلام يتسم بالعنف بطبيعته.

وقد استمر ربط الإسلام بالعنف فى ظل إدارة أوباما. فبعد أن قام الرائد نضال حسن بتصويب مسدسه على زملائه فقتل ثلاثة عشر منهم فى فورت هود فى نوفمبر عام ٢٠٠٩، ربط التفسير السائد فى وسائط الإعلام بين الإسلام والعنف^(٣٦)، بل بلغ الأمر بمقالة فى مجلة "فوربس" أن قالت إن أفعال حسن يمكن فهمها بشكل أفضل

من خلال عبارة "المسلم الجهادي" التي تصف عملية "يتخلى فيها المسلم عن اندماجه الظاهر في المجتمع الأمريكي ويختار أن ينتقم لدينه في عمل من أعمال العنف المخلّص ضد زملائه الأمريكيين" (الأحرف المائلة مضافة) ^(٣٧). وفحوى الحجة هي أن المسلمين هم أشبه بقنابل زمنية تتكتك برمجها دينهم لكي يتحولوا حتماً إلى العنف ومن ثم فهم لا ينتمون إلى المجتمع الأمريكي. وقد وسّع الجدل بشأن "مسجد جراوند زيرو" في عام ٢٠١٠ نطاق هذا الربط. فقد حاجج المعارضون لبناء مركز مجتمعي إسلامي في الجزء الجنوبي من مانهاتن بأن أي رمز للإسلام مسيء لأسر ضحايا ١١ سبتمبر. وتقوم هذه الحجة على فكرة أن الإسلام نفسه هو المسؤول عن أحداث ١١ سبتمبر، لا التفسيرات الأصولية المعينة للدين.

ويقدّم أميتاب بال، في كتابه "الإسلام" معناه السلام، هذه الأكذوبة بالإشارة إلى التراث الثرى من اللاعنّف في الإسلام. فالكتاب لا يستشهد فحسب بآيات من القرآن تدعو إلى السلام وبالأحاديث النبوية بل يلقي الضوء أيضاً على حركات الاحتجاج غير العنيفة في المجتمعات التي يمثل فيها المسلمون أغلبية، والتي تُعتبر غير معروفة إلى حد كبير ^(٣٨)، ويجب أن يضاف إلى هذا تاريخ العنف في المسيحية، على الأقل للتساؤل عن السبب في تحيته جانباً في معظم الأحوال، لا سيما على العكس من تاريخ العنف في الإسلام الذي يُستشهد به باستمرار. والزعم بأن الإسلام انتشر من خلال الحروب في المراحل الأولى بعد نشوئه في شبه الجزيرة العربية هو زعم دقيق في حقيقة الأمر. ففي العقدين التاليين لوفاة النبي في عام ٦٣٢ بعد الميلاد، هزمت جيوش المسلمين جارتيهما الكبيرتين، الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية (الساسانية)، وغزت أجزاء كبيرة من أراضيها، وأقامت إمبراطورية إسلامية. وقد تمكنت من هزيمة هاتين الإمبراطوريتين القويتين لأن الحروب المستمرة بين البيزنطيين والفُرس خلال القرن الذي سبق ذلك كان قد ترك الناس منهكين من تلك الحروب. وبعبارة أخرى، كانت الحرب حقيقة مستمرة من حقائق الحياة في ذلك الحين. بل إن بعض القرى رحبت بجيوش المسلمين. وعندما تولى الغزاة المسلمون زمام السلطة فإنهم منحوا رعاياهم الخيار إما التحول إلى الإسلام أو دفع الجزية (على الاختلاف من نظرائهم

المسيحيين الأرثوذكس، الذين اضطهدوا المنشقين عن عقيدتهم وحكموا من خلال الخوف والترويع والإرهاب).

وقد سادت المسيحية أيضاً من خلال الغزو والتحويل الديني، أولاً فى العالم الذى كانت تسوده روما ثم فى المناطق المجاورة فى أوروبا وأرمينيا وشبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا ووسط آسيا^(٣٩). وكما ذكر سابقاً، كانت الحروب الصليبية، التى شنّها المسيحيون الأوروبيون بدءاً من القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر، فصلاً عنيفاً آخر من فصول تاريخ المسيحية. فإبان الحرب الصليبية الأولى فى عام ١٠٩٩، أطلق الصليبيون العنان لموجة من أعمال القتل بعد أن سيطروا على بيت المقدس، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال المسلمين جميعهم تقريباً. ولم يستثنوا أيضاً اليهود، الذين كانوا يقاتلون جنباً إلى جنب مع المسلمين للدفاع عن المدينة. فقد أشعل الصليبيون النار فى معبد يهودى كان اليهود قد لجؤوا إليه وحرصوا تماماً على أن يحترق كل اليهود فيه حتى الموت^(٤٠). ولم يكن هذا شيئاً غريباً: فالصليبيون الذين مروا عبر ألمانيا فى طريقهم إلى بيت المقدس كانوا قد قتلوا اليهود بدم بارد. وكان هناك مسيحيون بين الضحايا. وعندما هاجم الصليبيون القسطنطينية فى عام ١٢٠٣، قام الصليبيون على مدى ثلاثة أيام وليالٍ بقتل أو اغتصاب كل شخص أو نهب أو تدمير كل شيء استطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه. وهلك آلاف مؤلفة من البشر لا تعد ولا تحصى؛ وتعرض كثيرون آخرون لأعمال وحشية وبُترت أطرافهم وتُركوا بلا مأوى^(٤١). وقد قطع الملك ريتشارد ملك إنجلترا (المعروف باسم ريتشارد قلب الأسد) رؤوس آلاف من الرجال على مرأى كامل من جيوشهم بعد إحدى المعارك. وعلى العكس من ذلك، بعدما نجح صلاح الدين، سلطان مصر، فى استعادة بيت المقدس من الصليبيين، فإنه منع أعمال الانتقام والعنف ضد الصليبيين، وأعطى اليهود نقوداً من الدولة لإعادة بناء معابدهم، وترك الكنائس كما هى^(٤٢). وهذا أمر يتسق مع الطريقة التى عاملت بها الإمبراطوريات الإسلامية المسيحيين واليهود. فإبان خمسمائة عام من حكم المسلمين فى بيت المقدس، بدءاً من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر، كانت الكنائس المسيحية تُترك لشأنها وكان يُسمح لليهود بالعودة ومعاودة

الاستقرار فى المنطقة. وهذا التناغم خرقتة بعنف الحروب الصليبية، عندما أشاعت جيوش المسيحيين الخراب فى المنطقة، ودمرت المعابد اليهودية والمساجد، وقتلت اليهود والمسلمين والمسيحيين.

ولم تكن الإمبراطوريات المسيحية أقل وحشية إزاء سكانها أنفسهم. وقد تراوح هذا من الاضطهاد الذى واجهه المسيحيون غير الأرثوذكس فى الإمبراطورية البيزنطية إلى تعصب الفاتيكان إزاء المسيحيين غير الكاثوليك وإزاء اليهود. ثم أتت بعد ذلك عمليات التفتيش، وهى سلسلة من الحركات التى نسقتها الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية المسيحية لإعادة فرض السيطرة الاقتصادية للكنيسة على أوروبا. فحاكم التفتيش الإسبانية، مثلاً، تُذكر لوحشيتها البالغة، ولما قامت به من أعمال تعذيب جماعى للرجال والنساء وحرقتهم وهم مشدودون إلى الخازوق. وقد لاذ كثيرون من اليهود والمسيحيين بالفرار من أوروبا للإفلات من محاكم التفتيش والتماساً لوطن جديد فى ظل الإمبراطورية العثمانية الإسلامية (١٢٩٩-١٩٢٢). فالمجتمع العثمانى كان أكثر تسامحاً بمراحل؛ وكان اليهود والمسيحيون يعيشون فى وئام هناك، وحصل بعضهم على مناصب عالية فى الجهاز البيروقراطى (حتى بدون أن يتحولوا إلى الإسلام).

ومن الممكن للمرء، عندما ينظر الآن إلى تاريخ المسيحية الوحشى، أن يسوق حجة مفادها أن جميع الكاثوليك متعصبون متعاطشون للدماء. وفى حقيقة الأمر من شأن هذا المنطق أن يكون مناظراً للحجة القائلة بأن الإسلام يتسم بالعنف بطبيعته وأن المسلمين لديهم "ميل مسبق" إلى العنف. إلا أن هذا التعميم لا يمكن تصوره. فعلى حد علمى، لم تضع أية صحيفة أو مجلة تمثل التيار السائد خطأً مستقيماً بين الحروب الصليبية ومحرقه اليهود على يد النازيين، ناهيك عن رسم خط مستقيم بين موالد المسيح ومختلف أنواع الإرهاب التى ارتكبتها الأصوليون المسيحيون. وعلاوة على ذلك، كما يقول طلال أسد، فإن نفس الأشخاص الذين يصفون أعمال الانتحاريين الذين يفجرون القنابل بأنها أعمال لا مبرر لها يصفون الشرعية على

الحروب الأمريكية في العراق وأفغانستان، التي تسببت في موت مئات الآلاف. وإيجازاً، فإن عنف جماعات معينة هو الذي تلقى الأضواء عليه ويرمز إليه بأنه نتاج الانتماء الديني لتلك الجماعات.

الأكذوبة الخامسة: المسلمون غير قادرين على اتباع الديمقراطية وعلي الحكم الذاتي

إن فكرة "الاستبداد الشرقي" نشأت، كما شاهدنا، في القرن الثامن عشر على يد كُتّاب من أمثال مونتيسكيو، الذي حاجج بأن المناخ الحار في الشرق يجعل الشرقيين فاتري الهمة وخاضعين ومن ثم غير قادرين على مقاومة الطغيان. وقد أضفى المستشرقون مصداقية أكاديمية على هذه النظرية بقولهم إن الاستبداد هو إحدى القيم الأساسية "للحضارة الإسلامية". ثم أتت نظرية التحديث لتجعل هذه النظرية علمية بدرجة أكبر بقولها إن المجتمعات "التقليدية" تتسم بنظم تراتبية للسلطة. وحاجج هؤلاء المنظرّون بأنه بالنظر إلى أن التغيير لن يتأتى أبداً من الداخل، فإن الغرب يقع عليه عبء حضرة الشرق وتحديثه وجعله ديمقراطياً. وقد استُخدمت حجة "عبء الرجل الأبيض" هذه، بأشكال ومظاهر شتى، من قبيل كل دولة إمبريالية منذ ذلك الحين.

فقد طرحها آرثر جيمس بلفور، الشهير بصياغة وعد بلفور الذي اعترف بمطالبة الصهاينة بدولة لهم في فلسطين، على هذا النحو في عام ١٩١٠:

أولاً، فلننظر إلى وقائع القضية. إن الأمم الغربية تُظهر حالماً تنبثق في التاريخ بدايات تلك القدرات على الحكم الذاتي ... ولديها مزاياها الخاصة بها. ... ولكم أن تنظروا خلال تاريخ الشرقيين كله في ما يسمى، بوجه عام، الشرق، وأن تجدوا أبداً أي آثار للحكم الذاتي. فقرونهم العظيمة - وقد كانت عظيمة جداً - انقضت جميعها في ظل الاستبداد، وفي ظل الحكم المطلق. وجميع مساهماتهم العظيمة في الحضارة - وقد كانت عظيمة - تحققت في ظل ذلك الشكل من الحكم. فكل

غازٍ خلف غازياً؛ وكل سيطرة تلتها أخرى؛ ولكنكم لم تروا قط في جميع تقلبات
القدر والحظ أمة من تلك الأمم تنشئ من تلقاء نفسها ما نعتبره، من وجهة نظر
غربية، حكماً ذاتياً^(٤٣).

ومضى بلفور قائلاً إن بريطانيا كانت تحتل مصر لهذا السبب ليس فقط من أجل
المصريين بل " من أجل أوروبا بوجه عام. " واختتم كلامه قائلاً إن هذا كان العبء
الواقع على الإمبراطورية البريطانية العظمى، وإن على تلك الإمبراطورية أن تتحمل هذا
العبء بإباء وشمم.

فما الذى كان سيحدث لو اختار السكان المحليون الناكرون للجميل الحكم الذاتى
بدلاً من السيد الأعلى الاستعماري المستتير؟ ما الذى كان على بريطانيا فى عهد بلفور
أن تفعله حيال حركات التحرر الوطنى التى كانت قد بدأت عندئذ فى الظهور فى مصر
والهند وغيرهما من الدول المستعمرة؟ كان لا بد من إيجاد تفسيرات رافضة لهذه
الكفاحات فى سبيل حق تقرير المصير. وكان أحد سبب ذلك هو الجزم بأن زعماء هذه
الحركات محرّضون ضالون ليس بإمكانهم أن يفهموا ما يحقق مصالحهم على أفضل
وجه. وكما حاجج كرومر، " إن مستقبل مصر الحقيقى ... لا يكمن فى اتجاه قومية
ضيقة، لن تضم سوى المصريين من أهل البلد ... بل يكمن بالأحرى فى جناه
الكوزموبوليتانية الموسعة^(٤٤). وبعبارة أخرى، فإن الرعايا ينبغى أن يسكتوا ويدركوا
أنهم أفضل حالاً كأعضاء فى الإمبراطورية البريطانية العالمية.

وقد ترددت أصداء لهذه المواقف فى الولايات المتحدة أيضاً. وفى عام ١٩٠٧، ذكر
الرئيس تيودور روزفلت، الذى كان يشاطر بلفور وكرومر رأيهما فى المصريين، أنهم
شعب من الفلاحين المسلمين لم يمارس فى أى وقت من الأوقات أى شكل من أشكال
الحكم الذاتى " وأكد، باعتباره مؤمناً ثابتاً بالتراتبات العرقية و " بالعبء الواقع على
عائق الرجل الأبيض "، أن المسلمين شعب أدنى منزلة: " من المستحيل توقّع السلامة
الأخلاقية والفكرية والمادية حيثما تكون الغلبة للمُحمّدين " ^(٤٥)، وكثيراً ما استُخدمت
هذه الأفكار لتبرير " عدم قدرة الإمبرياليين المحبين للديمقراطية على جلب الديمقراطية

للبلدان التي استعمروها، فتلك الشعوب كانت ببساطة غير مستعدة لها. وفي أوقات أخرى كان يقال إن الاستعمار مهد الطريق للحكم الذاتي ويدون هذا التأثير الغربي لم تكن الديمقراطية لتضرب بجذورها في الشرق^(٤٦).

وبعد قرن من الزمان تقريباً، استخدمت حكومة جورج دابليو بوش، بعد فشلها في الكشف عن وجود أسلحة دمار شامل في العراق، هذه الأكذوبة للمحاججة بأن الولايات المتحدة بحاجة إلى البقاء في العراق من أجل جلب الديمقراطية له، وهو قول لقي تأييداً عاماً واسع النطاق. وقد كُنتُ جزءاً من ائتلاف مناهض للحرب عارض الحرب المقبلة على العراق حتى حدوث الغزو الفعلي؛ ولكن حالما أعلن بوش أن الولايات المتحدة ستبقى في العراق لإعادة بنائه وإرساء الديمقراطية فيه وجدتُ موافقة بالإجماع تقريباً في الائتلاف على أن ذلك هو حقاً الشيء السليم الذي يجب القيام به. وأعلنت الولايات المتحدة كذلك في مراحل شتى أن أحد أهدافها في أفغانستان هو "بناء الدولة"، ولقي هذا المنطق قبولاً لدى الليبراليين وكذلك لدى دعاة الحركة النسائية المناهضة للحرب^(٤٧). وفي واقع الأمر، لم يكن لدى الولايات المتحدة قط أى اهتمام بجلب الديمقراطية لشعوب الشرق الأوسط أو لأى شعب آخر. فلها تاريخ طويل وخسيس من تحطيم الحركات الديمقراطية وإحلال ديكتاتوريات محلها^(٤٨).

ويمكن ملاحظة هذا الاتجاه في الشرق الأوسط في فترة ما بعد الحرب. ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية، اهتز الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بحركات النضال في سبيل التحرر الوطني. ففي خلال الفترة ما بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٦٢، نجحت مصر والعراق وسوريا ولبنان وليبيا والمغرب وتونس والجزائر جميعها في القضاء على سيطرة سادتها الاستعماريين. وفي أعقاب هذه الكفاحات كانت هناك رغبة واسعة النطاق في الإصلاح والتغيير في المنطقة، وانبثقت قوى سياسية واجتماعية جديدة. واكتسبت القومية العربية العلمانية قوة، ولكن الأحزاب الاشتراكية والشيوعية كانت تتبارى أيضاً على النفوذ السياسى. وأيدت الولايات المتحدة علناً الكفاح في سبيل التحرر الوطني ولكنها تدخلت مع ذلك عندما سُنحت لها فرصة لإضعاف سيطرة

بريطانيا وفرنسا؛ فمصالحها لم تكن (ولا) تكمن في مساندة الحركات الديمقراطية بشروط تلك الحركات. وفي حقيقة الأمر، فإن القوميين العلمانيين الذين لم يمتثلوا للمصالح الأمريكية انصبت عليهم اللعنات. فجون فوستر دالاس، عندما كان وزيراً للخارجية تحت رئاسة أيزنهاور، وصف ناصرًا وغيره من القوميين العرب أمثاله بأنهم "مرضى" لشكهم في الغرب ووصف الزعيم الإيراني القومي العلماني محمد مصدق بأنه "شرقى مراوغ"^(٤٩)، وكان أيزنهاور نفسه يعتقد أن القوميين العلمانيين ليسوا سوى مستبدين شرقيين. وقال: "إذا عشت مع أولئك العرب، فستجد أنهم ببساطة لا يمكن أن يفهموا أفكارنا عن الحرية والكرامة. ... فقد عاشوا طويلاً في ظل شكل أو آخر من أشكال النظم الديكتاتورية، فكيف يمكن أن تتوقع منهم أن يديروا بنجاح حكومة حرة؟"^(٥٠).

وفي الحقيقة، لم يكن لدى الولايات المتحدة اهتمام كبير بـ " جلب الديمقراطية" إلى المنطقة. فنشاطها في الشرق الأوسط يحرّكه هدف رئيسي واحد هو: السيطرة على الثروة النفطية في تلك المنطقة، بأي ثمن. وبناء على ذلك، فإن سياستها الخارجية كانت موجهة نحو الحيلولة دون ظهور أي حكومة أو حركة قد تهدد سيطرتها في المنطقة، على النحو الذي وردت مناقشته في الفصل السابق. وتحقيقاً لهذا الهدف فقد ساندت باستمرار كل ديكتاتور وكل نظام قمعي (من قبيل النظام الملكي السعودي وغيره من النظم المماثلة في منطقة الخليج) يمكن الاعتماد عليهما للعمل لصالح الغرب. كذلك فإنها قامت بتمويل وتدريب وتسليح القوات العسكرية والأمنية التابعة لحلفائها الديكتاتوريين وذلك لمنع التحديات المحلية لحكهم. وقد حققت هذه الاستراتيجية نجاحاً إلى حد كبير حتى عهد قريب؛ فعلى مر السنين، أطاح الديكتاتوريون الذين تساندتهم الولايات المتحدة بحركات شتى تدعو إلى التغيير التقدمي. وفي حالة فشل ذلك، تواصلت الولايات المتحدة الاحتفاظ بقوات بحرية وقواعد عسكرية قوية في المنطقة.

وعند الضرورة، وحيثما أمكن، تدخلت الولايات المتحدة عسكرياً، مثلاً في عام ١٩٥٨ عندما دخل مشاة البحرية الأمريكيون لبنان لفترة وجيزة لإعاقه محاولة من

جانب القوى القومية العربية للإطاحة بالحكومة الموالية للغرب. وأيدت الولايات المتحدة أيضاً الجماعات الإسلامية التي عارضت القوميين والشيوعيين العلمانيين في بلدان شتى، كما سنرى في الفصل التالي. وكانت العمليات السرية لوكالة المخابرات المركزية أداة سهلة أخرى، بحيث استُخدمت محاولات الاغتيال، والانقلابات، ووسائل أخرى من هذا القبيل للتخلص من الحكومات ومن المنظمات السياسية غير الصديقة. وفي عام ١٩٥٢، أطاحت وكالة المخابرات المركزية بمُحمَّد مصدَّق، الذي كان قد انتُخب بطريقة ديمقراطية ليتولى السلطة في إيران عام ١٩٥١، وكانت جريمة مصدَّق هي تأميم صناعة النفط. وقد حلَّ محله رضا بهلوى، الشاه، الذي حُكِّم إيران بقبضة حديدية، وقتل وعذب عشرات الآلاف من المنشقين السياسيين، وألغى جميع الأحزاب السياسية باستثناء حزبه^(٥١)، وفي هذا، كانت الولايات المتحدة تقلد ببساطة بريطانيا، التي عملت بنفس الطريقة ضد الحركات الدستورية والديمقراطية في بلاد فارس (ومصر) في بداية القرن التاسع عشر^(٥٢).

ورغم حرارة الجو، فإن شعوب الشرق الأوسط وشمال أفريقيا حاربت في سبيل الحكم الذاتي والإصلاحات التقدمية. ولكنها عندما فعلت ذلك، فإنها شاهدت سحق تطلعاتها الديمقراطية، بدلاً من أن تتال دعماً أمريكياً. وهذا الجهد مستمر: ففي عام ٢٠١١، انفجرت موجة أخرى من النضال الجماهيري على المسرح التاريخي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وفي غضون أسابيع فقط، أطاحت حركتان شعبيتان في تونس ومصر بديكتاتورين مواليين للغرب كانا يحكمان بقبضة حديدية لعدة عقود. وكانت الديمقراطية والحرية السياسية تمثلان مطلبين أساسيين في الانتفاضات العربية في عام ٢٠١١، وكان رد الولايات المتحدة هو في البداية أن تقف إلى جانب حلفائها الديكتاتوريين. وعندما بات واضحاً أنهم ستجرى تنحياتهم، فإنها تبنت الحركات الشعبية بالطنطنة فقط. ولكن، في واقع الأمر، حاولت الولايات المتحدة أن تضم إلى جانبها شرائح من المقاومة (ليبيا) كسبيل للحد من نطاق التغيير، أو ساندت قوى الثورة المضادة، بدءاً من الجيش المصرى وانتهاءً ببول شتى في الخليج (المملكة العربية السعودية وقطر على وجه الخصوص تتزعمان جهود الثورة المضادة).

وعلى الرغم من موجة الحركات المضادة للديكتاتورية، واصل المستشرق العجوز الواهن برنارد لويس الزعم بأن الديمقراطية لن تنجح مع العرب؛ وأن نظاماً استشارياً ينبثق من الثقافة الإسلامية التقليدية سيكون هو الأفضل. وكما يقول هو عن ذلك "نحن، في العالم الغربي على وجه الخصوص، نفكر عادةً في الديمقراطية وفقاً لمصطلحاتنا - وهذا أمر طبيعي وعادي - أي ما يعني إجراء انتخابات دورية بأسلوبنا. ومن الخطأ الكبير محاولة التفكير في الشرق الأوسط بهذه الطريقة. فهذا لا يمكن أن يفرض إلا إلى نتائج مأساوية، كما شاهدتم بالفعل في أماكن شتى." وأضاف قائلاً، مردداً حجة أقدم، "إنهم ببساطة ليسوا مستعدين لانتخابات حرة ونزيهة. ... وأعتقد أننا ينبغي أن ندعهم يحققون الديمقراطية بطريقتهم بواسطة مجموعات استشارية" (٥٣). وقد كان برنارد لويس يتحدث هنا إلى القادة الغربيين؛ ويبدأ أنه كان يفتيهم بأن "مشكلة" حركات الشعوب المختلفة لا يمكن حلها عن طريق انتخابات غربية الطراز لأن "لغة الديمقراطية الغربية لم تُترجم في معظمها إلا حديثاً ويستعصى على الجماهير الغفيرة فهمها" (٥٤). وحتى في القرن الحادي والعشرين، ما زال سكان تلك البلاد المحليون، الذين يُنظر إليهم على أنهم الجماهير الجاهلة، يعتبرهم الغرب لا يعرفون ما هو أفضل من ذلك. وفي أفضل الحالات يكون هناك تجاهل لتنظيم أولئك السكان لأنفسهم بطريقة منهجية ودعايتهم على تويتير لإجراء انتخابات حرة، وإلى وجود مزيد من الأحزاب السياسية، وإلى زيادة الحرية السياسية؛ وبدلاً من ذلك يرى الغرب، الذي ما زال يعتبر معرفته أفضل، أنه ينبغي أن يوجههم لقبول أشكال إسلامية من الحكم أنسب لهم. حقا، إن العادات القديمة لا تتدثر بسهولة.

* * *

لقد سيطرت هذه الأكاذيب الخمس على الحوار السياسي الوطني منذ أحداث ١١ سبتمبر. فالليبراليون والمحافظون على حد سواء تقبلوا منطق تلك الأكاذيب وروجوا لها في السنوات اللاحقة لعام ٢٠٠١، وتوخياً للإنصاف، لا يؤيد جميع الليبراليين أو من

يمثلون جناح اليسار فوييا الإسلام؛ فقد ناهض بعضهم بالفعل العنصرية المناهضة للمسلمين، سواء في كتاباته أو أحاديثه. إلا أن هذه الأصوات تشكل أقلية ضئيلة للغاية في الولايات المتحدة. وكانت الليبرالية السائدة خصوصاً في ظل إدارة أوباما تتبنى تماماً فكرة أن الولايات المتحدة يمكن بالفعل أن تعمل كقوة إنسانية في مختلف أنحاء العالم، وأبدت موافقتها على الحرب على الإرهاب.

وقد أيدَ الإمبرياليون الليبراليون، بدءاً من تأييدهم للحرب الأفغانية وانتهاءً بقبولهم فكرة أن الولايات المتحدة ستجلب الديمقراطية للعراق، الأكاذيب المبيّنة في هذا الفصل وقاموا بالترويج لها. ومع ذلك، ثمة اختلافات بين الإمبرياليين الليبراليين والإمبرياليين المحافظين. فعلى سبيل المثال، الإمبرياليون المحافظون يقولون إن المنظمات الإسلامية في مختلف أنحاء العالم متحدة في مؤامرة للإطاحة بالغرب وإقامة خلافة تبدأ من شمال أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا. ولا يرى الإمبرياليون الليبراليون ذلك على أنه تهديد إسلامي عام وهم على استعداد للعمل مع الإسلاميين المعتدلين. وفي الفصول التالية سأحلل وأميز بين أشكال فوييا الإسلام التي تنشأ من جانب المحافظين ومن جانب الليبراليين.

ومع ذلك، أولاً، سنوجه اهتمامنا إلى العدو المسلم الجديد، "الإرهابي الإسلامي". ومن المهم أن نبدأ بملاحظة أن الجماعات الإسلامية لم تكن حكومة الولايات المتحدة تنظر إليها يوماً على أنها بمثابة أعداء. فكما سنرى في الفصل التالي، أيدت الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة أحزاب الإسلام السياسي ضد أحزاب القوميين واليساريين العلمانية التي كانت ترى أنها في جيب الاتحاد السوفييتي. وفي الوقت ذاته، كانت الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩، التي أطاحت بالشاه المدعوم من الولايات المتحدة وجلبت حكماً إسلامياً شيعياً، معناها أن الولايات المتحدة لها أعداء إسلاميون في نفس الوقت الذي لها فيه حلفاء إسلاميون. وخلاصة القول، لم تكن نظرة مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية إلى الإسلام السياسي نظرة موحدة أو متسقة. ونتطرق إلى هذا التاريخ في الباب التالي.

الباب الثانى

الإسلام السياسى وسياسة الولايات المتحدة

الفصل الرابع

الحلفاء والأعداء : الولايات المتحدة والإسلام السياسي

فى عام ١٩٤٥، اجتمع الرئيس فرانكلين دي لانو روزفلت بالملك سعود على متن البارجة الأمريكية "Quincy" فى البحر الأبيض المتوسط. وتطرق الحديث بينهما إلى موضوع النفط، وكانت العلاقات بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، التى بدأت فى عام ١٩٣٣ عند منح أول امتياز للتنقيب عن النفط فى المملكة العربية السعودية، قد أصبحت علاقات " خاصة" بدرجة أكبر. وخلال العقود اللاحقة، ساعدت الولايات المتحدة المملكة العربية السعودية على تحديث مجتمعتها وتعزيز جهازها الأمنى، بينما سمحت الدولة الغنية بالنفط للولايات المتحدة بالسيطرة على ذهبها الأسود. وقد عبّر تحليل إخبارى نُشر فى الصفحة الأولى من جريدة " نيويورك تايمز" عن ذلك اللقاء على النحو التالى:

عندما غادر الملك عبد العزيز بن سعود، ملك البيداء العربية [منقولة بدون تعديل]، بلده للمرة الأولى لزيارة الرئيس روزفلت فإن رحلته كانت مزيجاً رائعاً من مشاهد للعالم الحديث متناقضة مع الرحلة القديمة المتجهة غرباً التى قام بها ملوك الشرق الحكماء الثلاثة^(١).

فقد حدث اتصال بين الشرق الموهل فى القِدَم وبين حداثة الولايات المتحدة. وإبراز هذا التقابل، مضت المقالة لتتحدث عن الحریم والغنم والولائم والسيوف والخناجر والأثواب الاحتفالية والقبائل والإسلام. واستطاعت صحيفة " نيويورك

تأيمز، في مقالة واحدة قصيرة، أن تجمع ما بين صورة الشرق الغرائبي الذي لا يتغير وصورة الولايات المتحدة باعتبارها محدثة. وهذه الفكرة هي التي حددت ما سيستخدم في العقود القليلة التالية.

ومن المثير للاهتمام أن ما كان غائباً من التصوير السائد للعلاقات بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية هو حقيقة أنه بدءاً من خمسينيات القرن العشرين حاولت الولايات المتحدة تصوير عاهل المملكة العربية السعودية على أنه "قطب الجذب الإسلامي" ضد القومية العلمانية التي يمثلها ناصر رئيس مصر. وفي سياق الحرب الباردة، كان للولايات المتحدة هدفان في الشرق الأوسط هما: السيطرة على تدفق النفط وإبقاء الاتحاد السوفييتي خارج المنطقة. وبعد حقبة أولية حاولت فيها أن تطوى تحت جناحيها القومييين العلمانيين الراديكاليين، فإنها انقلبت عليهم. وكان هذا معناه تشجيع جميع القوى التي يمكن أن تناهض القومية والشيوعية العلمانيتين الراديكاليتين، وكان الإسلاميون على رأس هذه القائمة.

وقد يندهش القراء غير الملمين بهذا التاريخ عندما يعلمون أن الإسلاميين لا يمكن أن ينظر إليهم يوماً على أنهم أعداء. فبدلاً من ذلك، تبنت وأضعت السياسات نهجاً يمثل خليطاً وتوجهه مصالح الحرب الباردة. ففي البداية، حتى سبعينيات القرن العشرين، تحالفت النخبة السياسية مع الإسلاميين. ولكن في سبعينيات القرن الماضي تغير هذا النهج استجابة لعوامل شتى، من بينها الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، وبعد ذلك، وحتى نهاية الحرب الباردة، كان الأمريكيون يتبعون نهجاً مزبوجاً: إذ كان الإسلاميون بالنسبة لهم أعداء في بعض الحالات ولكنهم لم يكونوا كذلك في حالات أخرى. واستخدمت الولايات المتحدة المجاهدين في أفغانستان (أسلاف القاعدة) لخوض حرب بالوكالة مع الاتحاد السوفييتي. وفي الوقت ذاته، لا سيما في أعقاب أزمة الرهائن في عام ١٩٧٩، أصبح آية الله خوميني في إيران رمزاً لجميع الأشياء الإسلامية ولجميع الشرور. وأملت "السياسة الواقعية" على الولايات المتحدة أن تعمل ضد بعض الإسلاميين بينما تتحالف مع آخرين منهم ضد عدوها الرئيسي في الحرب الباردة.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي، كانت الرؤية الجديدة للولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب الباردة تعنى مرة أخرى عملها مع الإسلاميين الذين كانوا راغبين في تزييت عجلات "السلام الأمريكي" وعملوا ضد من قاوموا ذلك السلام. وفي عام ٢٠٠١ فقط انبثق توافق آراء موحد فيما بين النخبة السياسية، على الأقل من حيث الطنطنة الخطابية، على أن الإسلاميين أصبحوا الآن العدو الرئيسي الذي يجب شن حرب ضده على الإرهاب لا نهاية لها. وتحالفت النخبة الأمريكية، مثلها مثل نظرائها في أوروبا في القرون الوسطى وفي العصر الحديث، مع المسلمين عندما كان ذلك يلائمها وحوّلتهم إلى أعداء لها عند الضرورة. وفي هذا الفصل، أُبَيِّنُ المواقف الأمريكية تجاه الإسلام السياسي واستخدام الإسلام على المسرح السياسي في الفترة ما بين عام ١٩٤٥ و٢٠٠١.

الإسلام والتحديث

لقد كان للولايات المتحدة، باعتبارها إحدى القوتين العظميين على المسرح العالمي، منحى تعلم منحدر في حقبة ما بعد الحرب. فقد نظم مجلس العلاقات الخارجية، الذي ينشر المجلة ذات النفوذ "Foreign Affairs"، سلسلة من المؤتمرات في أواخر أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي لوضع استراتيجيات للاستجابة لموجة الكفاح المضاد للاستعمار التي اجتاحت أفريقيا والشرق الأوسط وآسيا^(٢)، وضمت هذه المجموعات الدراسية أعضاء من حكومة الولايات المتحدة والخبراء القلائل الذين كانوا موجودين وقتذاك. وكما هو مذكور في الفصل الثاني، شهدت هذه الحقبة نمو برامج "دراسات المناطق" وتطورها في جامعات شتى لتلبية احتياجات حكومة الولايات المتحدة إلى المعرفة. وكانت النتيجة النهائية هي سياسة تأثرت بكل من نظرية التحديث والاستشراق.

ففي عام ١٩٤٩، أطلق الرئيس هاري ترومان برنامجاً ذا النقاط الأربع، الذي وعد بتقديم معونة مالية وتقنية للبلدان النامية. وكانت نظرة الإدارة إلى شعوب البلدان

التي يمثل فيها المسلمون أغلبية نظرة سيئة بوجه خاص يعبر عنها، وفقاً لدوجلاس ليتل، الاقتباس التالي من أقوال السير جون تروتبليك السفير البريطاني لدى العراق: إنه [العربي]، إذ لا يرى إلا القليل بخلاف الفساد والركود من حوله، لن يعترف لنفسه بالإجابة الواضحة، وهي أنه ينتمى إلى عرق ليس لديه إحساس بالمسؤولية وعاجز بشكل غير عادي^(٣)، ومنعاً لما كان يُعتقد أنه نزوع العرب العرقي الطبيعي نحو التطرف السياسى والدينى، كان يقال إن المساعدة الاقتصادية حيوية. ودق أصحاب نظرية التحديث ناقوس خطر الثورة. وساعد وولت روستو، مؤلف كتاب "مراحل النمو الاقتصادى: مانيفيستو غير شيوعى" وأحد أكثر أصحاب نظرية التحديث نفوذاً، إدارتى كنيدي وجونسون على وضع السياسة؛ وقد أُنز أيضاً على هنرى كيسينجر، الذى اتبع مبادئه^(٤).

وكان التفكير السائد هو أن البلدان التى يشكل فيها المسلمون أغلبية ستتخلص من السيطرة الغربية ومن المحتمل أن تقع فى قبضة الاتحاد السوفييتى إذا تحررت من نير الاستعمار وتُركت بلا كايح. ولم تكن هذه نتيجة مقبولة. ففى البداية، سعى واضعو السياسات إلى ضم القوميين الراديكاليين أمثال ناصر ومصداق إلى صفهم. وكان عليهم عندما فشلوا فى ذلك أن يستنبطوا استراتيجيات جديدة. فوضع أيزنهاور، الذى حل محل ترومان، سياسة بشأن الشرق الأوسط أخذت فى الاعتبار هذه الظروف. ووعدت عقيدة أيزنهاور، التى أميط اللثام عنها فى عام ١٩٥٧، بتقديم مساعدة مالية وعسكرية لبلدان الشرق الأوسط التى كانت تتعرض لتهديد "من أى دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية"^(٥)، وإيجازاً، إضافة إلى الحوافز المالية، طرح أيزنهاور الخيار العسكرى.

وثمة جانب من جوانب عقيدة أيزنهاور معروف بدرجة أقل هو "الاستراتيجية المتعلقة بالإسلام". وكانت هذه الاستراتيجية تتكون من دعم المنظمات الإسلامية ضد القوميين العلمانيين ومحاولة إيجاد قطب إسلامى ممثلاً فى الملك سعود عاهل المملكة العربية السعودية. ففى رسالة إلى صديق مؤتمن فى أوائل الخمسينيات، قال أيزنهاور

لقد أردنا أن نستكشف إمكانيات جعل الملك سعود يمثل ثقلاً موازياً لناصر. وكان الملك اختياراً منطقياً في هذا الصدد؛ فقد كان على الأقل يجاهر بمناهضته للشيوعية، وكان يتمتع، استناداً إلى الأسس الدينية، بمكانة عالية بين جميع الأمم العربية^(٦). بل إن بعض الإدارات بدأت أيضاً تضع فكرة أن الملك سعود هو "بابا إسلامي"^(٧). واستقبل أيزنهاور، بعد انقضاء عام على كتابته لرسالته عن الملك سعود، سعيد رمضان، زوج ابنة حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، في البيت الأبيض. وحتى على الرغم من أن جماعة الإخوان المسلمين كانت قد لجأت إلى أعمال عنف، بحيث قتلت العديد من المسؤولين المصريين، فقد آل أمرها إلى أن تصبح جزءاً من استراتيجية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط^(٨).

فالمستشرقون الذين ساعدوا على تشكيل تلك الاستراتيجية كانوا مقتنعين بأن الإيديولوجيات العلمانية الخاصة بالقومية والشيوعية لن يكون لها ثقل كبير في "العالم الإسلامي". وفي مؤتمر نظمته وتولت رعايته حكومة الولايات المتحدة في جامعة برينستون عام ١٩٥٣، خلص المستشرقون وواضعو السياسات ومختلف المخبرين المحليين إلى أن الولايات المتحدة يجب أن تستخدم الدين لكسب الأفئدة والعقول، متجاهلة شعبية الحركات القومية العلمانية^(٩). ومن ثم أكدت الجهود الدعائية التي قامت بها الولايات المتحدة وقتذاك على الجذور المسيحية والدينية للثقافة الأمريكية على العكس من إلحاد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية^(١٠). وحاجج مجلس الأمن القومي في عام ١٩٥٢ بأن "الديانات التوحيدية الثلاث في المنطقة جمع بينها بغضها لإلحاد العقيدة الشيوعية ويات من الممكن أن يصبح هذا العامل ميزة هامة في الترويج للأهداف الغربية في المنطقة"^(١١).

وإبان خمسينيات القرن العشرين، استُخدمت جماعة الإخوان المسلمين ضد ناصر في مصر، واستُخدمت مجموعة من رجال الدين ضد مصدق في إيران^(١٢). وإذا كانت سياسة التأميم التي اتبعتها مصدق تمثل ما كان من الممكن أن يفعله القوميون العلمانيون إذا تولوا مقاليد السلطة بالنسبة لمصالح الغرب النفطية، فإن

ناصراً كان يمثل السيناريو الكابوسي بالنسبة لواشنطن في المنطقة. ومع أن مصر لا تملك نفطاً، فقد سعت الناصرية، بتشديدها على وحدة الأمة العربية، إلى تحقيق التزاوج بين البلدان الحضرية المتقدمة تكنولوجياً وما لديها من طبقات عاملة كبيرة وذات مهارات عالية وبين الثروة الهائلة الموجودة لدى البلدان المنتجة للنفط. وكان مزيج القاهرة والرياض معاً من شأنه أن يعوق بشدة السيطرة الغربية على منابع النفط. ومن ثم، إضافة إلى تدبير مخططات انقلابية ضد ناصر والقيام بمحاولات شتى لاغتياله (من قبيل تسميم قطع الشيكولاته التي يتناولها)^(١٣). بدأت وكالات المخابرات المركزية تشجع الإخوان المسلمين وتعتمد بدرجة متزايدة على المملكة العربية السعودية كعنصر توازن مضاد. وكما صور أحد كبار مسؤولي وكالة المخابرات المركزية الأمر،

كانت عدسة الإبصار هي الحرب الباردة. فقد كانت الحرب الباردة بمثابة أداة التوضيح المحددة وقتئذ. وقد رأينا أن ناصرًا اشتراكياً، ومناهضاً للغرب، ومناهضاً لحلف بغداد، وكنا نتطلع إلى نوع ما من السند. ورئى أن المحاولات السعودية لأسلمة المنطقة قوية وفعالة ومن المرجح أن تنجح. وقد راق لنا ذلك. فقد كان لدينا حليف ضد الشيوعية^(١٤).

بيد أن هذه الاستراتيجية لم تصمد في مواجهة الواقع وكان مآلها الفشل. فلو كان المستشرقون يهتمون فعلاً بدراسة الحقائق على أرض الواقع لكانوا قد خلصوا إلى أن ما هو "حاسم الأهمية هو أن الإسلام كفّ تدريجياً عن أن يكون منافساً جدياً للشيوعية في الصراع على كسب أرواح النُخب الحالية والمحتملة في بلدان الشرق الأوسط، وهو ما خلص إليه ولتر لاكير في عام ١٩٥٦^(١٥). ولو كان هذا يصدق على الشيوعية، فإنه كان يصدق بدرجة أكبر حتى من ذلك على القومية. وكان من الأمور الصادمة أن العرب، مثلهم مثل غيرهم، كانوا قادرين على فصل الدين في حياتهم الخاصة عن السياسة. وهذا، بطبيعة الأمر، لا يمثل صدمة إلا لأولئك الغارقين في تقاليد المستشرقين، وسنرى في الفصل التالي أن هذا الفصل بين السياسة والدين له تاريخ طويل في ما يسمى بالخطأ ومن قبيل التهكم "عالم المسلمين".

ولكن على الرغم من هذا الواقع فإن استراتيجية تشجيع الإسلاميين استمرت بدون تناقض حتى تسعينيات القرن العشرين. ولكن يجب ملاحظة أن الاستراتيجية المتعلقة بالإسلام لم تكن مقبولة بشكل موحد أو حتى معروفة على نطاق واسع. وما كان واضحاً هو أن القوميين العرب يمثلون أعداء يجب القضاء عليهم بأي وسيلة ضرورية^(١٦). ومع أن استراتيجية أيزنهاور بشأن الإسلام فشلت في تحقيق هذا الهدف، فإن نصر إسرائيل الساحق في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ فتح الباب أمام إمكانيات جديدة. ففي الحرب، لم تُهز إسرائيل وتهزم مصر تحت حكم ناصر فحسب بل أهانت وهزمت أيضاً الدول المجاورة الأخرى. وبذلك واجهت القومية العربية أزمة، وفي ظل حالة الفراغ السياسي الذي أوجده ذلك، استطاع التوجه الإسلامي أن ينمو ويتطور (على النحو الذي سترد مناقشته بمزيد من التفصيل في الفصل السادس). ومن ثم بدأ عهد تناقض كانت الولايات المتحدة تزيج فيه من طريقها بعض الإسلاميين بينما تشجع غيرهم. وقد تمازج هذا الموقف المتناقض مع النموذج الأمني الجديد للولايات المتحدة في ظل "عقيدة نيكسون"، التي أعلنت في عام ١٩٦٩، فقد قامت إدارة نيكسون بوضع سياستها المتعلقة بالشرق الأوسط على أساس تعزيز ثلاث قوى إقليمية: إسرائيل، وإيران تحت حكم الشاه، والمملكة العربية السعودية. وكانت هذه الاستراتيجية معروفة رسمياً باسم استراتيجية "الركائز التوأمة" ولكن إضافة إلى إيران والمملكة العربية السعودية وإسرائيل ساعدت مصر وتركيا لاحقاً على تأمين مصالح الولايات المتحدة في المنطقة. وكان التحالف مع المملكة العربية السعودية معناه تقديم دعم من الولايات المتحدة لمحاولات المملكة أسلمة السياسة في المنطقة. وفي الوقت نفسه، وقفت الولايات المتحدة إلى جانب نظام الشاه "العلماني" و "التحديثي"، الذي واجه حركة معارضة ناشئة لعب فيها رجال الدين الإسلامي دوراً قيادياً.

وعلى الرغم من أن الثورة الإيرانية التي حدثت عام ١٩٧٩ كانت اللحظة المحورية التي حدث فيها تحول في موقف الولايات المتحدة ضد ما أطلق عليه الغرب اسم

"الأصولية الإسلامية"، كانت ثمة أحداث معينة قد سبقت هذا التحول. وهذه الأحداث دفعت الولايات المتحدة إلى الاعتقاد بأن الإسلاميين لا يمكن الثقة دائماً في عملهم في خدمة مصالح الغرب. ففي عام ١٩٧٣، شن الرئيس المصري أنور السادات الذي خلف ناصرًا حرباً على إسرائيل تحت راية الإسلام^(١٧). وبينما كان ناصر قد قام بتعبئة القومية العربية، اتجه السادات إلى الدين. وانطوت استراتيجيته الداخلية على تشجيع الإخوان المسلمين كسبيل لإضعاف وعزل القومييين العلمانيين. ولذا كان الإسلام أداة مفيدة بالنسبة له مثلما كانت مفيدة بالنسبة للولايات المتحدة. وفي حقيقة الأمر، أصبح السادات بعد ذلك محبوب الغرب بعد أن عقد صلحاً مع إسرائيل، إلى أن انقلبت عليه واغتالته في عام ١٩٨١ نفس القوى التي ساعد على إطلاقها من عقابها.

وقد استخدم معمر القذافي أيضاً الرموز واللغة الإسلامية لإضفاء الشرعية على حكمه في ليبيا في أوائل سبعينيات القرن العشرين. فقد أعلن، باعتباره معارضاً للغرب عالى الصوت، أن ليبيا دولة إسلامية وأنه يعتزم تشجيع "الراдикаلية" الإسلامية و"الإرهاب" الإسلامى في مختلف أنحاء العالم^(١٨). وأثار ذلك حنق الولايات المتحدة على القذافي ولكنها أعطت موافقتها في الوقت نفسه للملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية عندما حاول أسلمة السياسة في المنطقة. وكان المنطق وراء ذلك هو أن الأسلمة من أعلى إلى أسفل التي كانت المملكة العربية السعودية تشجعها يمكن السيطرة عليها من أعلى وبالتالي يمكن تسخيرها في خدمة مصالح الولايات المتحدة، بينما لم يكن ممكناً تحقيق ذلك مع النمط الذي كان القذافي يشجعه.

المملكة العربية السعودية وملك الإسلام

بينما كان الملك سعود "بابا إسلامياً" غير فعال، فإن شقيقه الأصغر سناً فيصل لعب هذا الدور بشكل جيد إلى حد كبير. فقد أدرك فيصل، عندما كان لا يزال أميراً،

فعالية استخدام الدين لتعزيز الأجنداث السياسية. وكانت حكومة الولايات المتحدة تنظر إليه على أنه الحلم الذي يمثل مزيجاً من " التحديث مع الإسلام". وقد واصل الإصلاح التحديثي الذي كان سلفه قد بدأه ولكنه سحق كل المقاومة القومية التي كان يمكن أن تحبط مصالح الولايات المتحدة وأنشأ حركة إسلامية شاملة تستند إلى ثلاثة أهداف هي: تعزيز التعاون فيما بين الدول المسلمة، ومحاربة الاتحاد السوفييتي والمنظمات الشيوعية في العالم العربي، وأسلمة القضية الفلسطينية^(١٩). وإيجازاً، فإنه سعى إلى إعادة تشكيل السياسة في المنطقة من خلال عدسة الإسلام كسبيل لتوطيد الهيمنة السعودية.

وأدى انسحاق القومية العلمانية في عام ١٩٦٧ ووقاة ناصر بعد بضع سنوات إلى إتاحة الفرصة أمام فيصل. وأدت حرب عام ١٩٧٣ إلى زيادة تعزيز صورة المملكة العربية السعودية في العالم العربي. فالحظر النفطي الذي قاده المملكة العربية السعودية في أعقاب الحرب رفع مكانة المملكة العربية السعودية إلى حد أنها استطاعت أن تُمسك بزمام المبادرة بدلاً من القومية العلمانية وتفرض مذهبها الإسلامي المحلي، وهو الوهابية، على الخريطة. والوهابية هي تفسير للإسلام السني مفرط في المحافظة استُخدم تاريخياً لإقرار حكم أسرة آل سعود. وفي سبعينيات القرن العشرين، استخدمت النخبة الحاكمة السعودية مواردها النفطية الواسعة النطاق لتعزيز الأسلمة والوهابية على المسرح العالمي بطرائق شتى:

- فقد أقامت شبكة ضخمة من الأعمال الخيرية، أتاحت للجماعات الإسلامية توفير حلول للأزمات الاقتصادية التي تُمسك بخناق بلدان مختلفة.
- واستخدمت رابطة العالم الإسلامي (التي أنشئت عام ١٩٦٢) لمناهضة العلمانية.

- وجمعت بين عدد من بلدان المنطقة تحت لواء منظمة المؤتمر الإسلامي فى عام ١٩٦٩ لوضع جدول أعمال يتسق مع الموقف السعودى.

- وأنشأت نظاماً مالياً إسلامياً ربط بلداناً شتى فى أفريقيا وأسيا والشرق الأوسط بالدول الغنية بالنفط (٢٠).

وبينما كانت رابطة العالم الإسلامى ومنظمة المؤتمر الإسلامى الوسيلتين السياسيتين لفرض الهيمنة السعودية، أرسى النظام المالى الإسلامى الأساس الاقتصادى لنمو التأسلم. فبايعاز سعودى، وُجهت مبالغ هائلة من النقود المتدفقة إلى البلدان العربية المصدرّة للنفط فى أوائل سبعينيات القرن العشرين إلى شبكة مصارف كانت خاضعة لليمين الإسلامى وللإخوان المسلمين. ومن ثم قامت هذه المصارف بتمويل الساسة المتعاطفين والأحزاب المتعاطفة، وشركات الإعلام المتعاطفة، ومشاريع الأعمال الخاصة بالطبقة الوسطى المتدينة. ومولّت أيضاً عمليات الإخوان المسلمين فى مصر والكويت وباكستان وتركيا والأردن (٢١).

وقد أيد الغرب تأييداً تاماً هذا النظام المصرفى. ورغبة من البنوك الغربية فى ألا تُترك خارج الموجة المدّية للدولارات البترولية التى صارت تتدفق من خلال البنوك الإسلامية، فإنها سارعت إلى تقديم الخبرة والتدريب والدراية التكنولوجية. وكان من بين الجهات الفاعلة الأمريكية الرئيسية فى هذا الصدد سيتى بنك، وتشيز مانهاتن، وبراييس ووتر هاوس، وجولدمان ساكس. وتزامن صعود نجم النظام المصرفى الإسلامى مع نشوء النموذج الليبرالى الجديد فى الغرب. وأقام ميلتون فريدمان، المعلم الروحى لحركة الليبراليين الجدد، وحواريوه فى جامعة شيكاغو روابط وثيقة مع الإسلاميين. وكما صور روبرت درايفوس الأمر، "اعتمد التمويل الإسلامى بشكل متكرر على رجال الاقتصاد اليمينيين والساسة الإسلاميين الذين كانوا يدعون إلى اتباع آراء كلية شيكاغو المناهية بالخصخصة وبحرية الأسواق" (٢٢). وخلص الأمر هى أن المملكة العربية السعودية لعبت، من خلال مؤسساتها السياسية والدينية

والاقتصادية المختلفة، دوراً رئيسياً من وراء الستار فى تعزيز قضية التأسلم بمباركة من الولايات المتحدة.

إيران وأفغانستان: الملايى اللاعقلانيون والمقاتلون فى سبيل الحرية

مع اقتراب السبعينيات من الانتهاء، واجهت الولايات المتحدة حقيقة ما يمكن أن يحدث عندما ينقلب حلفاؤها السابقون إلى أعداء. بيد أن هذا لم يوقف خطتها للاستعانة بالمجاهدين الأفغان (المحاربين الفدائيين الإسلاميين) فى حرب بالوكالة ضد الاتحاد السوفييتى. وهكذا بدأت حقبة تناقض عندما تحدث أعضاء حكومة ريجان بصوتين مختلفين. فمن ناحية، استخدموا لغة خشنة ليعربوا عن استنكارهم لإيران؛ ومن الناحية الأخرى كانوا يشيرون إلى المجاهدين الأفغان على أنهم "مقاتلون فى سبيل الحرية"^(٣٣). وانعكس هذا التناقض أيضاً فى الثقافة الشعبية، ففيلم "رامبو الثالث" مهدى إلى "المجاهدين الأفغان البواسل"، بينما يصور فيلم "لا بدون ابنتى" إيران كدولة شمولية كارهة للمرأة.

وقد أطاحت ثورة ١٩٧٩ الإيرانية بالشاه المدعوم من الولايات المتحدة وجعلت مقاليد السلطة فى يد آية الله خومينى، الذى كان يستنكر الولايات المتحدة بوصفها "الشیطان الأعظم". وكما ذكر أنفأ، كان مصدق الذى تولى السلطة فى إيران فى انتخابات عام ١٩٥١ قد أمم صناعة النفط الإيرانية ووجه بذلك ضربة للمصالح البترولية البريطانية. وفى البداية، رأت النخبة السياسية فى مصدق وسيلة لزيادة السيطرة على منابع النفط الإيرانى وإبعاد بريطانيا. ولكن، عندما رفض مصدق خطتها للسماح لشركات النفط الأمريكية بدخول البلد، انقلب عليه الأمريكيون الذين كانوا سيصبحون أصدقاء له. ونظمت وكالة المخابرات المركزية انقلاباً (معروفاً باسم عملية آجاكس)، معتمدة فى ذلك على دعم رجال الدين الإسلامى، لا سيما آية الله أبو القاسم كاشانى الذى كان مرشداً لخومينى، والذى كان بإمكانه أن يحشد

أعداداً كبيرة من الناس من الأحياء الفقيرة في طهران ضد مصدق القومي العلماني (٢٤). وتلقى كاشاني كميات كبيرة من الأموال من وكالة المخابرات المركزية وكانت تربطه بها علاقات وثيقة إلى حد كبير. وكان هذا الأساس الأولي، الذي أرسلته وكالة المخابرات المركزية مع كاشاني، هو الذي ساعد على تهيئة خوميني للقيام بدوره في ثورة عام ١٩٧٩.

وقد كانت الثورة الإيرانية نتاج استياء بالغ في صفوف العمال والطلبة والفلاحين والتجار (أو أصحاب البازارات) ضد الشاه. ولعب اليسار دوراً في الانتفاضات التي حدثت في صفوف المؤسسة العسكرية وكذلك في احتجاجات الطلبة. إلا أنه فشل في تقديم قيادة للحركة ككل لأسباب شتى، من بينها الدور الذي قامت به الولايات المتحدة في إضعاف الشيوعيين واليساريين الآخرين. وكان العمال الإيرانيون، وبخاصة عمال النفط، هم الوسيلة الرئيسية التي أسقطت الشاه ولكنهم لم يكونوا قادرين على القيام بدور مستقل. وأتاح هذا لآية الله خوميني أن يثار بين فصائل شتى على مدى عامين وأن يجعل في نهاية الأمر الحزب الجمهوري الإسلامي يستولى على زمام السلطة (٢٥).

ولم يهزم الشاه - الذي كان ركيزة رئيسية من ركائز سياسة الولايات المتحدة في المنطقة - فقط، بل احتُجز ٥٢ أميركياً كرهائن لمدة ٤٤٤ يوماً. وكان ذلك يمثل ضربة لهيمنة الولايات المتحدة في المنطقة، وسرعان ما جرت عملية إسقاط لمصطلحات "إرهابي"، و"أصولي"، و"متطرف"، التي كانت تُستخدم من قبل لوصف القومية العلمانية، على التأسلم. وأصبح خوميني رمزاً لكل ما هو شرير ولا عقلاني. وكما كتب فواز جرجس، "تحت تأثير الثورة الإيرانية، وقتئذ، حلّ التأسلم محل القومية العلمانية كتهديد أمني لمصالح الولايات المتحدة، وتبلور في أذهان الأميركيين الخوف من صدام بين الإسلام والغرب" (٢٦). ومن الناحية الاستراتيجية، كانت الولايات المتحدة ترغب في إخماد الثورة، إذ كان آخر شيء تريده هو وجود نموذج ناجح للإسلام المناهض للولايات المتحدة يمكن أن يحاكيه إسلاميون آخرون في المنطقة (٢٧).

إلا أن هذا لم يوقف تقديم الدعم والتمويل للمجاهدين في أفغانستان، أو الموافقة على برنامج الجنرال مُحمَّد ضياء الحق الواسع النطاق للأسلحة في باكستان^(٢٨). ولم يمنع أيضاً إدارة ريجان من تسليح إيران أثناء الحرب بين إيران والعراق، في مرحلة بدا لها فيها أن العراق قد يكسب الحرب. فالعملية السرية التي أصبحت تُعرف باسم "إيران - كونترا" انطوت على تزويد إيران سرّاً بالأسلحة واستخدام عوائد ذلك في تمويل المعارضين الذين يمثلون الجناح اليميني في نيكاراغوا ضد حكومة الساندينستا الشعبية. وكان المنطق وراء هذا الدعم المتواصل للإسلاميين هو أن العدو الرئيسي كان الاتحاد السوفييتي: فإذا كان من الممكن استخدام الإسلاميين لإضعاف هذا العدو في الحرب الباردة، فليكن ذلك. وحاولت الولايات المتحدة أيضاً إضعاف الاتحاد السوفييتي بدعم الإسلاميين في جمهوريات شتى بآسيا الوسطى^(٢٩).

وقد بدأ تمويل المجاهدين في منتصف عام ١٩٧٩، أي قبل الغزو السوفييتي بفترة كبيرة^(٣٠). وقدم زيجنيو بريزنسكي، مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر، تفسيراً لهذا التمويل والدعم قبل حدوث أي عمل من أعمال العدوان السوفييتي، وذلك في مقابلة معه أصبحت شهيرة الآن:

وفقاً لنسخة التاريخ الرسمية، بدأ تقديم المعونة من وكالة المخابرات المركزية إلى المجاهدين أثناء عام ١٩٨٠، أي بعد غزو الجيش السوفييتي لأفغانستان في ديسمبر عام ١٩٧٩، ولكن الحقيقة، التي كانت طى السرية حتى الآن، بخلاف ذلك تماماً: ففي الحقيقة وقّع الرئيس كارتر في ٢ يوليو ١٩٧٩ أول توجيه بتقديم معونة سرية إلى معارضى النظام الموالي للسوفييت في كابول. وفي ذلك اليوم نفسه، كتبتُ مذكرة موجهة إلى الرئيس أوضحتُ له فيها أن ذلك سيؤدي في رأيي إلى تدخل عسكري سوفييتي. ... وفي اليوم الذي عبر فيه السوفييت الحدود رسمياً، كتبتُ رسالة موجهة إلى الرئيس كارتر قلتُ فيها: إن الفرصة متاحة لنا الآن لإعطاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية حربه الفيتنامية^(٣١).

وكان تقديم الدعم المالي والتقني للمجاهدين متوقفاً على استراتيجية جراً اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية إلى حرب مطولة تزرع بذور الشقاق الداخلي

وتحوّل وجهة الموارد، تماماً مثلما فعلت فييتنام بالنسبة للولايات المتحدة. وقد نجحت الخطة: فبعد ذلك بفترة وجيزة، غزا الاتحاد السوفييتى أفغانستان. وأدى ذلك الغزو إلى دفع كارتر إلى إعلان "عقيده" فى عام ١٩٨٠، التى أعلن فيها أن الولايات المتحدة ستخوض غمار الحرب إذا هددت "قوة خارجية" - اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية - إمدادات الخليج الفارسى النفطية. ولكن الحرب الحقيقية بالوكالة حدثت فى أفغانستان.

وعملاً على إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفييتى، دعمت الولايات المتحدة جماعات ذات أهداف اجتماعية رجعية مع علمها التام بميولها العنيفة والقمعية، تماماً مثلما فعلت فى الكونغو وشيلى وجواتيمالا واندونيسيا، بين بلدان أخرى. فقد كان قلب الدين حكمتيار زعيم جماعة الحزب الإسلامى، مثلاً، يتلقى كميات كبيرة من المعونة الأمريكية حتى رغم أن الصحفى تيم واينز أشار إلى أن "أتباع حكمتيار أثاروا الانتباه أول مرة بإلقائهم حمضاً على وجوه النساء اللاتى رفضن ارتداء الحجاب". ووصفت مصادر واينز فى وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية حكمتيار بأنه "مخيف"، و"شرير"، و"فاشى"، و"مادة ديكتاتورية مؤكدة" (٢٢).

وعندما تولى رونالد ريجان الحكم فى عام ١٩٨١ فإنه واصل ما كان كارتر قد بدأه. فبمساعدة من المخابرات الباكستانية، قامت حكومة ريجان بتسليح وتدريب المجاهدين من أفغانستان وأماكن أخرى فى معسكرات أقيمت فى باكستان وأفغانستان. وقد برر هذا الدعم خلال ثمانينيات القرن العشرين بقوله إن المجاهدين هم "إخواننا"، و"نحن ندين لهم بتقديم العون" (٢٣). وكان أحد أولئك الإخوان هو رجل أعمال سعودى اسمه أسامة بن لادن. ففى تلك المعسكرات أبرم بن لادن العقود التى مكنته من تكوين القاعدة فى أوائل تسعينيات القرن الماضى. وطيلة ثمانينيات ذلك القرن قدمت له الولايات المتحدة كميات كبيرة من الأسلحة من قبيل المتفجرات البلاستيكية C-4، وبنادق القناصة الطويلة المدى، والقذائف المضادة للدبابات الموجهة سلكياً، وقذائف ستينجر المضادة للطائرات، فضلاً عن تقديمها

بيانات استطلاعية مستفيضة مستمدة من الأقمار الصناعية عن مواقع الأهداف السوفيتية^(٣٤). ولم تقم الولايات المتحدة بتسليم وتدريب الإسلاميين فقط بل قامت أيضاً، بمساعدة من حلفائها (المملكة العربية السعودية ومصر وإسرائيل وباكستان)، بضخ نحو ثلاثة مليارات من الدولارات فى المنطقة، أى ما يتجاوز أى برنامج معونة آخر للجماعات المتردة.

واضطلعت وكالة المخابرات المركزية ببرنامج لتجنيد أشخاص من أمثال أسامة ابن لادن والشيخ عزام (الزعيم الروحى للمجاهدين وأحد مؤسسى جماعة حماس الفلسطينية) ولتنظيم جولات لهم فى شتى أنحاء المنطقة^(٣٥). وجاب عزام أيضاً الولايات المتحدة طولاً وعرضاً، بحيث زار ٢٦ ولاية فيها^(٣٦). ثم تلقى الرجال الذين تم تجنيدهم من خلال هذا النشاط تدريباً فى مواقع عسكرية مختلفة فى الولايات المتحدة. وبدأ تدريبهم الرسمى فى عهد حكومة كارتر وشمل موظفين من وكالة المخابرات المركزية، وعسكريين، وجنوداً، وموظفين فى جهاز المخابرات المشترك الباكستانى درّبوا لاحقاً المجاهدين فى أفغانستان وباكستان^(٣٧). ونقل مدربو المجاهدين الأفغان أكثر من ٦٠ مهارة فتأكة، من بينها كيفية طعن عدو من الخلف، وكيفية خنق عدو، وكيفية استخدام حركات الكاراتيه للقتل، وكيفية استخدام أجهزة التوقيت المعقدة، وأجهزة الإشعال، والمتفجرات، وكيفية استخدام جهاز التحكم عن بُعد لتفجير القنابل، وأساليب الحرب النفسية^(٣٨).

وكان مصدر المتطوعين الرئيسى للجهاد الأفغانى هو العالم العربى. فقد تدفق آلاف من الأشخاص الذين أصبحوا يعرفون باسم "العرب الأفغان" من مصر والمملكة العربية السعودية والجزائر وعدة بلدان أخرى. وحتى تلك المرحلة، لم يكن لدى الإسلاميين المناضلين فى هذه البلدان أى برنامج خارج نطاق أعمال منعزلة من الإرهاب الحضرى. بل إن معظمهم كان يُنظر إليهم فى حقيقة الأمر على أنهم خارجون على القانون فى بلدانهم الأصلية. وقد وُحِدَت بينهم الحرب الأفغانية، ودرّبَتهم، ووهبت حركتهم حياة^(٣٩). وكما كتب فواز جرجس:

لقد تجمّع في أفغانستان أول جيش عالمي حقاً من المحاربين الإسلاميين - العرب الأفغان. فلم يسبق قط في العصر الحديث أن سافر إلى بلد إسلامي لمحاربة عدو مشترك مثل هذا العدد الكبير من المسلمين من أراضٍ مختلفة كثيرة يتكلمون لغات كثيرة، من مصريين وسعوديين ويمينيين وفلسطينيين وجزائريين وسودانيين وأكراد عراقيين وكويتيين وأتراك وأردنيين وسوريين وليبيين وتونسيين ومغربيين ولبنانيين وباكستانيين وهنود وإندونيسيين وماليزيين وغيرهم^(٤٠).

وبدا للوهلة الأولى أن "جماعة مؤمنين" عالمية قد وحدت صفوفها لمكافحة تعدى الكافرين، وذلك بفضل الولايات المتحدة وحلفائها في المنطقة.

وكان انسحاب الاتحاد السوفييتي من أفغانستان في عام ١٩٨٩ بمثابة ذروة الحركة الإسلامية العالمية وأضفى شرعية على الأساليب المتطرفة التي يتبعها المقاتلون في أعين الآخرين الذين أصبحوا ينظرون إليهم على أنهم يمثلون طريقاً للمضى قدماً. وبعد أن انتهت مهمة المجاهدين في أفغانستان فإنهم تفرقوا إلى مناطق أخرى من قبيل البوسنة وكشمير وغيرهما من الأماكن لمواصلة جهادهم^(٤١). وقام أسامة بن لادن، الذي كان ركيزة في السابق لوكالة المخابرات المركزية، بتشكيل القاعدة، بالتحالف مع أيمن الظواهري المصري، وحوّل الجهاد الأفغاني إلى ظاهرة عالمية^(٤٢).

وكان من العواقب الأخرى للحرب السوفييتية - الأفغانية نشوء طالبان وإسلاميين باكستانيين مناضلين شتى. فبمساعدة من حكومة بنظير بوتو في باكستان، بدأت طالبان، وهي حركة إسلامية تنتسب في معظمها إلى جماعة البشتون العرقية، تسيطر على أفغانستان في عام ١٩٨٤، وبعد كفاح وحشي دام عامين، استولت حركة طالبان في نهاية الأمر على كابول عام ١٩٩٦، وطبقت، حالما أمسكت بزمام السلطة، فلسفتها الديوباندية - التي تمثل نهجاً شديداً المحافظة في الإسلام السنّي - لا على جماعتها فحسب بل على أفغانستان ككل. وكانت جماعات المجاهدين المختلفة التي سبق أن تولت مقاليد السلطة قد بدأت بالفعل في أسلمة المجتمع الأفغاني، ولكن طالبان نقلت تلك الأسلمة إلى مستوى جديد. فقد أُجبرت النساء على ارتداء الحجاب

ومنَّع من العمل؛ وكان على الرجال إطلاق لحاهم وارتداء ملابس معينة؛ ومنَّع منعاً باتاً التلفزيون والموسيقى والأفلام السينمائية؛ وأنشئت قوة شرطة دينية لإنفاذ هذه القواعد. وكانت الولايات المتحدة، رغم ما تتشددق به من أقوال عن الحرية والديمقراطية، أكثر من سعيدة بإقامة علاقة مع طالبان من أجل مد خط أنابيب إلى منابع النفط والغاز الطبيعي في بحر قزوين^(٤٣)، وإيجازاً، كانت الحكومة الأمريكية راغبة في العمل مع الإسلاميين عندما كان ذلك مناسباً لها، حتى في أثناء تسعينيات القرن الماضي.

وتلخيصاً لمناقشة سياسة الولايات المتحدة إزاء الإسلام السياسي في الثمانينيات، نتجه الآن إلى الدور الذي لعبته إسرائيل. فبدأً من أواخر السبعينيات، حاول ائتلاف من المحافظين في الولايات المتحدة، والمستشرقين، وقوى الجناح اليميني في إسرائيل إدخال الحديث عن العدو "الإرهابي" العالمي في قاموس مؤسسة السياسة الخارجية. وناقش الفصل السابع هذه الروابط بتفصيل أكبر؛ ويقدم القسم التالي عرضاً عاماً تاريخياً.

أعداء إسرائيل

لقد كانت النظرة إلى إسرائيل إيجابية في الولايات المتحدة منذ إنشائها في عام ١٩٤٨، وفي الثقافة الشعبية، بدءاً من "مذكرات فتاة صغيرة" التي كتبتها آن فرانك إلى "الخروج" الذي كتبه ليون يوريس، كان يُنظر بعين التعاطف إلى محنة اليهود أثناء المحرقة النازية وإلى التطلعات الصهيونية إلى وطن. وعلى العكس من ذلك، صورَّ العرب في أفلام من قبيل "لورانس العرب" على أنهم غير قادرين على نيل حق تقرير المصير بدون مساعدة من الغرب. وقد أكدت حرب عام ١٩٦٧ فحسب الرأي القائل إن العرب أدنى مرتبة من الإسرائيليين. وفي دوائر السياسة، كثيراً ما استُخدمت الحرب للتدليل، كما صوّرت إحدى دراسات وكالة المخابرات المركزية الأمر، على أن "كثيرين من العرب، كعرب، ليسوا ببساطة على مستوى متطلبات الحرب الحديثة وأنهم يفتقرون

إلى الفهم والابتكار وربما يفتقرون في بعض الحالات إلى الشجاعة أيضاً^(٤٤)، وبينما كانت للولايات المتحدة تحالفات استراتيجية مع دول عربية شتى، فإن صورة العرب في الثقافة الشعبية كانت إلى حد كبير صورة انتقاصية وتتميطية^(٤٥).

وفي إسرائيل، كانت النظرة السلبية إلى العرب شائعة بنفس القدر منذ المؤلفات الصهيونية التي ترجع إلى تسعينيات القرن التاسع عشر، والتي صورت الفلسطينيين المحطيين على أنهم حمير. وكما صور الشاعر الصهيوني القديم حمدة بن يهودا الأمر، "كم تبدو إسرائيل جميلة بدون العرب". إلا أن الإيديولوجيا الصهيونية لم تكن مضادة للمسلمين صراحةً حتى سبعينيات القرن العشرين^(٤٦). بل كان العداء تجاه العرب والمسلمين جزءاً لا يتجزأ من البرنامج الصهيوني لإقامة دولة يهودية تماماً لا ترحب بجميع من هم ليسوا يهودا. وقد غيرت مجموعتان من التطورات هذه الحالة: إحداهما داخلية والأخرى خارجية.

فقد حدث تحول في السياسة الإسرائيلية إلى اليمين في منتصف سبعينيات القرن الماضي عندما بدأت أحزاب اليمين المتدين تلعب دوراً أكثر بروزاً في السياسة السائدة. وكان هذا التحول إيذاناً باستخدام لغة أكثر تحيزاً ضد العرب والمسلمين في المجال العام. وإضافة إلى الجماعات الدينية، لعب غلاة القوميين ولعبت جماعات المستوطنين ذات أشد المواقف قسوة ضد المسلمين دوراً في هذه العملية.

وفي عام ١٩٧٩، نظم بنيامين نيتنياهو، بصفته رئيساً لمعهد جوناثان، وهي "مؤسسة خاصة مكرسة لدراسة الإرهاب"^(٤٧)، مؤتمراً محورياً في القدس اجتمع فيه زعماء سياسيون من مختلف أنحاء العالم لمناقشة "الإرهاب" بوصفه تهديداً عالمياً جديداً. (وهذا المسعى الدولي ترد مناقشة له أكثر تفصيلاً في الفصل السابع). وحتى في هذه المرحلة، انتصرت "السياسة الواقعية". فقد كان موقف إسرائيل موقفاً متسامحاً إزاء الإسلاميين، مقلدة في ذلك حلفاءها الأمريكيين. وفي عام ١٩٧٣، أقام الإخوان المسلمون المركز الإسلامي (المجمع الإسلامي)، وهو المنظمة السلف لحماس، وفي عام ١٩٧٨ اعترفت به الدولة الإسرائيلية. ويقول شاؤول ميشال وإفراهام سيلا

إن " أنشطة المجمع المجتمعية كانت بمثابة نوع من صمام الأمان بالنسبة للسلطات الإسرائيلية" (٤٨). واضطلع المجمع بتنفيذ برنامج لبناء مسجد بموافقة إسرائيل، بحيث تضاعف عدد المساجد فى قطاع غزة من ٧٧ إلى ١٥٠ خلال الفترة ما بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٨٦، وفى سياق انتفاضة ثمانينيات القرن الماضى، زاد عدد المساجد إلى مائتين بحلول عام ١٩٨٩، وقال البعض إن إسرائيل قامت حتى فى بعض الأوقات بتمويل الإسلاميين (٤٩). وكان الإسلاميون، بدورهم، يصطدمون روتينياً مع القوميين العلمانيين وقوى أقصى اليسار. وفى نهاية المطاف دفعت التطورات الخارجية، ومن بينها الثورة الإيرانية، ومولد حزب الله فى لبنان، وصعود نجم حماس، إلى إعادة التفكير فى هذه الاستراتيجية. فبعد انهيار الاتحاد السوفييتى، سعى الزعماء الإسرائيليون - بمساعدة من حلفائهم من المحافظين الجدد فى الولايات المتحدة - إلى إقناع القيادة السياسية الأمريكية بأنها تواجه عدواً أكبر مما تتصور هو: الأصولية الإسلامية (٥٠)، ولم تنجح جهودهم إلا بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١؛ ففى ثمانينيات القرن الماضى، ورغم صعود حزب الله وحماس كتهديدين لإسرائيل، واصلت الولايات المتحدة دعم الإسلاميين ضد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. وكان ميدان المعركة الرئيسى فى هذه الحرب الباردة بالوكالة هو، كما شاهدنا، أفغانستان.

الإسلاميون وحقبة ما بعد الحرب الباردة

لقد شهدت السنوات التى سبقت مباشرة عام ١٩٩١ انتصارات متعددة للإسلاميين. فإضافة إلى هزيمة السوفييت فى أفغانستان، اكتسب الإسلاميون فى بلدان شتى زخماً حول ذلك الوقت تقريباً. ففى السودان، جلب انقلاب عسكري العقائدى الإسلامى حسن الترابى إلى السلطة. وفى الجزائر، حققت الجبهة الإسلامية للإنقاذ فوزاً حاسماً فى أول انتخابات حرة تجرى فى ذلك البلد منذ استقلاله. وفى فلسطين، أخذت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية على الانتفاضة تتعرض لتهديد متزايد من حماس (٥١). وأصدر آية الله خومينى "فتوى" بقتل سلمان

رشدى بسبب كتابه " آيات شيطانية"، ولقيت دعوته أذانا صاغية فى مختلف أنحاء العالم، لا سيما فى باكستان وبريطانيا. وأصبح الإسلاميون يمثلون حضوراً على المسرح العالمى.

إلا أنهم لم يصبحوا على الفور الأعداء الرئيسيين للولايات المتحدة. فقد كان معنى انهيار الاتحاد السوفييتى ونشوء عالم أحادى القطبية، أو بالأحرى " لحظة أحادية القطبية"، هو إعادة تشكيل الإمبريالية الأمريكية. وأصبح هناك قدر كبير من الطنطنة عن " عائد السلام" ونظام عالمى سمته المداهنة، لا المدافع. وقيل لنا إن الولايات المتحدة ستتشئ وتراقب " نظاماً عالمياً جديداً" تظهر فيه فى أى مكان توجد حاجة إليها فيه، بحيث تكون أشبه بـ " رجل شرطة عالمى"، لتصحيح الأخطاء، وتعزيز الأهداف الإنسانية، وحل المشاكل. وقد أظهرت حرب الخليج فى عام ١٩٩١ للعالم أن نهاية " الشيوعية" لم يكن معناها نهاية المؤسسة العسكرية الأمريكية. فبدلاً من مكافحة الروس، استُخدمت تلك المؤسسة ضد تهديدات أخرى ظلت فى نظر الولايات المتحدة هامة بالنسبة للاستقرار الدولى، هى الدول المارقة، والدول الفاشلة، والإرهابيون، وطاقفة من الجهات الأخرى التى رفضت الإذعان للسلام " على الطريقة الأمريكية".

وكان الهدف المحورى الذى يجمع ما بين إدارة جورج دابليو بوش وإدارة بيل كلينتون هو توسيع نطاق النفوذ الأمريكى ومنع نشوء أى منافس محتمل. فقد سعى القادة الأمريكيون فى تسعينيات القرن الماضى، مثل نظرائهم فى مرحلة ما قبل الحرب، إلى إدماج العالم فى نظام رأسمالى خاضع لسيطرتهم. وهذه المرة كان النموذج هو الليبرالية الجديدة، بدلاً من التحديث. وعملاً على كفالة ما وصفه بوش بأنه " النظام العالمى الجديد"، حاربت الولايات المتحدة ضد "النظم المارقة" التى رفضت أن تمتثل للقواعد الأمريكية، وحاولت أن تسيطر على مناطق يمكن أن يؤدى فيها انعدام الاستقرار إلى إبطال سلاسة عمل النظام الرأسمالى. ومن ثم كان يتعين القضاء على الجهات الفاعلة من غير الدول الخارجة عن نطاق السيطرة الأمريكية.

وفى تسعينيات القرن الماضي، مثل اليوم، ربما كان الشرق الأوسط هو أهم منطقة من الناحية الاستراتيجية، أساساً لأنه يحوى أكبر احتياطات نفطية فى العالم، مع كون النفط، بطبيعة الأمر هو شريان حياة الاقتصاد العالمى. وتدخلت الولايات المتحدة فى المنطقة ترتبط جميعها تقريباً إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة بمسألة السيطرة على تدفق النفط. وفى هذا السياق، كانت الجماعات والدول الإسلامية تصنف إما كحلفاء أو أعداء استناداً إلى درجة إذعانها لأهداف الولايات المتحدة. فقد كانت النخبة السياسية أثناء عهد كلينتون، التى كانت ما زالت تشعر بالألم من جراء الثورة الإيرانية والانتفاضات التى شهدتها فترة أواخر السبعينيات والثمانينيات، تنظر إلى إيران نظرة سلبية على أنها مركز الإرهاب الدولى والتطرف الإسلامى؛ وحظرت التجارة مع إيران، وفرضت جزاءات عليها. إلا أن تركيا كانت تمثل مسألة أخرى. فعندما انتُخب حزب الرفاه الإسلامى وتولى مقاليد السلطة فى منتصف التسعينيات^(٥٢). كانت الولايات المتحدة راغبة فى العمل معه، بشرط ألا يتدخل فى المصالح الأمريكية. وكما ذكر أعلاه، تحالف مسؤولو إدارة كلينتون مع طالبان فيما يتعلق بصفقة مد خط أنابيب كان الأمل معقوداً على أن يتيح للشركات الأمريكية الحصول على احتياطات النفط والغاز الطبيعى الموجودة فى بحر قزوين. والخلاصة هى أن الإسلاميين الذين تعاونوا مع رؤية الولايات المتحدة للعالم كانوا حلفاء فى نظرها، أما أولئك الذين لم يفعلوا ذلك فقد كان يُنظر إليهم على أنهم أعداء.

والتحول الذى حدث إبان تلك الفترة هو أن جهات فاعلة من غير الدول، كانت قد لجأت إلى أساليب إرهابية فى حربها ضد الغرب، أصبحت شوكة فى جنب الأمريكين. فعدا عن القاعدة عاد كثيرون من المناضلين الذين حاربوا فى أفغانستان إلى أوطانهم أو انتقلوا إلى البوسنة وكشمير وأماكن أخرى لمواصلة الحرب المقدسة^(٥٣). وكان ما تلقوه من تدريب ومن خبرة حربية مع وكالة المخابرات المركزية وجهاز المخابرات الباكستانى المشترك قد منحهم ما يحتاجون إليه من معرفة لاستخدام أساليب العنف لتعزيز أهدافهم. وكانت هذه نتيجة غير مريحة نوعاً ما بالنسبة للولايات المتحدة. وأدت

محاولة تفجير قنبلة فى مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣ إلى استيعاب فكرة أن القوات التى مكنتها الولايات المتحدة خلال الحرب الأفغانىة يمكن أن تسبب ضربة عكسىة. وجاءت فى أعقاب ذلك عملىة تفجير قنبلة فى الرياض عام ١٩٩٥، وعملىة تفجير قنبلة فى الخُبر عام ١٩٩٦، وعملىة تفجير قنبلتىن فى السفارتىن الأمريكىة فى كىنيا وتنزانيا عام ١٩٩٨، وعملىة تفجير قنبلة فى السفىنة الأمريكىة " كول" عام ٢٠٠٠، وأدت هذه الاعتداءات على الوجود الدبلماسى أو العسكرى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط وأفرىقىا إلى اتباع المؤسسة العسكرىة الأمريكىة ممارسة جدىة أطلقت عليها اسم " الحرب اللاتماثلىة"، عاملت فىها هذه الجماعات الجدىة عدىمة الجنسىة وعابرة الجنسىات كتهدىدات يلزم رصدها وتتبعُها^(٥٤). وسمت إدارة كلىنتون جماعات عدىة " إرهابىة" ووضعت استراتىجىة دفاعىة لحماية منشآتُها العسكرىة والدبلماسىة الموجدة فى الخارج. ومع ذلك لم يستبعد كلىنتون شن هجوم عرضى بالقذائف التىسىارىة: فقد قذف بالقنابل أهدافاً " إرهابىة" فى السودان وأفغانستان عام ١٩٩٨ رداً على عملىة تفجير قنبلتىن فى السفارتىن الأمريكىة فى تنزانيا وكىنيا.

ولكن حتى فى هذه المرحلة، لم يحل " الإرهابىون" محل الاتحاد السوفىيتى فى صورة العدو العالمى الجدى للولايات المتحدة؛ وبدلاً من ذلك، كان الرأى السائد فى دوائر السىاسة الأمريكىة هو أن الإسلامىين الذىن يتسمون بالعنف يشكلون قوة واحدة بىن قوى كثرىة يمكن أن تُخل بالرؤىة الأمريكىة لما بعد الحرب الباردة. ومع ذلك بدأت جىوب من النخبة الحاكمة، لا سىما المحافظىن الجدد، تكتب عن " الأصولىة الإسلامىة" كتهدىد رثىسى محتمل لمصالح الولايات المتحدة. كذلك حاولت الطبقة السىاسىة الإسرائىلىة أن تجعل الولايات المتحدة وأوروبا تنظران إلى التأسلم على أنه عدوهما الجدى الأكبر مما يتصور^(٥٥).

وىصف فواز جرجس هذا بأنه جدل بىن " المىالىن إلى المواجهة" و " المىالىن إلى الاستيعاب". وكانت حجة المىالىن إلى المواجهة هى أن التأسلم هو " الآخر" الجدى فى

مرحلة ما بعد الحرب الباردة وأن الولايات المتحدة بحاجة إلى مواجهة هذا الخصم وتحديه في " صدام الحضارات" الذي سيلي ذلك. وكان المنظر الإيديولوجي الرئيسي الذي يقود ذلك هو برنارد لويس، الذي دَبَّجَ آراءه بشأن التأسلم في عام ١٩٩٠ في مقالة أصبحت شهيرة الآن عنوانها " جنور سخط المسلمين" دق فيها ناقوس الخطر بشأن " صدام حضارات" وشيك^(٥٦). ثم أضيف صمويل هنتنجتون شعبية على هذا المفهوم في مقالة بعنوان " صدام حضارات؟" في مجلة " Foreign Affairs"، أعقبها كتاب يحمل نفس العنوان بدون علامة الاستفهام. وقد طرح هنتنجتون نظرية أن الصراع، في الحقبة الجديدة بعد الحرب الباردة، سيتسم بالخلافات الثقافية بين حضارات شتى. وقد سمى نحو سبع أو ثمانى حضارات من هذا القبيل، قائلاً إن الحضارة الإسلامية كانت من بين أخطر التهديدات للغرب.

وقد انعكست هذه الحجة في مجموعة من المقالات الأخرى. فعلى سبيل المثال، قالت جوديث ميلر الصحفية، في مقالة لها نُشرت في مجلة " Foreign Affairs" عام ١٩٩١، إن واضعى السياسة الأمريكية ينبغي ألا يحاولوا التمييز بين الإسلاميين " الأخيار" والإسلاميين " الأشرار" وذلك لوجود توافق في الآراء بين جميع الإسلاميين على إلحاق الهزيمة بالغرب. وكما صوّرت الأمر: " في حرب الإسلام على الغرب والصراع من أجل بناء دول إسلامية فى الداخل، كانت الغايات تبرر الوسائل"^(٥٧)، والمواجهة، بدلاً من التعاون أو الحوار، كانت هى السبيل الوحيد لإحباط هذا العدو الجديد. وإضافة إلى لويس وهنتنجتون، ضم دانييل بايبس بن ريتشارد بايبس الذى شارك فى الحرب الباردة وينتمى إلى المحافظين الجدد)، ومارتن إنديك (الذى عمل فى مجلس الأمن القومى فى إدارة بيل كلينتون)، وجين كيركباتريك (التي كانت يوماً ما تنتمى إلى الحزب الديمقراطى وأصبحت من أتباع الحزب الجمهورى العتيدين الذين شاركوا فى الحرب الباردة) وغيرهم، أصواتهم إلى هذه الجوقة^(٥٨)، وفكرة "الصدام" ليست موقفاً حزبياً، إذ كان دعاة المواجهة ينتمون إلى كلا الحزبين السياسيين. ولم يكن الخلاف بين دعاة الاستيعاب ودعاة المواجهة يدور حول هدف

هيمنة الولايات المتحدة، بل كان يدور حول الاستراتيجية والوطننة الخطائية، كما سنرى فى الفصل السابع. فعلى سبيل المثال، لا يرى دعاة الاستيعاب التأسلم على أنه العدو الأحادى الخواص الجديد؛ بل يميزون بدلا من ذلك بين الجماعات الإسلامية المعتدلة (التي يمكن العمل معها) والأقلية المتطرفة. وقد اتبع جورج دابليو بوش، قرب نهاية مدة ولايته الثانية، نهجاً استيعابياً تجاه طالبان بدعوتها إلى المشاركة فى محادثات مع الولايات المتحدة. وبينما اتبع أوباما نهجاً قائماً على المواجهة بإصداره أوامر باغتيال أسامة بن لادن فى عام ٢٠١١، فإن إدارته قامت أيضاً بتقديم عروض إلى طالبان.

وأثناء التسعينيات، كان الاتجاه الاستيعابى هو السائد فى واشنطن. وأعلنت إدارة بوش فى مدة ولايته الأولى أن " حكومة الولايات المتحدة لا تعتبر الإسلام 'العدو' المقبل الذى يواجه الغرب ويهدد السلام العالمى"^(٥٩)، وواصلت إدارة كلينتون العمل فى هذا الإطار. وكما صور أنتونى ليك، مستشار الأمن القومى لكلينتون، الأمر:

فى الشرق الأوسط والعالم قاطباً يوجد بالفعل انقسام جوهرى. ولكن الخط الفاصل ليس بين الحضارات أو الديانات؛ بل هو فى حقيقة الأمر بين القمع والحكم المستجيب، بين العزلة والانفتاح، بين الاعتدال والتطرف^(٦٠).

وقد سعت إدارتا بوش وكلينتون إلى كسب البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية بالدعوة إلى القيم العالمية المتمثلة فى الحرية والتسامح والحكم المستجيب. ولكنهما فى الممارسة العملية لم تفعلوا شيئاً، بطبيعة الأمر، للضغط على حلفائهما السلطويين فى الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا لتحقيق انفتاح نظمهم السياسية أو لتشجيع الديمقراطية. وبدلاً من ذلك، فإنهما كانتا تريان أن " الانفتاح " و " الاعتدال " سيتحققان من خلال إصلاحات الليبراليين الجدد. وفى تسعينيات القرن الماضى، كانت الإمبريالية الليبرالية هى المتحكمة فى الأمور.

ومع ذلك فى لحظات شتى كان دعاة المواجهة يؤكدون حضورهم. وكان ممثلو التيار المتشدد يشيرون إلى تفجير قنبلة فى مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣ ويقولون

إن شبكة دولية من الإرهابيين المسلمين عاقدة العزم على تدمير الغرب. واستطاع اليمين، معززاً الصور المقولبة مسبقاً للإرهابى العربى، أن يثير الخوف وجنون الشك. وقد حقق نجاحاً كبيراً فى هذه الجهود حتى أن وسائل الإعلام الأمريكية سارعت، عندما فُجرت قنبلة فى مبنى فيدرالى فى مدينة أوكلاهما عام ١٩٩٥، إلى استنتاج أن مسلمين هم المسؤولون عن الحادث.

وكانت إحدى نتائج هذا الحادث هى " قانون مكافحة الإرهاب" الشامل، الذى أجازته كلا مجلسى الكونجرس ووقع عليه الرئيس كلينتون ليصبح قانوناً. وقد وُضع هذا القانون كوسيلة لحماية الأمريكيين من الإرهاب وأضفى شبرعية، بين جملة أمور أخرى، على ترحيل غير المواطنين المشتبه فى وجود روابط لهم بإرهابيين، استناداً إلى أدلة سرية لا يتعين الإفصاح عنها. وأصبح من الممكن أيضاً ترحيل " الأجنبى" لتقديمه تبرعات لبرأت دولية كانت حكومة الولايات المتحدة تعتبرها مصادر تمويل للإرهاب. ومن ثم، حتى على الرغم من أن عملية تفجير مبنى أوكلاهما بقنبلة قام بها تيموثى ماكفى، الأمريكى الأصولى المسيحى الأبيض، فإن العرب والمسلمين كانوا مستهدفين باللوم وبالعرف من جانب حراس الأمن. ولم يكد يمضى وقت طويل حتى وقع هجوم آخر على الأرض الأمريكية جعل بندول الساعة يتجه صوب دعاة المواجهة، مما فتح الباب على مصراعيه أمام " صراع الحضارات" و " القانون الوطنى للولايات المتحدة الأمريكية".

* * *

والعامل الثابت الوحيد فى التقلبات المختلفة فى المواقف فى صفوف الطبقة الحاكمة فى الولايات المتحدة هو تصنيف الإسلاميين كحلفاء أو كأعداء استناداً إلى مصالح الولايات المتحدة وهميتها السياسية. والجدل بين دعاة المواجهة ودعاة الاستيعاب داخل مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية لا يطعن فى حق الولايات

المتحدة في تأكيد نفوذها في مختلف أنحاء العالم. ومن ثم، فإن هذا الجدل من الأجر أن يوصف بأنه خلاف تكتيكي بين الإمبرياليين المحافظين (أو المحافظين الجدد، كوصف أنسب لهم) والإمبرياليين الليبراليين بشأن أفضل سبيل لتحقيق أهداف بناء الإمبراطورية.

وفي الفصل السابع، سندرس منطق هاتين الرؤيتين للإمبراطورية في حقبة ما بعد الحرب الباردة حتى العقد الأول من الألفية الجديدة. ولكن ماذا عن الإسلام السياسي كشيء قائم بذاته؟ وما الذي يفسر صعود التأسلم خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين؟ هل يمثل هذا ببساطة النتيجة الحتمية في الأراضى التى يسودها الإسلام؟ ونحن نتطرق فيما يلى إلى هذه التساؤلات. ويعرض الفصلان التاليان تحليلاً تاريخياً للظاهرة الإسلامية يمكن عندئذ أن نستخدمه لدراسة المجادلات داخل مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية.

الفصل الخامس

الفصل بين المسجد والدولة

يبدأ تاريخ الإسلام بالنبي مُحَمَّدٌ وينتهي بـ ١١ سبتمبر وعمليات تفجير القنابل فى لندن ومدريد: أى، بأى مقياس، بالإطار الزمنى المبين فى كتاب استهلالى بشأن ديانات العالم نشرته جامعة أكسفورد عام ٢٠٠٧^(١) والمنطق الذى يقوم عليه ذلك منطق مباشر، وهو أن الإسلام يؤدى إلى الإرهاب بطريقة بسيطة وغير جدلية. وكون مرور هذا الإطار الزمنى عبر وسائل الترشيح فى جامعة أكسفورد، التى يُستشهد بكثير من منشوراتها عن الإسلام استشهاداً إيجابياً فى هذا الكتاب، هو انعكاس لمدى تحول هذا المنطق إلى شىء بديهى فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر. والافتراض الأساسى هنا هو أن الإسلام كان سياسياً دائماً، وأن أحزاب الإسلام السياسى هى نمو طبيعى للدين نفسه.

وينبرى هذا الفصل لتفنيد ذلك المفهوم فى جزأين. فهو، أولاً، يبين الفصل التاريخى بين المجالين الدينى والسياسى فى الإسلام. وبين، ثانياً، الاتجاه نحو العلمانية فى البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية على مدى القرنين المنصرمين. وما يبينه هذا التاريخ هو أن بروز الإسلام السياسى لم يكن أمراً غير حتمى. ثم يعرض الفصل السادس الأوضاع التاريخية المعينة التى مكّنت أحزاب الإسلام السياسى من النمو.

أكاذيب المستشرقين

إن مَنْ وضعاً أساساً فكرة أن الدين والسياسة كانا متلازمين يوماً في "عالم المسلمين" هما المنظران الإيديولوجيان اليمينيان صمويل هنتجتون وبرنارد لويس. فلويس، في المقالة المذكورة في الفصل الأخير من هذا الكتاب، "جنور سخط المسلمين"، يعرض حجته على النحو التالي. إنه يبدأ بالإشارة إلى الفصل التاريخي بين الدين والسياسة في المسيحية ثم يذكر أن هذا الفصل لم يحدث في مجتمعات المسلمين التي لم تشهد، كما يقول، ما يعادل عصر التنوير. وهو يؤكد أنه بينما أُجبرت النزاعات التاريخية المسيحيين والغرب على أن يتعلموا الفصل بين الدين والسياسة، فإن "المسلمين لم يشعروا قط بهذه الحاجة ولم يستنبطوا مبدأً من هذا القبيل"^(٢). وكما يقول، "يمكن العثور على جنور العلمانية في الغرب في ظرفين اثنين، في التعاليم المسيحية الأولى، وفي التجربة المسيحية بدرجة أكبر، التي أوجدت مؤسستين، الكنيسة والدولة؛ وفي النزاعات المسيحية اللاحقة التي باعدت بين الاثنين." وعلى العكس من ذلك، لم تكن هناك "حاجة إلى العلمانية في الإسلام"^(٣). ويطور لويس في كتابه "ما الخطأ الذي حدث؟"، الذي نُشر بعد ١١ سبتمبر بفترة وجيزة، هذه الحجج تطويراً إضافياً ويؤكد أن "مفهوم المجتمع غير الديني كشيء مرغوب أو حتى مسموح به كان مفهوماً غريباً تماماً على الإسلام"^(٤).

أما هنتجتون، الذي أضفى شعبية على نظرية "صدام الحضارات" التي وضعها لويس، فقد ذهب بذلك إلى مدى أبعد وقال إن "المشكلة الأساسية أمام الغرب ليست الأصولية الإسلامية. بل هي الإسلام، الذي يمثل حضارة مختلفة يقتنع أهلها بتفوق ثقافتهم، ولديهم حواز بشأن توثيق نفوذهم"^(٥). وما يستتبعه هذا المنطق هو أنه بينما تتفهم "حضارات" معينة الدور السليم للدين في المجتمع، ثمة حضارات أخرى لا تفهم هذا الدور. ولذا، فإن الجماعات الإسلامية في المجتمع المعاصر تمثل نمواً طبيعياً لميل ثقافي مناهض للعلمانية في "الحضارة الإسلامية".

وينبرى هذا القسم من الكتاب للتدليل على السبب الذي يجعل هذا قراءة خاطئة لتاريخ الإسلام، فبينما تحول الإسلام إلى إيديولوجيا سياسية ودينية على حد سواء، كان هناك منذ القرن الثامن على الأقل فصل فيه بحكم الواقع بين السلطة السياسية والسلطة الدينية^(٦). وعلاوة على ذلك، لا يوجد أى شيء فريد فى إمكانات الإسلام السياسية. فعندما سعت البابوية إلى توحيد أوروبا تحت راية المسيحية، فإنها أطلقت العنان للحروب الصليبية باسم الله. وكانت المسيحية سياسية أيضاً على الأقل منذ القرن الرابع (عندما تبنت روما المسيحية بوصفها ديانتها الرسمية)، إن لم يكن منذ تأسيسها.

ومع ذلك، من اللازم التمييز بين إمكانية استخدام أى دين لتحقيق أغراض سياسية وبين الدور الفعلى لذلك الدين فى مجتمعات شتى فى لحظات تاريخية محددة. وقد حدث تحول فى الإسلام، وهو لا يختلف فى ذلك عن المسيحية، بطرائق شتى لكى يتكيف مع احتياجات المجتمعات التى كان يُمارَس فيها. ويكشف عرض عام موجز لمولد الإسلام ونشوء حركات إحيائه عن نقطة بسيطة: يمكن فهم الإسلام السياسى على أنه ظاهرة "معاصرة" مماثلة لنشوء الأصولية المسيحية والأصولية اليهودية والأصولية الهندوسية فى الماضى القريب فهماً أفضل من فهمه على أنه النمو الطبيعى للإسلام.

الفصل بين الدين والسياسة بحكم الأمر الواقع

لقد كان النبى مُحَمَّد، التاجر الذى كان كثير الأسفار، يدرك أنه إذا كان للقبائل التى تقطن مدينته أن تكتسب نفوذاً سياسياً واقتصادياً أكبر فى المنطقة فمن اللازم أن تتحد تحت راية مشتركة. وكما يقول طارق على،

لقد كانت وراء الدافع الروحى مُحَمَّد مشاعر اجتماعية - اقتصادية، والرغبة فى تعزيز الوضع التجارى للعرب، والحاجة إلى فرض مجموعة من القواعد المشتركة. وقد شملت رؤيته اتحاداً قبلياً

تجمع بينه أهداف مشتركة وبيدين بالولاء لعقيدة واحدة. ... وأصبح الإسلام الوسيلة التي استخدمها مُحمَّد لتوحيد القبائل العربية واعتبر، من البداية، التجارة المهنة النبيلة الوحيدة^(٧).

وكانت رؤية مُحمَّد للإسلام هي أنه يجمع ما بين الروحية والسياسة والاقتصاد مع أعراف اجتماعية. وقد تصرف كزعيم سياسى وكزعيم دينى على حد سواء، وكانت سلطته فى كلا المجالين ليست محل خلاف^(٨). إلا أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة لخلفائه. فبعد وفاته بفترة وجيزة كانت هناك نزاعات بشأن من الذى يجب أن يخلف مُحمَّدًا (ويسمى الخليفة). وقد عارضت الخليفة الرابع علياً قوى متعددة من بينها إحدى زوجات النبى. ويُعرف أتباع معاوية (مؤسس الأسرة الأموية) باسم المسلمين السنَّة، بينما يُعرف أتباع على باسم المسلمين الشيعة. وكان صراع على النفوذ السياسى هو الذى أدى إلى أول انقسام دينى بين الشيعة والسنَّة^(٩).

وفى غضون قرن من وفاة مُحمَّد، واصلت جيوش المسلمين فتح مناطق شاسعة وإقامة إمبراطورية قوية. وفى هذا السياق بدأ يتشكل فصل بحكم الأمر الواقع بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. فبينما كان ورثة النبى، أو الخلفاء، يملكون سلطة دينية، كان الملوك والسلطين والأمراء يملكون سلطة سياسية^(١٠)، وإنى أستخدم مصطلح "بحكم الأمر الواقع" لأنه لم يكن هناك فصل رسمى أو قانونى بين الدين والسياسة، بل كان هناك بالأحرى فصل بين مجالى النشاط والسلطة، بحيث كان المجال الدينى خاضعاً للمجال السياسى. ومع أن الخليفة العباسى كان الزعيم الدينى المعترف به لهذه الإمبراطورية الإسلامية المبكرة، فإنه كان مجرد رمز لم يمارس السلطة بأى معنى حقيقى للكلمة. وكان الحكام الأتراك المحاربون هم الذين تولوا السلطة السياسية بدءاً من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر. ولم يكن أمام "العلماء"، أى فئة فقهاء الدين، من خيار سوى أن يقبلوا هذا الترتيب. ومع ذلك فإنهم كانوا يدركون أنهم إذا كان لهم أن يكتسبوا سلطة فى سياق لا يملك فيه الخليفة زمام السلطة السياسية فمن اللازم أن يجدوا طرائق لتفسير هذه الممارسة استناداً إلى أسس دينية مما يضىفى شرعية على الخليفة ويصادق على سلطتهم^(١١)، ويتتبع محمد

أيوب استمرارية هذه الممارسة على مدى قرون كثيرة ويشير إلى أن " التمييز بين الشؤون الدنيوية والشؤون الدينية وألوية السلطة الدنيوية بحكم الأمر الواقع على المؤسسة الدينية استمر طيلة حكم الأسر السنّية العظيمة الثلاث، الأمويين والعباسيين والعثمانيين"^(١٢).

وقد سعت الإمبراطورية الإسلامية الأولى، التي جمعت بين أعداد كبيرة من البشر من مناطق شتى، إلى وضع مجموعة من القوانين التي يمكن تطبيقها تطبيقاً موحداً على جميع الرعايا المسلمين. وكانت هذه الحاجة إلى نظام للتنظيم هي الدافع وراء وضع الشريعة، وهي مجموعة من القواعد المدونة في صورة قوانين. وكان " العلماء" مكلفين بمهمة صياغة الشريعة. وقد حاولت النظم المختلفة للشريعة التي انبثقت من هذا المسعى أن تصف جميع الأفعال والأنشطة البشرية وأن تصنّفها حسب مبدأ الإباحة: كإفعال وأنشطة محظورة، أو مرفوضة، أو موصى بها، وما إلى ذلك. وشملت هذه القواعد جميع مجالات الحياة تقريباً، بدءاً من التجارة والجريمة وانتهاءً بالزواج والطلاق والملكية والنظافة الصحية والعلاقات بين الأشخاص^(١٣)، وكانت تقع على عاتق المؤسسة الدينية المسؤولية عن الدعوة إلى التقيد بقانون الشريعة الجديد.

وكان هذا الدور المتمثل في كفالة الانضباط الاجتماعي من خلال القوانين الدينية واسع النطاق، وفي هذا المجال كان " العلماء" يملكون سلطة بالفعل. ولكن، في عالم السياسة كانت سيطرتهم ضئيلة. وبدلاً من ذلك، فيما يتعلق بالمجتمعات الإسلامية ككل، لعب " العلماء" دوراً ثانوياً وخاضعاً بالنسبة للقيادة السياسية. ومن ثم، حتى وإن كانت المعاهدات الإسلامية التي انبثقت أثناء هذه الفترة ولاحقاً لديها الكثير الذي تقوله عن طبيعة الحكام الراشدين والحكومات الرشيدة، وكونها محمّلة بالمقترحات والمشورة الموجهة إلى الحكام، فإنها لم تحدد دوراً سياسياً لرجال الدين. وبينما أصر رجال الدين على أن ذا النفوذ ينبغي أن يحكم المجتمع على نحو مطابق للشريعة، فقد رأوا أن دورهم هو انتقاد الحكام السيئين لا العمل كحكام هم أنفسهم^(١٤)، وكما يقول أيوب، كان " هناك توافق آراء على أنه ما دام الحاكم باستطاعته أن يدافع عن أراضى

الإسلام (دار الإسلام) ولم يمنع رعاياه المسلمين من ممارسة شعائر دينهم، فإن الثورة عليه محظورة، لأن " الفتنة " (الفوضى) أسوأ من الطغيان. ... وكانت التهدة السياسية هي القاعدة في معظم سياسة المسلمين أغلب الوقت لمدة ألف عام، بدءاً من القرن الثامن حتى القرن الثامن عشر^(١٥).

ونشأ تقسيم للعمل بين " رجال القلم " و " رجال السيف ". وبينما كانت الفئة الأولى، التي لم تكن تضم " العلماء " فقط بل تضم أيضاً البيروقراطيين (الذين كانوا يعملون تحت قيادة الحاكم السياسي)، مكلفة بمهمة أداء الوظائف الإدارية والقضائية للحكومة، كانت الفئة الأخيرة تدافع عن الإمبراطورية وتقوم بتوسيعها وتملك زمام السلطة السياسية^(١٦)، وبينما كان النبي محمد زعيماً سياسياً ودينياً على حد سواء، اقتضت احتياجات الإمبراطورية الفصل بين السياسة والدين بحكم الأمر الواقع.

وبينما كان هذا هو واقع العلاقة بين الدين والسياسة، بذل كبار علماء اللاهوت جهداً شاقاً للتدليل على عكس ذلك كسبيل لدعم مصداقيتهم. وقد فعلوا ذلك باستمرار على مر التاريخ، مما أوجد انطباعاً بأن الدين والسياسة كانا أكثر تلازماً مما هما في حقيقة الأمر. وليس مما يدعو إلى الدهشة أن المستشرقين - الذين توجه النصوص نظرتهم إلى العالم - يقعون بسهولة في فخ عدم الفصل بين المزاем الدينية والواقع الفعلي. ومع ذلك، ثمة أمثلة لعلماء لاهوت نوى تفكير عملي بدرجة أكبر، من قبيل الغزالي (١٠٥٨-١١١١)، الذي نادى صراحة بتقسيم العمل بين الخليفة والسلطات^(١٧).

ومن ثم، خلافاً لمزايم لويس عن عدم إمكانية الفصل بين الدين والسياسة في الإسلام، يقول أيوب إن " المسار التاريخي للعلاقات بين الدين والدولة في الإسلام ... لم يكن مختلفاً اختلافاً كبيراً عن المسار التاريخي الخاص بالمسيحية الغربية^(١٨). ووجه الاختلاف هو أن الإسلام لم يشهد أنماط الصدمات بين الدولة والمؤسسة الدينية التي حدثت أثناء جزء كبير من تاريخ المسيحية. وتوجد أسباب متعددة لذلك، تتجاوز

مناقشتها نطاق هذا الفصل. ويوضح أيوب الاختلافات بين التجربة المسيحية والتجربة الإسلامية على النحو التالي:

لم تكن الطبقة الدينية تمثل [فى الإسلام] نوع التحدى للسلطة الدنيوية الذى كان الترتاب الدينى برئاسة البابا يمثله بالنسبة للأباطرة والملوك فى أوروبا فى العصور الوسطى وفى أوائل العصر الحديث. وإذا فإن تفرُّق السلطة الدينية فى الإسلام حال عادة بون حدوث صدام مباشر بين السلطة الدنيوية والسلطة الدينية، مثلما حدث فى المسيحية فى القرن الوسطى. ... وساعد أيضاً على منع نشوء تشدبية منفردة يمكنها، فى تحالف مع الدولة، أن تخمد جميع ميول الانتشاق وأن تتمع أصحاب تلك الميول، مثلما حدث فى أوروبا المسيحية أثناء القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث. ولذا فإن الحروب الدينية واضطهاد طوائف غير المؤمنين كانت غير شائعة فى الإسلام على العكس من المسيحية. وفى الوقت ذاته، أدى ذلك إلى وجود مجالين متميزين أحدهما دىنى والآخر سياسى يحترم كل منهما استقلال الآخر بوجه عام^(١٩).

ونلقى فى القسم التالى نظرة على الطرائق التى استطاعت بها العلمانية الحديثة أن تسود فى المجتمعات التى يمثل فيها المسلمون أغلبية. وقد كان هذا أيضاً نتاج عوامل متعددة؛ وسنستكشف أثر الاستعمار والرأسمالية، الذى أدى إلى إصلاحات علمانية وتحديثية من أعلى وكذلك إلى ضروب كفاح فى سبيل التحرر الوطنى من أدنى، قاداتها قوى قومية علمانية. وستلعب هذه العوامل وغيرها دوراً فى قيادة عملية التحول صوب العلمانية فى البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية.

التحديث والعلمانية

لقد كان ما حفز على التحول صوب العلمانية والتحديث هو انتشار الرأسمالية وزحف الاستعمار على إمبراطوريات إسلامية شتى. ففى حقيقة الأمر، لم يتوقف الإسلام نهائياً عن القيام بدور محورى فى التنظيم الاجتماعى إلا إبان فترة نمو

الرأسمالية. فالحكام المسلمون للإمبراطوريات العثمانية والمصرية والفارسية بدأوا فى تطبيق برنامج للتحديث، وإصلاحات رأسمالية، والأخذ بأسلوب الغرب، رداً على فقدان أراضيهم التى سيطرت عليها الدول الاستعمارية الأوروبية. وكان الهدف المشترك بين مختلف أولئك الحكام من إدخال هذه التغييرات هو إيجاد وسائل لتنمية قوتهم العسكرية؛ وفى أثناء هذه العملية أحدثوا أيضاً تحولاً فى نظمهم الاقتصادية والسياسية. وكانت نتيجة ذلك هى سلسلة من الإصلاحات العسكرية والإدارية والتعليمية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية التى كانت متأثرة تأثراً شديداً بالتحولات فى أوروبا التى أفضت إلى صعودها. وكانت الأعمال الفكرية للإمبراطوريات الإسلامية الأكثر تقدماً أثناء العصور الوسطى هى التى أرست أساس نهضة أوروبا؛ والآن تبنى الشرق تحرك أوروبا صوب الرأسمالية. وهذه الإصلاحات التحديثية أزاحت تدريجياً الإسلام كأساس للمجتمع الإسلامى ووضعت العلمانية محله^(٢٠)، وإضافة إلى ذلك، نشأت طبقة وسطى علمانية جديدة تلقت تعليمها فى الغرب وتبوأَت مواقع هامة فى الحكم والتعليم والقانون، مما أدى إلى تآكل الأساس التقليدى لنفوذ علماء الدين. ولا يمكننا أن نفهم " العودة إلى الإسلام " أو حركات الإحياء الإسلامى المختلفة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، التى سنتطرق إليها بعد برهة، إلا فى هذا السياق.

وقد بدأت من أعلى الجهود الأولى للتحديث. فالملوك الذين تولوا حكم تركيا ومصر وإيران كانوا يتطلعون إلى الغرب للعثور على وسائل لتنمية قدرات مؤسساتهم العسكرية لكى يصدوا عن أنفسهم الغزو الاستعمارى على نحو أفضل. فمحمد على، الذى حكم مصر فى القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، حقق دفعة نحو التنمية الصناعية والعسكرية. وكما يقول المؤرخان جولد شميت وديفيدسون، " كان محمد على أول حاكم غير غربى يدرك أهمية الثورة الصناعية. فقد أدرك أن تحديث الجيش سيستلزم وجود مصانع نسيج لكى تصنع الخيام والملابس العسكرية الخاصة بذلك الجيش، وأحواض سفن لبناء سفنه، ومصانع ذخيرة لإنتاج المدافع والسناكى"^(٢١)، وأسفر هذا الإدراك عن إعادة تحويل كاملة للمجتمع المصرى وتحديثه.

وأجرى العثمانيون فى تركيا أيضاً سلسلة من الإصلاحات، إذ قاموا ببناء المدارس والطرق والقنوات، وكبحوا فرض ضرائب باهظة، وأقاموا نظاماً مالياً حديثاً. وحاول الحكام الكاجار فى بلاد فارس إدخال إصلاحات مماثلة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولكن النجاح الذى حققوه كان أقل من النجاح الذى حققه نظراؤهم المصريون والعثمانيون. وفى هذه الحالات الثلاث جميعها، كان هناك أيضاً تحرك صوب إقامة دولة حديثة^(٢٢).

وكانت إحدى نتائج هذه الإصلاحات التحديثية المبكرة نشوء طبقة جديدة: هى الطبقة الوسطى العلمانية. فقد أدت المدارس الجديدة المستندة إلى النماذج التعليمية الأوروبية إلى نشوء نخبة ثقافية جديدة كانت غربية فى توجهها. فقد تبوأَت هذه الطبقة الوسطى الجديدة ذات العقلية العلمانية مواقع السلطة فى مؤسسات الحكومة والقانون وبدأت تحل محل "علماء الدين". وهذه الطبقة مضت فى نهاية الأمر لتقود حركات النضال المبكرة فى سبيل التحرر الوطنى فى بلدان شتى.

ومع ذلك فإن حركات النضال المبكرة هذه، رغم جاذبيتها الشعبية، كانت النجاحات التى حققتها قليلة فيما يتجاوز تركيا. بيد أن تركيا هامة: ففي عام ١٩٢٣، أصبحت الجمهورية الأولى فى الشرق الأوسط الحديث^(٢٣)، وقد أدخل مصطفى كمال أتاتورك سلسلة من الإصلاحات، كان من بينها فصل الدين عن السياسة رسمياً، وقام بتنفيذ ما يشير إليه الماركسيون بأنه "المهام الديمقراطية البورجوازية" - أى بعبارة أخرى، الإصلاحات اللازمة لإحداث التحوّل من نظام ملكى إقطاعى إلى نظام ديمقراطى رأسمالى. وكانت معركة الأساسية هى معركة ضد النظام القديم القائم على القانون الإسلامى والممارسات الإسلامية. وكان عليه، لكى يوطد حكمه السلطوى، أن يدمر نفوذ وسلطة الطبقات الحاكمة القديمة، التى كانت مرتبطة بالإسلام. وفى عام ١٩٢٤، ألغى الخلافة، وأغلق المدارس الدينية، واستعاض عن الشريعة بالقانون المدنى السويسرى، وحذف من الدستور التركى أى إشارة إلى الإسلام بوصفه دين الدولة. وكان أتاتورك علمانياً بضراوة، وواصل الجيش التركى تنفيذ تركته بعد وفاته.

بيد أن هذه العلمانية لم تحدث فى بلدان أخرى إلا بعد الحرب العالمية الثانية. فقبل تلك الحرب، حيثما تولت أحزاب قومية السلطة لفترات وجيزة فإنها لم تتخاذل فحسب عن تنفيذ إصلاحات هامة تخفف من الظروف التى كان غالبية السكان يعيشون فيها، بل إنها لم تخلص أيضا بلدانها من السيطرة الاستعمارية بشكل حاسم، لاكتفائها بدلا من ذلك باتفاقات لتقاسم السلطة. وكانت القيادات القومية المبكرة تتذبذب ما بين التعاون مع الدول الإمبريالية والاحتجاج على السيطرة الإمبريالية، وهى أوضاع أتاحت الفرصة لظهور القومية العلمانية الراديكالية^(٢٤)، وسنعود إلى التحول اللاحق للحرب صوب القومية الراديكالية بعد برهة.

أوجه فشل الإحياء الإسلامى

لقد كان الرد على الاستعمار بالنسبة لمن يوجدون على قمة المجتمع هو التحرك صوب التحديث والعلمانية، بينما اتجه آخرون إلى أسس الإسلام - وهى القرآن، وحياة النبى وأتباعه، ومثال المجتمع الإسلامى فى عصور الإسلام الأولى - بحثاً عن حلول ونماذج للإصلاح الإسلامى. وكان أقطاب حركة الإحياء أولئك يعتبرون الاستعمار الأوروبى والإمبريالية الأوروبية - لا سيما فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، عندما بدأت الدول الأوروبية تقوم بعمليات غزو كبيرة فى أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط - تهديدين حيويين لهوية المسلمين السياسية والدينية^(٢٥)، وكان أقطاب هذا التحول الإحيائى عادةً أفراداً ينتمون إلى الطبقة الوسطى لديهم عقلية دينية ويسعون إلى الحد من سيطرة وسلطة " علماء الدين " على النصوص الإسلامية وكانوا يصرون على حق التفسير الفردى " أى الاجتهاد " للقرآن والسنة^(٢٦).

وكان جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، ورشيد رضا هم أبرز ممثلى هذا التيار الجديد. وقد أرسوا معاً الأساس للمذهب السلفى فى التفكير^(٢٧)، والسلفيون يناوون، من حيث الجوهر،

بالعودة إلى تقاليد المجتمع الدينى الأسمى التى تنور حول النبى مُحمَّد (السلف). ولكن، حتى فى هذه المرحلة، لم يصدر الكثير عن الإحياء الإسلامى والفكر السلفى بوجه خاص بشأن الدولة، فيما يتجاوز دورها فى تطبيق الشريعة. ولم تصدر عنهما إداة كلية للحكومات الإسلامية ومن ثم لم تصدر عنهما أية دعوة إلى الإطاحة بهذه الحكومات، فهذا التحوُّل داخل السلفية لم يحدث إلا لاحقاً فى القرن العشرين^(٢٨).

وقد قام حسن البنّا، مستلهماً كتابات رشيد رضا، بتأسيس جماعة الإخوان المسلمين فى مصر عام ١٩٢٨ وفى حوالى الوقت ذاته، نشر مولانا المودبى عقيدته الإسلامية فى شبه القارة الهندية^(٢٩)، وقد دعا المودبى، وهو إسلامى من المُحدثين، إلى تشكيل دولة إسلامية فى جميع أنحاء الهند التاريخية. وكان هذا الموقف يتناقض مع موقف الزعماء القوميين المسلمين الذين دعوا إلى "دولة مسلمين"، أى دولة قد تشمل مجالات علمانية. وكان المودبى يرفض القومية والعلمانية كفكرتين غريبتين لا تتسمان بالورع ومن ثم غير مقبولتين. وقد دعا فى كتابه "الجهاد فى الإسلام"، الذى نُشر فى عشرينيات القرن الماضى، إلى دولة إسلامية يُحكم فيها المجتمع كله على أساس الشريعة. ورأى أيضاً أن النضال السياسى (الجهاد) حيوى لتحقيق ذلك. وقام بتأسيس حزب جماعة الإسلام فى عام ١٩٤١ للاضطلاع بهذا الجهاد^(٣٠)، وما زال ذلك الحزب موجوداً فى حزب سياسى للطبقات الوسطى المتدينة فى باكستان.

وكان حسن البنّا هو مصدر إلهام المودبى^(٣١)، وانخرط كلا حزبيهما فى نضال فى سبيل التحرر الوطنى ولكنهما كانا يرفضان القومية العلمانية. وكانت جماعة الإخوان المسلمين فى مصر ترفض، مثل "الجماعة الإسلامية"، مطالب القوميين الذين كانوا يدعون إلى إنهاء الحكم البريطانى وإقامة دولة حديثة لديها دستور. وحاجج الإخوان المسلمون بأنه لا توجد حاجة إلى التطلع إلى النماذج الغربية للنظام الاجتماعى. وناصروا بدلا من ذلك الشعار الذى ما زال يُستخدم حتى الآن وهو: "القرآن دستورنا". وأقام الإخوان المسلمون المصريون المؤسسون قروعا فى بلدان متعددة، من بينها لبنان والأردن وفلسطين والسودان.

وكانت حركات وجماعات الإحياء التي نوقشت أعلاه بمثابة جهات فاعلة قليلة الشأن على المسرح السياسى فى القرن التاسع عشر وفى النصف الأول من القرن العشرين. إذ كان الاتجاه السائد فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجنوب آسيا أثناء تلك الفترة هو الاتجاه صوب العلمانية والتحديث. ومن ثم، فإن جمال الدين الأفغانى - "أب" الفكر الإسلامى الحديث - فشل، رغم أفضل جهوده، فى بناء تحالف إسلامى عام. كذلك، كان القوميون العلمانيون فى الهند ومصر يحظون بتأييد الغالبية العظمى من السكان؛ ومن ثم كانت التيارات الإسلامية هامشية.

وبإبان حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية حلّ جيل جديد من القوميون العلمانيين الراديكاليين المناهضين للاستعمار محل أسلافهم. وكان الجيل السابق لهم قد فشل فى إنهاء الاستعمار، وأصبحت الظروف الاستعمارية لا تُحتمل بالنسبة للغالبية العظمى. وحتى على الرغم من أن بلداناً كثيرة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا كانت قد مُنحت الاستقلال الرسمى بحلول عام ١٩٤٥، فإنها لم تكن حرة فى حقيقة الأمر. وكانت جامعة الدول العربية، التى تأسست عام ١٩٤٥، مكونة من مصر وسوريا والعراق واليمن ولبنان والأردن والمملكة العربية السعودية، ولكن هذه البلدان كانت جميعها فى حقيقة الأمر واقعة تحت سيطرة البريطانيين. وكانت الغالبية العظمى من الناس العاديين قد أصبحت تشعر بخيبة أملها فى قيادة بلدانها. وكانت ترى أن الطبقتين العليا والوسطى المواليين للغرب غير قادرتين على إجراء إصلاح داخلى وكانت تحتقر الأرستقراطية الإقطاعية لتواطئها مع القوى الإمبريالية ولدعايتها لنفسها بلا خجل^(٢٢)، وأدى ضياع فلسطين فى عام ١٩٤٨، وفشل الدول العربية فى وقف نشوء دولة إسرائيل، إلى تفاقم الأمور. وكانت نتيجة ذلك هى أن الاستياء الشعبى، المقرون بالضغط اليسارى الذى مارسه أحزاب شيوعية شتى فى المنطقة، دفع الحركات القومية فى اتجاه أكثر راديكالية. وشهدت هذه المرحلة الجديدة مولد القومية العربية الراديكالية فى الشرق الأوسط، مع وصف قادتها الرئيسيين (من قبيل جمال عبد الناصر فى مصر) لأنفسهم ولبرامجهم بأنهم يمثلون "الاشتراكية العربية".

القومية العلمانية الراديكالية

كانت القومية العلمانية الراديكالية أثناء حقبة ما بعد الحرب هي الفلسفة السياسية السائدة في الدول المستعمرة بدءاً من إندونيسيا إلى الجزائر. وكان العديد من المستشرقين يؤكدون، في تجاهل لهذه الحقيقة (كما شاهدنا في الفصل الأخير)، أن البلدان الإسلامية - التي كانوا ينظرون إليها على أنها منغمسة تماماً في معتقداتها الدينية - سترفض إيديولوجيات سياسية من قبيل القومية والشيوعية. وقد كانوا على خطأ. فكما يقول جون إسبوزيتو وجون فول، مع أن " الحركات القومية الناشئة كانت تنطوي على مكونات إسلامية هامة فإن القومية لم تكن تلقى تعبيراً عنها بعبارات لها مغزاهما الإسلامي". وكان هذا صحيحاً بالذات في حقبة ما بعد الحرب، عندما شكّلت المنظورات الديمقراطية والاشتراكية والماركسية الغربية إيديولوجيتي الاحتجاج والإصلاح الراديكالي الرئيسيتين^(٣٣)، ثم أدت هذه القوى إلى نضالات ناجحة في سبيل التحرر الوطني وأدخلت إصلاحات علمانية في مجتمعاتها.

فعلى سبيل المثال، اتخذ ناصر تدابير شتى في شكل إصلاحات سياسية واجتماعية واقتصادية تحت شعار " الاشتراكية العربية". وكان المقصود بأحد هذه التدابير قمع نفوذ رجال الدين ومنعهم من التدخل في شؤون الدولة. وأدى تدبير آخر إلى سجن أعضاء جماعة الإخوان المسلمين واعتبارها منظمة خارجة على القانون. ونحن نرى هنا فصلاً إضافياً بين الدولة والسياسة. ومع أن ناصرأ زعم أن بعض تعاليم الإسلام تتسق مع رؤيته " للاشتراكية"^(٣٤)، فإن الإيديولوجيا الناصرية كانت علمانية في جوهرها.

* * *

إجمالاً، كان من الممكن أن يكون مصير الإحياء الإسلامي هو مزبلة التاريخ لولا انهيار وهزيمة القومية العلمانية في أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن الماضي.

ونحن نتطرق لاحقاً إلى هذا الفشل كى نفهم الظروف التى أتاحت للإسلام السياسى أن يتطور وينمو.

وإيجازاً، إن ما يوضحه هذا التاريخ الموجز للإسلام والإحياء الإسلامى هو عدم وجود صلة مباشرة بين إسلام القرن السابع ونشوء جماعات الإسلاميين فى الجزء الأخير من القرن العشرين. وقد بيّنت الفصل بحكم الأمر الواقع الذى حدث فى الإسلام بين المجالين الدينى والسياسى والعقائد التصوفية التى نادت بتجنّب السلطة السياسية. وقد كانت تقاليد العلمانية والتحديث سائدة خلال آخر قرنين على الأقل فى مناطق شتى يمثل فيها المسلمون أغلبية، بدءاً بالإصلاحات التحديثية التى أدخلها ملوك مسلمون شتى، والتى أعقبتهما بعد ذلك تغييرات إضافية نفذتها قيادات قومية علمانية بعد النضالات المظفرة ضد الاستعمار. ومن ثم، يفهم الإسلام السياسى فهماً أفضل على ضوء التطورات السياسية والاقتصادية التى حدثت مؤخراً، وهى تطورات أدت إلى نشوء حركات دينية فى مجتمعات أخرى أيضاً.

الفصل السادس

الإسلام السياسي:

تحليل تاريخي

في الربع الأخير من القرن العشرين بدأت حركات أصولية دينية مختلفة الأشكال عملية صعود. ففي الهند، مثلاً، بدأ المتطرفون الهندوس يكسبون أرضاً في ظل الفراغ السياسي الذي أوجدته إخفاقات حزب المؤتمر القومي العلماني. فهذه الثغرة السياسية، المقرونة بويلات التحرر، أتاحت لليمين الهندوسى أن يتولى مقاليد السلطة، وأن يحقق نتيجة لذلك دفعة من خلال برنامج "Hindutva"، أى إضفاء الطابع الهندوسى على المجتمع. وفي الولايات المتحدة، بدأت الأصولية المسيحية فى شكل اليمين الجديد تؤثر على السياسة فى أواخر سبعينيات القرن المنصرم. وباكتساب الأصوليين زخماً كقوة ارتجاعية ضد الحركات التقدمية التى شهدتها ستينيات القرن العشرين، فإنهم نجحوا خلال العقود القليلة التالية فى تحويل النقاش بشأن معظم القضايا الاجتماعية إلى الواجهة اليمينية. ويصدق الشيء نفسه على المنظمات المغالية فى النعرة القومية والأصولية اليهودية فى إسرائيل. وإيجازاً، فإن دخول الدين معترك السياسة لا يقتصر على البلدان التى يمثل فيها الإسلام الديانة السائدة.

ويبين هذا الفصل الأوضاع المعينة التى مكّنت الأصولية الإسلامية. ولكن يجب، أولاً، التشديد على أن الدول الإمبريالية، ولا سيما الولايات المتحدة، لعبت دوراً نشطاً فى تشجيع صعود التأسلم. وحيث إن هذا التاريخ قد تناوله الفصل الرابع فإننى لن

أناقشه هنا مرة أخرى. ويركز هذا الفصل على الأوضاع الداخلية بالنسبة لبلدان شتى يمثل فيها المسلمون أغلبية أفسحت مجالاً للتأسلم. وتشمل هذه الأوضاع أقول القومية العلمانية، الذي أسفر عن فراغ إيديولوجي؛ وفشل أحزاب شيوعية شتى فى عرض بديل تقدمى، مما أفسح بذلك المجال أمام الإسلاميين؛ والأزمات الاقتصادية وتفاقمها فى ظل الليبرالية الجديدة، مما أوجد ثغرة للإسلاميين ولشبكاتهم الخيرية. ثم يعرض الفصل طريقة عامة يمكن بها للتقدميين واليساريين أن ينظروا إلى الإسلام السياسى. وينبغى، من حيث الجوهر، ألا نؤيد الإسلاميين دون أن ننقدهم ولا أن نرفضهم رفضاً مطلقاً؛ بل ينبغى بالأحرى الحكم على هذه الجماعات وعلى أفعالها على أساس كل حالة على حدة فى إطار تحليل تاريخى ملموس. ولكن علينا أن نبدأ بفهم ما يعنيه "الإسلام السياسى".

ما الإسلام السياسى ؟

إن الظاهرة التى يتناولها هذا الفصل بالدراسة كان يشار إليها باسم "التأسلم"، أو "الأصولية الإسلامية"، أو "الأصولية الجديدة الإسلامية"، بين أسماء أخرى. وسوف أستخدم هذه الأسماء على أساس أن كلاً منها يعنى الآخر، مع إدراك أن وقعها يختلف فى البلدان المختلفة. ولكنى أعتقد أن مصطلح "الإسلام السياسى" هو الأنسب، لأنه يشير إلى إعادة تفسير الإسلام من قِبل أفراد وجماعات شتى لخدمة أهداف سياسية معينة. ومن ثم، لا تندرج الجماعات المجتمعية والمنظمات الطلابية الإسلامية ضمن هذه الفئة، تماماً مثلما لا ينطبق عنوان "الأصولية المسيحية" على جمعية الشبان المسيحيين.

دعونا ننظر إلى بضعة أمثلة للكيفية التى أعيد بها تفسير الإسلام لخدمة أهداف سياسية صريحة. فقد قام آية الله خومينى فى إيران بتكليف الإسلام الشيعى ليكون وسيلة لتعبئة رجال الدين ولقيادة ثورة شعبية ضد الشاه. وحتى تلك المرحلة، كان توجه الإسلام الشيعى، فى معظمه، سلبياً أو صوفياً من الناحية السياسية. وبينما

كانت فصائل من رجال الدين تتخرط أحياناً في نشاط سياسي، كان هناك توافق في الآراء دام نحو أحد عشر قرناً على أن رجال الدين ينبغي ألا يسيطروا على الدولة. وبدلاً من ذلك، وكما يقول إرفاند أبراهاميان، فإن معظمهم "كانوا يرون أن المسؤوليات الرئيسية لرجال الدين، التي كانوا يشيرون إليها باسم "ولاية الفقيه"، لاسياسية بدرجة مهيمنة"^(١)، وقد خرج خوميني بشكل جذري على هذا الموقف الشيعي الصوفي في سياق الانتفاضات الاجتماعية التي حدثت في أواخر ستينيات وسبعينيات القرن العشرين؛ ودعا المسلمين إلى الإطاعة بالشاه باسم الإسلام وإلى إقامة دولة إسلامية تقوم على الشريعة^(٢)، وقال كذلك إن القضاة الدينيين لهم حق إلهي في أن يحكموا، مبتعدين بذلك عن الميول التصوفية السابقة^(٣). وكانت إعادة قراءة خوميني للإسلام هي بمثابة وسيلة لتحريك شرائح شتى من المجتمع، لا سيما رجال الدين المتصوفين، كي يساندوا برنامجاً للثورة السياسية.

أما في التراث السني، فإننا يمكن أن نأخذ مثال الإخوان المسلمين في فلسطين. فقد تحاشوا منذ حوالي عام ١٩٦٧ تنظيم قواهم صراحة ضد دولة إسرائيل أو مواجهتهم لها، وهذا هو سبب تفضيل سلطات الاحتلال لهم. وتاريخياً، كان هذا الاتجاه يبرره علماء دين مسلمون باستخدام حجتين: أولاً، أن وجود الطغيان أفضل من وجود فوضى، لأن الفوضى من شأنها أن تؤدي إلى تفكك "الامة"؛ وثانياً، أن الحاكم المسلم، حتى ولو كان فاسداً وظالماً، لا غنى عنه من أجل الدفاع عن أرض الإسلام ضد الكفار. وقد استُخدم هذا المنطق مرة تلو الأخرى على مر التاريخ لتبرير حكم الحكام الفاسدين والقساة^(٤).

وفي فلسطين، حتى مع أن الحكام كانوا صهاينة، فإن الإخوان المسلمين كانوا يتجنبون المواجهة السافرة بعد عام ١٩٦٧ ويسعون إلى "إعداد أجيال" من أجل دولة إسلامية. وكما يقول خالد خرّوب، كان الإخوان المسلمون الفلسطينيون يستخدمون هذا المنطق لتبرير سياستهم القائمة على عدم المواجهة مع إسرائيل حتى عام ١٩٨٧ ورغم "تصاعد اتهامات المنظمات القومية واليسارية الفلسطينية الأخرى للإسلاميين

الفلسطينيين بالجبن أو حتى بالعمل بشكل غير مباشر في خدمة الاحتلال الإسرائيلي، فإنهم تمسكوا باستراتيجيتهم المتمثلة في 'إعداد أجيال' لمدة طويلة" (٥)، بيد أن فصائل من الإخوان المسلمين الفلسطينيين انشقت على اتجاه التهدة هذا وسعت إلى إعادة تفسير الإسلام على نحو يخدم أهداف التحرر الوطني. وكانت تنظر إلى الكفاح في سبيل تحرير فلسطين على أنه كفاح ديني (جهاد)، ملزم للمسلمين لأنه يحدث في ظل ظروف دفاعية (الاحتلال، والتجريد من الممتلكات، والاستعمار). وعلاوة على ذلك، رأت هذه الفصائل أن من الضروري بالنسبة للمسلمين أن يحاربوا في سبيل أرض الوطن، التي كانوا يعتبرونها "وقفًا دينياً ثابتاً".

وفي عام ١٩٨٧، وفي سياق الانتفاضة الأولى، انفجر على الملأ الجدل بين أنصار التهدة وأنصار المواجهة وأدى ذلك إلى تأسيس حركة حماس، وهي جماعة مكرسة لتحرير فلسطين^(٦)، وكما يصور أحد الإسلاميين الأمر: "لماذا ينبغي أن يُنظر إلى الإسلام ككيان منفصل عما يجري في المنطقة، كيان محصور في المساجد ومنقطع عن الحياة الاجتماعية والسياسية؟ إن هذا التساؤل يوجد في أذهان مئات من الشباب الفلسطيني في قطاع غزة، الشباب المتفانين في الإسلام الذين يشاركون أيضاً في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. وإجابتهم عن هذا التساؤل هي: دعونا نخرط في مقاومة فاعلة ضد الاحتلال لأن الاحتلال لا يؤثر فحسب على الأراضي بل يرمى أيضاً إلى استئصال الإسلام"^(٧).

وإيجازاً، فإن ثمة تيارات نشأت في إطار التراث السني والتراث الشيعي على حد سواء كيّفت الإسلام لخدمة أهداف سياسية معينة. وهذا يشمل في التراث الشيعي، في جملة أمور أخرى، جماعات من قبيل المجلس الأعلى الإسلامي في العراق، وحزب الدعوة الإسلامي، والصدريين (أتباع مقتدى الصدر) في العراق؛ وحزب الله وحزب أمل في لبنان، والحزب الجمهوري الإسلامي في إيران. إلا أن الجماعات الإسلامية الأكثر تعدداً منبثقة من الفرع السني للإسلام، بالنظر إلى أن الإسلام السني يمارسه نحو ٨٥ في المائة من جميع المسلمين في مختلف أنحاء العالم.

وتشمل هذه الجماعات مختلف جماعات الإخوان المسلمين التي انبثقت من الجماعة الأصلية التي تأسست في مصر، وجماعة طالبان الأفغانية، والقاعدة، والقاعدة في شبه الجزيرة العربية، وحركة " الشباب " الصومالية، وهلم جرا. وبينما تنبثق كل جماعة من هذه الجماعات من سياقات وطنية وإقليمية معينة وتتأثر وتتشكل بهذه الظروف التاريخية، فإن ما يجمع بينها هو تأييدها لإقامة دولة إسلامية قائمة على الشريعة. وحتى مع هذا الهدف المشترك، توجد تفسيرات شتى للشريعة، بعضها أكثر صرامة من الأخرى. وتوجد أيضاً اختلافات بين الجماعات بشأن طرق إقامة دولة إسلامية: ومن ذلك على سبيل المثال ما إذا كان ينبغي أن تستند إلى تصويت الأغلبية (حزب الله) أو تُفرض من أعلى (طالبان). وأخيراً، تختلف منظمات الإسلاميين في أساليبها. فبعضها يفضل اتباع نهج أكثر راديكالية وعنفاً (من قبيل جماعة الجهاد الإسلامي في مصر أو جماعة عسكرة طيبة الباكستانية)؛ أما الجماعات الأخرى، التي تمثل الأغلبية عادة، فهي تتبع نهجاً إصلاحياً وفي بعض الأحيان برلمانياً.

ومن الواضح أن أحزاب الإسلام السياسي تتباين تبايناً واسعاً من حيث منشؤها وسياستها وأساليبها. ومن ثم، على العكس من الآراء التي ينشرها المحافظون الجدد والإمبرياليون المحافظون الآخرون، مثلما سنرى في الفصل التالي، لا يمكن أن يقال إن هناك مؤامرة عالمية للإسلاميين ترمى إلى الإطاحة بالغرب. فكيف، إذًا، نفهم صعود الأحزاب والجماعات المذكورة آنفاً؟ وقد ناقشت في الفصل الرابع الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة. وأتطرق الآن إلى الأوضاع الداخلية التي مكّنت أحزاب الإسلام السياسي من النمو.

نمو الإسلام السياسي

بوجه عام، ساعد التلاقى بين ثلاثة عوامل على تمهيد الطريق لصعود التأسلم هي: فشل القومية العلمانية، وضعف اليسار، واندلاع أزمات اقتصادية.

وأتناول بالفحص فيما يلي كل عامل من هذه العوامل بتفصيل أكبر. ومع أن هذه هي الظروف الشاملة التي تمكّن الإسلاميين من السعى إلى الهيمنة، ثمة عوامل محلية وإقليمية محددة تلعب دوراً. ولكن التحدث عن هذه الظروف المحلية يتجاوز نطاق هذا الفصل.

فشل القومية العلمانية

لقد كان صعود القومية العلمانية الراديكالية في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كما نوقش في الفصل السابق، إيداناً بتحول تقدمي في السياسة المناهضة للإمبريالية في الدول المستعمرة. فمن إندونيسيا إلى الجزائر، أزاح جيل جديد من الزعماء السياسيين نوى العقلية العلمانية، كان على رأس حركات شعبية مناهضة للاستعمار، النظام القديم وأدخل سلسلة من الإصلاحات. إلا أن هذه التطورات لم تكن عامةً في جميع البلدان التي يشكل فيها المسلمون أغلبية. فنحن نرى هذا الاتجاه في تركيا ومصر وإندونيسيا والجزائر وباكستان، ولكننا لا نراه في المملكة العربية السعودية أو في النظم الملكية الموجودة في منطقة الخليج، على سبيل المثال. ففي تلك النظم الأخيرة، عمل الملوك بدعم من الغرب على تراجع القوى القومية واليسارية العلمانية، بقدر وجودها (كما هو الحال في اليمن وكما هو الحال بدرجة أقل في المملكة العربية السعودية). ومع ذلك، من المهم إبراز أن العلمانية تم التوصل إليها وتطويرها في كثير من البلدان التي يشكل فيها المسلمون أغلبية، وإن يكن بطرائق مختلفة عن التجربة الأوروبية. ونتطرق الآن إلى فشل هذه الحركات واضمحلالها.

وبإيجاز، كانت القومية العلمانية غير قادرة على تحقيق الوعود الاقتصادية والسياسية الراديكالية التي قدمتها لدولها. وتصور حالة مصر هذه النقطة تصويراً حياً. ففي عام ١٩٥٢ قاد ناصر وجماعة سرية تعرف باسم " الضباط الأحرار " تمرداً

على الملك فاروق، فى أعقاب إضرابات عمالية وانتفاضات طلابية (فضلاً عن وجود غضب على نطاق المنطقة بشأن قضية فلسطين)، وقام بخلعه. وبدؤوا، عندما أصبحوا فى السلطة، سلسلة من الإصلاحات التى دمّرت من حيث الجوهر النظام القديم الذى كان يسيطر عليه الإقطاع والتجارة البورجوازية^(٨)، وقاموا بتنفيذ برنامج إصلاح زراعى، وتصنيع، وتأميم قطاعات اقتصادية شتى؛ وألغوا الملكية الدستورية وأقاموا جمهورية، ولكنهم ركّزوا السلطة فى أيديهم. وأصدروا أيضاً قوانين فى صالح العمال استجابة للإضرابات وللمظاهرات التى حدثت فى أوائل خمسينيات القرن العشرين. وربما كان الأهم هو أن الناصريين استطاعوا أن يخلّصوا المجتمع المصرى من السيطرة البريطانية فى نهاية الأمر. وكانت ذروة هذه الحركة هى تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦، وعندما هزم ناصر المعارضة البريطانية والفرنسية والإسرائيلية لتأميم قناة السويس (بدعم من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي)، فإنه أصبح بطلاً إقليمياً، وأصبح يُنظر إلى الناصرية منذ ذلك الحين فصاعداً كنموذج يُحاكى فى بقية العالم العربى.

وفى عام ١٩٥٧ دعا ناصر إلى إقامة نظام " اشتراكي " فى مصر. ولم يكن ما يقصده بالاشتراكية واضحاً؛ وقد تباين تبعاً للسياق الذى تحدث عنها فيه^(٩)، وفى الممارسة العملية، قاد ناصر، الذى نشأ من الطبقة الوسطى، برنامجاً كَبَّحَ قوة رأس المال الكبير من خلال التأميم وركّز التخطيط الاقتصادى فى أيدي الدولة^(١٠)، وكانت " الاشتراكية العربية " فى الممارسة العملية هى رأسمالية الدولة؛ فقد كانت تنطوى على التخطيط الحكومى المقرون بالسيطرة الشمولية واستخدام القمع لإخماد المعارضة. وسياسياً، سعت الناصرية إلى توحيد الأقاليم العربية وإعادة تجميعها فى دولة واحدة وإزالة الانقسامات التعسفية التى فرضتها القوى المتحالفة بعد الحرب العالمية الأولى. وكان العدو الرئيسى هو الإمبريالية، لا سيما إمبريالية الولايات المتحدة، التى برزت كقوة مهيمنة فى الشرق الأوسط بعد الحرب. وبينما سعى ناصر إلى الحصول على دعم عسكري ومالى من الاتحاد السوفييتي، فإنه لم يكن بأى حال

أداة للمصالح السوفيتية. وكان النظير الرئيسى لناصر فى الشرق هو حزب البعث الاشتراكى العربى السورى وفروعه فى الأردن ولبنان والعراق. فقد كان لهذه الأحزاب توجهٌ مماثل وقاعدةٌ طبقيةٌ مماثلة، ولكنها لم تحقق قط نفس البروز الذى حققته الناصرية. ومن الأمثلة الأخرى للقومية العلمانية فى شمال أفريقيا وجنوب آسيا جبهة التحرير الوطنى فى الجزائر، وسوكارنو فى إندونيسيا، وذو الفقار على بوتو فى باكستان.

بيد أن القومية العلمانية فى أعقاب الحرب كانت فى نهاية المطاف، رغم وعودها الراديكالية، عقيدة طبقة وسطى تخدم مصالح طبقتها. ولم تكن التدابير الرأسمالية الحكومية، رغم نجاحها المعتدل لفترة من الوقت، قادرة على التصدى بجدية للتفاوتات الطبقيّة وإنتاج تغيير اقتصادى حقيقى. وعلاوة على ذلك، فى سبعينيات القرن الماضى شهدت كثرة من هذه البلدان أزمات لم تتمكن الوسائل الرأسمالية الحكومية من حلها. وكانت النتيجة هى زيادة البطالة وتنامى التفاوت الطبقي، وهى أوضاع تفاقمت فحسب بإدخال إصلاحات الليبراليين الجدد.

وعلى الجبهة السياسية، سددت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، التى هزمت فيها إسرائيل البلدان المجاورة لها وضمّت بعض أراضيها إليها فى غضون ستة أيام فقط، ضربة قاتلة للمشروع السياسية للقومية العربية. وكما يصوّر مكسيم رودنسون الأمر،

لقد فشلت الناصرية والبعثية على حد سواء فى تحقيق الوحدة العربية وفى حل مشكلة إسرائيل والفلسطينيين. ولم يكن الأداء الاقتصادى متميزاً فى أى مكان، وسقطت مصر فى عهد ناصر على وجه الخصوص فى هوة العوز والتدننى الثقافى. وكثيراً ما كانت الطبقات الجديدة التى تُمسك بزمام السلطة تذكر بالطبقات القديمة بشكل اليم. وأثار الفشل فى يونيو ١٩٦٧ مسألة ملامة الأفكار القديمة لحل مشاكل الحاضر الضاغطة. وأدت كل مشكلة كبرى، وكل فشل، وكل أزمة نشأت ... إلى الإحساس بوجود افتقار إلى شيء ما فى الإيديولوجيا القومية، ويوجب التطلع إلى إيديولوجيات هامة أخرى كمصدر لأفكار جديدة^(١١).

وقد أدى الفراغ الإيديولوجي الناجم عن انهيار القومية العلمانية والبحث عن أفكار جديدة إلى نشوء فرصة بالنسبة للإسلاميين. وبينما كان من الممكن أن يملا أقصى اليسار هذا الفراغ فإنه، كما سيبيّن القسم التالي، بدد مصداقيته وترك بذلك أرضاً للإسلاميين.

وتصوّر مصر مرة أخرى هذا العامل الدينامي تصويراً جيداً. ففي نفس الوقت تقريباً الذي بدأ فيه الاقتصاد في التراجع، بدأت رابطات إسلامية، تسمى الجماعات الإسلامية، تظهر في صفوف الطلاب في المدن الرئيسية. وساعد نظام أنور السادات على دعم نمو هذه الجماعات في محاولة منه للابتعاد تماماً عن السياسات العلمانية والجامعة التي اتسمت بها الحقبة السابقة. وقامت تلك الجماعات بتجنيد طلبة كانوا يشعرون بخيبة أمل متزايدة في السياسة التي يتبعها اليسار وقامت بتدريبهم على الحياة الإسلامية التامة في معسكرات صيفية. وعرضت، كى تنال دعماً واسع النطاق في مناخ كان اليسار لا يزال لديه فيه قدر كبير من التأثير، ما أسمته "الحلول الإسلامية" للأزمة التي كانت تواجه الجامعات المصرية.

فعلى سبيل المثال، كان على الطلاب أن يتعاملوا يومياً مع نظام للنقل يفتقر إلى الكفاءة ويتم بتكديس مفرط. وبالنسبة للمرأة، كان هذا أمراً صعباً على وجه الخصوص، لأنها كثيراً ما كانت تتعرض للتحرش في الحافلات المزدهمة. وكان الحل "الإسلامي" هو نقل النساء في حافلات صغيرة مجلوبة صراحة لهذا الغرض. ولكن عندما أصبحت وسيلة النقل البديلة هذه شعبية، قام الإسلاميون بقصر هذه الخدمة على النساء اللاتي يرتدين الحجاب. ومن ثم كانت خصخصة النقل وسيلة للتصدي "إسلامياً" لمشكلة اجتماعية، ووسيلة لجعل الطالبات يرين عدم وجود خيارات قليلة أمامهن سوى ارتداء الحجاب. وأتبع نهج مماثل فيما يتعلق بالفصل على أساس الملابس والجنس^(١٧). وكان هذا النهج هو مزيج من الخدمات الاجتماعية والتعاليم الأخلاقية التي عززت أجنحة الجماعات الإسلامية. وسرعان ما بدأت تتصادم هتافات "الديمقراطية" مع "الله أكبر" في المظاهرات الطلابية. وفي غضون بضعة

سنوات فقط، أصبح الإسلاميون هم المسيطرون في الحرم الجامعي واضطر اليسار إلى الاختباء^(١٣).

ويمكن مشاهدة عامل دينامي مماثل في دول أخرى فقدت فيها القومية العلمانية وفقد فيها اليسار المصداقية السياسية، وإن يكن في مراحل مختلفة. ففي أواخر ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي فقط استطاعت حماس أن تتحدى بنجاح سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية في فلسطين. ولكن هذا لم يكن معناه أن الإسلاميين سيشغلون الفراغ الذي أوجده انهيار القومية العلمانية. ولو كان هناك بديل سياسى لليسار قادر على أن يقود نضال الطبقة العاملة فإنه كان الأحزاب الشيوعية المختلفة الموجودة في المنطقة.

فشل الأحزاب الشيوعية

في السنوات العشرين اللاحقة للحرب العالمية الثانية، اجتاحت حركات جماهيرية الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ففي ثلاثة بلدان - مصر وإيران والعراق - لعبت الطبقات العاملة دوراً هاماً في التعبئة الجماهيرية. وفي سياق تصاعد النضال الطبقي، نُحيت جانبا الانقسامات الدينية والطائفية، وشهدت أحزاب الإسلام السياسي تضاؤل نفوذها^(١٤). وإضافة إلى ذلك، في بلدان مثل لبنان وسوريا والسودان، لعبت الأحزاب الشيوعية دوراً هاماً في قيادة كفاح الطلبة والفلاحين والعمال^(١٥).

ورغم هذه النجاحات، كان تقيّد الأحزاب الشيوعية بالسياسة الستالينية يشكل عائقاً شديداً لها^(١٦). فقد تذبذبت بشأن مسائل هامة. فعندما أعلن الاتحاد السوفييتى تأييده لخطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين، أيدت الأحزاب الشيوعية تلك الخطة رغم المعارضة الشعبية الهائلة لها في العالم العربي. وعندما غير الاتحاد السوفييتى موقفه وانقلب ضد إسرائيل، حذت الأحزاب الشيوعية حذوه ببساطة.

وتقلبت تلك الأحزاب أيضاً ما بين تأييد الأحزاب القومية ومعارضتها مع تقلب السياسات السوفييتية في هذا الصدد. وبعد الحرب العالمية الثانية، ومع بدء الحرب الباردة، نصح الاتحاد السوفييتي الأحزاب الشيوعية العربية بقطع تحالفات الجبهة الشعبية مع الجماعات القومية البورجوازية وبتأكيد استقلاليتها. وفي الممارسة العملية، كان هذا معناه معارضة القومية العربية الراديكالية، التي كانت تحظى بشعبية هائلة. واتخذت الأحزاب الشيوعية موقفاً ضد الناصرية والبعثية^(١٧). ففي الجزائر، أيد الحزب الشيوعي إدماج الجموع الجزائرية في الحياة الفرنسية، مما جعله على الجانب المعاكس للنضال في سبيل التحرر الوطني الذي قادته جبهة التحرير الوطني^(١٨).

وفي ستينيات القرن الماضي، غيرت الأحزاب الشيوعية موقفها مرة أخرى كي تتوافق مع التوجيهات السوفييتية. وأصدرت الأحزاب الشيوعية في سوريا ولبنان والعراق والأردن بياناً مشتركاً في عام ١٩٦٤ يدعو إلى "توثيق عرى الوحدة والتعاون بين جميع الاتجاهات الوطنية والديمقراطية و... جميع القوى الوطنية لحركة التحرير العربية"^(١٩). وفي الممارسة العملية، كان هذا معناه إعلان الحزب الشيوعي السوري أن حزب البعث هو إحدى "القوى الثورية الأساسية". ثم انضم الشيوعيون السوريون للنظام وتخلوا عن كل استقلالهم السياسي. كذلك، انضم الحزب الشيوعي العراقي إلى حزب البعث، وانضم، بالتبعية، إلى الحزب ضد الأكراد وقمع المسلمين الشيعة^(٢٠). وأدت هذه التحولات الكارثية جميعها إلى إنهاء مشروعية الأحزاب الشيوعية في أعين الناس الذين اتجهوا يوماً ما إليها التماساً للقيادة. وإضافة إلى ذلك، فإن دعم تلك الأحزاب غير الانتقادي لمختلف الأحزاب والأنظمة القومية "الثورية" كان معناه أن القومية الراديكالية عندما تراجعت فإن الأحزاب الشيوعية تعرضت أيضاً لفقدان مصداقيتها. وكما يقول فيل مارشال، "بحلول أواخر ستينيات القرن الماضي أدت الاستراتيجية الشيوعية إلى إخلاء الشرق الأوسط من أي بديل علماني متسق للقومية، وفعلت ذلك في وقت كانت فيه المنطقة توشك أن تدخل في

مرحلة عدم استقرار متزايد. وقد ترك هذا السكان فى حالة خيبة أمل متزايدة ولا يجدون أى مرجعية للتغيير، وأوجد حيزاً سياسياً سرعان ما بدأ النشاط الدينيون يشغلونه - (٢١).

الأزمة الاقتصادية والأساس الطبقي للتأسلم

إضافة إلى الأزمة السياسية للقومية العلمانية، شهدت سبعينيات القرن العشرين نشوء أزمات اقتصادية كانت النظم الاقتصادية الرأسمالية الحكومية عاجزة عن التعامل معها بفعالية. وعلاوة على ذلك، كان التحول إلى الليبرالية الجديدة ووضع برامج صندوق النقد الدولي بشأن التكيف الهيكلي فى دول شتى معناهما تدهور برامج الرعاية الاجتماعية. وهنا استطاعت منظمات الإسلاميين بشبكاتها الخيرية الهائلة أن تحقق توغلات. ويمكن فهم العوامل الدينامية هنا على النحو التالى:

نتيجة للتكيف الهيكلي، تراجعت قدرة الدولة على أن تمثل البديل لحركات المعارضة، وتزايد اقتصار الخدمات على المناطق التى تعيش فيها الطبقة الوسطى الحضرية والتى تعيش فيها النخبة. وحدث استقطاب فى توزيعات الدخل. وكان التكيف الهيكلي معناه أن الدول غير قادرة على توفير مستويات الخدمات التى كانت راسخة فى السابق أو على كفاية إمدادات كافية من السلع. ... وأتاح الفراغ السياسى والأخلاقي فرصاً كبيرة اغتتمها الإسلاميون، الذين أقاموا قاعدة اجتماعية لهم يعرض الخدمات التى فشلت الدول المختلفة فى تقديمها (٢٢).

وكانت العناصر الرئيسية التى انضمت إلى التيار الإسلامى فى أوائل سبعينيات القرن الماضى هى الشباب الحضرى المتعلم. ففى خلال الفترة ما بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٧٠ بلغ معدل النمو السكانى فى البلدان التى يمثل فيها المسلمون أغلبية ٥٠ فى المائة (٢٣)، ويحلول عام ١٩٧٥، ومع نمو الزحف الحضرى ومعرفة القراءة والكتابة باطراد، كانت نسبة قدرها ٦٠ فى المائة من السكان دون سن الرابعة والعشرين. وبينما كان هؤلاء الشباب، ومعظمهم ينحدرون من أسر كانت قد انتقلت حديثاً إلى

المدن، قد أتيح لهم الحصول على تعليم بفضل الإصلاحات التي أدخلها القوميون العلمانيون، فإن الفرص المتاحة لهم للتقدم اقتصادياً كانت قليلة. وفي بعض الحالات، كانت الدول تعرض فرص عمل على الخريجين الجدد وكانت قادرة على استيعاب عدد منهم في أدوار كبيروكراتيين حكوميين. بيد أن هذا السبيل أصبح هو نفسه واهياً لأن سياسات صندوق النقد الدولي الخاصة بتحرير الاقتصاد وإجراء تخفيضات في الدعم الحكومي في بلدان من قبيل مصر والجزائر أدت إلى تخفيض مرتبات البيروقراطيين المثقفين، الذين أصبح لزاماً عليهم عندئذ العثور على فرص عمل إضافية كسائقى سيارات أجرة أو كحراس ليليين كي يبقوا على قيد الحياة^(٢٤).

وأدى الإحساس بالإحباط والاستياء السياسى الذى نجم عن هذا الوضع إلى دفع الطلاب صوب إيديولوجيات الإسلاميين. وبينما كان بعضهم قد انجذب سابقاً إلى القومية والشيوعية، فإن فشل هاتين الإيديولوجيتين، إلى جانب المحنة الاقتصادية، دفعهم فى اتجاه التأسلم. وكان عدد كبير من هؤلاء المثقفين الشباب، الذين تلقوا تعليمهم فى مدارس حكومية تدرّس منهجاً غريباً، يمثلون التخصصات العلمية (وبالذات الهندسة) أو تلقوا تعليمهم فى مدارس تدريب المعلمين^(٢٥)، وكان الإسلامى النمطى فى تلك الحقبة هو المهندس المولود فى وقت ما من خمسينيات القرن العشرين الذى كان والداه من الريف^(٢٦)، فقد تلقى قلب الدين حكمتيار، وهو زعيم فصيل من المجاهدين الأفغان محافظ بدرجة مغالية، تدريبه كمهندس؛ وكان حسين حاشانى، الناطق باسم جبهة الإنقاذ الإسلامية الجزائرية فى عام ١٩٩١، مهندس بترول؛ وكان أيمن الظواهرى الذى ينتمى إلى القاعدة قد تلقى تدريبه كطبيب.

وكانت هذه القيادة الفكرية لديها، لهذا السبب، نظرة حديثة وحضرية للعالم. ومن ثم، فإن صعود الإسلام السياسى المعاصر لا يمثل عودة نشوء حرب صليبية لرجال الدين تنتمى إلى القرون الوسطى ضد الحداثة بل كان ظاهرة حضرية حديثة ولدت من رحم الأزمات التى أوجدتها الرأسمالية^(٢٧)، وكما يصور كريس هيرمان الأمر، "لقد نشأ التأسلم فى مجتمعات كانت مصدومة بفعل أثر

الرأسمالية، أولاً فى شكل غزو خارجى من الإمبريالية ثم، بدرجة متزايدة، بفعل التحول الذى حدث فى العلاقات الاجتماعية الداخلية المصحوب بنشوء طبقة رأسمالية محلية وتكوُن دولة مستقلة^(٢٨).

وبينما أصبح الشباب الحضرى المتعلم هم كوادر الحركة الإسلامية المنبثقة حديثاً، اتجهت أيضاً الطبقات الأخرى التى كانت مهددة بالتحديث الرأسمالى صوب التأسلم. وكان من أبرز تلك الطبقات شرائح الطبقة الوسطى المتدينة، التى تمثل ركيزة أخرى من ركائز الحركة الإسلامية. وكان قسم من كتلة الطبقة الوسطى هذه يتكون من أبناء طبقات تجار الأسواق؛ وكان قسم آخر يتكون من المهنيين محدثى النعمة، الذين أصبحوا متخمين بالثروة من عملهم فى البلدان المنتجة للنفط^(٢٩). وقد مؤل النظام المصرفى والمالى الإسلامى الدولى، برئاسة المملكة العربية السعودية، على النحو الذى وردت مناقشته فى الفصل الرابع، مصالح قاعدة الطبقة الوسطى هذه وعززها.

وإذا كان الشباب الحضرى المتعلم وأفراد الطبقة الوسطى المتدينون هم القوى الرئيسية التى تقف وراء التأسلم، فإن طبقات أخرى تدعمهم أيضاً. وفى بعض الأحيان، فى بلدان من قبيل مصر وإيران وتركيا وباكستان، كانت هاتان الطبقتان تتلقيان دعماً وتمويلاً من الطبقات التى تملك أرضاً والتى تناقص نفوذها على يد القوميين^(٣٠). وفى بعض الأحيان كانتا تتلقيان أيضاً مساندة من الطبقة البورجوازية الكبيرة.

وفى ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى، حقق الإسلاميون تقدماً فى صفوف طبقة أخرى، هى طبقة الفقراء فقراً شديداً. وتشمل هذه الفئة اللاجئيين الذين انخفضت منزلتهم وسكان الأحياء الفقيرة الحضرية، وكذلك أولئك الذين تعرضوا للقمع والاستغلال على مر التاريخ بسبب دينهم. فعلى سبيل المثال، جندت حركة حماس بإفراط عناصر من مخيمات اللاجئيين التى أوجدتها إسرائيل، وبينما تحظى بدعم رجال الأعمال، والطبقة الوسطى، والتجار، والأثرياء، فإن قيادتها وكوادرها

مستمدة إلى حد كبير من مخيمات اللاجئين^(٣١). وهذا يصدق أيضاً على حزب الله، الذى يمثل عماده الرئيسى فقراء الشيعة فى ضواحي المدن الكبرى مثل بيروت، فى ما يُعرف باسم "حزام البؤس". كذلك، يستمد أنصار مقتدى الصدر فى العراق، الآن وفى تسعينيات القرن الماضى أيضاً، قدراً كبيراً من دعمهم وقوتهم من ضواحي مدينة الصدر الفقيرة.

والطبقة الوسطى المتدينة، التى تحظى أحياناً بمساندة شرائح أخرى فى المجتمع، تكون عادةً أكثر محافظة فى توجهها وتشكل الجناح الإسلامى "المعتدل". وبينما يتشاطر أفراد هذه الطبقة الرؤية المتعلقة بإقامة دولة إسلامية، فإنهم يفضلون القيام بذلك فى ظل ظروف الاستقرار الاجتماعى التى تعزز مصالحهم الاقتصادية. ومن الناحية الأخرى، يكون الشباب الحضريون الذين أُزحوا من الطبقة الوسطى بسبب انعدام الفرص أمامهم منفتحين عادةً للأساليب القائمة على المواجهة والعنف بدرجة أكبر؛ وهم يشكلون الجناح "الراديكالى" للحركة الإسلامية. وفى بعض الأحيان تعاونت هاتان المجموعتان فيما بينهما؛ وفى أحيان أخرى شقت كل منهما طريقاً خاصاً بها.

وعادةً، ينادى المعتدلون بأسلمة المجتمع من أسفل إلى أعلى عن طريق استخدام استراتيجيات من قبيل الوعظ والشبكات الاجتماعية والخيرية. وهم يسعون أيضاً إلى الضغط على القادة السياسيين ولديهم استعداد للدخول فى تحالفات سياسية للترويج للأسلمة من أعلى. وهم مستعدون فى بعض الأحيان للتمرد، ولكن فقط عندما تُستنفد جميع أساليب الاحتجاج السلمية. أما الراديكاليون فهم يدعون إلى مفهوم للثورة، يتمثل فى الإطاحة بالقوة بالنظام السياسى القائم وإحلال نظام مختلف محله اختلافاً جزئياً^(٣٢). وفى بعض الأحيان يتحول أولئك الذين يبدوون كمعتدلين إلى راديكاليين فى سياق الاضطهاد السياسى. وهكذا، اتجه سيد قطب، المنظر الإسلامى الواسع النفوذ الذى كان ينتمى إلى حركة الإخوان المسلمين المعتدلين، اتجهاً راديكالياً فى عام ١٩٥٤ بعد سجنه وتعذيبه على يد حكومة ناصر.

وهذه التقلبات تتسم بها عادة الحركات التي تقودها البورجوازية الصغيرة لأن تلك البورجوازية، كطبقة، تفتقر إلى الثقل الاجتماعى اللازم لإحداث تغييرات سياسية واقتصادية فعالة. وكثيراً ما يوجه الإسلاميون، فى سياق أزمة اقتصادية، نداءات غامضة مناهضة للرأسمالية ومضادة للفقر والجشع ويمزجونها بهجمات على " القيم الغربية" والإمبريالية. إلا أن هذه ليست، فى حقيقة الأمر، عقيدة مناهضة للرأسمالية. فالإسلاميون هم عملياً، مع استثناءات قليلة، دعاة للرأسمالية والليبرالية الجديدة بقوة ولذا لا يمكنهم تقديم حلول حقيقية للناس الذين يتجهون إليهم كبديل سياسى.

وإيجازاً، فقد أرسى تلاقى عدة تطورات سياسية واقتصادية فى أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن المنصرم الأساس لنمو الإسلام السياسى.

الإسلام السياسى: مآلات متفاوتة

لقد استطاعت أحزاب الإسلام السياسى على مدى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين وفى أوائل الألفية الجديدة أن تتقدم وأن تفرض نفسها كجهات فاعلة على الساحة السياسية. وشهد كل من الجناح المعتدل والجناح الراديكالى نجاحات وشهد أيضاً نكسات وهزائم. فعلى سبيل المثال، بعد أن هزم المجاهدون الأفغان السوفييت فى أواخر عام ١٩٨٩، اكتسبت سياسة الإسلام الراديكالى العنيف مشروعية. ومع ذلك، عندما عاد " العرب الأفغان"، كما يطلق عليهم، إلى أوطانهم ونفذوا برنامجاً يتسم بالعنف، مثلما حدث فى الجزائر ومصر فى تسعينيات القرن الماضى، فإن مصداقيتهم تراجعت تراجعاً كبيراً فى كلا السياقين.

كذلك، تعرّض النهج الانتخابى لنكسة فى عام ١٩٩٢، عندما لم يُسمح لجبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر بأن تحكم بعد فوزها فى الانتخابات. وقد استمر هذا النمط فى تركيا عام ١٩٩٧، عندما أزاح الجيش الإسلاميين من السلطة. ولكن فى عام ٢٠٠٢ استطاع حزب العدالة والتنمية أن يفوز فى الانتخابات وأن يبقى فى

السلطة، وهو أمر لا يدعو إلى الدهشة بالنظر إلى أنه موالٍ لطف شمال الأطلسي (الناتو)، وموالٍ للولايات المتحدة، وموالٍ لليبراليين الجدد^(٣٣). ولهذا الأسباب، قيل إن ذلك الحزب يمثل نموذجاً يمكن أن يحاكيه الإسلاميون الآخرون. وفي عام ٢٠٠٦، حققت حركة حماس نصراً انتخابياً.

ومن المرجح أن يستمر هذا النمط من الصعود والتراجع إلى أن يثبت بديل يسارى نفسه ويوقف هذا الحراك الدينامي. وباستطاعة الإسلاميين أن يستغلوا أوجه القلق الحقيقية وأوجه انعدام الأمن الاقتصادي التي تواجهها الأغلبية الساحقة من الناس. فشبكاتهم الخيرية، الممولة بالدولارات النفطية، تتيح غوثاً حقيقياً ما لأولئك الذين دمّرت الليبرالية الجديدة والإمبريالية حياتهم. إلا أنهم لا توجد لديهم حلول حقيقية للزلمات المتوطنة في الرأسمالية. فهم يتخبطون حالماً يصبحون في مواقع السلطة، ويجدون أنفسهم عاجزين عن منع اندلاع العنف والفوضى على يد عناصر أكثر راديكالية عاقدة العزم على تخليص مجتمعاتها من التأثيرات "غير الوریعة". فقوانينهم وتعاليمهم الطهرانية تُبعد نفس الأشخاص الذين كانوا يساندونهم يوماً ما، مما يمهد الطريق لتراجعهم.

والحركات السياسية التي تقودها الطبقات الوسطى لا يمكن أن تقدم حلاً حقيقية للمشاكل التي تواجهها الأغلبية الساحقة. فكما يقول هيرمان،

إن التأسلم، من ثم، يحشد المرارة الشعبية ويشلها على حد سواء؛ ويعزز إحساس الناس بوجوب القيام بشيء ما ثم يوجه تلك المشاعر إلى ممرات مظلمة؛ ويزعزع استقرار الدولة ويقيّد في الوقت نفسه النضال الحقيقي ضد الدولة. وطابع التناقض الذي يتسم به التأسلم ينبع من القاعدة الطبقيّة لكواره الأساسية. فالبورجوازية الصغيرة لا يمكن، كطبقة، أن تتبع سياسة متسقة ومستقلة خاصة بها. وكان هذا يصدق يوماً على البورجوازية الصغيرة التقليدية - أي صغار أصحاب المتاجر والتجار والحرفيين الذين يعملون لحسابهم الخاص. فهذه الطبقات كانت ممزقة دائماً ما بين ترقى محافظ إلى الأمن يتطلع إلى الماضي وأمل في أنها ستستفيد فردياً من تغيير جذري، وهذا يصدق أيضاً على الطبقة الوسطى الجديدة التي أصبحت فقيرة

- أو حتى الطبقة الوسطى الجديدة التي ستصبح أكثر فقراً المكونة من الطلبة سابقاً غير العاملين - فى البلدان التي أصبحت الآن أقل تقدماً من الناحية الاقتصادية (٣٤).

وقد كان لهذه التناقضات أثرها فى مصر والجزائر وإيران والسودان وفى أماكن أخرى، بحيث كشفت عن إفلاس سياسة الإسلاميين. ولكن حتى بينما بدأ الإسلاميون فى هذه البلدان يفقدون مصداقيتهم، بدأ أقرانهم فى لبنان وفلسطين المحتلة والعراق عملية صعود. وإيجازاً، من تسعينيات القرن الماضى إلى أوائل العقد الأول من القرن الحادى والعشرين، كان هناك حراك دينامى تناقضى يتمثل فى التراجع والصعود. وهذا الحراك الدينامى من المرجح أن يستمر فى المستقبل إلى أن يُقام بديل سياسى حقيقى يمثله الجناح اليسارى.

والانتفاضات وحركات التعبئة الجماهيرية التي اجتاحت الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى عام ٢٠١١ عززت اليسار الموجود حالياً وأتاحت حيزاً يمكن أن يولد منه يسار جديد يملك مقومات البقاء على هذا النحو. فهذه النضالات سددت ضربة لحجة الإسلاميين الراديكاليين القائلة بأن أعمال الإرهاب التي يقوم بها أفراد وتقوم بها خلايا صغيرة ضرورية لتخليص مجتمعات المسلمين من القادة الموالين للإمبريالية، وأن تفرض بدلا من ذلك على الخريطة نمودجا مختلفاً للتغيير الاجتماعى. وقد أظهرت مصر وتونس أن التجمعات والمظاهرات الجماهيرية غير الطائفية يمكن أن تنجح فى الإطاحة بالديكتاتوريين. وفى الوقت نفسه، فضحت تصرفات الإخوان المسلمين الانتهازية والمضادة للثورة منذ سقوط مبارك فى مصر أوجه قصور الجناح المعتدل نفسه من الإسلام السياسى.

وفى السنوات المقبلة، لا شك فى أن يساراً جديداً سيبدأ فى الظهور. ولكن الإسلاميين سيظلون عناصر فاعلة على المسرح السياسى لفترة من الوقت؛ ولذا من الضرورى بالنسبة للتقدميين أن تكون لديهم وسيلة لتقييم هذه الأحزاب وتقييم أفعالها. وهذا معناه أن من الضرورى ومن المهم، قبل أن نتطرق إلى جناحى

الإمبريالية في الولايات المتحدة وتقييمهما للإسلام السياسي، أن نبين إطاراً بديلاً
مناهضاً للإمبريالية.

الإسلام السياسي في إطار مناهض للإمبريالية

تواصل الولايات المتحدة تأكيد سيطرتها في مختلف أنحاء العالم على الرغم من
النكسات التي تعرضت لها في العراق وأفغانستان وعلى الرغم من نشوء منافسين لها
من قبيل الصين في عالم تتزايد فيه تعددية القطبية. وهي تفعل ذلك اقتصادياً من
خلال مؤسسات مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية،
وتفعل ذلك سياسياً من خلال الحكام المحليين الطيعين، وتفعل ذلك عسكرياً من خلال
الحروب الجوية، وشن الهجمات بواسطة طائرات بدون طيار، والعمليات الخاصة. وفي
هذا السياق، يجب أن يتخذ مناهضو الإمبريالية موقفاً قائماً على مبدأ مضاد
للإمبريالية وأن يدعموا حق الشعوب المقموعة في تقرير المصير.

ومن الناحية الملموسة، يعني هذا التضامن مع القوى المناهضة للإمبريالية تقديم
دعم هام في بعض الأحيان للأطراف التي تتزعم هذا النضال: أي للإسلاميين.
فالإسلاميون، عندما ينظمون قواهم ضد الإمبريالية والقمع، يستحقون في بعض
الأحيان دعماً بالغ الأهمية ومشروطاً من اليسار. وقد كانت مقاومة حزب الله لغزو
إسرائيل للبنان في عام ٢٠٠٦ بدعم من الولايات المتحدة هي لحظة من هذا القبيل.
فهذه المقاومة ينبغي الدفاع عنها على أساس حق الشعوب في تقرير المصير. فغزو
لبنان كان عملاً من أعمال العدوان الإمبريالي من شأنه أن يعزز مآرب الولايات
المتحدة وإسرائيل. وقد سدد حزب الله، مدعوماً على نطاق واسع من اللبنانيين من
كافة الخلفيات الدينية، ضربة لهذه المآرب عندما أجبر قوات جيش الدفاع الإسرائيلي
على الانسحاب عسكرياً. وهذا يمثل خطوة إلى الإمام ليس فحسب لأنه يعزز حق
تقرير المصير بل أيضاً لأن أي كفاح يُضعف المشروع الاستعماري الصهيوني
ويضعف بالتالي الولايات المتحدة - كبرى قوى العالم الإمبريالية وأفضلها تسليحاً

وأكثرها عنفاً - يمثل نصراً للناس العاديين فى المنطقة وفى مختلف أنحاء العالم. إلا أن هذا لا يعنى أن اليسار ملزم بأن يؤيد حزب الله فى سعيه من أجل السلطة السياسية، من قبيل عملياته العسكرية فى بيروت فى مايو ٢٠٠٨، وبينما ينبغى أن ندافع عن حق حزب الله فى التمسك بأسلحته ضد نظام عميل تسانده الولايات المتحدة وضد إسرائيل، وحقه فى الاعتراض على الانتخابات والمطالبة بإدخال تعديلات على نظام لبنان السياسى الطائفى؛ ليس علينا التزام بأن نؤيد الأساليب المعينة التى يستخدمها لتحقيق هذه الأهداف، وينبغى ألا نتغاضى عن آرائه الرجعية بشأن المرأة والمثليين والمثليات، وبشأن مسائل هامة أخرى.

كذلك، يستحق كفاح حماس ضد الصهيونية دعماً، وبخاصة عندما تحظى بمساندة الشعب الفلسطينى. وهذا ينبع من إدراك أن مقاومة شعب مستعمر، أياً كان شكل تلك المقاومة، ينبغى تأييدها، وبخاصة عندما تكون بدائل اليسار قد فقدت مصداقيتها. (لم ينشأ الدعم الشعبى لحماس إلا اقتراناً بخيانات اليسار العلمانى.) وعلاوة على ذلك، فإن حماس الموجودة الآن ليست هى نفس المنظمة التى كانت موجودة فى عام ١٩٨٧، فقد مرت بتحويلات كثيرة استجابة للتحديات المعاصرة المتمثلة فى مكافحة العنصرية والإمبريالية. ومن بين هذه التحويلات التخفيف من غلواء طموحاتها الإسلامية وتشديدها فى مقابل ذلك على سياستها القومية. وقد قال خالد خروب، أحد أوثق مراقبى الحركة السياسيين، فى عام ٢٠٠٠:

لقد تضاعفت كثافة خطاب حماس المذهبى منذ منتصف تسعينيات القرن الماضى. وأصبحت إشارات زعمائها إلى ميثاقها [وثيقتها التأسيسية الصادرة عام ١٩٨٧] نادرة، إن وجدت على الإطلاق. وأصبحت أنبياء حماس وبياناتها والرموز التى تستخدمها تركز أكثر فلكثر على فكرة أن المشكلة الأساسية هى القضية المتعددة الأبعاد المتمثلة فى اغتصاب الأرض الفلسطينى وأن المسألة الأساسية هى كيفية وضع نهاية للاحتلال. واكتسبت فكرة تحرير فلسطين أهمية أكبر من أهمية الجانب الإسلامى العام (٢٥).

وبحلول عام ٢٠٠٦، وبيانتصار حماس فى انتخابات يناير، بلغ هذا المسار مستوى جعل خروب وغيره من المعلقين يتسألون عن حق عما إذا كانت الحركة هى نفس تلك التى بدأت فى أواخر ثمانينيات القرن الماضى. إلا أن هذا ليس معناه أن حماساً قد تخلت عن سياستها الرجعية. فهى ما زالت، مع أنها رشحت إناثاً فى انتخابات عام ٢٠٠٦، تنادى بالفصل بين الجنسين فضلاً عن أفكار عتيقة من قبيل أن المرأة مكانها البيت. وينبغى ألا يقلل اليسار من شأن هذه الفروق. وإيجازاً، من الضرورى إجراء تحليل ملموس لسياسة واستراتيجيات منظمات الإسلاميين قبل الإعلان عن موقف تأييد أو شجب لها (٣٦).

وإضافة إلى ذلك، ينبغى أن يتمسك اليسار بالحقوق الديمقراطية الأساسية وأن يدعم حق حماس فى الاستيلاء على السلطة السياسية بعد انتخابها من قِبَل الشعب الفلسطينى فى انتخابات حرة ونزيهة. وبناء على ذلك، ينبغى أن نعارض محاولات الولايات المتحدة وإسرائيل عزل حماس ومعاينة شعب غزة معاينة جماعية. وثمة جانب فى المعادلة هو أيضاً الاعتبار المتمثل فى أن السماح لحماس بأن تحكم دون عائق من شأنه أن يبين أنها، مثل الأحزاب الإسلامية الأخرى فى السلطة، لا تملك حقاً حلاً للمشاكل التى يواجهها الشعب الفلسطينى. ومن الممكن عندئذ أن يملأ هذا الفراغ يسار علمانى ملتزم باستراتيجيات أكثر فعالية من أجل التحرر يمكن أن تربط النضال الفلسطينى بنضال العمال العرب والمقموعين فى مختلف أنحاء المنطقة، بصرف النظر عن الانتماء الدينى.

وقد تغيّر الوضع فى العراق وهو تحت الاحتلال الأمريكى بمرور الوقت. فإبان المراحل الأولى من المقاومة، كان الشيعة والسنة على حد سواء ضالعين فى الكفاح، وكان احتمال وجود حركة تحرير وطنى متحدة هو احتمال ينطوى على إمكانات. وكانت نروة هذا الكفاح المتحد هى التضامن الذى أبداه الشيعة عندما هوجم المقاتلون السنة فى الفلوجة. وحتى عام ٢٠٠٥، كان مقتدى الصدر يحظى بدعم قطاعات من السكان السنة، وكانت توجد فى العراق بدايات كفاح غير طائفى حقيقى فى سبيل

التحرر الوطني^(٣٧)، ولكن بعد ذلك تدهور الوضع وتفشّت الطائفية. وقامت جميع القوى الضالعة في حركة المقاومة بذبح وتشريد مدنيين أبرياء بلا رحمة. وبدأت أيضاً القوى السنية تتعاون مع الولايات المتحدة من خلال ما يسمى مجالس الصحوة. وفي هذه الحالات، التي تتحول فيها المقاومة إلى عنف طائفي وإلى عقد صفقات مع الإمبريالية، من الخطأ تقديم الدعم لهذه القوى. ونع أنه من المهم اتخاذ موقف الدفاع عن الحق في تقرير المصير، لا يعني هذا تلقائياً دعم القوى والجماعات التي تقاتل ميدانياً في جميع الأوقات.

ويصدق الشيء نفسه على أفغانستان. إذ يجب على اليساريين أن يدعموا حق الشعب الأفغاني في تقرير المصير وأن يعارضوا بالتالي الاحتلال الأمريكي. ولكن طالبان، التي تقود النضال ضد إحتلال الولايات المتحدة/الناطو، ليست حركة تحرير وطني حقيقية ولا هي قوة مناهضة للإمبريالية. فطالبان التي يمثل قاعدتها الباشتون، الذين يشكلون نحو ٤٠ في المائة من الشعب الأفغاني، هي منظمة طائفية لا تحظى بشعبية كبيرة تتجاوز هذه الفئة العرقية. وتفسيرها الضيق والمتشدد للإسلام، وهو تفسير يحدّ الممارسات الثقافية الخاصة بالباشتون، ليس لديه الكثير الذي يمكن أن يقدمه للطاجيك والهزار والأوزبك، والأقليات العرقية الأخرى. وفي حقيقة الأمر، يبدو أن غير الباشتون يفضلون الولايات المتحدة على طالبان^(٣٨). ومن ثم، فإن احتمال بناء طالبان نضالاً حقيقياً في سبيل التحرر الوطني يجمع كل شعب أفغانستان هو احتمال ليس من المرجح إلى حد شديد أن يتحقق.

وحتى في أوساط الباشتون أنفسهم كان هناك استياء عام من سياسة طالبان الرجعية، حتى أن هذه الشريحة من المجتمع الأفغاني رحبت أيضاً بالولايات المتحدة في بداية الحرب في عام ٢٠٠١، بيد أن الدمار وحالة الخروج على القانون التي أوجدها المحتلون وحليفهم، الحلف الشمالي، دفعا المزارعين الباشتون والعمال الريفيين الذين نزحوا إلى البدء في التحول نحو طالبان. وأصبحت لدى طالبان الآن تشكيلة من

القوات مختلفة عن القوات التي انبثقت من الحرب الأفغانية - السوفييتية. إلا أن سياستها ما زالت رجعية.

وطالبان ليست أيضا قوة مناهضة للإمبريالية ذات مبدأ. فإضافة إلى استعدادها للتفاوض مع الولايات المتحدة في تسعينيات القرن الماضي، توجد لطالبان أيضاً روابط وثيقة مع باكستان وتعمل في بعض الأحيان كقناة للنفوذ الباكستاني في أفغانستان. وكما نوقش من قبل، دعمت باكستان طالبان وأمدتها بأسباب البقاء، وحتى الآن يُبقى جهاز المخابرات العسكرية الباكستاني، وهو وكالة المخابرات المشتركة بين الأجهزة (ISI)، على روابط قوية مع طالبان الأفغانية (٣٩). وفي منطقة دمرتها ثلاثة عقود من الحرب، واقتصادها يسيطر عليه إنتاج الأفيون وبيعه ويفتقر إلى الصناعة، لا بد حتماً أن تفرض القوى السياسية التي تظهر على الساحة أجنداث القوى الكبرى. والطف الشمالي تسانده الهند والولايات المتحدة، وكانت طالبان وما زالت منفذ باكستان إلى السياسة الأفغانية. وإيجازاً، لا تمثل طالبان آمال الشعب الأفغاني في التحرر الوطني. ولهذه الأسباب جميعها، لا يوجد لدى التقدميين ما يدعوهم إلى تقديم دعمهم، حتى من النوع البالغ الأهمية، لطالبان.

ويوجه عام، قد يكافح الإسلاميون ضد الإمبريالية، ولكنهم ليسوا مناهضين للإمبريالية عن مبدأ. فإذا تطلعنا إلى الأمثلة التاريخية، بوسعنا أن نجد حالات نظم فيها الإسلاميون قواهم ضد الإمبريالية وحالات أخرى تعاونوا فيها مع القوى الإمبريالية. فعلى سبيل المثال، كان رجل الدين السنّي الراديكالي عز الدين القسام شخصية قيادية في ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ ضد السيطرة البريطانية على فلسطين، وأعطت تلك الثورة زخماً للإسلاميين الراديكاليين (٤٠)، واتخذت جماعة الإخوان المسلمين في مصر، رغم هدفها الأصلي أن تكون جماعة غير سياسية، موقفاً مناهضاً للإمبريالية ونظمت قواها ضد البريطانيين. كذلك، في إيران بعد عام ١٩٧٩، سدد خوميني، وهو على رأس الثورة التي عزلت الشاه المدعوم من الولايات المتحدة، ضربة لنفوذ الولايات المتحدة في المنطقة. وبعبارة أخرى، يجد الأصوليون

الإسلاميون أنفسهم فى بعض الأحيان فى حالات يتعين عليهم فيها أن ينظموا قواهم ضد القوى الإمبريالية.

ولكننا نجد فى الوقت نفسه أمثلة لتعاونهم وتآزرهم مع القوى الاستعمارية. ففي خمسينيات القرن الماضى، شارك خومينى، الذى اشتهر عنه استنكاره للولايات المتحدة بوصفها " الشيطان الأكبر"، فى مظاهرات ضد محمد مصدق نسقتها وكالة المخابرات المركزية؛ وأقام أستاذه علاقات وثيقة مع وكالة المخابرات المركزية وحصل على مبالغ كبيرة منها ^(٤١). وعندما أرسلت الولايات المتحدة جنوداً إلى لبنان فى عام ١٩٥٨، وأرسلت بريطانيا جنوداً إلى الأردن، انضم الإخوان المسلمون الأردنيون إلى جانب الولايات المتحدة وبريطانيا للمساعدة على إخماد الانتفاضة القومية فى كلا البلدين. وإيجازاً، كثيراً ما تكون الجماعات الإسلامية كيانات تخدم أغراضها بدلا من أن تكون قوى مناهضة للإمبريالية عن مبدأ. ولذا ينبغى ألا نخطئ بتقديم تأييدنا لجميع الإسلاميين فى جميع الأوقات. وبدلا من ذلك، من اللازم إجراء تحليل تاريخى ملموس وإجراء تقييمات لكل حالة على حدة لتحديد متى يجب تقديم الدعم البالغ الأهمية لأحزاب الإسلام السياسى.

* * *

لقد أوضحت فى هذا الفصل الظروف التى أتاحت لأحزاب الإسلام السياسى أن تنجح. وما رأيناه هو أن الإسلام السياسى هو، على النقيض من التصوير الكاريكاتيرى للإسلاميين كرجال دين تنتمى عقليتهم إلى القرون الوسطى ويحتشدون ضد العالم الحديث، نتاج ظروف تاريخية محددة. وتشمل هذه الظروف فشل الحركات القومية العلمانية نتيجة لأوجه ضعفها الداخلى؛ وعجز الأحزاب الستالينية عن تقديم بديل فعال؛ ووجود أزمات اقتصادية فى بلدان شتى لم يكن من الممكن حلها من خلال الأساليب الرأسمالية الحكومية، وتفاقم الليبرالية الجديدة. ولكن يجب التشديد هنا مرة أخرى على أن الدول الإمبريالية، ولا سيما الولايات المتحدة، لعبت دوراً أساسياً فى

تعزير أحزاب الإسلام السياسى وبالتالي فى إضعاف القوميىن العلمانيين واليسار (على النحو الذى نوقش فى الفصل الرابع). وقد تألفت هذه العوامل جميعها فى مراحل شتى لدفع التأسلم إلى المسرح العالمى.

واليوم، من السهل رؤية ويلات الإمبريالية والليبرالية الجديدة. فبينما فقد عشرات الآلاف من الأشخاص حياتهم فى احتلال العراق وأفغانستان بقيادة الولايات المتحدة، يعانى عدد إضافى من الأشخاص يقدر بالملايين من الحرمان اليومى فى ظل حرية السوق. ولكن ثمة إعادة تشكيل رئيسية للقوى تحدث فى المنطقة. فالقومية العلمانية، بجاذبيتها الجماهيرية الكبيرة، كانت قوة التغيير الدافعة الرئيسية فى المنطقة فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى. وفى السبعينيات، بذلت الأنظمة العربية جهداً متضافراً لتحقيق استقرار المنطقة، وشمل ذلك دعم القوى "الإسلامية" ضد القوميىن العلمانيين واليسار.

ويبدو أن الانتفاضات العربية التى حدثت فى عام ٢٠١١ تشير إلى خروج على الوضع الذى كان قائماً لمدة عقدين أو ثلاثة عقود. فالحركات الجماهيرية التى نشأت فى مختلف أنحاء المنطقة موجهة ضد الطغاة الذين حكموا مع إفلاتهم من العقاب. وهى أيضاً ثورات على النظم السياسية والاقتصادية التى تُعرف باسم الليبرالية الجديدة. وقد أثارت هذه الثورات تساؤلات جوهرية بشأن طابع توزيع الثروة، أى بشأن من يحكم، ولصالح من. ولا يمكن إيجاد حل حقيقى يجمع ما بين ضروب الكفاح ضد ويلات الرأسمالية والإمبريالية على حد سواء فى الشرق الأوسط وفى أماكن أخرى إلا بإعادة بناء اليسار. فكما يتضح من شتى أشكال النضال، بدءاً من باكستان وإيران ووصولاً إلى سوريا وتونس ومصر، يجبر النظام الناس العاديين على الكفاح كرد فعل. وفى هذا السياق يمكن للييسار الموجود حالياً أن ينمو ويعزز قواعده ويمكن أن ينبثق يسار جديد. وهذا اليسار لا يمكنه فحسب أن يقدم نوعاً مختلفاً من القيادة ضد الإمبريالية بل يمكن أيضاً أن ينظم قواه ضد أولويات الرأسمالية الليبرالية الجديدة والطبقات الحاكمة المحلية التى تستفيد منها. وهذا هو التحدى الذى تتطوى عليه الألفية الجديدة.

الفصل السابع

مؤسسة السياسة الخارجية و "التهديد الإسلامي"

فى سبتمبر ٢٠٠٠، أصدر مشروع مركز بحوث المحافظين الجدد من أجل قرن أمريكى جديد وثيقة تبين رؤيته للسياسة الخارجية. وقد دعت الوثيقة الولايات المتحدة إلى استخدام القوة العسكرية الساحقة للسيطرة على منطقة الخليج الفارسى ومن أجل "الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة على العالم... وتشكيل النظام الأمنى الدولى على نحو يتماشى مع المبادئ والمصالح الأمريكية"^(١)، وأضاف التقرير أن هذا الهدف سيستغرق تحقيقه بعض الوقت " فى حالة عدم وقوع حدث كارثى، حدث من قبيل بيرل هاربر جديد"^(٢)، وفى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وقع ذلك الحدث، فى وقت كان فيه جناح المحافظين الجدد من أجنحة مؤسسة السياسة الخارجية يشغل مواقع ذات نفوذ فى رئاسة جورج دابليو بوش.

إلا أن ١١ سبتمبر أفرز اتفاقاً بالإجماع فى مؤسسة السياسة الخارجية على أن الحرب على الإرهاب ستشكل من ذلك الحين فصاعداً السياسة الخارجية للولايات المتحدة. إذ لم يكن رماد البرجين التوأم قد انطلقاً حتى بدأت تصريحات مدوية، مفادها أن "الإرهابيين الإسلاميين" يمثلون تهديدات لوجود الولايات المتحدة، تتردد أصداؤها فى المجال العام. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أصبحت سياسة الولايات المتحدة موجهة نحو "الإبقاء على أمان الأمريكين" من "الأشرار" المسلمين. وهذه المزاعم تتبدد فى مواجهة الواقع، كما بين الفصل السابق، لأن منظمات الإسلاميين تنبثق عادةً من

الظروف المحلية وتركز على تلك الظروف. فما هو الذى يكمن إذا وراء هذه الطنطنة النابعة من فوبيا الإسلام؟ والأجندة الكامنة وراء هذا التركيز على " التهديد الإسلامى " هى موضوع هذا الفصل.

ونبدأ برؤية المحافظين الجدد لعالم ما بعد الحرب الباردة، لأن هذا المنطق هو الذى كانت تهتدى به استجابة الولايات المتحدة لأحداث ١١ سبتمبر. وحتى على الرغم من أن الرئيس أوباما حذف عبارة " الحرب على الإرهاب " فى محاولة منه لإعادة تأهيل الإمبريالية الأمريكية بعد إخفاقات بوش، فإنه واصل مع ذلك سياسات حقبة بوش. ولذا نبدأ بقصة المحافظين الجدد وصعودهم إلى السلطة، مع التركيز على تحديد موضع هذا الاتجاه فى التفكير داخل مؤسسة السياسة الخارجية الأوسع نطاقاً. وبوجه عام، يوجد فصيلان فى مؤسسة تلك السياسة: فصيل المحافظين الجدد والمعسكر " الواقعى الذى يدعو إلى توازن القوى ". وفى بعض الأحيان، كان هناك جدل بين هذين المعسكرين، وفى أحيان أخرى كانا يتعاونان. ولئن كانت توجد اختلافات فى الطنطنة وأحياناً فى الاستراتيجية، فإن فصيلي المحافظين الجدد والليبراليين/الواقعيين فى مؤسسة السياسة الخارجية متحدان فى التزامهما بمشروع الإمبريالية الأمريكية. ويوفر التهديد الشامل المتمثل فى " الإرهاب الإسلامى " غطاءً مفيداً لهذه الطموحات الإمبريالية.

المحافظون الجدد

لقد نُحت مصطلح " المحافظين الجدد " فى أوائل سبعينيات القرن الماضى على يد مايكل هارينجتون، المرتبط بالتراث الاشتراكى الديمقراطى فى الولايات المتحدة، كوسيلة لإبعاد الحلفاء السابقين (وبعضهم ليبراليون وغيرهم اشتراكيون) الذين بدؤوا ينجذبون إلى اليمين^(٣)، وكانت من بين هؤلاء المحافظين الجدد شخصيات مثل إيرفنج كريستول، ونورمان بودهوريتز، وجين كيركباتريك، ومايكل نوفاك، وناتان جليزر،

ودانييل باتريك موينهان. ومعظم المنتمين إلى الجيل الأول من المحافظين الجدد كانوا يؤيدون حرب الولايات المتحدة مع فييتنام ويستنكرون الحركة المناهضة لتلك الحرب. وكانوا يعتبرون أنفسهم ليبراليين يؤمنون بفكرة أن أمريكا تمثل قوة من قوى الخير فى العالم وأنها ينبغي أن تحافظ على الاستقرار العالمى وتتدخل عسكرياً عند الحاجة. وكانوا يعارضون " الليبراليين الأشرار" الذين كانوا يناصرون سعى جورج ماكجوفيرن إلى الحصول على الرئاسة فى عام ١٩٧٢، معتبرين أنهم يعملون وفقاً لسياسة " التهدة" والإحساس بالذنب الليبرالى^(٤)، وكان كثيرون منهم يعارضون أيضاً برنامج ليندون جونسون المسمى " المجتمع الكبير" للإصلاح الداخلى.

وترتكز رؤية المحافظين الجدد للإمبريالية على فكرة الاستثنائية الأمريكية: "الإيمان السائد بفرادة المبادئ الليبرالية المؤسسة للبلد ويعدم إمكانية محاكاتها ويتفوقها، المصحوب بقناعة بأن الولايات المتحدة كُتِبَ عليها مصير خاص بين الأمم"^(٥). وهذه الرؤية للولايات المتحدة " كمنارة فريدة للأمم الأخرى" بسبب قيمها الليبرالية مسلّم بها داخل مؤسسة السياسة الأمريكية ككل^(٦)، ولكن الشيء المختلف فيما يتعلق بالمحافظين الجدد هو التزامهم المنفرد بالقطبية الأحادية وبالنزعة العسكرية: فكما يقول داني كوبر، المحافظون الجدد " لم يكن سيصبح لهم شأن لولا استمرار إيمانهم بأن الهيمنة العسكرية الأمريكية الساحقة هى وحدها التى يمكن أن تحول دون اندلاع حرب بين الدول الكبرى ... [و] أن الحدود الدولية المتعددة الأقطاب تفضى إلى حرب بين الدول الكبرى." وإيجازاً، ما يحدد معالم المحافظين الجدد هو فكرة عالم أحادى القطبية تسيطر عليه الولايات المتحدة، وهو أمر يعتقدون أنه فى صالح الجميع؛ والهيمنة العسكرية الأمريكية هى فى صالح أمريكا، وهى فى صالح العالم^(٧).

ويترتب على ذلك بالتبعية أنهم توصلوا إلى استنتاجات مختلفة عن الليبراليين بشأن دور الولايات المتحدة فى العالم بعد هزيمتها فى فييتنام. فكما يقول جارى دورين، الإمبريالية الليبرالية التى كانت سائدة فى أربعينيات وخمسينيات القرن الماضى " جمعت ما بين التزام دولى ليبرالى إزاء الأمم المتحدة والقانون الدولى

واقعية توازن القوى فى الدبلوماسية وبُغض إيديولوجى الشيوعية"^(٨)، فبعد فييتنام تراجع الليبراليون فى عهد الحرب الباردة عن المواجهة والتدخل، وهو موقف رأى المحافظون الجدد أنه ضعيف. فبالنسبة لهم، كان أى استيعاب للمعسكر السوفييتى يمثل استسلاماً للعدو باسم الواقعية. وكانوا ينادون، بدلا من ذلك، باستراتيجية تدخلية مع زيادات ضخمة فى الإنفاق العسكرى.

وكان العديد من المحافظين الجدد يشغلون مناصب عليا أثناء عهد ريجان، من قبيل بيل كريستول (بن إيرفينج كريستول)، وريتشارد بيرل، وريتشارد بايس، وبول وولفوويتز. وقد احتفظوا بصفة "الجدد" لكى يميزوا أنفسهم عن الجناح المحافظ الانعزالى (غير التدخلى). وبعضهم كان يقف حتى إلى يمين ريجان، من أمثال بودهوريتز، محرر مجلة المحافظين الجدد "Commentary"، الذى كان يقول إن الليبراليين حمقى وإن المثليين كانوا يعارضون الحرب لأنهم كانوا يشتهون "الفتيان من نوى الشكل الجميل الذين لا حول لهم ولا قوة"^(٩)، وكان فرانك جافنى، الذى أسس مركز بحوث السياسة الاستراتيجية، يقول إن الزعيم السوفييتى جورباتشوف أغوى ريجان بوعود زائفة^(١٠).

وعندما انهار الاتحاد السوفييتى فى نهاية الأمر، كوّن الجيل التالى من المحافظين الجدد رؤية لعالم ما بعد الحرب الباردة تركز على فكرة السيطرة الأمريكية فى عالم أحادى القطبية. وقد عبّر تشارلز كراوتهامر، وهو صحفى تُنشر مقالاته فى عدة صحف قومية ويشتهر بما يكتبه فى صحيفة "واشنطن بوست"، عن هذا الموقف فى مقالة له نُشرت عام ١٩٩٠ بعنوان "اللحظة الأحادية القطبية" فى مجلة السياسة الخارجية البارزة "Foreign Affairs"^(١١)، وقد قال كراوتهامر إن انتهاء الحرب الباردة قد أوجد "قطباً واحداً للقوى فى العالم". ولذا بإمكان هذه القوة الفائقة الوحيدة، أى الولايات المتحدة، أن تتدخل فى أى مكان تريده فى مختلف أنحاء العالم وتحدد شروط السياسة العالمية. وواصل كراوتهامر قائلاً إن من الضرورى تهميش

حجج الواقعيين والانعزاليين في مؤسسة السياسة الأمريكية، الذين لا يدركون مدى أهمية أن تسود قوة مهيمنة واحدة كى يكون هناك استقرار عالمي.

وجاء في أعقاب هذه المقالة تقرير أعده بول وولفوويتز للبتناجون (بناء على طلب ديك تشيني) بمساعدة من سكوتر ليبى، وريتشارد بيرل، وزلمى خالد زاد، وغيرهم. ولم يكن التقرير، وعنوانه "توجيهات للتخطيط الدفاعي"، مخصصاً للاستهلاك العام، ولكن جرى تسريبه إلى صحيفة "نيويورك تايمز" وصحيفة "واشنطن بوست". وقد جاء فيه أن الهدف الأول للولايات المتحدة ينبغي أن يكون "الحيلولة دون معاودة نشوء خصم جديد"^(١٢)، وأكد أن الولايات المتحدة يجب "أن تنشئ نظاماً جديداً وتحميه" وأن المنافسين المحتملين ينبغي إقناعهم بأنهم "من اللازم ألا يطمحوا إلى دور أكبر أو يتخذوا موقفاً أكثر عدوانية لحماية مصالحهم المشروعة"^(١٣)، وخلص القول، ينبغي إقامة "سلام على الطريقة الأمريكية" على الجبهات العسكرية والسياسية والاقتصادية. وحتى الدول الصناعية المتقدمة ستثنى عن السعى إلى "الإطاحة بالنظام السياسي والاقتصادي الذي ترسيه [الولايات المتحدة]"^(١٤)، وكان هذا يستتبع أن تتصرف الولايات المتحدة بمفردها إذا احتاجت إلى ذلك، من جانب واحد، بدون توجيه أى أسئلة. وذكر التقرير أن هذا من شأنه أن يضمن استقرار العالم على نحو لا يمكن أن تحققه الأمم المتحدة ولا أية ائتلافات أخرى متعددة الأطراف.

وتابع التقرير قائلاً إن الولايات المتحدة من حقها، كى تحافظ على استقرار العالم، أن تشن حرباً إجهاضية على أى معتدٍ. وسمى التقرير بالاسم عدداً من الجهات الفاعلة من الدول بوصفها جهات معتدية، بدءاً من العراق وكوريا الشمالية إلى الهند واليابان. وكان يُنظر أيضاً إلى روسيا فى حقبة ما بعد الاتحاد السوفيتى كقوة يمكن أن تكون مزعومة للاستقرار. وإضافة إلى ذلك، بُررت الضربات الإجهاضية ضد أى تهديد لمصالح الولايات المتحدة. ووقتئذ، انتقدت مؤسسة السياسة الأمريكية هذه الأفكار انتقاداً لازعاً؛ واصفة التقرير بأنه يمثل حرجاً سياسياً لبوش الأب. وكان رد الفعل قويا لدرجة أن وولفوويتز اعتقد أن حياته المهنية السياسية قد انتهت. وجرت

عملية مراجعة للتقرير، وحلت صيغة أخف محل الصيغة الأصلية. ولم يكن هذا هو عصر المحافظين الجدد، فكما سنرى بعد فترة وجيزة كانت تسعينيات القرن الماضي هي حقبة "الإمبريالية الإنسانية"، بقيادة كلينتون والإمبرياليين الليبراليين.

ولكن ما هو جدير بالملاحظة بشأن الوثيقة هو أن الأعداء الذين سمّتهم كانوا متباينين وأن قائمة المصالح الوطنية كانت واسعة النطاق؛ وشملت هذه المصالح " الوصول إلى المواد الخام الحيوية، وإلى نفط الخليج الفارسي في المقام الأول؛ ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل والقذائف الباليستية، ومنع التهديدات للمواطنين الأمريكيين من الإرهاب أو النزاع الإقليمي أو المحلي، ومنع التهديدات للمجتمع الأمريكي من تهريب المخدرات"^(١٥)، ومن ثم، سُمي "الإرهاب" كواحد بين عدة تهديدات تواجهها الولايات المتحدة. وفي حقيقة الأمر، لم تذكر حتى مقالة كراوتهامر الإرهاب،^(١٦) وهو إغفال ندم عليه لاحقاً في مقالة ذكر فيها أن " التهديد الجديد [التأسلم] لا يقل شراً عن إمبراطورية الشر القديمة". وبدأ العديد من المحافظين الجدد والمتعاطفين معهم يدفعون قُدماً بهذه الفكرة التي مفادها أن من اللازم اعتبار "الإرهاب الإسلامي" العدو الجديد في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، على النحو الذي وردت مناقشته في الفصل الرابع. وقد ردد دانييل بايس (بن ريتشارد بايس الذي ينتمي إلى الجيل الأول من المحافظين الجدد) هذه النقطة، بحيث كتب يقول " إن الإسلام، مثله مثل الشيوعية إبان الحرب الباردة، يشكل تهديداً للغرب". وإيجازاً، حتى قبل أحداث ١١ سبتمبر، كان المحافظون الجدد يحاولون إحلال عو رئيسي جديد محل الاتحاد السوفييتي^(١٧)، بيد أن هذه الفكرة لم تثمر إلا بعد ١١ سبتمبر وقد ساوى نورمان بودهوريتز، في كتابه الصادر عام ٢٠٠٧ بعنوان " الحرب العالمية الرابعة: الكفاح الطويل ضد الفاشية الإسلامية"، بين التأسلم والفاشية قائلاً إن الكفاح ضد "الفاشية الإسلامية" لا يقل أهمية عن الحروب العالمية السابقة. وجزئياً، نبع هذا الخط في الحاجة، بربطه بين الفاشية والإسلام، من الجناح اليميني للمحافظين الجدد، أي الصهيونية على طريقة الليكود، وهو موضوع نتطرق إليه فيما يلي.

الصلة الإسرائيلية

فى مقالة نُشرت فى صحيفة "وول استريت" بعنوان "ما هو بحق السماء المحافظ الجديد؟"، ذكر المحافظ الجديد القياىى ماكس بوت بشكل قاطع أن "تقديم الدعم لإسرائيل" كان ويظل "عقيدة أساسية للمحافظين الجدد"^(١٨)، وكان كثيرون من الجيل الأول من المحافظين الجدد يهوداً ووجدوا أنفسهم مبعدين بسبب تعاطف اليسار الجديد مع الكفاح الفلسطينى ومع قضايا العالم الثالث بوجه أعم. إلا أن تجربة اليهود لا تتحول تلقائياً إلى سياسة يمينية متشددة على غرار سياسة حزب الليكود. وكما يلاحظ ريتشارد سيمور، "من الواضح أن الهوية اليهودية بالنسبة لكثيرين من المحافظين الجدد اليهود كانت مهمة؛ ولكن هناك بالتأكيد تنوعاً فى تجربة العيش كمهاجر يهودى فى الولايات المتحدة، وتنوعاً أكبر فى الإحساس بالارتباط بتلك التجربة"^(١٩).

ومن ثم، فإن جنور الصهيونية المتشددة التى يعتنقها المحافظون الجدد لا تكمن فى هويتها العرقية المتمسكة باليهودية بقدر ما تكمن فى سياستها وفى رؤية معينة للعالم تعتبر إسرائيل أداة لتعزيز النفوذ الأمريكى^(٢٠)، فإذا كان للولايات المتحدة أن تحافظ على سيطرتها فى الشرق الأوسط، فإن ما يستتبع ذلك هو أن تكون إسرائيل، أكثر بلدان المنطقة موالية لأمريكا، هى حليفها الرئيسى. وكما يلاحظ نورين، كان معظم "زعماء القطبية الأحادية يهوداً من المحافظين الجدد يسلمون بأن اتباع سياسة موالية لإسرائيل إلى أقصى حد هو أمر فى صالح أمريكا. وينطبق هذا الوصف على وولفويتز وبييرل، ويودهيرتز، وكراوتهامر و [بن] واتنبرج، و [جوشوا] مورافيتشيك، وكريستول الابن والأب، وكاجان، وبوت، وكابلان"^(٢١)، إلا أن هذا الموقف كانت تتخذه أيضاً شخصيات بارزة غير يهودية من أمثال جين كيركباتريك، ودانييل باتريك موينهان، وجيمس وولسى، وفرانسيس فوكوياما، وزلمى خليل زاد، وليندا شافيز، وغيرهم.

وبأى حال، كانت إسرائيل محورية دائماً بالنسبة لتفكير المحافظين الجدد، حتى أن المحافظين الجدد ظلوا لعدة سنوات يتهمون مسؤولى وزارة الخارجية " المستعربين " بالترويج لسياسات " مناهضة لإسرائيل " كى ينالوا رضا القادة العرب الديكتاتوريين فى البلدان الغنية بالنفط^(٢٢)، وتركز ثلاث فقط من جماعات الضغط ومراكز البحوث المرتبطة بالمحافظين الجدد على الشرق الأوسط، هى المعهد اليهودى لشؤون الأمن القومى (JINSA)، ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى (WINEP)، ومنتدى الشرق الأوسط (MEF). وهذه المجموعات الثلاث هى كلها مؤسسات موالية للصهيونية تتفق وقتاً وموارد فى تحليل استراتيجية الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط وتمارس الضغط من أجل تبنى مواقف صهيونية. وإضافة إلى ذلك، كان المحافظون الجدد يشغلون مناصب فى مجالس إدارة مراكز بحوث أخرى من قبيل معهد إنتربرايز الأمريكى (AEI) المحافظ الموالى للصهيونية، الذى لهم ارتباط وثيق به، فضلاً عن معهد هدسون اليميني. وقد أنشأ أحد المحافظين الجدد والزميل الأعلى لمعهد هدسون، ميراف وورمسر المولود فى إسرائيل، معهد بحوث وسائط إعلام الشرق الأوسط (MEMRI) فى عام ١٩٩٨، وذلك المعهد يسعى بصفة رئيسية إلى الحصول على مقالات من وسائط الإعلام الإخبارية من مصادر فى الشرق الأوسط تصور المنطقة وسياساتها تصويراً سلبياً ويترجمها لأغراض استهلاك وسائط الإعلام المحلية. (وقد يكون معادل هذا المعهد فى الشرق الأوسط من ترجم انتقائياً النشرات التى تبثها محطة فوكس الإخبارية أو تبجحات الوعاظ التلفزيونيين على شبكة البث المسيحية كعدسة رئيسية تُفهم من خلالها الولايات المتحدة.) وكان المؤسس الآخر هو عقيد سابق فى جهاز المخابرات العسكرية الإسرائيلى^(٢٣)، وقبل إنشاء صحيفة "Weekly Standard" فى عام ١٩٩٧ (الكائنة فى نفس المبنى الذى يوجد فيه مكتب معهد إنتربرايز الأمريكى)، كانت الصحيفة الرئيسية للمحافظين الجدد هى "Commentary"، التى ظل بودهوريتز يتولى رئاسة تحريرها لمدة ٢٥ عاماً. وكان من ينشر الصحيفة هو اللجنة اليهودية الأمريكية، التى تتمثل رسالتها العلنة فى " حماية سلامة وأمن اليهود فى الولايات المتحدة، وفى إسرائيل، وفى مختلف أنحاء العالم"^(٢٤).

وإذا تحدثنا بشكل محدد وملموس، فإن مواقف المحافظين الجدد بشأن إسرائيل تتماشى مع السياسة الصهيونية اليمينية أو السياسة على طريقة الليكود، المقرونة بمقت لأى مفاوضات تتم عن التنازل والضعف. ولذا يستتبع ذلك أن المحافظين الجدد كانوا يعارضون بشدة اتفاقات أوسلو، التى استندت إلى مبدأ الاعتراف المتبادل من خلال عملية "الأرض مقابل السلام". وعندما وقّع ياسر عرفات الاتفاق على مرج البيت الأبيض فى عام ١٩٩٣، أخبره الرئيس كلينتون أن بإمكانه أن يعلن "دولة" فى الأراضى المحتلة وأن يصبح رئيسها. وطُلب إلى عرفات، فى مقابل اعتراف الولايات المتحدة وإسرائيل بهذه "الدولة"، أن يتخلى عن المطالبات الفلسطينية الطويلة الأمد - والعدالة تاريخياً - بشأن ثلاث قضايا رئيسية هى: وضع القدس، والللاجئون الفلسطينيون وحق العودة، والسيادة على أرضهم. وكان المحافظون الجدد يعتبرون هذا غلطة. وحتى على الرغم من أن إسرائيل لم تكن لديها نية التمسك بأى من تعهداتها وأن الولايات المتحدة لم تكن لديها أى نية لإجبار إسرائيل على الامتثال، كان المحافظون الجدد يعارضون بصخب اتفاقات أوسلو، ويعتبرونها تهديداً لإسرائيل، وتهديداً لأمريكا بالتبعية. واتساقاً مع معارضتهم للاتفاقات التى أبرمها ريجان مع الاتحاد السوفييتى، حاجج المحافظون الجدد بأن اتفاقات أوسلو ستؤدى إلى تفكك القوة الإسرائيلية. وذكر فرانك جافنى ومركز السياسة الأمنية (CSB) أن صيغة "الأرض مقابل السلام" لا تعدو أن تكون سلسلة من "التراجعات" من قبل إسرائيل، أى من التنازلات الأحادية الجانب والمستمرة من جانب إسرائيل عن الأراضى الحيوية لها من الناحية الاستراتيجية لصالح العرب "الملتزمين بتدميرها" (التشديد موجود فى الأصل)^(٢٥).

وفى عام ١٩٩٦، نصح المحافظون الجدد بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلى، الذى يواصلون روابطهم الوثيقة معه، بأن ما تحتاج إليه إسرائيل لتأمين نفسها هو زعزعة استقرار الحكومات العربية والإطاحة بها. ونشروا وثيقة بعنوان "مخرج نظيف: استراتيجية جديدة لتأمين العالم"، تقول إن إسرائيل ينبغى أن تهاجم الأهداف العسكرية السورية فى لبنان وحتى فى سوريا إذا اقتضى

الأمر ذلك^(٢٦). ووقتئذ، كان الرأي التقليدي هو أن العراق يشكل تهديدا رئيسيا لإسرائيل، وحث المحافظون الجدد نيتنياهو على دعم تحدى المملكة الأردنية الهاشمية لحدود العراق.

وكانت هذه الحجة مماثلة لموقف اتخذه حزب الليكود اليميني فى إسرائيل فى ثمانينيات القرن الماضى^(٢٧)، ومضت الحجة قائلة إن إسرائيل ينبغى أن تعمل على تجزئة الدول العربية المجاورة لها، أو على تفكيكها أو على إضعافها بشكل آخر، كسبيل لضمان أمانها. وكان المنطق هو أنه بالنظر إلى أن معظم التأييد للقضية الفلسطينية يأتى من الدول العربية، فإن إضعاف تلك الدول من شأنه أن يساعد على تدمير الحركة الفلسطينية. وكما صورَّ نعوم تشومسكى الأمر، " من الطبيعى فحسب توقع أن تسعى إسرائيل إلى زعزعة استقرار الدول المجاورة، أساساً للأسباب التى دفعت جنوب أفريقيا إلى اتباع مسار مماثل فى المنطقة. وفى حقيقة الأمر، بالنظر إلى استمرار التوترات العسكرية، قد يُنظر إلى ذلك على أنه ضرورة أمنية تقريباً"^(٢٨)، وعندما قامت إسرائيل بغزو لبنان فى عام ١٩٨٢، فإنها كانت تتبع تلك الرؤية. بيد أنها ستدرك على مر السنين أن هذه الاستراتيجية الأحادية الجانب وذات الوجهة الحربية لن تنجح.

ومع ذلك، استمر هذا التفكير على كلا جانبي المحيط الأطلنطى وكان، كما يقول ستيفن سنيجوسكى، هو الأساس الذى استند إليه غزو العراق فى عام ٢٠٠٣ وخطة بوش لزعزعة استقرار الشرق الأوسط من أجل إعادة بنائه على أساس رؤية المحافظين الجدد. فهو يقول إن

المحافظين الجدد دعوا، على التقيض من هدف الاستقرار التقليدى [الخاص بالولايات المتحدة] [كسبيل لتأمين الحصول على النفط]، إلى زعزعة استقرار الأنظمة القائمة. وبطبيعة الأمر، صاغ المحافظون الجدد سياستهم من حيث " إعادة استقرار المنطقة فى نهاية المطاف على أساس ديمقراطى. ... ورأت الاستراتيجية المماثلة لاستراتيجية حزب الليكود فوائد زعزعة الاستقرار الإقليمى فى حد ذاتها، لأنها ستهدى بينة تتسم بوجود دول أو دويلات ضعيفة وغير

موحدة منغمسة في صراعات داخلية وخارجية بحيث يتسنى بسهولة لإسرائيل أن تسيطر عليها ... [و] ومن شأن الفلسطينيين، بدون وجود دعم خارجي لهم، أن يضطروا إلى القبول بأي حل سلمى تعرضه إسرائيل^(٢٩).

هذه هي العلاقة وترابط المصالح بين اليمين الليكودي في إسرائيل والمحافظين الجدد في الولايات المتحدة.

وكان هناك سبيل آخر للتعاون يتمثل في استحداث فكرة " التهديد الإرهابى ". فقد حضر ريتشارد باييس وبودهوريتز وواتينبيرج، بل وحتى السيناتور هنرى "Scoop" جاكسون معبود المحافظين الجدد، مؤتمراً هاماً بشأن الإرهاب الدولى عُقد فى إسرائيل عام ١٩٧٩، وإضافة إلى هذه الشخصيات، حضر المؤتمر عدة ساسة إسرائيليين من أمثال مناحم بيجين زعيم حزب الليكود، فضلاً عن جورج بوش الأب ومسؤولين رفيعى المستوى من بلدان أوروبية^(٣٠)، وقد قام بتنظيم المؤتمر، الذى عُقد فى القدس، معهد جوناثان، الذى كان يرأسه وقتئذ بنيامين نيتنياهو. وقد أسس نيتنياهو المعهد فى عام ١٩٧٧ وأطلق عليه اسم شقيقه الأصغر جوناثان، الذى " سقط ضحية المعركة ضد الإرهاب " حسب ما قاله نيتنياهو^(٣١)، وسعى بنزيون والد نيتنياهو، فى كلمته الافتتاحية فى المؤتمر، إلى تصوير أعداء إسرائيل - الفلسطينيين الذين لجؤوا إلى الكفاح المسلح فى سبيل تقرير مصيرهم - فى صورة " إرهابيين " وإلى حشد بقية العالم حول الكفاح ضد " الإرهاب ". وواصل بنزيون كلامه قائلاً إن الإرهابى " يتحدث عن قضايا إنسانية ووطنية، ويدعى أنه يكافح فى سبيل الحرية ضد القمع، ويواصل التحدث عن الحقوق المشروعة^(٣٢) ". وقال، رداً على ذلك، إن هذا الإرهابى ليست لديه فى حقيقة الأمر " أية كوابح أخلاقية " و " لا يحترم أى قاعدة من قواعد القانون ". وهو ينتمى، بدلا من ذلك، إلى نفس المعسكر الذى ينتمى إليه النازيون؛ ويمثل " فى موقفه القائم على الإبادة تجاه المجتمعات التى يهاجمها، سواء كانت أيرلندا أو لبنان أو إسرائيل، نبتاً نابعا من الفلسفة النازية^(٣٣) ". ولذا دُعى المؤتمر

إلى " أن يكون بداية عملية جديدة، عملية حشد للنظم الديمقراطية في العالم لمكافحة الإرهاب والأخطار التي يمثلها" (٣٤).

وقال أحد الحاضرين إن منظمة التحرير الفلسطينية عملت كوسيط بين موسكو وآية الله خميني في إيران في مخطط الإطاحة بالشاه الذي كانت الولايات المتحدة تسانده (٣٥)، وفي هذه المرحلة كان التشديد على منظمة التحرير الفلسطينية والربط بين العرب والإرهاب. ولم يتحدث سوى واحد فقط من الحاضرين عن " الإرهاب الإسلامي" (٣٦)، وكان الإسلام، بوجه عام، هامشياً بالنسبة لهذا المؤتمر.

وقد تغير هذا في المؤتمر الدولي الثاني بشأن الإرهاب، الذي عُقد عام ١٩٨٤، في واشنطن العاصمة. فقد ذكر نيتينيامو أثناء كلمته الافتتاحية أن " الإرهاب الحديث يضرب بجذوره في حركتين اكتسبتا بروزاً دولياً في النصف الثاني من القرن العشرين، هما الشمولية الشيوعية والراديكالية الإسلامية (والعربية)" (٣٧)، وفي تلك المرحلة كانت إيران قد أصبحت شوكة في جانب إسرائيل بتأييدها لحزب الله في لبنان، وكانت الراديكالية العربية قد حوصرت بينما احتل التأسلم بؤرة المسرح. وكان يُنظر إلى الجهات الفاعلة من الدول - وبخاصة الاتحاد السوفييتي وإيران - على أنها تمنح الحياة للإرهاب الدولي. ولم تُسقط منظمة التحرير الفلسطينية من الحساب؛ بل صوّرت " دولتها الصغيرة الإرهابية في لبنان" في صورة " مركز تدريب وجماعة انطلاق لما أصبح تنظيمًا إرهابيًا دولياً من نوع ما" (٣٨)، وكان من بين الحاضرين في المؤتمر محافظون جدد من قبيل موينهان وكيركباتريك وكراوتهامر، فضلاً عن زعماء إسرائيليين من أمثال إسحق رابين وساسة أمريكيين من أمثال جورج شولتز. وكانت هناك إضافة جديدة لهذا المؤتمر تمثلت في عقد جلسة بشأن " الإرهاب والعالم الإسلامي"، ضمت المستشرقين برنارد لويس وإيلي كيدوري وبانيوتيديس فاتيكوتيس.

وقال لويس في المؤتمر إن مصطلح " الإرهاب الإسلامي" مناسب لأن " الإسلام دين سياسي وإن مُحمداً، على العكس من الزعماء الدينيين الآخرين، " أسس دولة

وحكمها - (٣٩)، وبعبارة أخرى، على الرغم من أن الإرهاب الذي مارسه مسيحيون أو يهود لا يشار إليه عادةً على أنه "إرهاب مسيحي" أو "إرهاب يهودي"، فإن ربط الإسلام بعنف المسلمين كان يُعتبر أمراً ملائماً. وأوضح لويس أنه "من الحتمي أن العالم الإسلامي عندما يواجه مشكلة الإرهاب فإن تلك المشكلة تكتسب، أيضاً، جانبا دينيا، وإسلاميا بمعنى ما" (٤٠)، وبدأ إيلي كيدورى خطابه بقوله إن هناك "انطبعا شائعا - وله ما يبرره - بأن جانبا كبيرا من الأنشطة الإرهابية الموجودة الآن ينبع، وغالبا ما يحدث، في عالم الإسلام، وبخاصة في جزئه العربي" (٤١)، ثم اختار أمثلة تاريخية من ممالك إسلامية شتى، بدءا باغتيال علي، وصولا إلى الحشاشين في القرن العاشر، ثم إلى إيران في عهد خوميني، الذي يعتبر، كما وصفه، "مثالا لفكرة "دولة إرهابية" (٤٢)، وذلك ليجدل معا خيوط حكاية عن "الإرهاب الإسلامي" عبر التاريخ. وانتهى بدق ناقوس الخطر من أن "الإرهاب في الإسلام الحديث ليس من المرجح أن يثبُت أنه جهْدُ فاشل" (٤٣).

ولئن كان المؤتمر الدولي بشأن الإرهاب عام ١٩٨٤ قد عُقد في واشنطن العاصمة، مما يشير إلى أن الولايات المتحدة ستقود العالم في حرب على الإرهابيين، ينبغى ألا تغيب عن البال جذوره في إسرائيل. فقد كانت إسرائيل تمر بسلسلة من التغييرات في ثمانينيات القرن الماضي. وفي منتصف سبعينيات ذلك القرن، بدأت أحزاب اليمين الدينى (الحريديم) تلعب دورا أكبر في السياسة الداخلية. وكانت تلك الأحزاب مسؤولة عن رفع مستوى الطنطنة المقيتة ضد غير اليهود. وقال أحد الحاخامات إن "العرب سرطان، سرطان، سرطان في وسطنا. ... ولا يوجد سوى حل واحد، ولا حل غيره، ولا يوجد حل جزئى، وذلك الحل هو: أن يخرج العرب! فليخرجوا! ... دعونى أصبح وزيرا للدفاع لمدة شهرين ولن يكون هناك صرصار واحد حولنا هنا" (٤٤)، وكما يلاحظ فريد هاليداي، كان هذا هو السياق الذى أصبحت فيه الطنطنة المناهضة للعرب والمناهضة للمسلمين متألفة إلى حد أكبر بكثير، لا سيما فى أوساط المستوطنين وكذلك فى أوساط الأحزاب القومية والدينية. ومع ذلك لم تمنع هذه المشاعر حزب الليكود من استخدام المنظمة السلف لحماس، وهى المجمع، لخدمة

أغراضها. وعندما اعترفت الدولة الإسرائيلية بالمجمع وأصدرت لها ترخيصاً رسمياً في عام ١٩٧٨، كان المنطق بسيطاً، هو أن عداة الإسلاميين ليسار العلماني يجعلهم مفيدين. وقال البعض إن إسرائيل كانت تمويل هذه القوى^(٤٥).

ولكن مع مضي الثمانينيات قُدماً، أدت الثورة الإيرانية وتأييدها لحركة الشيعة في لبنان، المقرون بنشوء حماس، إلى حدوث تحول في الاستراتيجية. فكما يقول هاليداي، "بدا بحلول أواخر ثمانينيات القرن الماضي وأوائل تسعينياته، لهذا السبب، وكان إسرائيل محصورة في معركة شاملة مع العالم الإسلامي"^(٤٦)، ومن هنا بدأت تتجذّر أوجه الربط بين التأسلم والفاشية، وهو ما كان نتاج التفاعل بين المستشرقين الغربيين ومفكرى الليكود السياسيين في إسرائيل. وقد عملت هذه القوى على إقناع الساسة بأن "الإرهاب الإسلامي" هو التهديد الكبير المقبل. وأبدى دانييل بايبس، في مقالة له كتبها نيابة عن منتدى الشرق الأوسط (MEF) في تسعينيات القرن الماضي، معارضته لاتفاقات أوسلو بتشكيكه في نوايا القادة العرب وتحذيره من "خطر الإسلام المناضل ضد أمريكا والغرب"^(٤٧)، ولكن على الرغم من جهود المحافظين الجدد وجماعات الضغط الإسرائيلية، فإن هذا الموقف تجاه "الإرهاب الإسلامي" لم يؤثر تأثيراً كبيراً على خطاب أو سياسة إدارتي بوش وكلينتون الأوليين، على النحو الذي وردت مناقشته في الفصل الرابع. فقد كانت تسعينيات القرن الماضي هي حقبة الإمبريالية الليبرالية، وكان على المحافظين الجدد أن ينتظروا دورهم.

ولكن قبل أن نتطرق إلى كلينتون والإمبريالية الإنسانية تجدر الإشارة إلى أن العديد من مراكز البحوث وجماعات الضغط المستشهد بها آنفاً لا تمثل مراكز للمحافظين الجدد حصرياً. فمعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى (WINEP)، مثلاً، لديه "مزيج من آراء المحافظين الجدد وآراء كلينتون"، وفقاً لما تقوله ماريا ريان^(٤٨)، فذلك المعهد أسسه مارتين إندايك، الذي عمل سابقاً كمدير بحوث في لجنة الشؤون العامة الأمريكية المتعلقة بإسرائيل (AIPAC) وهي جماعة ضغط موالية لإسرائيل. وكان جيمس وولسي، وبييرل، وولفويتز في مجلس إدارة المعهد، وكان مورافتشيك وبايبس

باحثين ملتحقين بالمعهد. ومع ذلك إبان تسعينيات القرن الماضي كان المعهد يؤيد إلى حد كبير سياسات كلينتون وانضم كثيرون من أبرز قياداته، ومن بينهم إندايك، إلى إدارة كلينتون. ودعم الصهيونية دون قيد أو شرط هو مطلب للحزبين في مؤسسة السياسة الأمريكية. كذلك، كان مجلس مستشاري المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي (JINSA) المكون من خمسة وخمسين مستشاراً لا يضم في عام ٢٠٠٧ سوى أربعة من المحافظين الجدد. وكما سنرى في القسم التالي، يوجد تمثيل للمحافظين الجدد في مراكز بحوث واقعية/ليبرالية وإمبريالية شتى. وإيجازاً، يشكل المحافظون الجدد جزءاً لا يتجزأ من مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية الموالية لإسرائيل والموالية للإمبريالية الأمريكية. أما الاختلافات فهي تنشأ فيما يتعلق بالأساليب والاستراتيجية والوطنية.

الإمبريالية الإنسانية

لقد استخدمت الوطننة الليبرالية طويلاً في صالح أهداف إمبريالية. ويبين ريتشارد سيمور، في كتابه "الدفاع الليبرالي عن القتل"، هذا التاريخ الخسيس قائلاً إن "تقاليد الليبرالية الإمبريالية قديمة قدم الليبرالية نفسها ومحيرة مثلها تماماً. فعلى السطح، يتعين أن تكون عقيدة يبدو أنها تشدد على المساواة بين البشر وعلى العالمية وألا يكون هناك ما يربطها بنظام عنف قائم على السيطرة والاستغلال. ومع ذلك، بالنسبة لليبراليين كثيرين، كانت فضائل الإمبراطورية وقتئذٍ مماثلة إلى حد كبير لتلك الموجودة الآن بالنسبة لـ التدخليين الليبراليين: فهي تعد بالتعليم، والعلاج الثقافي، والتنمية الاقتصادية، وسيادة القانون، والحرية، بل وأحياناً قضية المرأة"^(٤٩)، (التشديد مضاف).

وعلى نفس المنوال، يقول جان بريكمونت في كتابه "الإمبريالية الإنسانية: استخدام حقوق الإنسان لبيع الحروب" إن "إيديولوجيا عصرنا، على الأقل فيما يتعلق

بإضفاء المشروعية على الحرب، لم تعد المسيحية، ولا 'عبء الرجل الأبيض' الذى تحدث عنه كيبليج أو 'مهمة الحضرة' الخاصة بالجمهورية الفرنسية، بل هى خطاب معين عن حقوق الإنسان والديمقراطية، ممزوج بتصوير معين للحرب العالمية الثانية. وهذا الخطاب يبرر التدخلات الغربية فى العالم الثالث باسم الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان أو ضد 'الطغاة الجدد الأشبه بهتلر'^(٥٠)، وبينما قد يكون بريكمونت متسرعا إلى حد كبير فى استبعاد استخدامات منطلق "عبء الرجل الأبيض"، فإنه، بالنظر إلى انبعاث الاستشراق فى حقبة ما بعد ١١ سبتمبر (على النحو الذى نوقش فى الفصل الثالث)، على حق فى إشارته إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان كأساسين منطقيين رئيسيين للحرب. إلا أن هذه الحجج الليبرالية ليست فحسب أدوات الإمبرياليين الليبراليين، فهى تشكل أيضا جزءا من ترسانة المحافظين الجدد كذلك. فبعد كل شيء، استخدمت إدارة بوش حقوق المرأة كمبرر للحرب على أفغانستان واعتبرت "بناء الديمقراطية" هدفا فى العراق. والاختلاف بين جناحى المحافظين الجدد والإمبرياليين الليبراليين فى مؤسسة السياسة الأمريكية يكمن فى لجوء الجناح الأخير إلى تعددية الأطراف وإقامة ائتلافات متى أمكن ذلك (ولكن ليس دائما)، فضلا عن الرغبة فى استخدام الدبلوماسية. وكما يقول ستيفين ولت:

إن الاختلاف الفكرى الهام الوحيد بين المحافظين الجدد والتدخلين الليبراليين هو أن المحافظين الجدد يحتقرون المؤسسات الدولية (التي يعتبرونها بمثابة معوقات لتفوذ الولايات المتحدة)، وأن الأخيرين يعتبرون تلك المؤسسات وسيلة مفيدة لإضفاء المشروعية على السيطرة الأمريكية. وتمجد كلتا المجموعتين فضائل الديمقراطية، وتعتقد كلتا المجموعتين أن قوة الولايات المتحدة، لا سيما قوتها العسكرية - يمكن أن تكون أداة بالغة الفعالية للحنكة السياسية. وكلتا المجموعتين تشعر بقلق بالغ لاحتمال أن تسقط أسلحة الدمار الشامل فى أيدي أحد غير الولايات المتحدة وأقرب حلفائها إليها، وتؤمن كلتا المجموعتين بحق أمريكا فى معالجة الكثير من المشاكل فى مختلف أنحاء العالم، وبمسؤوليتها عن ذلك. بيد أن كلتا المجموعتين تبالغ دوما فى تقدير مدى سهولة تحقيق ذلك، ولذا فإن كلاً منهما لديها نزوع إلى توريطنا فى

صراعات لا تنطوي على مصالحنا الحيوية وتنتهي بأن تكون تكلفتها أكثر كثيراً مما كان متوقعا في البداية^(٥١).

ويضيف قائلاً على سبيل الفكاهة " إن التدخلين الليبراليين هم فحسب محافظون جدد أرحم وأرق، والمحافظون الجدد هم فحسب تدخليون ليبراليون يتعاطون منشطات"^(٥٢)، بيد أن كلتا الاستراتيجيتين استخدمهما الجمهوريون واستخدمهما الديمقراطيون. فقد دعا جورج دابليو بوش إلى سيطرة الولايات المتحدة على العالم من خلال استخدام الائتلافات وهيئات من قبيل الأمم المتحدة والتماس مشورة من نواب المحافظين الجدد، كما شاهدنا في الفصل الرابع. ولكن كان على إدارة كلينتون أن تعيد تشكيل الصورة العالمية للولايات المتحدة من خلال استخدام لغة " التدخل الإنساني".

وحاجج أنتوني ليك، مستشار كلينتون للأمن القومي، بأنه إبان حقبة " الحرب الباردة نجحنا في احتواء تهديد عالمي للنظم الديمقراطية القائمة على السوق". والآن، بعد انهيار التهديد السوفييتي، أصبح من الممكن " توطيد انتصار الديمقراطية والأسواق المفتوحة"^(٥٣)، وبناء على ذلك، فإن رؤية كلينتون كانت تتعلق بتعزيز الديمقراطية من خلال إصلاحات الليبراليين الجدد. وكان من اللازم جعل العالم آمناً لرأسمالية الليبراليين الجدد، وأخذ كلينتون على عاتقه مهمة اختراق مناطق العالم التي كانت تحت السيطرة السوفييتية سابقاً. وكما يصور جان - مارك كويكود الأمر، " جعل كلينتون النجاح الاقتصادي الأمريكي والتجارة الحرة هما الجانب المحدد لرئاسته"^(٥٤)، وحيثما كان يلزم التدخل العسكري، لجأ كلينتون إلى مؤسسات متعددة الأطراف من قبيل الأمم المتحدة وحلف شمال الأطلسي (الناتو). وكانت الأصوات الرئيسية في فريق سياسته الخارجية هي أصوات ليك، ومادلين أولبرايت، ووارين كريستوفر، وصديقه الحميم ومستشاره ستروب تالبوت (الذي يعمل في معهد بروكينجز الذي يمثل جناح الوسط). وكان هذا الفريق يدعو إلى استخدام القوة العسكرية لتحقيق أهداف إنسانية أكثر مما كان يحدث من قبل ويشدد على أولويات

الديمقراطية وحقوق الإنسان. وكان الفريق يعارض أيضاً أسلوب الانفراد بالتصرف " ويدعو إلى اتباع الولايات المتحدة، قدر الإمكان، استراتيجيات متعددة الأطراف (٥٥)، وكان رأى كلينتون " الذى يمكن أن يوصف بأنه رأى ويلسون جديد"، والذى كان يتعارض مع واقعية بوش الأب القائمة على توازن القوة، يستند إلى فكرة أن سياسة الولايات المتحدة دخلت، كما يصور نعوم تشومسكى الأمر، "مرحلة نبيلة" ذات " ألق مقدس" (٥٦).

وأهم مركز بحوث ارتبط بمعسكر تعددية الأطراف من معسكرى مؤسسة السياسة الخارجية هو مجلس العلاقات الخارجية (CFR)، الذى ينشر مجلة "Foreign Affairs". وكان مجلس إدارته يضم ريتشارد هاس (الذى يرأس مجلس العلاقات الخارجية منذ عام ٢٠٠٢، وزبيجنيو بريزينسكى (مستشار الأمن القومى السابق لجيمى كارتر)، وجوزيف ناى (صاحب نظرية " القوة الناعمة")، ومادلين أولبرايت، وكولين باول وريتشارد هولبروك، وستروب تالبوت، وفؤاد عجمى (الذى كان أحد أفراد دائرة بوش الداخلية التى شكلت إطار الاستجابة لأحداث ١١ سبتمبر) (٥٧)، وآخرين من قبيل إليوت أبرامز وهو من المحافظين الجدد وزميل أعلى بالمعهد. وبينما يتجه مجلس العلاقات الخارجية نحو الجانب الواقعى، فإن آراء المحافظين الجدد ممثلة داخله. كذلك، يضم مركز بحوث آخر نو نفوذ، هو مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS)، شخصيات واقعية من أمثال سام نان، وديفيد أبشاير، وريتشارد أرميتاج، وهنرى كيسنجر، وبرينت سكاوكروفت، وجوزيف ناى فضلاً عن محافظين جدد من أمثال زلمى خليل زاد.

ولذا لا ينبغى أن يكون مفاجئاً أن هؤلاء الأفراد يتحدثون مع بعضهم البعض ويسعون إلى النفوذ داخل الساحة السياسية الأوسع نطاقاً. وعندما يختلفون فإنهم يختلفون عادة حول الاستراتيجية أو الطنطنة، لا حول الهدف العام المتمثل فى الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال، فى خمسينيات القرن الماضى، عندما كان المستشرقون يقولون إن الإسلام والشيوعية يوجد تعارض بينهما (على النحو الذى

وردت مناقشته في الفصل الرابع)، اتخذ مجلس العلاقات الخارجية المشكل حديثاً (والذي تأسس في عام ١٩٥٤) موقفاً ضد هذه النظرية. وكتب الأخصائي في وضع الاستراتيجية المتعلقة بالشرق الأوسط وقتئذ يقول إن "الإسلام لا يمكن الاعتماد عليه ليكون حاجزاً من هذا القبيل بالنسبة لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. ولم تثبت نظرية أن الشيوعية والنفوذ السوفياتي لا يمكن أبداً أن يحققا توغلات في العالم الإسلامي لأنهما ماديان وملحدان . فالدين له مكانة هامة في مجتمع الشرق الأوسط. وهو ينعكس على المواقف الشعبية والمواقف الرسمية على حد سواء. ولكنه لا ينم عن حصانة مطلقة في مواجهة فيروس سياسي من قبيل الفاشية أو الشيوعية"^(٥٨)، وإبصاراً، كان مجلس العلاقات الخارجية يعرض وجهة نظر واقعية بشأن الكيفية التي يمكن بها للولايات المتحدة أن تحافظ على قوتها في الشرق الأوسط. وهذا يمثل اختلافاً في الاستراتيجية، لا في الأهداف والنتائج.

وكانت المهمة "الإنسانية" الأولى لتسعينيات القرن الماضي هي مواصلة كلينتون لعملية جورج دابليو بوش المسماة "إعادة الأمل" في الصومال في عام ١٩٩٢، فقد أرسلت قوات من الأمم المتحدة، تحت قيادة الولايات المتحدة، للتصدي للأزمة الغذائية وإطعام الجوع، إلا أن تلك القوات وصلت بعد أن كان أولئك الأكثر تعرضاً للجوع قد لقوا حتفهم بالفعل جوعاً بعدة أشهر. وبينما بررت الولايات المتحدة والأمم المتحدة الغزو على أسس إنسانية، لعبت مصالح الولايات المتحدة المتمثلة في موقع الصومال الجيوستراتيجي ومصالحها في موارد النفط دوراً أهم في القرار الأمريكي الخاص بالتدخل. وعندما قُتل ثمانية عشر جندياً أمريكياً في حادث إسقاط طائرة بلاك هوك الذي أصبح الآن حادثاً شهيراً، غادرت قوات الولايات المتحدة تاركة دول شرق أفريقيا أسوأ حالاً مما كانت عند وصول تلك القوات^(٥٩)، وقد أنبأ هذا التدخل بما سيأتي. ورغم هذا، قدم الليبراليون غطاءً "لإنسانية" كلينتون. فقد هلل يساريون سابقون من أمثال كريستوفر هيتشينز وبول بيرمان ومايكل إجناتيف لِهذه الإمبريالية الجديدة، مثلما فعل أقطاب اليسار الجديد من قبيل دانييل كوهن - بينديت.

وفى العراق فرضت الولايات المتحدة (عن طريق الأمم المتحدة) نظام عقوبات شديد القسوة أبقى اقتصاد العراق أقرب إلى حالة ما قبل عصر الصناعة التي خلفتها عمليات قصف القوات المتحالفة فى عام ١٩٩١ وقد أعلنت إدارة كلينتون مرارا أن العقوبات يُقصد بها استهداف نظام صدام حسين لا الشعب العراقى. إلا أن الواقع هو أن العراقيين العاديين هم الذين عانوا أشد المعاناة. ولقى أكثر من مليون عراقى مصرعهم. وعندما سألت ليزلى ستول مادلين أولبرايت فى برنامج ٦٠ "دقيقة" الذى بثته شبكة CBS فى عام ١٩٩٦ عن الأطفال العراقيين الذين قُتلوا ويبلغ عددهم نحو مليون طفل، أجابت قائلة "إننا نعتقد أن هذا الثمن كان هناك ما يستحقه"^(٦٠)، ومن ثم، فإن الإنسانيين كانوا راضين تماماً عن تنفيذ مآرب سياستهم الخارجية على جثث الأطفال القتلى.

وبطبيعة الأمر، لم تتدخل الولايات المتحدة فى كل أزمة إنسانية، وأشهر حالة لذلك هى حالة الإبادة الجماعية فى رواندا. ولم تتبن إدارة كلينتون تعددية الأطراف تبنياً حقيقياً. فعلى سبيل المثال، رفضت الولايات المتحدة التوقيع على اتفاق أيدته غالبية بلدان العالم لحظر استخدام الألغام الأرضية المضادة للأفراد. ولم تسع إدارة كلينتون دوما للحصول على موافقة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قبل شن حرب، فالحرب التى شنت بقيادة الناتو على صربيا فى عام ١٩٩٩ جرت بدون الحصول على إذن بذلك من الأمم المتحدة. كذلك، لم يمر كلينتون من خلال قنوات الأمم المتحدة قبل أن يقذف العراق بالقنابل (بمساعدة بريطانية) فى عام ١٩٩٨، وتبين فيليس بينيس بشكل مقنع أن كلينتون حتى عندما استخدم طنطنة "تعددية الأطراف الجازمة"، فإنه استخدم أحادية الأطراف على طراز بوش قبل أحداث ١١ سبتمبر. وتضيف قائلة إنه مما يدعو للسخرية أنه استخدم الأمم المتحدة لتوفير "غطاء متعدد الأطراف" لأهداف الولايات المتحدة، وإن "التدخلات الإنسانية" من جانب كلينتون كانت فى حقيقة الأمر ستارا لـ "النزعة العسكرية الأحادية الجانب"^(٦١).

وعلى الرغم من هذا، ظل المحافظون الجدد يواصلون خلافاتهم الإيديولوجية مع كلينتون، بحيث كانوا يكتبون انتقادات متعددة لسياسته الخارجية. وفي عام ١٩٩٦ نشر بيل كريستول وروبرت كاجان مقالة هامة في مجلة "Foreign Affairs" بعنوان " نحو سياسة خارجية ريجانية جديدة". وحاجج في تلك المقالة، رافضاً واقعية توازن القوة، بأنه " في عالم يتوقف فيه السلام وأمن أمريكا على القوة الأمريكية وإرادة استخدامها، فإن التهديد الرئيسي الذي تواجهه الولايات المتحدة الآن وفي المستقبل هو ضعفها هي. فالهيمنة الأمريكية هي الدفاع الموثوق الوحيد ضد انهيار السلام والنظام الدولي. والهدف الصحيح للسياسة الخارجية وللسياسة الدفاعية الأمريكية هو، لذلك، الحفاظ على تلك الهيمنة أطول مدة ممكنة في المستقبل^(٦٣)، وكانت هذه السياسة " الريجانية الجديدة" تسمى " الهيمنة العالمية الخيرة" لأنها كانت تجزم بأن ما هو خير للولايات المتحدة هو خير عمومًا للعالم أيضاً. ويمكن أن نشير، على انفراد، إلى أن هذا لم يكن بالفكرة الجديدة تماماً، بالنظر إلى مفهوم " التفوق الخير" أو "القرن الأمريكي" في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية الذي وصفه لوك، وهو ما وردت مناقشته في الفصل الرابع. أما ما كان جديداً في أواخر تسعينيات القرن الماضي فهو وجود استعداد لدى المتمسكين بهذه السياسة لاستخدام كلمة " إمبراطورية" بشكل أكثر صراحة^(٦٤)، فقد تلاشى في النهاية الصمت الخطابي الذي اتسمت به حقبة ما بعد الحرب.

وبينما قد يقول المرء إن رؤية كلينتون لم تكن شديدة الاختلاف عن رؤية المحافظين الجدد، فإنها كانت، على الأقل، مغلفة بلغة أكثر تطوراً. وكما تقول ماريا ريان، كان هناك

تلاقٍ كبير بين أهداف المحافظين الجدد وأهداف إدارة كلينتون. ومن المؤكد أن اللغة التي كان بعض المحافظين الجدد يستخدمونها كانت أكثر صراحة. فقد كانوا يعطون أولوية علنا لمصادقية الناتو وكانوا صرحاء بشأن السبب الذي يجعل انتصار الولايات المتحدة والناتو مهماً. أما كلينتون فقد عرض صورة أكثر نعومة، زاعماً أن ما يدفعه هو اعتبارات

إنسانية أيضا - وربما كان هذا صحيحا - ولكن حتى إنسانية كليتون وحدها لم تكن كافية لغرض التدخل^(٦٤).

وقرب نهاية تسعينيات القرن الماضي، أعلنت إدارته أن الولايات المتحدة " دولة لا يمكن الاستغناء عنها " وأن بإمكانها، بسبب قوتها التي لا منازع لها هذه وبسبب قيمها، أن " تكون قامتها أطول وأن ترى أبعد " مقارنةً بغيرها. ولذا فإن سيطرتها على العالم كانت سيطرة حميدة بالضرورة: وهي لا تستند إلى الإكراه بل تستند إلى جاذبية القيم والسلع والثقافة الشعبية الأمريكية^(٦٥)، وهذا هو ما يشير إليه جوزيف ناي بأنه " القوة الناعمة ". (وقد عمل ناي في إدارة كليتون وهو الآن عضو في مجلس إدارة مجلس العلاقات الخارجية). وهذه الرؤية لسيطرة الولايات المتحدة تتشاطرهما جميع قطاعات مؤسسة السياسة الأمريكية، بينما قد تختلف تلك القطاعات حول التفاصيل.

١١ سبتمبر وعقيدة بوش

بدأت إدارة بوش بعد أحداث ١١ سبتمبر مباشرة تقريبا تبحث عن سبب لمهاجمة العراق. وكما يكشف ريتشارد كلارك، الذي كان وقتئذ " من أباطرة مناهضة الإرهاب " في كتابه " ضد جميع الأعداء"، انتحى الرئيس بوش جانباً ببضعة أشخاص وقال لهم: " أعرف أن لديكم الكثير الذي يجب أن تفعلوه ... ولكني أريدكم أن تراجعوا كل شيء، في أقرب وقت يمكنكم. ولتروا ما إذا كان صدأً قد فعل هذا. فلتروا ما إذا كان له ارتباط بذلك بأي حال "^(٦٦)، وكانت هذه المحاولة لاستهداف العراق جزءا من استراتيجية المحافظين الجدد الأوسع نطاقا المتمثلة في زعزعة الشرق الأوسط. وقد كرّست عقيدة بوش، كما أصبحت تُسمى، المبينة في وثيقة استراتيجية الأمن القومي التي صدرت في عام ٢٠٠٢، السياسة الخارجية للمحافظين الجدد.

وكان العنصر الأساسى فى عقيدة بوش هو.أنها أعلنت حق الولايات المتحدة الانفرادى فى شن حرب وقائية، أى حقها فى مهاجمة أى دولة أخرى ذات سيادة لا لأنها تهدد الولايات المتحدة مباشرة بل لأنها يمكن كاحتمال أن تشكل تهديداً. وأعطت تلك العقيدة الرئيس السلطة الاستثنائية لتحديد ما يشكل تهديدا. ومن ثم، فإن أى دولة " قامت بإيواء إرهابيين"، أو استحدثت أسلحة دمار شامل، أو تصرفت على نحو آخر يتعارض مع مصالح الولايات المتحدة، تصبح هدفا للهجوم والغزو. وكان جانب أساسى آخر من جوانب عقيدة بوش هو ضرورة الحيولة دون نشوء أى خصم قد يتحدى هيمنة الولايات المتحدة. وتذكر وثيقة استراتيجية الأمن القومى أن: " قواتنا ستكون قوية بدرجة تكفى لثنى الخصوم المحتملين عن القيام بعملية تعزيز عسكرى بأمل التفوق على قوة الولايات المتحدة، أو حتى مضاهاتها"^(٧٧)، وكان معنى ذلك هو وجود الولايات المتحدة العسكرى فى منطقتى الشرق الأوسط ووسط آسيا، اللتين كانتا تعتبران "موقعين هامين" لما يوجد فيهما من موارد نفطية وموارد من الغاز الطبيعى فضلا عن قربهما من خصوم محتملين من أمثال الصين والهند وروسيا. وكان المقصود بحربى الولايات المتحدة فى أفغانستان والعراق هو تحقيق كلا الهدفين المذكورين آنفا وهما: إخماد التهديدات المحتملة وثنى الخصوم المحتملين. وكان نظام بوش يعقد الأمل على أن يقوم بعد العراق بتنفيذ تغيير فى النظامين القائمين فى إيران وسوريا. ويكون بإمكان الولايات المتحدة بعد إخضاع المنطقة لسيطرتها أن تملى شروطها على الدول الأخرى التى تعتمد على نفط الشرق الأوسط، لا سيما الصين.

وأصبح جرى تنفيذ تقرير وولفويتز عن توجيهات التخطيط الدفاعى الذى جرى تسريبه والذى يرجع إلى أوائل تسعينيات القرن الماضى - وهو تقرير لقى استهجانا بوجه عام من مؤسسة السياسة الأمريكية - على خلفية مأساة ١١ سبتمبر. فقد أدرك المحافظون الجدد، فضلا عن آخرين يتعاطفون مع رؤيتهم، الفرصة التاريخية التى أتاحتها هجمات ١١ سبتمبر. وقد عرضتها بإيجاز كوندوليزا رايس، مستشارة بوش للأمن القومى التى أصبحت بعد ذلك وزيرة للخارجية، عندما قالت: " أعتقد أن هذه

الفترة مضاهية للفترة الممتدة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٤٧ من حيث إن الأحداث ... بدأت تُحدث تحولاً في طبقات أديم السياسة الدولية. ومن المهم أن نغتنم ذلك وأن نهين المصالح والمؤسسات الأمريكية قبل أن تتصلب تلك الطبقات مرة أخرى^(٦٨)، إلا أن اغتنام هذه الفرصة لتحقيق رؤية المحافظين الجدد كان معناه أيضاً تنسيق حملة علاقات عامة مفصلة ترمي إلى الحصول على التأييد العام وإخماد الانتقاد. وكان معناه دخول الحرب على الإرهاب وبدء لغة قويا الإسلام.

ويشير ستيفن شيهي إلى أن الرد الطنان على أحداث ١١ سبتمبر قامت بصياغته مجموعة من الأكاديميين والصحفيين وواضعي السياسة والخبراء الذين دُعوا إلى حضور جلسات بشأن الاستراتيجية في البيت الأبيض. وكما أوضح وولفويتز، " لا تستطيع حكومة الولايات المتحدة، لا سيما وزارة الدفاع، إنتاج أنواع الأفكار والاستراتيجية اللازمة للتعامل مع أزمة بحجم أزمة ١١ سبتمبر"^(٦٩)، وكان من بين من وُجهت لهم الدعوة للمساعدة في توليد الاستجابة العامة المناسبة برنارد لويس الصحفي، وفريد زكريا رئيس تحرير مجلة نيوزويك سابقاً، وفؤاد عجمي الأستاذ بجامعة جونز هوبكنز، فضلاً عن عدة محافظين جدد.

ويشير شيهي إلى النهجين المختلفين اللذين اتبعهما لويس وزكريا. فهو يقول " إذا كان لويس يرى إخفاقات الإسلام في بربرية العقل العربي، فإن زكريا يرى الكراهية للغرب في فشل الثقافة السياسية العربية والتنظيم الاقتصادي العربي"^(٧٠)، وقد دعا زكريا، وهو من تلاميذ صمويل هنتنجتون، إلى قيام الولايات المتحدة بالعمل على تحقيق حرية الأسواق والديمقراطية في الشرق الأوسط معبراً في ذلك عن نزوع أستاذه إلى التحديث. وهو يقول إن العرب قد شهدوا " انقلاباً للعملية التاريخية التي شهدتها العالم الغربي، والذي أدت فيه الليبرالية إلى إفرار الديمقراطية وأصبحت فيه الديمقراطية تغذى الليبرالية. فالمسار العربي أفرز ديكتاتورية، تولد عنها الإرهاب"^(٧١)، ووفقاً لهذا الرأي، يتعين على الولايات المتحدة لهذا السبب أن تحمل "عبء الرجل الأبيض"، وأن تحقق الديمقراطية والليبرالية الجديدة. وهذه هي الإمبريالية

الليبرالية على طريقة كلينتون. أما لويس، من الناحية الأخرى، فقد اتخذ يوما خطأ أكثر تشدداً ومن ثم فهو بهذا المعنى أقرب إلى المحافظين الجدد. ولذا ليس من الغريب اتجاه المحافظين الجدد إلى لويس ليزودهم بالذخيرة الفكرية اللازمة لتبرير سياستهم الخارجية؛ فكما يصور داني كوبر الأمر، فإن المحافظين الجدد "يحتفون بلويس" (٧٢)، وأيضاً، وفقاً لبوب وودوارد، كان لويس "أثيراً لدى تشيني"، واستخدم تشيني مؤهلات لويس الأكاديمية ومصداقيته مراراً لتبرير مواقفه هو السياسية" (٧٣).

ولذا فإن الطنطنة عن "صدام الحضارات" أصبحت سائدة في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر وكانت هي الأساس الإيديولوجي للحربين في أفغانستان والعراق فضلاً عن الهجمات المحلية على المسلمين والعرب. وبدا لفترة أن المحافظين الجدد لم يكن من الممكن وقفهم، ولكنهم أفرطوا في استخدام نفوذهم. ففي خلال مدة الولاية الأولى لبوش أقامت إدارته "إئتلافاً للراغبين" من أجل غزو العراق، رافضة الانتقادات من حلفاء وصفتهم بطريقة انتقاصية بأنهم "أوروبا القديمة". بيد أن الحرب على العراق لم تمض على النحو الذي أراده المحافظون الجدد. وقام الشعب العراقي هيمنة الولايات المتحدة ورفضها، بدلاً من أن يهلل لقدم القوات الأمريكية كمحررة له. وتوقفت خطة أحداث تغيير في النظام الحاكم في كل من إيران وسوريا؛ بل إن أفعال الولايات المتحدة عززت فحسب قوة إيران. ولم تصبح رؤية المحافظين الجدد لشرق أوسط جديد معرضة للخطر فحسب بل إن تلك الأفعال أبعدت عن الولايات المتحدة حلفاءها السابقين في أوروبا وعززت الصين (وكذلك روسيا وفنزويلا). وقد حفز هذا على تغيير مفاجئ في سياسات إدارة بوش، بحيث اتجهت نحو استخدام أساليب متعددة الأطراف بدرجة أكبر. وإضافة إلى ذلك، ابتعدت الإدارة عن القوة "الصلبة" (من قبيل استخدام الإكراه والرشوة) واتجهت نحو كسب "الأقنعة والعقول"، على النحو الذي صورته استراتيجيات مناهضة التمرد التي ناصرها قائدها العسكري في أفغانستان، الجنرال ديفيد بترايوس. وقد بين "دليل مناهضة التمرد" العسكري الصادر عام ٢٠٠٦ الكيفية التي ستستخدم بها القوة الناعمة في ميدان المعركة. وفي تصدير الدليل، أوضح بترايوس، مشيراً إلى انقضاء ٢٠ عاماً على إصدار المؤسسة

العسكرية الأمريكية دليلاً ميدانياً يتناول بالتحديد مناهضة التمرد، هذه العقيدة الجديدة على النحو التالي:

إن حملة مناهضة التمرد هي، على النحو الموصوف في هذا الدليل، مزيج من العمليات الهجومية والدفاعية وعمليات تحقيق الاستقرار التي يجري القيام بها وفقاً لخطوط متعددة من العمليات. وهي تتطلب جنوداً ومشاة بحرية لاستخدام مزيج من المهام القتالية ومن المهارات المرتبطة في الأغلب بوكالات غير عسكرية. ويتوقف التوازن بين تلك المهام والمهارات على الوضع المحلي. وليس من السهل تحقيق هذا التوازن. فهو يتطلب وجود قادة على جميع المستويات لتعديل هذا النهج باستمرار. ويجب أن يكفلوا جاهزية الجنود ومشاة البحرية لأن يُستقبلوا إما بمصافحة اليبين أو بقتلة يدوية. ... ومن المتوقع من الجنود ومشاة البحرية أن يكونوا بناءة بولاً فضلاً عن كونهم محاربين. ويجب أن يكونوا على استعداد للمساعدة على إعادة بناء المؤسسات وقوات الأمن المحلية والمساعدة في إعادة إقامة البنية التحتية والخدمات الأساسية. ويجب أن يكونوا قادرين على تيسير إرساء الحكم المحلي وسيادة القانون. وقائمة هذه المهام طويلة؛ وينطوي القيام بها على تنسيق وتعاون مستفيضين مع كثير من الوكالات الحكومية الدولية وأجهزة الدول المضيفة والوكالات الدولية^(٧٤). [التشديد مضاف].

وإيجازاً، لم يكن كافياً قتل العدو وإلحاق الهزيمة العسكرية به فحسب؛ بل كان من اللازم أن يشارك الجنود في إقامة البنية التحتية، وتوفير الخدمات الأساسية، وأن يكونوا "بناءة بولاً ومحاربين" على حد سواء. ودعمًا لهذا المسعى، جندت وزارة الدفاع الأمريكية في العام التالي أخصائين في الأنثروبولوجيا من خلال برنامج بلغت تكلفته ٤٠ مليوناً من الدولارات أُطلق عليه اسم "نظام المجال الإنساني". وقد أوفدت هؤلاء الأخصائين إلى العراق وأفغانستان لجمع معلومات ثقافية من أجل تحسين عملية تنفيذ الحرب على الإرهاب. وأعلن الأخصائيون عن هدفهم بوضوح: "سيصبح التعاطف سلاحاً"^(٧٥)، وهكذا، كانت الولايات المتحدة تتبع خطى اتباعها نابليون منذ

أمد طويل في محاولة لتجميع معرفة كي تُستخدم في السيطرة إيديولوجياً على الشعوب المستعمرة.

ولكن مع انتهاء مدة الولاية الثانية لبوش، كان معنى فشل الاحتلال في أفغانستان والعراق - فضلاً عن نشوء أزمة اقتصادية ذات أبعاد لم تُشاهد منذ الكساد الكبير - أن الوقت قد حان لتغيير الحرس. وقد جاء أوباما إلى الحكم بواسطة ناخبين كانوا يشعرون بالاشمئزاز من صلافة نظام بوش. ومنحته أيضاً النخبة الحاكمة بركاتها، أملا منها في إكساب الإمبريالية الأمريكية وجهاً ودياً بدرجة أكبر. أما فريق الإمبرياليين الآخر فقد كان مستعداً بخطة لإصلاح الصورة العالمية للإمبراطورية الأمريكية.

أوباما والإمبريالية الليبرالية

في يناير ٢٠٠٧، أعدت مجموعة قيادية معنية بالعلاقات بين الولايات المتحدة والمسلمين ترأسها مادلين أولبرايت، وريتشارد أرميتاج (النائب السابق لوزير الخارجية في عهد جورج دابليو بوش)، وعدة أكاديميين من أمثال والى نصر وجيسكا ستيرن، وأمريكيين مسلمين من أمثال ديزى خان وإمام فيصل عبد الرؤوف (المشتهر بمشروع دار قرطبة)، وثيقة بعنوان "تغيير المسار: اتجاه جديد لعلاقات الولايات المتحدة مع العالم الإسلامي". وقد نالت تلك الوثيقة مديحاً شديداً من شخصيات سياسية من أمثال السيناتور ديك لوجار، وهوارد بيرمان عضو الكونجرس، وليون بانيتا (الذى سرعان ما أصبح مدير وكالة المخابرات المركزية ثم أصبح وزيراً للدفاع)، وكذلك من جنرالات سابقين من أمثال أنتوني زيني^(٧٨)، وقد ذكرت تلك الوثيقة في صفحاتها الاستهلاكية أن عدم الثقة بالولايات المتحدة في البلدان التي يمثل فيها المسلمون أغلبية هو نتاج "سياسات وأفعال، لا نتاج صراع حضارات". ومضت الوثيقة لتقول إن إلحاق الهزيمة "بالتطرف العنيف" يقتضى القوة العسكرية ولكن تلك القوة ليست كافية، وإن الولايات المتحدة من اللازم أن تصوغ "مبادرات دبلوماسية وسياسية

واقتصادية وثقافية". وحث التقرير قيادة الولايات المتحدة على تحسين " الاحترام والتفاهم المتبادل بين الأمريكيين والمسلمين"، والعمل على تحسين " الحكم وتحسين المشاركة المدنية"، والمساعدة على " تحفيز النمو الذي يؤدي إلى وجود فرص عمل" في بلدان المسلمين. وكان هذا بمثابة عودة إلى الإمبريالية الليبرالية على طريقة كلينتون، بتشيدها على الدبلوماسية والأسواق. وجاء في سياق دعوة التقرير إلى اتخاذ إجراءات أنه سيكون من الحيوى بالنسبة للرئيس المقبل أن يتحدث عن تحسين العلاقات مع البلدان التي يمثل فيها المسلمون أغلبية في خطابه الافتتاحي وأن يعيد تأكيد " التزام الولايات المتحدة بحظر جميع أشكال التعذيب".

ومنّ ذا الذي كان أفضل من باراك أوباما لبيع هذا الموقف الخطابى الجديد؟ ففي حقيقة الأمر، فعل أوباما فى خطاب تنصيبه ما اقترحته وثيقة تلك المجموعة على وجه الدقة. وفى إحدى أوائل خطبه، فى القاهرة، رفض أوباما حتى مقولة " صدام الحضارات"، مشددا على التاريخ المشترك للشرق والغرب وتطلعاتهما المشتركة. وبينما كان خطاب " الصدام" يرى أن الغرب والعالم الإسلامى يستبعد كل منهما الآخر وأنهما يمثلان نقيضين قطبيين، أكد أوباما على " المبادئ المشتركة". وتحدث عن " ما تدين به الحضارة للإسلام"، واصفاً الإسلام بأنه " مهد الطريق لنهضة أوروبا وعصر التنوير فيها"، واعترف بمساهمات المسلمين فى تقدم العلم والطب والملاحة والهندسة المعمارية والخط والموسيقى. ولا ريب فى أن ذلك كان يمثل اعترافا ملحوظا من قِبَل رئيس أمريكى، ولكن من الواضح أنه كان اعترافا رأى أوباما أنه حيوى لتعزيز صورة الولايات المتحدة فى " عالم المسلمين" التي كانت قد لحقت بها أضرار شديدة^(٧٧)، بل إن هذا الخطاب كان يمثل تحولاً خطابيا مهماً عن عهد بوش.

إلا أنه كان يتسق مع الخط الذى كان يدعو إليه إمبرياليون ليبراليون. فكما صور جورج ناى الأمر فى مجلة "Foreign Affairs".

إن الكفاح الحالى ضد الإرهاب الإسلامى ليس صدام حضارات بقدر ما هو كفاح إيديولوجى فى إطار الإسلام. وليس بإمكان الولايات المتحدة أن تنتصر إلا إذا انتصر التيار السائد بين

المسلمين. واحتمال الانتصار على أفراد من قبيل أسامة بن لادن بواسطة القوة الناعمة هو احتمال ضئيل إلى حد كبير: فالقوة الصلبة لازمة للتعامل مع هذه الحالات. ولكن يوجد تنوع هائل في الرأي في العالم الإسلامي. ويوجد مسلمون كثيرون لا يوافقون على القيم الأمريكية فضلاً عن السياسات الأمريكية، ولكن هذا ليس معناه أنهم يتفقون مع بن لادن. وليس بوسع الولايات المتحدة وحلفائها هزيمة الإرهاب الإسلامي إذا كان عدد الأفراد الذين يجندهم المتطرفون أكبر من عدد المتطرفين الذين يُقتلون أو يُردعون. وتلزم القوة الناعمة لخفض أعداد المتطرفين وكسب أفئدة وعقول من يمثلون التيار السائد^(٧٨).

ولذا اتسمت حقبة أوباما بتحول نحو الإمبريالية الليبرالية وفوبيا الإسلام الليبرالية. والخصائص الرئيسية لفوبيا الإسلام الليبرالية هي رفض نظرية "صدام الحضارات"، والاعتراف بوجود "مسلمين أخيار" يمكن إقامة علاقات دبلوماسية معهم، واستعداد مصاحب لذلك للعمل مع الإسلاميين المعتدلين. وقد تكون فوبيا الإسلام الليبرالية أكثر نعومة من الناحية الخطابية مقارنة بفوبيا الإسلام لدى المحافظين وكذلك (كما سنرى في الفصل العاشر) لغة "المحاربين دعاة فوبيا الإسلام"، إلا أنها عنصرية وإمبريالية من حيث إنها تسلم بـ "عبء الرجل الأبيض" كشيء بديهي. ولا يترأ على بال أمثال ناي وأولبرايت وهاس أن الأشخاص العاديين في الشرق الأوسط هم الذين يجب أن يتخذوا القرارات المتعلقة بمجتمعاتهم. ولا يندرج الحق في تقرير المصير ضمن إطارهم، ويظل "التفوق الخيري" قائماً بلا نقاش.

وتمثل سياسة أوباما تحولا نحو التقاليد الواقعية الخاصة بالسياسة الجغرافية للدول العظمى. فكما يصورُ هو نفسه الأمر، "الحقيقة هي أن سياستي الخارجية هي فعلياً عودة إلى السياسة الواقعية التقليدية المشتركة بين الحزبين التي اتبعتها جورج بوش الأب، واتبعتها جون ف. كنيدي، واتبعتها بطرائق ما رونالد ريجان"^(٧٩). ومن ثم، بدلاً من الخروج على توافق الآراء الإمبريالي أو على سياسات بوش في مدة ولايته الثانية، فإن أوباما اعتمد توافق الآراء هذا واعتمد تلك السياسات. وقد أرسل، منذ أن تولى منصبه حتى وقت إعداد هذا الكتاب، ثلاثين ألف جندي إضافي إلى أفغانستان،

وقام بتوسيع نطاق الحرب داخل باكستان (عن طريق استراتيجية " أفغانستان - باكستان ")، وحاول أن يُجبر العراق على منح تمديد لاحتلال الولايات المتحدة، (وفشل في تلك المحاولة)، وشن هجمات باستخدام طائرات بدون طيار و " عملاء " في اليمن والصومال، وشارك في حرب حلف شمال الأطلسي على حليف سابق في ليبيا، هو معمر القذافي. وينبغي ألا يكون هذا بمثابة مفاجأة، بالنظر إلى أن موظفيه في بداية عهده كان من بينهم شخصيات من عهد بوش من أمثال وزير الدفاع بوب جيتس والجنرال ديفيد بترابوس، فضلا عن صقور من الحزب الديمقراطي من أمثال هيلاري كلينتون وجوزيف بايدن. وكانت استراتيجية أوباما تتكون من العودة إلى تعددية الأطراف، باستخدام مؤسسات متعددة الأطراف لضم وإخضاع الخصوم الدوليين والإقليميين. وقد قال في وثيقة استراتيجيته للأمن القومي التي أعدها في عام ٢٠١٠ إن الولايات المتحدة ينبغي أن تركز " تدخلها على تعزيز المؤسسات الدولية واستحداث العمل الجماعي الذي يمكن أن يخدم المصالح المشتركة من قبيل مكافحة التطرف العنيف؛ ووقف انتشار الأسلحة النووية وتأمين المواد النووية؛ وتحقيق نمو اقتصادي متوازن ومستدام؛ وإيجاد حلول تعاونية لخطر تغير المناخ، وللصراعات، والأوبئة" (٨٠)، ومع ذلك على الرغم من هذه الاستراتيجية المتعددة الأطراف، لجأت إدارة أوباما إلى اتخاذ إجراءات انفرادية عند الحاجة - منها مثلا اغتيال أسامة بن لادن - وكذلك إلى اتفاقات ثنائية. وكانت رؤية أوباما تتمثل في القيام، من خلال استراتيجية التدخل هذه، بتأمين نظام عالمي يكون تحت إدارة الولايات المتحدة ويعمل في صالحها.

وفي الممارسة العملية، لم يتحقق هذا بسلاسة كبيرة. فتدخل حلف شمال الأطلسي في أفغانستان بدأ يفقد طابعه المتعدد الأطراف، لأن دولا أوروبية شتى بدأت تسحب قواتها استجابة للمعارضة المحلية. ويحلول نهاية العقد الأول من الألفية الجديدة، كان نهج " الأفئدة والعقول " واستراتيجية مناهضة التمرد قد فشلا تقريبا. ولذا كان على أوباما أن يعود إلى مناهضة الإرهاب ويقول " وداعاً لعمليات بناء الدول ومناهضة التمرد " (٨١)، وكان فشل سياسات بوش التي كان أوباما يتبعها هو إيذان بمرحلة جديدة في استراتيجية أوباما الإمبريالية.

ففى عام ٢٠١٢، أعادت وثيقة أوباما الخاصة بالتوجيهات الاستراتيجية الدفاعية، وعنوانها " إدامة قيادة الولايات المتحدة للعالم: أولويات من أجل الدفاع فى القرن الحادى والعشرين"، تحديد تركيز السياسة الخارجية للولايات المتحدة وهيكلها العسكرى^(٨٢)، فقد أوضحت أن الولايات المتحدة ستواصل مكافحة " المتطرفين العنيفين"، حتى على الرغم من أن اغتيال بن لادن قد أضعف القاعدة. فكما يذكر التقرير، " فإن أتباعها ما زالوا نشطين فى باكستان وأفغانستان واليمن والصومال وفى أماكن أخرى؛ وسوف " ترصد" المؤسسة العسكرية الأمريكية هذه الجماعات وتوجه ضربة إلى " أخطر الجماعات والأفراد عند الضرورة" ^(٨٣)، وإيجازاً، كان المقصود هو أن أوباما سيواصل الحرب على الإرهاب ضد عناصر فاعلة من غير الدول عن طريق الرقابة، ولكن أيضاً من خلال الهجمات بواسطة الطائرات بدون طيار واستخدام قوات العمليات الخاصة.

بيد أن وثيقة التوجيهات أعادت تركيز الاهتمام على منطقة آسيا والمحيط الهادى واعتبرت الصين وإيران دولتين فاعلتين من اللازم احتواؤهما. وجاء فى الوثيقة أن الولايات المتحدة ستعمل، من أجل ردع الصين واحتوائها، مع " شبكة حلفائها وشركائها"^(٨٤)، واعتبرت الوثيقة الهند مصدر تعزيز لأهداف الولايات المتحدة فى آسيا، متجاوزة بذلك باكستان التى كانت حليفة لها لأجل طويل. وعلى نفس المنوال، اتجهت الوثيقة أيضاً إلى حلفاء فى الشرق الأوسط، لا سيما دول مجلس التعاون الخليجى، من أجل " منع اكتساب إيران قدرة على صنع أسلحة نووية ومن أجل مناهضة سياساتها المزعزعة للاستقرار"^(٨٥)، وغنى عن البيان أنها تؤكد التزام الإدارة الأمريكية بـ " أمن إسرائيل وإيجاد سلام شامل فى الشرق الأوسط". وأخيراً تتجه الوثيقة إلى حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين وإلى حلف شمال الأطلسى ليقوموا بتحمل نصيب أكبر من عبء الحفاظ على الأمن العالمى، بحيث يتسنى للولايات المتحدة ليس فحسب أن تنقل بعض قواتها من أوروبا بل أيضاً أن تخفّض حجم قواتها العسكرية.

وقد أدركت إدارة أوباما أن التدخلات من قبيل تلك التي قامت بها في العراق وأفغانستان هي طريقة خاطئة للتعبير عن قوة الولايات المتحدة. فكما يقول أوباما في تصديره لوثيقة التوجيهات، إننا سنتذكر "دروس التاريخ ونتجنب تكرار أخطاء الماضي التي حدثت عندما تُركت مؤسستنا العسكرية غير مستعدة للمستقبل. وسوف نكفل، ونحن ننهي حروب الوقت الحاضر ونعيد تشكيل قواتنا المسلحة، أن تكون قواتنا العسكرية خفيفة الحركة ومرنة وجاهزة للمجموعة الكاملة من حالات الطوارئ"^(٨٦)، وتمضى الوثيقة قائلة إن "قوات الولايات المتحدة لن يظل حجمها متوافقاً مع القيام بعمليات مطولة وعلى نطاق كبير لتحقيق الاستقرار"^(٨٧)، وبدلاً من ذلك، يبدو أن الطبقة السياسية استخلصت الدرس المتمثل في أن السبيل لتحقيق أهدافها هو من خلال مهام على شاكلة تدخل حلف شمال الأطلسي في ليبيا، الذي انطوى على استخدام القوة الجوية واعتمد على حلفاء محليين ميدانيين. وإيجازاً، فإن المرحلة الجديدة لموقف أوباما الإمبريالي تنطوى على إعادة إرساء هيمنة الولايات المتحدة في آسيا (منع صعود الصين)، وفي الشرق الأوسط (احتواء إيران) من خلال تحالفات متعددة الأطراف واستخدام الضربات الجوية، والهجمات بواسطة الطائرات بدون طيار، وقوات مكافحة الإرهاب والعمليات الخاصة، فضلاً عن الحرب السيبرانية (الإلكترونية). وعلى الرغم من اتهام اليمين لأوباما بأنه "عميل سرى للمسلمين" يعمل لصالح حكومات أجنبية، فإنه في حقيقة الأمر إمبريالي ليبرالي على رأس دولة تحاول أن تعيد تأكيد سيطرتها في عالم يتزايد فيه تعدد الأقطاب.

* * *

لقد تناولت في هذا الفصل السياسة الخارجية للولايات المتحدة منذ نهاية الحرب الباردة وتتبع تطور "التهديد الإسلامي". وكما رأينا، حتى وإن كانت لغة "الإرهاب الإسلامي" قد أخذت تتطور من خلال تفاعل تعاوني بين المحافظين الجدد (ولويس) ونظرائهم في حزب الليكود في إسرائيل منذ أواخر سبعينيات القرن

الماضى، فإن هذه الطنطنة لم تصبح الوسيلة السائدة لدى الولايات المتحدة لتبرير إمبرياليتها إلا بعد أحداث ١١ سبتمبر. ثم شهد الوجود الضمنى لنظام بوش تسليم العصا إلى الإمبرياليين الليبراليين، الذين أوجدوا تحولا خطابيا وواصلوا الاستراتيجيات المتعددة الأطراف التى كانت متبعة فى مدة ولاية بوش الثانية للتعبير عن هيمنة الولايات المتحدة ولمواصلتها. وفى مقابل ذلك، حلت فوييا الإسلام الليبرالية محل فوييا الإسلام الخاصة بالمحافظين. إلا أن هذا لم يغير واقع حياة الناس فى "عالم المسلمين"، التى أصبحت أسوأ من بعض النواحي فى عهد أوباما. وهذا يصدق، أيضاً، على البيئة المحلية بالنسبة للمسلمين فى الولايات المتحدة، وهو موضوع نتطرق إليه فى الفصل التالى.

الباب الثالث

فويا الإسلام والسياسة الداخلية

الفصل الثامن

شُرْعنة العنصرية:

المسلمون والتعدى على الحريات المدنية

إن الدولة عندما تكون فى حالة حرب تنقلب عادة على من تعتبرهم يمثلون محلياً " العدو الخارجى". وهذا يصدق تحديداً على الولايات المتحدة. فإبان الحرب العالمية الأولى، تعرّض الألمان لغارات على المناطق التى يقيمون فيها. وحظرت عدة ولايات تدريس اللغة الألمانية على أساس أنها تروّج لقيم غير أمريكية. وحتى الكرنب الذى كان يُتناول يوميا أعيد وصفه، رغم تواضعه، بأنه " كرنب الحرية"^(١)، وفى أربعينيات القرن الماضى، بعد الهجوم على بيرل هاربر، جرى تجميع ١١٠ ٠٠٠ شخص من أصل يابانى وزُج بهم فى معسكرات اعتقال. وكان الشباب والمسنون يُسجنون لمجرد وجود سلف لهم يابانى ويُجبرون على العيش فى ظل ظروف قاسية فى معسكرات مرتجلة، تفتقر فى كثير من الأحيان لمرافق الطهى أو حتى الصرف الصحى. وكان قرابة ثلاثة أرباع أولئك الذين يُسجنون يحملون جنسية الولايات المتحدة^(٢)، وبطبيعة الأمر، لم يكن الأصل القومى ولم يكن العرق هما المصدران الوحيدان للشيطنة. وفى سياق الحرب الباردة، بدأت المكارثية عهداً من التعديات على اليسار وعلى الإيديولوجيات المنشقة. ولم يكن أعضاء الحزب الشيوعى فقط هم ضحايا هذا "الربح الأحمر"، بل تعرّض أيضاً لرقابة الدولة وترويعها فى ستينيات القرن المنصرم اليسار الجديد، بما يشمل أعضاء الحركة المناهضة للحرب الفيتنامية، وحركة الحقوق المدنية، وغيرهما.

وَحَالِيًا، اسْتُخْدِمَتْ أَحْدَاثُ ١١ سِبْتَمْبَرٍ لِتَبْرِيرِ شَنْ عِتْدَاءَاتِ عَلى الْمَوَاطِنِ وَالْمَقِيمِينَ الْمُسْلِمِينَ. وَفى هَذَا السِّيَاقِ، اسْتُهْدَفَ أَيْضًا الْحَقُّ فى الْإِنْشِقَاقِ. وَكَمَا يَقُولُ الصَّحْفَى سَتِيفَانِ سَالِيسْبِيرى فى كِتَابِهِ "أَشْبَاحُ مُحَمَّدٍ" تَبْدَأُ دَائِمًا عَمَلِيَّاتِ الْمِرَاقَبَةِ وَجَمْعِ الْمَعْلُومَاتِ بِاسْتِهْدَافِ مَجْمُوعَةِ دَاكِنَةِ الْبَشَرَةِ مِنَ الْغُرَبَاءِ - الْأَمْرِيكِيِّينَ السُّودِ، وَالْمِهَاجِرِينَ الْإِيطَالِيِّينَ، وَالْيَهُودَ، وَالْعَرَبَ. وَتُمَزَجُ الْإِثْنِيَّةُ وَالْعَرِيقُ بِإِيدِيُولُوجِيَا خَارِجِيَّةٍ، مِنْ قَبِيلِ الْفُوضُويَّةِ، أَوْ الْإِشْتِرَاقِيَّةِ، أَوْ الشِّيُوعِيَّةِ، أَوْ الْقُومِيَّةِ السُّودَانِيَّةِ، أَوْ الْجِهَادِ. وَيَغْذَى الْخُوفَ التَّرْبِيَّةَ الْعَامَّةَ، وَتَدْفَعُ السُّلْطَةَ الْحُكُومِيَّةَ الْمَحْرَاطِ (٣)، وَهُوَ يَضِيفُ قَائِلًا إِنْ مَا يَبْدَأُ بِ" غُرَبَاءِ دَاكِنَةِ الْبَشَرَةِ" يَطْوُرُ لِيَشْمَلُ جَمِيعَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَا يُوَافِقُونَ عَلى أَجْنَدَاتِ الْحُكُومَةِ. فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، لَا يَسْتِهْدَفُ بَرْنَامِجُ الْمِرَاقَبَةِ الْخَاصَّ بِإِدَارَةِ شَرْطَةِ نِيُويُورِكِ، الَّذِى تَرُدُ مَنَاقَشَتَهُ لِأَحْقَاقِ فى هَذَا الْفَصْلِ، الْأَمْرِيكِيِّينَ الْمُسْلِمِينَ فَحَسَبَ بَلْ يَسْتِهْدَفُ أَيْضًا الْجَمَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةَ الْلِيبْرَالِيَّةِ (٤)، كَذَلِكَ، اسْتِخْدَمَ مَكْتَبُ التَّحْقِيقَاتِ الْفِيدِرَالِيَّ الْعَمَلَاءَ الْمَحْرُضِينَ لِلْإِيقَاعِ بِالنَّشْطَاءِ فى حَرَكَةِ "أَحْتَلُوا وُولِ سْتَرِيْتِ" (٥).

أَمَّا الْفَرْعُ التَّنْفِيزِىُّ لِحُكُومَةِ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ فَمَنْوُطَةٌ بِهِ مَهْمَةٌ مِرَاقَبَةِ الْعُدُوِّ الدَّاخِلِيِّ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ جِهَازِهِ الْمُخْتَصَّ بِإِنْفَازِ الْقَانُونِ. وَهَذَا يَشْمَلُ طَائِفَةً وَاسِعَةً مِنْ الْمَوْسَسَّاتِ مِنْ قَبِيلِ مَكْتَبِ التَّحْقِيقَاتِ الْفِيدِرَالِيَّ، وَإِدَارَةِ أَمْنِ الْوَطَنِ، وَالْمَرْكَزَ الْقُومِيَّ لِمُكَافَحَةِ الْإِرْهَابِ، وَإِدَارَةَ الْعَدْلِ، وَإِدَارَاتِ شَتَّى تَابِعَةٍ لِلشَّرْطَةِ فى الْمَدِينِ، وَمَنْظُومَةَ الْمَحَاكِمِ. وَمِنذُ أَحْدَاثِ ١١ سِبْتَمْبَرِ، أُعِيدَ تَشْكِيلُ الْجِهَازِ الْقَانُونِيِّ لِيَخْدِمَ أَهْدَافَ الْحَرْبِ عَلى الْإِرْهَابِ، وَهِيَ عَمَلِيَّةٌ أَفْضَلَتْ إِلَى انْتِهَاقَاتِ مَنْهَجَةِ لِحُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ. وَكَانَتْ النُّتِيجَةُ هِىَ كَابُوسٌ بِالنَّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِينَ، لَا سِيَمَا بِالنَّسْبَةِ لِلْعَرَبِ وَمَنْ يَنْتَمُونَ إِلَى جَنْوُبِ أَسِيَا فى الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ. وَكُلُّ أَسْرَةٍ تَقْرِيبِيًّا مِنْ أَسْرِ الْمُسْلِمِينَ تَعْرِفُ شَخْصًا مَا وَقَعَ فى بَرَاثِنِ هَذَا. وَفى بَدَايَةِ الْعَقْدِ، كَانَتْ بَرُوكْلِينَ تَوْوَى نَحُورُوعَ مِلْيُونِ شَخْصٍ مِنْ أَسْصِلِ بَاكْسْتَانِي. وَبِحُلُولِ عَامِ ٢٠٠٢، قِيلَ إِنْ مَا يَتْرَاحُ مِنْ ٥٠ إِلَى ٦٠ أَلْفًا مِنْهُمْ قَدْ رَحَلُوا؛ أَوْ سُجِّنُوا أَوْ جَرى تَرْحِيلُهُمْ، أَوْ فَرَّوْا هَارِبِينَ مِنْ عَقْلِيَّةِ الْمَطَارِدَةِ الَّتِى تَسُودُ الْمَدِينَةَ (٦).

ويقدم هذا الفصل عرضاً عاماً للطرائق التي استهدفت بها أوساط إنفاذ القانون المسلمين (سواء كانوا مواطنين أو مهاجرين) منذ عام ٢٠٠١، ولكن تقديم تفاصيل جميع الطرائق التي جرى بها ليّ عنق القانون لإتاحة المراقبة والقاء القبض والاعتقال إلى أجل غير مسمى والتعذيب والإبعاد هو أمر يتجاوز نطاق هذا الفصل. وبدلاً من ذلك، يقدم الفصل لمحة عامة خاطفة عن الكيفية التي شارك بها جهاز إنفاذ القانون في تفتيق وجود "الإرهابي الإسلامي" داخل الولايات المتحدة واضطهاده. وبينما تشرف مؤسسة السياسة الخارجية على الحرب على العدو في الخارج، يستهدف جهاز إنفاذ القانون العدو في الداخل. وخلاصة ذلك هي مشهد إرهاب يُبقي عليه باستمرار حياً في الخيال الأمريكي.

ترويع العرب والمسلمين

بينما يوجد للعنصرية ضد العرب والمسلمين تاريخ طويل في الولايات المتحدة، اتخذ الاضطهاد القانوني لهم شكلاً مؤسسياً في أوائل سبعينيات القرن الماضي. وكان السياق العام هو الصراع العربي - الإسرائيلي، ونمو منظمة التحرير الفلسطينية، واستغلال الكفاح المسلح في سبيل التحرر الوطني. وكما رأينا في الفصول السابقة، بدأ ربط أعداء إسرائيل بـ "الإرهاب" في ذلك الوقت تقريباً. وحدث أحد المظاهر القانونية الأولى لهذا المنطق في الولايات المتحدة بعد حادث شائن وقع في دورة ميونيخ الأولمبية عام ١٩٧٢ أخذت فيه مجموعة من الفلسطينيين رياضيين إسرائيليين كرهائن وقتلتهم. ورداً على ذلك، أطلقت إدارة نيكسون "عملية بولدر"، التي منحت وكالات إنفاذ القانون "تفويضاً مطلقاً للتحقيق مع الأفراد نوى الأصل العربي، سواء كانوا مواطنين أم لم يكونوا، بدعوى تحديد علاقتهم الممكنة و/أو المحتملة بأنشطة "إرهابية" تتعلق بالصراع العربي - الإسرائيلي"^(٧)، ومن ثم، أصبح عمل من أعمال العنف ارتكبه حقة من الفلسطينيين في ميونيخ هو أساس اعتبار جميع العرب موضع شبهة ويجدر التحقيق معهم لهذا السبب.

وتقول إيلين هاجوبيان إن مصادر المخابرات الصهيونية كانت مرتبطة بالعملية. ولذا لم يكن مفاجئاً استهداف العرب، رغم أن رابطة الدفاع اليهودية هي التي كانت قد ارتكبت أعمال إرهاب معروفة وجرى التحقق منها في الولايات المتحدة. بل إن تلك الرابطة كانت، وفقاً لدراسة أجرتها مؤسسة راند، إحدى أنشط الجماعات الإرهابية (حسب تصنيف مكتب التحقيقات الفيدرالي) لأكثر من عقد من الزمان^(٨).

وبعد أزمة الرهائن الإيرانية، اتخذ الرئيس كارتر إجراءات مماثلة ضد الإيرانيين في الولايات المتحدة. وقد استمرت أنشطة مكافحة "الإرهاب" هذه في عهد ريجان. وأطلق بوش الأب برنامجاً لمراقبة الأمريكيين العرب في عام ١٩٩١، في سياق حرب الخليج الأولى. وقام مكتب التحقيقات الفيدرالي باستجواب زعماء المسلمين والناشطين، ومن بينهم المتظاهرون ضد الحرب. واقتضت وزارة العدل الأمريكية من المقيمين والمهاجرين العرب أن تؤخذ بصماتهم، ووضعت إدارة الطيران الفيدرالية نظاماً للتصنيف العنصري^(٩). ومما لا شك فيه أن المؤتمرين الدوليين لمكافحة الإرهاب اللذين عقدا في عامي ١٩٧٩ و ١٩٨٤، واللذين نوقشا في الفصل السابق، قد أسهما في إيجاد مناخ تزايد فيه تصنيف العرب على أنهم إرهابيون في ثمانينيات القرن الماضي وحتى تسعينياته.

وفي عهد بيل كلينتون في عام ١٩٩٦، أصدر الكونجرس قانون مكافحة الإرهاب وفرض عقوبة الإعدام فعلياً، وهو قانون أضيف الطابع القانوني، بين جملة أمور أخرى، على ترحيل المهاجرين - أو، من يسمون بلغة القانون البشعة "الإرهابيين الأجانب" - استناداً إلى أدلة سرية. وفي عام ١٩٩٥، عندما قام الإرهابي المسيحي اليميني الأبيض تيموثي ماكفي بتفجير قنبلة في مبنى فيدرالي في مدينة أوكلاهما، فقتل ١٦٨ شخصاً، ضمنت هستيريا (الإرهاب) القائمة التي تولدت بعد محاولة تفجير قنبلة في مركز التجارة العالمي في سنة ١٩٩٣ إلقاء اللوم فوراً على العرب والمسلمين. فقد قال ستيف إميرسون، وهو محارب من دعاة فوييا الإسلام (ويبرد المزيد عنه في الفصل العاشر)، لنشرة أنباء سي بي إس (CBS) إن التفجير "حدث بنية التسبب في

أكبر قدر ممكن من الخسائر فى الأرواح ومن الإصابات، وهو ما زعم أنه "سمة من سمات الشرق الأوسط"^(١٠)، وإيجازاً، حتى قبل أحداث ١١ سبتمبر، كان قد أرسى الأساس للاستهداف القانونى للمسلمين والعرب. وكما يوضح إيان ف. هانى لوبيز، المنظر نو الأهمية البالغة فى مجال العنصرية، فإن النظام القانونى ليس كيانا محايداً يعمل فوق المجتمع وخارجه. بل إن "القانون يعمل ليس فحسب على انعكاس التحيز الاجتماعى بل يعمل أيضاً على ترسيخ ذلك التحيز، بحيث يجعل القانون أداة أساسية فى بناء وتعزيز الإخضاع العنصرى"^(١١).

وقد أدت أحداث ١١ سبتمبر إلى اقتران الجهاز القانونى بمؤسسة السياسة الخارجية. والآن، أصبح العدو الإرهابى سيكافح فى الخارج وأيضاً فى الداخل. فبعد تلك الأحداث مباشرة، جُمع نحو ١ ٢٠٠ مواطن وغير مواطن مسلم، معظمهم من العرب ومن جنوب آسيا، وألقى القبض عليهم باتباع إجراءات موجزة، واستجوابهم مكتب التحقيقات الفيدرالى، ودائرة الهجرة والتجنس (INS)، التى تعرف الآن باسم (ICE) أى (دائرة الهجرة والإنفاذ الجمركى)، ووكالات شتى على صعيد الدولة وعلى الصعيد المحلى لإنفاذ القانون. وقد احتُجزوا لفترات زمنية متباينة، فى حبس انفرادى فى كثير من الحالات، ومع إحاطة العملية بأكملها بالسرية. ولم يتبين أن أياً من هؤلاء الأشخاص "إرهابى" أو تربطه أى صلة بالهجمات التى حدثت فى ١١ سبتمبر^(١٢)، وبعد انقضاء بضعة أشهر، أعلنت وزارة العدل أنها أعدت قائمة تضم نحو ثمانية آلاف شخص تتراوح أعمارهم من الثامنة عشرة إلى الثالثة والثلاثين من بلدان محددة (ولكنها لم تذكر اسم تلك البلدان) كانوا قد دخلوا الولايات المتحدة بعد يناير ٢٠٠٠ ويجب "استجوابهم" من قبل موظفى إنفاذ القانون. ومن هذه القائمة، ألقى القبض على أقل من ٢٠ شخصاً بتهم تتعلق بالهجرة وألقى القبض على ثلاثة بتهم جنائية، ولكن لم يتضح وجود أى صلات لأى منهم بالإرهاب^(١٣)، وحتى عندما أكد جورج دابليو بوش مرارا للعالم أن الولايات المتحدة ليست فى حرب مع الإسلام أو مع المسلمين، كان يجرى جمع المسلمين العاديين وترويعهم (بكلا معنى الكلمة) من خلال منطلق الذنب بحكم الارتباط.

واقترضى برنامج آخر بدأ تطبيقه فى عام ٢٠٠٢، هو نظام الأمن القومى لتسجيل الدخول والخروج، الذى يرجع فى أصوله إلى قانون مكافحة الإرهاب وفرض عقوبة الإعدام فعلياً (AEDPA) الذى صدر عام ١٩٩٦ وعدله قانون "USA PATRIOT"، من المهاجرين الذكور، البالغين من العمر ستة عشر عاماً فأكثر، القادمين من خمسة وعشرين بلداً أن يتقدموا إلى مكاتب دائرة الهجرة والتجنس من أجل "أخذ بصماتهم، وتصويرهم فوتوغرافياً، واستجوابهم، ونسخ معلوماتهم المالية، أو أن يسجلوا أنفسهم عند دخولهم البلد ثم يعيدوا تسجيل أنفسهم بعد ثلاثين يوماً"، كما تقول الباحثة القانونية نانسى موراي^(١٤)، (وقد سُميت البلدان هذه المرة، وكان من بينها بلدان يمثل فيها المسلمون أغلبية وبلدان من الشرق الأوسط فضلاً عن كوريا الشمالية). وبحلول خريف عام ٢٠٠٣، كان أكثر من ثلاثة وثمانين ألفاً من المقيمين المهاجرين قد سجلوا أنفسهم فى إطار البرنامج. وكمكافأة على مبادرتهم، وجد ١٣ ٧٩٩ منهم أنفسهم يواجهون إجراءات الترحيل. أما فيما يتعلق بما إذا كان "إرهابيون" قد جرى إلقاء القبض عليهم فى إطار هذا البرنامج، فإن أحد عشر شخصاً تبين أن لهم "صلات" بالإرهاب. ولم يسفر البرنامج عن إدانة واحدة بتهمة الإرهاب^(١٥)، وقد أوقف العمل به فى نهاية المطاف عام ٢٠١١، ولكن تداعياته ما زالت باقية.

وفى عام ٢٠٠٣، ألقى القبض على ١ ٠٠٠ شخص آخرين كجزء من برنامج للإمساك "بالمختفين" من دول الشرق الأوسط الذين بقوا فى الولايات المتحدة بعد انتهاء تأشيراتهم والذين قد تكون لديهم معرفة بـ "نشاط إرهابي"^(١٦)، وقد وُضع كثيرون من هؤلاء الأشخاص "على طائرات متجهة إلى جهات لا يعرفون فيها أحداً، وتركوا وراءهم أعمالهم وبيوتهم وأسرهم، ومن بينهم أطفالهم المولودون فى أمريكا"^(١٧)، وهذه الأفعال ليست سوى عملية شيطنة جماعية للمسلمين، الذين أصبحوا الآن "مذنبين إلى أن تثبت براءتهم"، وعواقب هذه الأفعال تتجاوز بكثير جماعات المسلمين العرب الذين ينحدرون من جنوب آسيا. فسرعان ما أصبح

الناشطون من أجل السلام ومنظمو القوى المناهضة للحرب من غير المسلمين هدفا للمراقبة والاستجواب أيضا.

وهذا القمع للآراء المخالفة ليس جديدا؛ ففي ستينيات القرن الماضي شن مكتب التحقيقات الفيدرالي برنامجا للاستخبارات المضادة، المعروف باسم COINTELPRO، لتتبع أعضاء حركة اليسار الجديد، لا سيما حركة القوة السوداء، ولاختراقهم وتهديدهم وتجريدتهم من المصداقية والتحرش بهم. وكما يقول المحامي ستيف داونز، "نشر مكتب التحقيقات الفيدرالي تقارير كاذبة في وسائل الإعلام، ولطخ سمعة أولئك الأفراد من خلال رسائل وشائعات مزيفة، واستخدم عملاء محرضين لإحداث حالة خلل في المنظمات والتسبب في عمليات اعتقال بناء على أسانيد مزيفة، ومارس أعمال العنف، وتعدى بطرائق أخرى كثيرة على قدرة المنظمات المستهدفة على العمل وعلى تحقيق أهدافها السياسية ... بدعوى 'حماية الأمن القومي، ومنع العنف، والحفاظ على النظام الاجتماعي والسياسي القائم'". وقد لقي البرنامج انتقادا عاما في سبعينيات القرن الماضي وتم وقفه؛ وأعلن النائب العام إدوارد هـ. ليفي أن "هذا النشاط لا يمكن السماح به في مجتمعنا"^(١٨)، ومع ذلك رثى في خضم حالة الخوف التي سادت بعد أحداث ١١ سبتمبر أن الانتهاكات المنهجية للحريات المدنية ليست فحسب من الممكن السماح بها بل هي ضرورية "لحفاظ على أمن الأمة".

ونتيجة لذلك، باستطاعة مكتب التحقيقات الفيدرالي الآن أن يجمع معلومات عن "الجماعات العرقية المركزة"، بدعوى أن هذه المعلومات يمكن أن تساعد في تحليل "التحديات وأوجه الضعف المحتملة" وتساعد في "الوعي العام"^(١٩)، فببسيط العبارة، مسموح قانونا لمكتب التحقيقات الفيدرالي بأن يصنّف الجماعات المسلمة تصنيفا عرقيا، وإن كان لا يستخدم هذا المصطلح. فالقانون الفيدرالي يحظر التصنيف على أساس العنصر أو الأصل العرقي، ولكنه لا يحظر صراحة التصنيف على أساس الديانة أو الأصل القومي. ومن القانوني تماما افتراض أن يكون المسلم الورع من بلدان الشرق الأوسط مرتبطا بالإرهاب^(٢٠)، وهذه الممارسات العنصرية من الناحية

الثقافية يجرى تبريرها من خلال النظريات العلمية الزائفة المتعلقة بفكرة " الراديكالية" التي سيرد بحثها لاحقا في هذا الفصل. وإيجازا، ما نراه هنا هو التطبيق العملي من جانب مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالات إنفاذ القانون الأخرى لإحدى الاكاذيب التي وردت مناقشتها في الفصل الثالث - وكنهها هو أن " الإسلام عنيف بطبيعته" - في أنشطتها اليومية.

المراقبة والاحتجاز والترحيل

في أغسطس ٢٠١١ بدأت وكالة اسوشيتدبريس في إصدار سلسلة من التقارير التي تؤنق مراقبة إدارة شرطة مدينة نيويورك لجماعات العرب والمسلمين في شمال شرق الولايات المتحدة. فقد قامت تلك الإدارة، بعد أن تلقت تدريبا من وكالة المخابرات المركزية، بالتجسس على المساجد (بالاستعانة في الغالب بمخبرين يُطلق عليهم اسم "mosque crawlers")، والمراكز المجتمعية، ومؤسسات الأعمال المملوكة للمسلمين، والمكتبات الدينية، وطائفة من " البؤر" الأخرى^(٢١)، وتوغل عملاء " الوحدة الديمغرافية" في إدارة شرطة مدينة نيويورك سراً في أحياء الأقليات في منطقة الولايات الثلاث (نيويورك، ونيوجيرسي، وكنيتيكت) من أجل الحصول على معلومات في إطار ما يسمى " برنامج التصنيف البشري"^(٢٢).

ولقيت التقارير اهتماما كبيرا من وسائل الإعلام السائدة ووجه انتقاد لاذع لها. فقد أصدر رؤساء الكثير من الجماعات المستهدفة بيانات تدين تجسس إدارة شرطة الولايات المتحدة، وكتب ريتشارد لفين، رئيس جامعة ييل، يقول إن " المراقبة البوليسية المستندة إلى الديانة أو القومية أو الآراء السياسية المغرب عنها بشكل سلمي تتعارض مع قيم جامعة ييل، والأوساط الأكاديمية، والولايات المتحدة"^(٢٣)، وأعلن كذلك كوري بوكر عمدة نيوارك أن التصنيف على أساس الديانة يشكل " تعديا واضحا على حريات مواطنينا الأساسية"^(٢٤).

وكانت هذه الحقائق التي تكشفها هي أول مناقشة عامة، بعد انقضاء عقد كامل على أحداث ١١ سبتمبر، بشأن الانتهاكات المنهجية لحريات المسلمين والعرب المدنية. فقد أتاحت التقارير لأمريكيين كثيرين أول لمحة لهم بشأن الكابوس الذي يعانيه المواطنون والمهاجرون المسلمون. ولكن برنامج المراقبة الخاص بإدارة شرطة مدينة نيويورك هو مجرد قمة جبل الجليد. فبرنامج المراقبة من هذا القبيل ليست واسعة الانتشار فحسب في أوساط إنفاذ القانون، بل إن جرائم أسوأ ضد حقوق الإنسان ما زالت طي الكتمان. فوسائل الإعلام لم تهتم اهتماما كبيرا بالسجناء الذين تساء معاملتهم من خلال احتجازهم إلى أجل غير محدد بدون أن يكون لهم الحق في الحصول على محاكمة، ومن خلال الحبس الانفرادي، والتعذيب. فبينما نال تعذيب السجناء المسلمين في أماكن من أمثال سجن أبو غريب وخليج جوانتانامو اهتماما بحيث تصدر الصفحات الأولى في الصحف بعد بث صور فوتوغرافية مخزية، ما زالت المناقشة العامة لتلك المسألة تعكس إيماننا ساذجاً بأن العدالة هي التي تسود في أرض الأحرار. غير أن جين ثيوهاريس تقول في مقالة لها بعنوان "جوانتانامو في الداخل"، إن "مشكلة التعذيب والانتهاكات الأخرى لحقوق الإنسان في الحرب على الإرهاب التي تشنها أمريكا جرى تصويرها على أنها مشكلة تحدث خارج شواطئنا إلى حد كبير. والافتراض الأساسي هو أنه إذا جرت محاكمة معتقلي جوانتانامو على أرض الولايات المتحدة وفي محاكم فيدرالية (كما تطالب جماعات كثيرة)، لما حدثت تجاوزات شائعة من هذا القبيل"^(٢٥)، ولكن في حقيقة الأمر، وكما تقول ثيوهاريس، هذا الافتراض غير حقيقي.

فثمة تقرير صدر عام ٢٠١١ ويحمل عنوانا مناسبا هو "تحت الرادار: المسلمون يجرى ترحيلهم واحتجازهم وحرمانهم من حقوقهم بناء على ادعاءات الإرهاب غير المدعومة بأسانيد"، أصدره مركز حقوق الإنسان والعدالة العالمية في كلية الحقوق بجامعة نيويورك، يوثق الطرائق التي استُخدم بها القانون "لتصوير المسلمين على أنهم يشكلون تهديدات خطيرة للأمن القومي"^(٢٦)، ويقول التقرير إن "الانتماءات

الدينية والثقافية والسياسية للمسلمين وأنشطتهم المشروعة يجرى تأويلها على أنها عوامل خطرة ذات صلة بالإرهاب وذلك لتبرير الاحتجاز والترحيل والحرمان من استحقاقات الهجرة^(٢٧)، ومن طرائق ذلك تصوير المسلمين على أنهم إرهابيون في الحالات التي تتعلق في حقيقة الأمر بانتهاكات قوانين الهجرة. ويذكر التقرير أن التُّهم التي تساق ضد المهاجرين المسلمين " تتعلق دوماً تقريباً بانتهاكات عادية لقوانين الهجرة، ومع ذلك فإن الحكومة كانت توحى دائماً بوجود صلات لهم بالإرهاب بدون أن تقدم أى دليل على هذه الادعاءات^(٢٨).

وتصور قصة فؤاد فرحى هذا الاتجاه. ففرحى، وهو إمام ينحدر من أصول إيرانية، جاء إلى الولايات المتحدة عام ١٩٩٤ حاملاً تأشيرة طالب ثم قدّم لاحقاً طلباً للحصول على اللجوء السياسى. وبعد أحداث ١١ سبتمبر، فاتحه مكتب التحقيقات الفيدرالى عدة مرات فى أن يصبح مخبراً وأن يتجسس على جماعته. وقد دأب على الرفض. وفى جلسة النظر فى طلبه الحصول على اللجوء، التقى به وكلاء إنفاذ القانون فى المحكمة وأخبروه أن لديهم دليلاً على أنه سبق له أن أيد جماعة إرهابية. وخبروه بين أن يتنازل عن قضيته ويترك الولايات المتحدة طوعاً أو توجّه إليه تهمة أنه إرهابى. وفى البداية اختار فرحى الرحيل طوعاً، خوفاً بلا ريب من احتمال أن " يختفى" مثله مثل رجال مسلمين آخرين كثيرين. ولاحقاً، عندما أدرك أن الدولة لا تملك أى مسوغات ضده، فإنه قرر أن يناضل. ورغم طلباته المتكررة، رفضت الدولة أن تطلعه أو تطلع محاميه على أى معلومات تتعلق بالإرهاب كى يتسنى لفرحى أو لمحاميه تقديم مرافعة دفاع. وفى نهاية المطاف، رُفض أمر ترحيل فرحى طوعاً وتقررت إعادة فتح قضية طلبه اللجوء^(٢٩)، أما الآخرون الذين لم يكونوا بقدر شجاعة فرحى - أو الذين ربما كانوا سيخسرون أكثر منه - فقد أذعنوا لهذا الضغط. ويستخدم العاملون فى مجال إنفاذ القانون عادة التهديدات المستندة إلى أدلة واهية أو التى لا تستند إلى أى أدلة لإكراه الأشخاص على التعاون فى الحرب على الإرهاب وعلى أن يصبحوا وشاةً، أو يواجهوا انتقام الدولة.

والكابوس الآخر الذى كان على المواطنين والمهاجرين المسلمين أن يتحملوه هو الاعتقال والاحتجاز لفترات زمنية طويلة. فقد جرى لى عنق القانون لإتاحة عمليات الاحتجاز هذه باسم الأمن القومى. وتسلط مقالة " تحت الرادار " الضوء على الاتجاه المتمثل فى تصوير المهاجرين المسلمين على أنهم يشكلون تهديدات واحتجازهم لارتكابهم مخالفات طفيفة لقانون الهجرة لا تبرر عادة هذا الاحتجاز. وحتى أولئك الذين لم يخرقوا القانون يجدون أنفسهم فى مراكز الاحتجاز أحيانا. وتروى الصحفية عليّة مالك، فى كتابها " قوانين الوطنية "، قصة مراقبة جرى احتجازها بتهمة كونها إرهابية:

فى ٢٤ مارس ٢٠٠٥ استيقظت أداما باه، وهى فتاة مسلمة فى السادسة عشرة من عمرها، فى الفجر لتكتشف وجود زهاء اثنى عشر شخصا من رجال مكتب التحقيقات الفيدرالى المسلمين داخل شقة أسرتها فى شرق حى هارلم. وقد ألقوا القبض عليها وعلى أبيها، محمد باه، ونقلهما إلى مركزى احتجاز منفصلين. وزعمت وثيقة حكومية جرى تسريبها إلى الصحافة أن أداما كانت قنبلة بشرية انتحارية محتملة ولكنها لم تقدم أى دليل لدعم هذا الادعاء. وأجبرت أداما، عندما أفرج عنها بعد أن قضت ستة أسابيع رهن الاحتجاز، على العيش تحت الإقامة الجبرية الجزئية فى منزلها وهى مقيدة بسلسلة من كاحلها، مع فرض حظر حكومى على تجوالها، وتقييد حريتها فى الكلام بموجب أمر صادر عن محكمة منعها من التحدث عن حالتها. وفى أغسطس ٢٠٠٦، أعيد والد أداما إلى غينيا، بأفريقيا. ووجدت أداما، التى كانت قد سافرت إلى الولايات المتحدة مع والديها من غينيا وهى طفلة، نفسها تواجه الترحيل أيضا. وقد قضت السنوات القليلة التالية وهى تكافح فى سبيل الحصول على اللجوء وتفاضل لإعالة أسرتها فى الولايات المتحدة وغينيا^(٢٠)، [التشديد مضاف].

وبإياه ليست المراقبة الوحيدة التى تعرضت لصدمة من هذا القبيل. فمصطفى بيومى يحكى، فى كتابه المؤثر " كيف يشعر المرء أنه يمثل مشكلة؟؛ لكونه شابا وعربيا فى أمريكا "، قصة مراقبة أخرى انتزعت من حياتها فى بروكلين وأودعت رهن الاحتجاز. ويشير إليها بيومى باسم " رشا " لحماية هويتها. ففى إحدى الليالى توجه

رجال مكتب التحقيقات الفيدرالى إلى منزل رشا ووضعوها هى وأسرتها بأكملها فى مراكز احتجاز. وكانت أسرتها تنتظر الاستجابة لالتماسها الحصول على الهجرة قانوناً، ولكنها كانت محتجزة على أية حال. ويصف بيومى تجربة رشا التى دامت عدة أشهر فى مركز الاحتجاز على النحو التالى:

لقد توقفت عن تناول الطعام لفترة ما. وكانت تستلقى على سريرها لمدة يومين أو ثلاثة أيام بصفة مستمرة فى بعض الأحيان، وفى النهاية تغادر سريرها يوماً ما عندما يفتح باب الزنزانة بحيث تتمكن من الانضمام إلى الأخريات وتناول الطعام. مثل فئران المختبرات، كما كانت تشعر.

وقد تخلصت ببطء من حالة اكتئابها، ولكنها لم تتمكن من الكف عن الشعور بالغضب. وحاولت أن تحوّل غضبها إلى درس حياتى، بحيث تؤمن بأن الله كان يحاول أن يبين لها طبيعة إنسانيتها. ولكنها كانت تشعر بأن ثمة خطأ قد ارتكب فى حقها. فهى لم يسبق لها قط فى حياتها أن ظنت أن الأمر سينتهى بها فى السجن إلا إذا كانت قد ارتكبت جريمة. فلماذا إذاً كانت هنا؟ بأى جريمة؟ لأنها بقيت فى البلد بعد انتهاء تاريخ تأشيرتها وأصبحت الآن لا تملك الوثائق اللازمة؟ إنها لم ترتكب أى جريمة، وهى تعاقب بجريرة تصرفات شخص آخر. بجريرة جريمة ارتكبتها شخص آخر. ولم تصدر إدانة لها. ومن ثم فقد اختطفتم.

لم تكن هذه عدالة. بل كانت انتقاماً (٣١).

وفى نهاية الأمر، أطلق سراح أسرة رشا، وكانت هذه هى قصة آلاف من الرجال والنساء - الصغار والكبار، المواطنين وغير المواطنين - الذين ألقى القبض عليهم واحتُجزوا وجرى ترحيلهم باسم الحرب على الإرهاب. وقد بررت الحكومة هذه المعاملة، حتى معاملة أولئك الذين لم يرتكبوا أى مخالفة، بقولها إن "المقاضاة الاستباقية" ضرورية لإبقاء أمريكا آمنة. والمقاضاة الاستباقية هى الشكل القانونى المحلى لمبدأ "الحرب الإجهاضية"، الذى وردت مناقشته فى الفصل السابق. فإذا كان الأساس المنطقى للحرب الإجهاضية هو الحيلولة دون ظهور خصم فى المستقبل

للولايات المتحدة على الساحة العالمية، فإن المقاضاة الاستباقية تتعلق باعتقال الإرهابيين " المحتملين".

المقاضاة الاستباقية

تنطوي المقاضاة الاستباقية على استهداف أناس أبرياء لم يرتكبوا فى حقيقة الأمر أى مخالفة. وهى تشمل طائفة متنوعة من الأساليب من قبيل استخدام ' العملاء المحرضين' لتحريض الناس على ارتكاب أفعال، لم يكونوا لولا ذلك التحريض ليرتكبوها، كى توجه لهم تهمة " تقديم الدعم المادى للإرهابيين، وهو ما يمكن أن ينطبق على أى شىء حميد من قبيل منح نقود لمؤسسة خيرية. والمنطق الذى تقوم عليه هذه الحالات هو أن المسلمين " مهيوون مسبقاً " بطبيعتهم لارتكاب أعمال عنف وإذا ينبغى احتجازهم. ويفسر داووز ذلك قائلاً إن " الحكومة تزعم، كى تثبت هذا التهيو المسبق، أن السلوك العادى الروتىنى للمتهمين - ملبسهم وشعائرهم الدينية ومعاملاتهم المالية الإسلامية ومطبوعاتهم الأدبية وما إلى ذلك - تشير إلى تهيو مسبق لممارسة الإرهاب، استنادا إلى الفكرة النمطية الزائفة المتمثلة فى أن جميع المسلمين مهيوون سلفا لممارسة الإرهاب. فإذا كانوا 'مسلمين' بدرجة كافية، فإنهم مهيوون سلفا بدرجة كافية" (٣٢).

وهذا المنطق الغريب يذكرنا بفيلم ستيفن سبيلبيرج اللايوطوبى " تقرير الأقليات " الذى تقرأ فيه وحدة " ما قبل الجريمة" عقول الناس كى تلقى القبض عليهم قبل أن يرتكبوا فعلا أى جريمة وذلك بدعوى أنهم "مهيوون مسبقا" للقيام بذلك. وفى الفيلم تُفلق تلك الوحدة. أما فى الحياة الحقيقية فيواجه عشرات من الأشخاص السجن لمدة تبلغ ٢٠ عاما فى المتوسط بتهمة جرائم لم يرتكبوها؛ ومع عدم قتل أحد، ومع عدم تدمير أى ممتلكات (٣٣)، وأناقش هنا بضع حالات من المقاضاة الاستباقية.

١ تقديم الدعم المادي للإرهابيين

لقد استُخدمت تهمة " تقديم الدعم المادي " للإرهاب ضد أشخاص لأسباب شتى، تبدأ من التبرع لمنظمات خيرية وتنتهي بالمشاركة في احتجاجات مضادة للحرب. والإحسان هو إحدى ركائز الإسلام الخمس، وهي واجب ديني على جميع المسلمين، ومع ذلك أغلقت إدارة بوش بعد أحداث ١١ سبتمبر المنظمات الخيرية الإسلامية جميعها تقريبا التي كانت تعمل في الولايات المتحدة وجمدت أصولها، زاعمة أن ذلك بهدف منع تدفق أموال لـ " إرهابيين". وقد ساوت، في قيامها بذلك، بين هذا الجانب الأساسي من العقيدة الإسلامية وبين مساعدة " أعداء الولايات المتحدة. وحوكم المسلمون الذين قدموا تبرعات لمنظمات خيرية، تبرعت بعد ذلك بتلك الأموال لجماعات اعتبرتتها حكومة الولايات المتحدة " منظمات إرهابية أجنبية"، بتهمة تقديم الدعم المادي للإرهابيين. وكما يوضح مايكل راتنر، الذي يعمل في مركز الحقوق الدستورية، يُعتبر حتى الاتصال المحدود، من قبيل تقديم بطانيات لمستشفى مرتبطة بمنظمة إرهابية أجنبية أو تدريس أشكال من تسوية النزاعات لا تتسم بالعنف لمنظمة من هذا القبيل، دعما ماديا^(٣٤).

وقد ادعى أن أكبر منظمة خيرية إسلامية في الولايات المتحدة، وهي مؤسسة الأراضي المقدسة، مرتبطة بمنظمة حماس وأغلقت بمقتضى أمر تنفيذي صدر بعد أحداث ١١ سبتمبر بفترة وجيزة. وخلال المحاكمة التي أعقبت ذلك، تبين تماماً أن قادة مؤسسة الأراضي المقدسة لم يرتكبوا أى شكل من أشكال العنف أو يقدموا الدعم له أو يشجعوه، وعلاوة على ذلك تبين أن الأموال التي أرسلت إلى الخارج استُخدمت في توفير الاحتياجات والخدمات الأساسية للفقراء المعوزين، مثلاً للفلسطينيين الذين يعانون في ظل الأزمة الإنسانية في غزة. ولم تُثبت الحكومة وجود أى روابط تمويلية مباشرة بـ " الإرهاب". وبدلاً من ذلك، استندت القضية إلى حجة أن المؤسسة أرسلت نقوداً إلى لجان الزكاة التي تسيطر عليها حماس. وحاجج الدفاع بأن هذه اللجان الخيرية هي السبيل الوحيد الذي يمكن أن تصل من خلاله

المعونة إلى الأشخاص الذين يحتاجون إليها، وأن وكالات الأمم المتحدة ووكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية استعانت أيضا بنفس اللجان. وأوضح الدفاع أن سبب سيطرة حماس على تلك اللجان هو أن حماس هي الحكومة الفلسطينية المنتخبة. ومع ذلك، استطاع ممثلو الادعاء، من خلال بث الخوف العنصرى، أن يحصلوا على إدانات قاسية للمتهمين. إذ يقضى اثنتان من المتهمين عقوبة السجن لمدة خمسة وستين عاما (٣٥).

وقد استُخدمت تُهم تقديم الدعم المادى لاستهداف طائفة واسعة التنوع من الأشخاص. فبينما كان المسلمون هم المستهدفون الرئيسيون، تعرّض غير المسلمين أيضاً لمعاملة مماثلة. ففي عام ٢٠١٠، داهم رجال مكتب التحقيقات الفيدرالى منازل ومكاتب نشطاء مناهضين للحرب (من بينهم مواطنون أمريكيون من البيض) فى إلينوى ومينيسوتا ونورث كارولينا. وصدرت أوامر عن هيئة محلفين كبرى بإحضارهم للمثول أمام القضاء بدعوى أنهم قدموا دعماً مادياً للإرهاب. ولم تقم الدولة فحسب بمساواة نشاطهم السلمى بتقديم الدعم المادى للإرهابيين بل اخترقت أيضاً جماعات يسارية شتى. وأصبح عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالى نشطاء فى تلك الجماعات، وقاموا بتكوين صداقات، وسجلوا محادثات خاصة (٣٦).

وفى حالة مأساوية أخرى، ألقى القبض على فهد هاشمى، وهو مواطن أمريكى نشأ فى كوينز، بنيويورك، عام ٢٠٠٦ بتهمة تقديم الدعم المادى للإرهابيين. وكانت جريمة هاشمى هو أنه سمح لشخص يعرفه بأن يبقى فى شقته بلندن، وهو رجل يسمى جنيد ببار، كان يحمل مواد ستُنقل فيما بعد إلى القاعدة. وقد يتساءل المرء ما هى أسلحة الدمار الشامل تلك؟ لقد كانت معاطف مطر، وبونشوس، وجوارب واقية من الماء. وحسب منطق الحكومة، كان على هاشمى أن يظن إلى مدى الدمار الذى تسببه الملابس الواقية من الماء وكيف كان يمكن أن تؤدى إلى رجحان توازن القوى فى اتجاه القاعدة. ولهذه الجريمة، فقد أودع السجن لمدة أربع سنوات، قضى ثلاث سنوات منها فى الحبس الانفرادى.

وقد غطت وسائط الإعلام هذه القصة وكأنما قد اكتُشفت " شبكة إرهاب فى مدينة نيويورك، بحيث لم تتعد بالكاد عن السيناريو الرسمى. وزعم ريموند كيلي، مدير شرطة نيويورك، أن " عملية إلقاء القبض هذه تعزز حقيقة أن أى إرهابى قد تكون له جنور فى كوينز ومع ذلك يخدمنا " (٢٧)، وقد ألقى القبض على هاشمى، الذى كان طالبا من طلبة جين ثيوهاريس فى كلية بروكلين، وهو ملتحق بكلية الاقتصاد فى لندن حيث كان يسعى إلى الحصول على درجة الماجستير. وتصف ثيوهاريس هاشمى بأنه " مسلم وورع وناشط سياسى فصيح" يثير " استعدادة الجرىء والعنيد للاعتراض على السلطة" إعجابها. وكان، باعتباره طالبا وشابا له قناعاته، ينبغى أن يكون أمامه مستقبل باهر ينتظره. وبدلا من ذلك، تصف ثيوهاريس معاملته البشعة فى المركز الإصلاحى المتروبوليتانى فى جنوب مانهاتن، حيث وُضع رهن إجراءات إدارية خاصة تمنعه من الاتصال بالعالم الخارجى:

لم يكن مسموحا لفهد بالاتصال بأحد باستثناء محاميه، ووالديه بدرجة محدودة للغاية، إذ لم يكن مسموحا له بأى اتصالات أو رسائل أو بالتحدث من خلال الجدران، لأن زنزانتة كانت تخضع للمراقبة الإلكترونية. وكان عليه أن يستحم ويقضى حاجته على مرأى من آلة التصوير. ولم يكن مسموحا له سوى أن يكتب رسالة واحدة أسبوعيا لفرد واحد من أفراد أسرته، باستخدام ما لا يتجاوز ثلاث ورقات. وكان مسموحا لأحد والديه فقط بأن يزوره مرة كل أسبوعين، ولكنه غالبا ما كان يُرد على أعقابها عند الباب لأسباب بيروقراطية. وكان ممنوعا على فهد أى اتصال - مباشر أو من خلال محاميه - بوسائط الإعلام. وكان مسموحا له بأن يقرأ أجزاء فقط من الصحف التى يوافق عليها سجانوه، ولكن ليس قبل انقضاء ٣٠ يوما على صدورها. وكان مسموحا له بالخروج من زنزانتة ساعة واحدة فقط فى اليوم، ولم يكن مسموحا له بأن يتعرض للهواء الطلق بل كان مجبرا على ممارسة الرياضة فى قفص انفرادى (٢٨).

وبعد أربع سنوات من هذه المعاملة استطاعت الدولة أن تحطم معنويات هاشمى. وعبأ الناشطون صفوفهم لمساندة هاشمى، ولكن ممثلى الادعاء حرصوا على عدم

السماح لهم بدخول قاعة المحكمة، ونالوا تأييدا لاقتراحهم أن تحكم على فهد هيئة محلفين مجهولى الهوية فى ظل إجراءات أمنية مشددة. وضمنت هذه التدابير احتمال أن تكون هيئة المحلفين متحاملة حتى قبل أن تبدأ المحاكمة. وقيلَ هاشمى، بعد أن وازن هذه العوامل، صفقة دفاع بشأن تهمة التآمر لتقديم دعم مادي للإرهاب. ورئى أنه تآمر دون قصد لإبقاء أعضاء القاعدة سالمين: ولهذا السبب كان لزاما تدمير حياته. وهو يقضى عقوبة السجن لمدة ١٥ عاما وكان ما زال رهن الحبس الانفرادى والتدابير الإدارية الخاصة فى سجن مشدد الحراسة فى كولورادو وقت تأليف هذا الكتاب.

أما الشخص الذى يعرفه والذى قام بتوريد ملابس المطر إلى القاعدة، ببار، فقد أطلق سراحه بكفالة فى عام ٢٠٠٨، وفى عام ٢٠١٠ خُففت عقوبته بحيث أقتصر على " المدة التى قضاهما فى السجن". وأشار القاضى إلى أنه " بدأ يتعاون حتى قبل إلقاء القبض عليه" (٣٩)، وقد أدى هذا إلى التكهن بأن ببار أصبح عميلا محرّضا يعمل لحساب الحكومة قبل زيارته شقة هاشمى، وأنه ربما كان قد أرسل " للإمساك" بهاشمى بسبب آرائه السياسية وانتقاده لسياسة الولايات المتحدة.

العملاء المحرضون والإيقاع فى الفخ

لقد أسفرت زيادة استعانة حكومة الولايات المتحدة بالعملاء المحرضين عن حالات متعددة لإيقاع أشخاص فى الفخ، بحيث جرى تحريض أفراد على تنفيذ مخططات إرهابية لم تكن لتحدث لولا ذلك. فمنذ أحداث ١١ سبتمبر، أدى وجود مخبرين فى المساجد وداخل جماعات المسلمين إلى مقاضاة أكثر من مائتى شخص (٤٠)، ويحدد تقرير مركز حقوق الإنسان والعدالة العالمية المعنون " الاستهداف والإيقاع فى الفخ " مشاكل شتى تكتنف الاستعانة بهؤلاء المخبرين، ليس أقلها أنهم جرى تجنيدهم من خلال التهديدات، كما هو مذكور آنفا، وكذلك من خلال الرشاوى، من قبيل تخفيف

التهم الجنائية أو إحداث تغيير في وضعهم القانوني من حيث الهجرة، مما يتسبب في وجود ما يسميه التقرير "بنية حافزة خطيرة"^(٤١)، وقد تبين لمعدى التقرير أنه في الحالات التي درسوها "أقحم مخبرو الحكومة أفكارا عن الجهاد العنيف ودفَعوا بهذه الأفكار دفعا مستميتا وعلاوة على ذلك فإنهم 'شجعوا' بالفعل المتهمين على الاعتقاد بأن واجبهم هو اتخاذ إجراءات ضد الولايات المتحدة." وحث المخبرون أيضا المتهمين على اقتناء أسلحة فيديو وأسلحة عنيفة استُخدمت لاحقا لإدانتهم، بل وبلغ بهم الأمر أنهم اختاروا الأماكن التي تقررت مهاجمتها. وإيجازا، بدون القيادة النشطة للعملاء المحرضين، لم تكن "مخططات الإرهاب التي أجهضت" ستوجد إطلاقاً.

وتصور قضية أربعة نيويورك كيف يتحقق الإيقاع في الفخ. وهذه هي قصة أربعة رجال أفريقيين أمريكيين ينتمون إلى أسر فقيرة، كان اثنان منهما لديهما مشاكل نفسية، وخالفوا جميعهم القانون في مراحل زمنية مختلفة من أعمارهم. وعندما فاتح مخبر من مخبرى مكتب التحقيقات الفيدرالي ديفيد وليامز في أن يتعاون معه، كان الأخ الأصغر لديفيد قد شُخصَ توأماً بأنه مصاب بسرطان الكبد. وكانت الأسرة تحتاج أشد الاحتياج إلى نقود ووعده مخبر مكتب التحقيقات الفيدرالي، شاهد حسين، بتقديم تلك النقود وأكثر منها. وتقول أليسيا ماكويليامز، خالة ديفيد، التي أصبحت ناشطة بشأن قضيته، إن ديفيد "شاهد شقيقه وهو يموت تقريباً ويُبعث حيا خمس مرات. وكان يدرك أن [شقيقه] لورد بحاجة إلى كبد. وهذه التجربة غيّرت مجرى حياته." فقد استغل المخبر حالة الضعف هذه وحرّض ديفيد وثلاثة آخرين على تنفيذ خطة لتفجير قنابل في معبد يهودى فى برونكس. ولم يقم حسين باختيار الأماكن وباصطحاب الرجال الأربعة إلى هناك فى سيارته فحسب، بل إنه زودهم بالقنابل، وظل يضيق الخناق على واحد من الرجال قال له إنه يرفض أن يقتل نساء وأطفالا، بحيث أفتنعه فى نهاية الأمر بتنفيذ الخطة. وبدون حسين، لم تكن "خطة الإرهاب" ستوجد. ويتساءل تيد كونوفر، وهو أحد سكان منطقة برونكس المستهدفة، قائلا: "لماذا تصطاد شبكة الحكومة المضادة للإرهاب أشرارا لا يمكن الاقتناع بهم

هكذا: رجال سود على مقربة من مساجد يوافقون، فى مقابل وعود بالحصول على نفود، على مخططات معقدة لم تكن ستوجد إطلاقاً لولا المخبرون الذين تلقوا أموالاً وفيرة كى يحرضوهم؟^(٤٢).

ويلاحظ كونوفر، وهو كاتب مبرز يعمل فى معهد آرثر ل. كارتر للصحافة بجامعة نيويورك، أن هذه كانت لحظة علاقات عامة متقنة بالنسبة للعاملين فى مجال إنفاذ القانون. فهو يقول إن عملية إلقاء القبض على أربعة نيويورك صُمت بشكل يتسم بالكمال. فقد صورت طائرة عمودية تابعة للشرطة شريط فيديو حيا أثناء قيادة حسين لسيارته ومعه هؤلاء الأربعة عبر طريق 'Saw mill river parkway'. وبعد أن ترك حسين والأربعة الآخرون قنابل زائفة فى معبد ريفر ديل ومركز ريفر ديل اليهودى، اللذين لا يفصل بينهما سوى صف واحد من المباني، كشفت وحدة شرطة ضخمة عن وجودها: فقد أغلقت نصف حفارة خاصة نهاية الشارع وأغلقت عربة مدرعة النهاية الأخرى؛ وهاجمت مجموعة من الضباط الذين يرتدون ملابس مدنية المشتبه فيهم، وأخرجت مسدساتها، وحطمت نوافذ مركبات المشتبه فيهم، وأخرجت الرجال منها. وفى غضون ساعة، كان العمدة مايكل بلومبيرج، وراى كىلى رئيس جهاز الشرطة، والمسؤولون المنتخبون المحليون، ومسؤولو الشرطة يقفون فى مكان الحادث وأمام آلات التصوير التلفزيونية، يمتدحون إلقاء القبض على المجرمين الخطرين وتجنب ما وصفه العمدة بأنه شيء " كان يمكن أن يصبح حادثاً رهيباً فى مدينتنا "^(٤٣).

وهذا هو شبح " الإرهاب الإسلامى " المبقى عليه حيا.

مشهد الإرهاب

فى العالم الخيالى الذى صوره المسلسل التليفزيونى '٢٤'، يتدخل عميل الحكومة جاك باور (الذى أدى دوره كيفر ساندلاند) لإنقاذ مدنيين أبرياء من مخططات إرهابية شيطانية ومدمرة. وقد نال هذا المسلسل تقديرات عالية واستمر لمدة ثمانية مواسم،

بحيث أصبح أطول مسلسل درامى عن التجسس عرضه تليفزيون الولايات المتحدة (٤٤). ورغم محاولات المسلسل أحيانا أن يصور مسلمين "أخيارا"، ويصور زعماء أمريكيين أشراراً، فقد عزز مفهومه المحورى فكرة أن مخططات الإرهاب هى مخططات عميمة وأن عملاء مكافحة الإرهاب من أمثال باور ضروريون لإبقاء الأمريكيين سالمين. وهذا العالم الخيالى يعززه الواقع فى حالات من قبيل حالات أربعة نيويورك، التى لم تعزز فيها التغطية الإعلامية الخانعة إلا مخاوف المشاهدين والخوف الجنونى من عميمة "الإرهاب الإسلامى".

ويشير داونز إلى هذا التلاعب بالرأى العام بأنه "أوبرا ضخمة ساخرة" يصف ألياتها على النحو التالى:

تبدأ الدراما فى كثير من الأحيان عندما يبعث مكتب التحقيقات الفيدرالى بعشرات من عملائه لإلقاء القبض على المتهمين، وتفتيش المسجد، واستجواب مئات من الأصدقاء والجيران المنعورين بطريقة تهدف إلى تخويف المجتمع المحلى. ... وفى المحاكمة، كثيرا ما تنتشر الحكومة عددا مبالغا فيه من أفراد الأمن لتخويف أفراد هيئة المحلفين ووسائل الإعلام كى يعتقدوا أن المتهمين خطرون فعلا. ويكون هناك وجود ضخم للشرطة حول المحكمة، مع وجود قناصة فوق الأسطح. (من هم أولئك الذين يُفترض أن يطلقوا الرصاص عليه؟) وكثيرا ما تطلب الحكومة محلفين وشهودا مجهولى الهوية، وتستدعى خبراء مزيفين، يكونون أساسا معبرين عن أصوات الحكومة، للشهادة بشأن "شبكة إرهابية" خيالية قد تشمل المتهمين. وتقدم الحكومة إلى القاضى أدلة "سرية"، حصلت عليها من المراقبة الإلكترونية غير القانونية، كى تؤثر على حكم المحكمة، وتحول تون اطلاع ممثل الدفاع على تلك المواد أو اعتراضه عليها، وتستخدم المواد التى حصلت عليها من هذه المصادر السرية للظعن فى شخصية المتهم، حتى عندما تكون تلك المواد لا صلة لها بالتهمة الموجهة له. وبهذه الطريقة، تخلق الحكومة جوا من الهستيريا والبلبلة للتغطية على عدم وجود أى دليل جوهري على ارتكاب جريمة حقيقية (٤٥).

ونادراً ما يشكك الصحفيون الذين ينتمون إلى وسائل الإعلام العامة فى هذه "الأوبرا الضخمة"، ومن ثم يظل قائماً وهم أن العاملين فى مجال إنفاذ القانون

" يبقون على أمريكا آمنة" من حشود " الإرهابيين الإسلاميين" البرابرة. ولكن حتى بمساعدة هذا الخداع الدقيق ونظام عدالة بأكمله يلوى عنقه لخدمة احتياجات الحرب على الإرهاب، لم تتمكن الحكومة إلا من إصدار نحو ٢٠ عريضة اتهام سنويا بشأن مخططات إرهابية عنيفة، وفقا لتقرير من المركز الثلاثي المعنى بالإرهاب وأمن الوطن^(٤٦)، ولا يتضح من هذا التقرير عدد نواتج الإيقاع فى الفخ أو أساليب المقاضاة الاستباقية الأخرى. غير أن ما هو واضح هو وجود فجوة ضخمة بين التهديد كما يصورُ وواقع " الإرهاب الإسلامى ". فمن الأمريكين الذين قتلوا فى عام ٢٠١١ و١٤ ألفا، لم تكن هناك حالة وفاة واحدة ناجمة عن " مخططات المسلمين الإرهابية"^(٤٧).

وقد حددت دراسة شاملة للأمريكين المسلمين الذين خططوا هجمات إما محليا أو دوليا أو الذين انضموا إلى جماعات مدرجة على القائمة الحكومية للمنظمات "الإرهابية" خلال الفترة ما بين سبتمبر ٢٠٠١ ومايو ٢٠١١ ما مجموعه ١٧٢ شخصا مشتبهها فى أنهم إرهابيون أو ارتكبوا أعمال إرهاب^(٤٨)، ومن أولئك، شن ١١ شخصا فقط بالفعل هجمات داخل الولايات المتحدة، وكانوا مسؤولين عن وفاة ثلاثة وثلاثين شخصا آخرين خلال عقد من الزمان. فماذا عن البقية؟ من الحالات المذكورة فى القائمة وعددها ١٧٢ حالة، كان تسعة وعشرون لا يزالون رهن المحاكمة وقت نشر الدراسة. وكانت ثلاث وستون حالة تنطوى على مخبر سرى، ويذكر التقرير أن الدفاع عن عملية الإيقاع بالمتهمين لم ينجح فى هذه الحالات. وقد حضر أربعة وستون من الأشخاص الوارد ذكرهم فى التقرير " معسكرات تدريب للإرهابيين" فى أفغانستان أو باكستان أو الصومال، وإن كان التقرير يوضح أن معظمهم " لم يتلقوا تدريبا ميدانيا"^(٤٩)، ومن هؤلاء الأربعة والستين، عاد ثلاثون فقط إلى الولايات المتحدة. وأخيرا، يذكر التقرير أنه " ما من أمريكى مسلم صدرت ضده عريضة اتهام لمساعدته أو تحريضه عن علم على هجمات ١١ سبتمبر"^(٥٠)، وإجمالا، قتل ١١ شخصا ترد أسماؤهم فى هذه القائمة ثلاثة وثلاثين شخصا خلال الفترة ما بين عام ٢٠٠١

وعام ٢٠١١. ولكي ننظر إلى هذا من المنظور الصحيح، خلال نفس الفترة حدثت مائة وخمسون ألف جريمة قتل في الولايات المتحدة.

وقد يقول قائل إن سبب قلة الوفيات الناجمة عن " الإرهاب الإسلامي " هو أن العاملين في مجال إنفاذ القانون قاموا بعمل رائع. ولكن كما شاهدنا من قبل، وكما يؤكد هذا التقرير، جرى الإيقاع بعدد كبير من " الإرهابيين المسلمين " في الفخ أو اشتركوا في معسكر تدريب فحسب. وعلاوة على ذلك، في الساحات الدولية الخارجة عن اختصاص إنفاذ قوانين الولايات المتحدة، نجد أن الأرقام مماثلة لتلك المذكورة أعلاه. ففي عام ٢٠١٠، وهو آخر عام تتوافر عنه إحصاءات، كان عدد المدنيين الأمريكيين الذين قُتلوا على نطاق العالم من جراء أعمال مرتبطة بالإرهاب هو خمسة عشر، وفقا للتقارير القطرية عن الإرهاب^(٥١)، الصادرة عن وزارة الخارجية؛ وقُتل جميعهم باستثناء اثنين في أفغانستان في ظل احتلال الولايات المتحدة/حلف شمال الأطلسي لها^(٥٢)، وفي حقيقة الأمر، كان عدد الأمريكيين الذين لقوا مصرعهم من جراء البرق وعقر الكلاب في عام ٢٠١٠ أكبر من عدد الأمريكيين الذين لقوا مصرعهم من جراء الإرهاب^(٥٣)، والأهم من ذلك أن دراسة لكلية الطب بجامعة هارفارد وجدت أن خمسة وأربعين ألفاً من الأمريكيين يموتون سنوياً نتيجة إلى حد كبير لعدم وجود تأمين صحي لهم^(٥٤)، فعدد الأمريكيين الذين يموتون سنوياً نتيجة لعدم وجود تأمين صحي لهم يفوق خمس عشرة مرة عدد الأمريكيين الذين لقوا مصرعهم في أحداث ١١ سبتمبر، ومع ذلك لا توجد حرب على صناعة الرعاية الصحية التي تستهدف الربح، ولا يُبذل أى جهد لإنقاذ أرواح هؤلاء الأشخاص بتقديم الرعاية الصحية المجانية والجيدة لهم.

فالحرب الداخلية على الإرهاب لا تتعلق حقاً، إذا نظرنا إليها من المنظور الصحيح، بإبقاء الأمريكيين سالمين بقدر ما تتعلق بإيجاد حالة خوف. فإثناء الحرب الباردة، كانت المدارس تُجرى بشكل روتيني عمليات تدريب على " الاحتماء والتستر "

كان الطلبة والمدرسون يختبئون فيها تحت المناضد، لحمايةهم فيما يُفترض من عصف في حالة شن هجوم نووي من الاتحاد السوفييتي. وأيا كانت الفوائد الهامشية للاحتماء تحت منضدة، فإن القدرة على النجاة من قنبلة نووية تتوقف على بُعد المرء عن العصف، ولا تتوقف على الأثاث. وكان الهدف الحقيقي من هذه الأنشطة هو إبقاء خطر الهجوم حيا وبيث الخوف والهلع الجنوني. وفي عهد الحرب على الإرهاب، حققت غرضاً مماثلاً " مستويات خطر الإرهاب" ذات الرموز اللونية (التي أنهيت في نهاية المطاف عام ٢٠١١) وإعلانات " إذا رأيت شيئاً، قل شيئاً" الموجودة في المطارات ومحطات مترو الأنفاق وذلك بإيجادها مشهداً إرهابياً. وتغطية وسائل الإعلام العامة لـ " خطط الإرهاب التي أجهضت" التي ينسقها العاملون في مجال إنفاذ القانون تعمل فحسب على تعزيز هذا الجو.

ورغم ذلك المشهد والطابع المؤسسي لممارسات إنفاذ القانون العنصرية، هناك عناصر داخلية ترى أن هذه الممارسات تمثل إشكالية. فعندما طلبت وزارة العدل إلى وكالات إنفاذ القانون المحلية تجميع الرجال المهاجرين واستجوابهم، رفض رؤساء أجهزة الشرطة في ديترويت وبورتلاند وتاسون أن يشاركوا في ذلك، قائلين إن لديهم خطوطاً توجيهية صارمة تمنع هذا التصنيف العنصري. وحاججوا أيضاً بأن هؤلاء الرجال يجرى استهدافهم ليس للاشتباه في ارتكابهم أى مخالفة بل بسبب بلدهم الأصلي^(٥٥)، وللإبقاء على الخوف حيا، يتعين القضاء على هذه المقاومة، أيا كانت هزيلة. وأحد سبل القيام بذلك هو طرح نظريات علمية زائفة تزعم التنبؤ بالسلوك البشرى. فنظريات التحول إلى الراديكالية التي استخدمها العاملون في مجال إنفاذ القانون بعد أحداث ١١ سبتمبر تستند إلى فكرة إمكانية فهم العملية التي يتحول بها الناس إلى العنف " باستخدام الإسلام كمبرر إيديولوجي أو ديني"^(٥٦)، والأهم من ذلك أن نماذج التحول إلى الراديكالية تزعم قدرتها على التنبؤ بالسلوك في المستقبل، مما يبسر تفعيل التصنيف العرقي والمقاضة الاستباقية وبيبرهما.

نظريات التحول إلى الراديكالية

فى عام ٢٠٠٧، أعدت إدارة شرطة مدينة نيويورك وثيقة بعنوان " التحول إلى الراديكالية فى الغرب: التهديد الداخلى المنشأ "، زعمت فيها أن هناك أربع مراحل للتحول إلى الراديكالية هى: ما قبل التحول إلى الراديكالية، والتحديد الذاتى للهوية، والتلقين العقائدى، والجهاد^(٥٧)، ووفقا لهذا النموذج، يندرج جميع المسلمين الذكور الشباب الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى وأسر مهاجرة ضمن مرحلة ما قبل التحول إلى الراديكالية. وإيجازا، فإن مجرد الانتماء لهذه الفئة يضع المرء على سير ناقل موجه نحو " التحول إلى الراديكالية " فإذا عن فرد من أفراد هذه الفئة أن يكف عن التدخين والشرب ولعب الميسر وأن يبدأ فى إطلاق لحيته وارتداء ملابس إسلامية تقليدية فإنه فى هذه الحالة يكون على المسار السريع نحو اكتساب "الإيديولوجيا السلفية الجهادية " التى تضعه فى المرحلة التالية: " التحديد الذاتى للهوية". ومن الخصائص الأخرى لـ " التحديد الذاتى للهوية" الوعى السياسى والنشاط المجتمعى. وتقول لنا إدارة شرطة مدينة نيويورك إن الشخص، عند بلوغه المرحلة الثالثة، وهى مرحلة " التلقين العقائدى"، يكون قد انسحب من المسجد وأصبح مُسيّسا حول مجموعة من المعتقدات الجديدة التى تقضى به إلى المرحلة الرابعة، وهى "الجهاد"، التى يصبح عندها جاهزا للتخطيط لهجوم إرهابى. وتشمل الدلائل على بلوغ هذه المرحلة الرابعة إجراء بحوث على الإنترنت، والقيام بنشاط استطلاعى، وحياسة مواد. وبينما يذكر التقرير عدم وجود ملامح معينة للإرهابى المحتمل، فإن محور تحليله يدور تماما حول إيجاد ملامح من هذا القبيل والتنبؤ بنشاط الإرهابيين المحتملين. ويذكر التقرير، استنادا إلى بيانات من عشر حالات فقط، أن هناك " اتساقا ملحوظا فى سلوك ومسار كل خطة من الخطط عبر المراحل المختلفة" وأن " هذا الاتساق يوفر أداة للتنبؤ"^(٥٨)، وهذه النظريات تُستخدم لتبرير نوع برنامج التنميط البشرى الذى نوقش من قبل، حيث يجرى إرسال مخترقين إلى المكتبات، والمراكز المجتمعية، والمساجد، و " البؤر الساخنة" الأخرى التى يقضى فيها المواطنون والمهاجرون المسلمون أوقاتهم.

ولا يلزم أن يكون لدى المرء شهادة دكتوراه فى علم الاجتماع أو علم النفس ليدرك أن هذا هو نموذج سلوك عنصري متأصل مفعم بمعايير مزبوجة. فعلى سبيل المثال، لا يحدث نفس النوع من المراقبة فى أوساط المسيحيين البيض، حتى على الرغم من وجود منظمات إرهابية استعلائية للبيض فى الولايات المتحدة منذ أمد طويل. فقد حذّر تقرير صدر عن وزارة أمن الوطن فى عام ٢٠٠٩ من عنف جماعات البيض الاستعلائية: "إن الخطر الذى تمثله الجماعات المنعزلة والخلايا الإرهابية الصغيرة أوضح الآن مما كان فى السنوات السابقة. وإضافة إلى ذلك، يثبت أن الانتخاب التاريخى لرئيس أمريكى أفريقى واحتمال حدوث تغييرات فى السياسة هو قوة دافعة لتجنيد المتطرفين اليمينيين وجعلهم راديكاليين"^(٥٩)، ويعتبر التقرير أيضاً التراجع الاقتصادى وانعدام الأمن الاقتصادى عاملين يحفزان على نمو الإرهاب الداخلى. ومن الاختلافات الرئيسية بين تقرير وزارة أمن الوطن وتقارير إدارة شرطة مدينة نيويورك المذكورة أنفا كون العرق والجنس والديانة أمورا عرضية فى تحليل إدارة أمن الوطن. فبينما يتحدث ذلك التحليل عن سياسة جماعات البيض الاستعلائية المناهضة للسود والمناهضة للمهاجرين وكرهها للأجانب وتأييدها لحيازة السلاح، فإنه لا يقفز إلى استنتاج وجود عملية من أربع خطوات للتحويل إلى الراديكالية تبدأ بكون الشخص ذكراً مسيحياً أبيض البشرة. وبطبيعة الأمر، لا يوجد برنامج لاختراق جماعات المسيحيين البيض للوقوف على الطريقة التى يأكل بها هؤلاء الرجال الخطرون، أو يمارسون العبادة، أو يلعبون، أو يتسوقون.

بل وحتى عدا عن عدم تصنيف جميع الرجال المسيحيين البيض، يحترم العاملون فى مجال إنفاذ القانون الحريات المدنية لجماعات أقصى اليمين. ولا توجد مقاضاة استباقية لهذه الجماعات، التى تشمل طائفة إيديولوجية واسعة النطاق تضم الاستعلائيين البيض، والمتعصبين المناهضين للحكومة، والكثير من نوى الميول الأصولية المسيحية، حتى وإن كانت جماعات كثيرة من هذا القبيل تشكل "ميليشيات" وتقيم معسكرات تدريب شبه عسكرية بصفة منتظمة. وكما يلاحظ داونز، "لا أحد

يضايقهم لأن التلقين العقائدي والتدريب على استخدام الأسلحة يمثلان حرية الكلام التي يحميها الدستور وممارسةً للحق في حمل السلاح الذي ينص عليه التعديل الدستوري الثاني. ولا يحدث اجتياز للخط الفاصل الجنائي إلا عندما تتأمر هذه الجماعات لارتكاب جريمة محددة. ومع ذلك، تمثل المقاضاة الاستباقية استثناءً خاصاً بالمسلمين^(٦٠)، وإيجازاً، بينما يُسمح للاستعلانيين البيض بأن يتدربوا باستخدام أسلحة في مواقع بمختلف أنحاء الولايات المتحدة، إذا امتلك مسلم أمريكي عادى بنفس القدر سلاحاً، فإنه يُعتبر موضع شبهة. وكما يشير تقرير "الاستهداف والإيقاع في الفخ"، تشمل "الأدلة" التي تُستخدم بشكل روتيني في قضايا المحاكم لإثبات التحول إلى الراديكالية والتهيؤ المسبق لارتكاب أعمال عنف من قبل المسلمين مواد من قبيل أشرطة الفيديو المتسمة بالعنف، أو الخطب الدينية الراديكالية، أو الأسلحة^(٦١).

وازواج المعايير والطابع المؤسسي للعنصرية إزاء المسلمين لا يمكن أن يكونا أكثر وضوحاً من ذلك. ومع هذا، فإنني سأستخلص، من أجل القارئ المتشكك، أدلة من تقرير بعنوان "إعادة التفكير في الراديكالية" أعده مركز برينان للعدالة التابع لكلية الحقوق بجامعة نيويورك. فالتقرير مستمد من "دراسات لعلماء نفس، وعلماء اجتماع، ودوائر الأمن في المملكة المتحدة، وخبراء الأمن" ليدلل على أن السلوك البشري معقد وأنه لا يمكن أن يُختزل في برنامج من أربع خطوات أو في نظرية "السير الناقل الديني"^(٦٢)، فقد تبين من دراسة متعمقة أجرتها وكالة M15، وهي وكالة مخابرات بريطانية، عدم وجود "مسار وحيد للتطرف" وأن المسارات التي تدفع الناس إلى تبني العنف معقدة^(٦٣)، وذكرت دراسة لوزارة الدفاع الأمريكية صدرت في عام ٢٠١٠ أن "تحديد الأشخاص الذين يُحتمل أن يشكلوا خطورة قبل أن يتصرفوا هو أمر صعب. ويتضح من الدراسات التي تجرى بعد وقوع الحدث أن الأشخاص الذين يرتكبون أعمال عنف يكون لديهم عادة عامل واحد أو أكثر من عوامل العنف. غير أن قلة من الأشخاص الذين لديهم عوامل خطر [يرتكبون أعمال

عنف] فعلا^(٦٤)، وخلصت دراسة أكاديمية أجريت برعاية وزارة أمن الوطن إلى أنه "لا يوجد مسار واحد، لا توجد ملامح مسارات" للتحويل إلى الراديكالية السياسية. بل توجد مسارات مختلفة كثيرة... ولا تشمل بعض هذه المسارات وجود الأفكار الراديكالية أو النشاط الراديكالي في الطريق نحو ارتكاب عمل راديكالي، ومن ثم لا يمكن فهم تقدم التحويل إلى الراديكالية على أنه مجموعة لا تتغير من الخطوات أو المراحل التي تبدأ من التعاطف إلى الراديكالية"^(٦٥).

ويقول تقرير برينان إن هناك اختلافات داخل أوساط العاملين في مجال الأمن والعاملين في مجال إنفاذ القانون بشأن مسألة التحويل إلى الراديكالية. فإدارة شرطة مدينة نيويورك (وكذلك غيرها من وكالات إنفاذ القانون المحلية) ومكتب التحقيقات الفيدرالي يروجان لنماذج للتحويل إلى الراديكالية قائمة على مراحل تضع الإسلام في "صدارة وبؤرة تحليلهما"^(٦٦)، ومن الناحية الأخرى، نأت وزارة دفاع الوطن ونأى المركز القومي لمناهضة الإرهاب بنفسيهما عن هذا النهج المرحلي، مؤكداً تعقد العملية. وذكرنا أيضاً أنه بينما يمكن استخدام الإسلام لتبرير أعمال الإرهاب، فإن التحويل إلى الراديكالية لا يسببه الإسلام. وبينما يتفق جميع الأطراف داخل مؤسسة الأمن القومي على نظرية التحويل إلى الراديكالية وضرورة اعتقال "الإرهابيين المسلمين"، فإنهم يختلفون بشأن التنفيذ العملي. وهنا نرى انفصالا بين الجناح المحافظ في جهاز إنفاذ القانون وما يمكن أن نسميه جناحاً "واقعيًا"، وهو انفصال مماثل لما يوجد في مؤسسة السياسة الخارجية. ووجود آراء موازية من هذا القبيل داخل أوساط العاملين في مجال إنفاذ القانون من الصعب أن يكون مدعاة للاندهاش، بالنظر إلى الروابط القائمة بين المؤسسة السياسية والمؤسسة العسكرية والنظام القانوني. إذ ينتقل الأفراد في كثير من الأحيان من مجال إلى الآخر حاملين معهم خلفياتهم ووجهات نظرهم. فعلى سبيل المثال، سبق لنحو ثلث موظفي مكافحة الإرهاب الذين يعملون في مكتب التحقيقات الفيدرالي أن خدموا عسكرياً في الشرق الأوسط^(٦٧).

فى النظام الجديء للهرب على الإرهاب جرى تكيف وكالات إنفاذ القانون من أجل استهداف " الإرهابيين الإسلاميين" الموجودين وسطنا. وأثناء تدخل حلف شمال الأطلنطى فى ليبيا عام ٢٠١١، وضع مكتب التحقيقات الفيدرالى قوائم بالليبيين المقيمين فى الولايات المتحدة من أجل استجوابهم، مدلا بذلك مرة أخرى على الصلات بين مكافحة الإرهاب الداخلية فى الولايات المتحدة والتدخلات العسكرية فى الخارج^(٦٨)، وعندما تخوض الولايات المتحدة حرباً ضد عدو أجنبى، فإنها تخوض حربا لا مهالة على العدو المتصور فى الداخل، وهو ما لا يشمل أفراد جماعات عرقية أو قومية معينة فحسب بل يشمل أيضاً منشقين من جميع الأجناس. فالغاية النهائية هى كسب الموافقة على أجنءة إمبريالية من خلال عملية تنسق الخوف من العدو فى الداخل وتجهز انتقادات بناء إمبراطورية. وكما سنشاهد فى الفصل التالى، فإن الحملة العامة حول " الإرهاب الداخلى المنشأ" زادت أكثر أثناء رئاسة أوباما.

الفصل التاسع

الربيع الأخضر : صنع العدو المسلم الداخلي

عندما ألقى القبض على امرأة صغيرة الحجم وشقراء وذات عينين خضراوين من فيلادلفيا بتهمة تتعلق بالإرهاب فى عام ٢٠١٠ بذلت وسائل الإعلام محاولة جبارة لشرح وفهم ما حدث، إذ إن كولين لاروز، التى أطلق عليها اسم "جين الجهادية"، لم تكن تشبه على الإطلاق ما كانت تلك الوسائط تتوقع أن يكون عليه شكل المشتبه فى كونهم إرهابيين. وانطوت لوثة وسائل الإعلام التى أعقبت ذلك على الكثير من هز اليدين والبحث النفسى المتعمق لتفسير سبب اعتناق امرأة أمريكية تماما مثلها الإسلام وتورطها فى "خطط إرهابية". وخلصت قناة "سى إن إن (CNN) إلى أن "توجيه اتهام رسمى إلى جين الجهادية يبذل أى فكرة لدينا مفادها أننا نستطيع أن نتعرف على إرهابى بمجرد مظهره"^(١)، والمنطق الذى يقوم عليه هذا التفكير هو أنه من الصحيح التعرف على الرجال نوى البشرة السمراء كإرهابيين من خلال مظهرهم فحسب، على الرغم من أن الإرهابيين، الذين يبدو أنهم موجودون فى كل مكان، تكون أشكالهم وأحجامهم وألوان بشرتهم متعددة.

وما يلقى هذا الحدث الضوء عليه هو أنه بحلول نهاية العقد الأول بعد أحداث ١١ سبتمبر حدث تحول فى لغة فوبيا الإسلام شدد على العدو الموجود فى الداخل. فبينما كانت فوبيا الإسلام فور وقوع أحداث ١١ سبتمبر تركز إلى حد كبير على العدو "المتربص هناك"، الذى يتعين على الولايات المتحدة فيما يُفترض أن تخوض حرباً

ضده بدءاً من أفغانستان إلى العراق لحماية نفسها، أصبح العدو الآن داخل حدود البلد. وكانت نبرة الحقبة السابقة، التي حددها جورج بوش، هي "إننا نقاتلهم هناك حتى لا نضطر إلى مقاتلتهم هنا"^(٢)، وقد ذكر بوش، في خطاب ألقاه في ويست بوينت عام ٢٠٠٢، "علينا أن ننقل المعركة إلى العدو، ونُحدث خلافاً في خطه، ونجابه أسوأ التهديدات"^(٣)، وكان "الإرهابيون" الموجودون وسطنا هم أولئك الذين جرى إرسالهم من الخارج "ويكرهون حرياتنا". ومن ثم، حتى على الرغم من أن آلافاً من العرب والمسلمين الأبرياء جرى تصنيفهم تصنيفاً عرقياً في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، كما شاهدنا، فإن التشديد لم يكن منصباً على "الإرهاب الداخلي المنشأ".

فهذا التحول حدث حوالى عام ٢٠٠٩، عندما حدثت قفزة في عدد الأمريكيين المسلمين الذين وُصفوا بأنهم "إرهابيون داخليو المنشأ". ففي ذلك العام، أُدرج ثمانية وأربعون أمريكياً مسلماً (عُرِّقوا بأنهم أولئك الذين بقوا في الولايات المتحدة مدة طويلة) ضمن إحصاءات الإرهاب، مقابل اثنين فقط في عام ٢٠٠٨^(٤)، ومصدر هذه القفزة في العدد هو إدراج سبعة عشر أمريكياً صومالياً زُعم أنهم انضموا إلى حركة "الشباب" في الصومال^(٥)، وأدت هذه الأرقام إلى نشوء خطاب يدور حول "الإرهاب الداخلي المنشأ".

والحركة المضادة للإسلام وممارسته في الولايات المتحدة لم تكن على نفس درجة الخشونة التي كانت تتسم بها تلك الحركة في أوروبا. فاستناداً إلى تاريخ العنصرية ضد المسلمين الذي دام قروناً والذي وردت مناقشته في الفصل الأول، استغل المحافظون الأوروبيون الفرصة التي أتاحتها أحداث ١١ سبتمبر وشنوا حملتهم، قائلين إن المسلمين لم "يندمجوا" على النحو الصحيح في المجتمع ولذا فإنهم عرضة للدعاية الإسلامية. وبدأوا في إدخال تدابير لنبذ المسلمين وحظر ارتداء الحجاب، والمآذن، ورموز الإسلام الأخرى. وردد الليبراليون والديمقراطيون الاجتماعيون هذه الحجج، مشددين على حدود التعددية الثقافية والحاجة إلى الحفاظ على مثل الاستنارة الأوروبية^(٦).

وهذا البُعد من أبعاد فوبيا الإسلام لم يزدهر فى الولايات المتحدة إلا فى نهاية العقد، عندما تعرضت المساجد والمراكز المجتمعية الإسلامية للهجوم، بدءاً من كاليفورنيا وانتهاءً بنيويورك. وقد حاولت شبكة من دعاة فوبيا الإسلام اليمينيين إطلاق العنان للعنصرية المناهضة للمسلمين منذ أحداث ١١ سبتمبر تقريباً من خلال سلسلة من الحملات ضد الأساتذة الجامعيين العرب، والمراكز المجتمعية الإسلامية، والمدارس، ولكن نفاذهم إلى المجال العام لم يحدث إلا بعد أن مهد دعاة فوبيا الإسلام الليبراليون السبيل لهم. فالرئيس أوباما كشف، مستغلاً ثورة وسائل الإعلام حول " الإرهاب الداخلى المنشأ "، الستار عن " استراتيجيته بشأن أفغانستان - باكستان " وأعلن عن خطط لإرسال مزيد من الجنود إلى أفغانستان وزيادة هجمات الطائرات بدون طيار على باكستان. ودق الإمبرياليون الليبراليون ودقت وسائل الإعلام العامة ناقوس الخطر بشأن " الإرهابيين فى وسطنا "، مما أتاح لـ " المحاربين دعاة فوبيا الإسلام " الذين يمثلون أقصى اليمين الفرصة التى كانوا ينتظرونها. وفى صيف عام ٢٠١٠ نجحوا فى تضخيم الجدل بشأن " مسجد جراوند زيرو " (الذى ترد مناقشة له بالتفصيل أدناه) بدرجة أثارت الخوف والكراهية ضد الأمريكيين المسلمين ورموزهم الثقافية والدينية. وأعقبت ذلك حملة مضادة للشريعة، دفعت نحو ٢٠ ولاية إلى النظر فى حظر استخدامها فى نظام العدالة. وبحلول نهاية العقد، كان التحول إلى الداخل قد اكتمل، بمولد " رعب أخضر " جديد أشبه بالرعب الأحمر الذى ساد إبان الحرب الباردة.

ويبين هذا الفصل تشريح هذا الرعب الأخضر.

صنع الرعب الأخضر

فى عام ٢٠٠٩، ألقى القبض على العديد من المواطنين أو المقيمين إقامة قانونية فى الولايات المتحدة بدعوى صلاتهم بنشاط " إرهابى ". وفى الجزء الأخير من السنة أصبحت هذه قضايا بارزة لفتت انتباه وسائل الإعلام بصورة مستمرة (٧). وفى أعقاب

لوثة وسائط الإعلام هذه مباشرة، أعلنت إدارة أوباما في ديسمبر ٢٠٠٩ عن خطط لتصعيد الحرب في أفغانستان بإرسال مزيد من الجنود وبشن مزيد من الهجمات بواسطة الطائرات بدون طيار على باكستان، فيما أصبح يسمى " استراتيجية أفغانستان - باكستان". وكان " رئيس السلام" قد فشل، بعد انقضاء عام كامل على رئاسته، في الوفاء بما وعد به في حملته الانتخابية من إغلاق معتقل خليج جوانتانامو ووقف انتهاكات الحريات المدنية التي أطلق لها بوش العنان. وساعد خطر " الإرهابي الداخلي المنشأ" الذي أوجته وسائط الإعلام على الإبقاء على الوضع القائم.

وكانت الحالة البارزة الأولى هي حالة نجيب الله ظاظمي، وهو مواطن أفغانى ومقيم في الولايات المتحدة إقامة قانونية ألقى القبض عليه في سبتمبر ٢٠٠٩ بتهمة التآمر لاستخدام أسلحة دمار شامل. ثم جاءت بعد ذلك حالة ديفيد كولمان هيدلى، وهو مواطن أمريكى ألقى القبض عليه في أكتوبر بتهمة التخطيط لمهاجمة صحيفة دانمركية. وفي ديسمبر، تكشف أن هيدلى ربما يكون قد تآمر مع وكلاء جماعة " عسكر طيبة"، وهي جماعة باكستانية، في هجمات مومباى التي حدثت عام ٢٠٠٨، وفي مارس ٢٠١٠ اعترف بأنه مذنب في جميع التهم الموجهة إليه في محكمة هندية.

وفي ٥ نوفمبر، قتل الرائد نضال مالك حسن ثلاثة عشر شخصا وجرح ثلاثين في فورت هود خارج مدينة كيلين، بولاية تكساس. وركز السيرك الإعلامى الذى أعقب ذلك على ديانة حسن وواصل اتجاه الربط بين الإسلام والعنف^(٨)، وفي وقت لاحق من ذلك الشهر، وجهت الحكومة الفيدرالية اتهامات رسميا إلى ثمانية أشخاص في مينيسوتا بدعوى تجنيدهم زهاء ٢٠ شخصا من الأمريكين الصوماليين (مواطنين ومقيمين إقامة قانونية) كى يقاتلوا مع جماعة متمردة فى الصومال. وفى شهر ديسمبر ذلك، ألقى القبض على خمسة شبان من شمال فيرجينيا فى سارجودها، بباكستان، بتهمة السفر إلى هناك للقتال إلى جانب مقاتلى طالبان فى أفغانستان.

ومع أن أيا من قضايا " الإرهاب الداخلي المنشأ" المذكورة أعلاه لم يفتقر إلى معاملة وسائط الإعلام له معاملة تنطوي على إثارة، فإن قضية " جين الجهادية" هي التي أثارت أكبر ضجة. فبينما حفزت قضية فيرجينيا على التكهن في الصحافة بالسبب المحتمل لنقل خمسة شبان " عاديين" للقتال مع طالبان، لقيت فكرة احتمال ذلك بالنسبة للشبان المسلمين قبولا. فجنس لاروز وأصلها العرقى وخلفتها " العادية" في بنسلفانيا هي أمور كانت تعنى أن أى أحد يمكن أن يكون إرهابيا. وشجّع " الرعب الأخضر" الأمريكيين على أن يعتبروا ليس فحسب المسلمين بل أيضا أى أحد يعتقد الإسلام بمثابة تهديد، تماما كما كان الحال بالنسبة للرعب الأحمر في الحقبة الكارثية الذى تخيل أن الجواسيس الشيوعيين يتربصون فى كل حى.

وهذه القضايا، التى توالى بسرعة، حفزت على سرعة استحداث معجم إعلامى جديد يدور حول " الإرهاب الداخلى المنشأ". وكانت صحفية واشنطن بوست نموذجا لذلك: فقد كتبت تقول " إن الاعتقالات جاءت فى وقت يتزايد فيه القلق بشأن الإرهاب الداخلى المنشأ بعد عمليات إطلاق النار فى قاعدة فورت هود العسكرية بولاية تكساس [من قبل حسن] وتوجيه اتهامات هذا الأسبوع ضد رجل من شيكاغو [هيدلى] بأداء دور فى الهجمات الإرهابية التى حدثت العام الماضى فى مومباي"^(٩)، وحتى على الرغم من إلقاء القبض على عشرات من الأمريكيين المسلمين فى الماضى، مع وجود أساس هزيل أو عدم وجود أى أساس فى كثير من الأحيان، فإن هذا الاهتمام المستمر يصور المسلمين المواطنين والمقيمين إقامة قانونية على أنهم أعداء للدولة، مما يمثل منعطفًا جديدًا فى خطاب الحرب على الإرهاب. إذ كان يجرى تمهيد السبيل للرعب الأخضر الجديد.

وأسوأ تعبير عن هذا الرعب الأخضر صدر على لسان تنكو فراداراجان الأستاذ بجامعة نيويورك. فقد قال فراداراجان، فى مقالة بعنوان " انتهاج سلوك المسلم"، نُشرت فى مجلة " فوربس " عام ٢٠٠٩، إن ما أدى إلى الفاجعة التى حدثت فى قاعدة فورت هود العسكرية لم يكن التحرش العنصرى الذى واجهه حسن فى الجيش أو

الضغط الذى يسبب شللا انفعاليا والتاجم عن عمله كطبيب نفسى فى الجيش مثقل بالعمل، بل كان حالة يقول إنها متأصلة فى جميع المسلمين: وهى الميل نحو العنف^(١٠)، وهو يقول إن حسناً لم " ينتهج سلوك رجل البريد " - أى أنه لم يصب بانهيار ويصبح عنيفا (وهذا المصطلح أصبح شائعا بعد أن أطلق موظف بريد النار فى عام ١٩٨٦. على أشخاص). وقال فراداراجان إن حسنا كان ببساطة يطبق، بدم بارد وبطريقة محسوبة، تعاليم الإسلام. فكما صور فراداراجان الأمر، كان حسن "ينتهج سلوك المسلم". وكما قال فراداراجان، " هذه العبارة [انتهاج سلوك المسلم] تصف تطور الأحداث الذى انطوى على تخرى أمريكى مسلم مندمج ظاهريا - بائع دونات وود فى نيويورك، مثلا، أو ضابط فى جيش الولايات المتحدة فى قاعدة فورت هود - عن اندماجه البادى فى المجتمع الأمريكى واختياره الدفاع عن ديانتته فى عمل من أعمال العنف الاستشهادى ضد زملائه الأمريكين."

وإجازا، يرى فراداراجان أن الأمريكين المسلمين جميعهم " ينطون على عنف وشيك"، وبينما يبدو أنهم مندمجون فى المجتمع الأمريكى، فإنهم فى حقيقة الأمر قنابل زمنية ستنفجر حتما فى ثورة غضب عنيف وقاتل. ومنطق العنصرية البيولوجية يرتبط هنا بمنطق العنصرية الثقافية. فالإرهابى الناشئ داخليا، الذى يعرف بأنه أسمر البشرة وذكر ومسلم، يتسم بالعنف بطبيعته على الرغم من جميع المظاهر التى تدل على العكس. وما يجعل " أولئك الأشخاص"، ومن بينهم شخص أبيض أحيانا مثل لاروز، يشكلون تهديدا هو ديانتهم؛ فالإسلام يبرمجهم على القيام بعمليات قتل وضرر متعمد، مثل المرشحين المنشوريين الجهاديين. وكان فراداراجان يردد فحسب، عندما ساق هذه الحجة، منطق " المقاضاة الاستباقية" ونظريات التحول إلى الراديكالية التى طالما استخدمها جهاز إنفاذ القانون. وقد أتاحت قضيتنا حسن وظاى ("بائع الدونات الوود") والهستيريا العامة التى دارت حول الإرهاب " الداخلى المنشأ" حيزا للتعبير عن هذه الحجج فى المجال العام.

أما الرئيس أوباما - الذى لديه عدة أقارب مسلمين وعاش فترة من حياته فى إندونيسيا (وهو البلد الذى يوجد فيه أكبر عدد من المسلمين فى العالم) ويُفترض فيه أنه يعرف أفضل مما يظهره - فقد استخدم هذه القضايا التى سلّطت الأضواء عليها فى خطاب أُمّاط فيه اللثام عن استراتيجيته لتصعيد الحرب فى أفغانستان، وذلك بدلا من أن يقوم بصد هذه العنصرية. وقد يتكهن المرء بأن البيت الأبيض الذى كان يتلطف على شحن الرأى العام تأييدا لزيادة عدد الجنود بمقدار ثلاثين ألفاً ربما كان قد شجع حتى وسائل الإعلام المطواعة على تكريس اهتمام لـ "الإرهاب الداخلى المنشأ". فقد ذكر أوباما فى خطاب ألقاه فى ويست بوينت: "إننى مقتنع بأن أمننا تتعرض للخطر فى أفغانستان وباكستان، فهذه هى بؤرة التطرف العنيف الذى تمارسه القاعدة. ومن هنا هوجمنا فى ١١ سبتمبر، ومن هنا يجرى التخطيط لشن هجمات جديدة بينما أتحدث الآن. وهذا ليس خطرا تافها؛ وليس تهديدا افتراضيا. فى الأشهر القليلة الماضية وحدها، ألقينا القبض على متطرفين داخل حدودنا جرى إرسالهم إلى هنا من منطقة الحدود الأفغانية والباكستانية من أجل ارتكاب جرائم إرهابية"^(١١)، ويستغل خطاب أوباما جو الخوف الذى توججه التغطية المتواصلة والمستمرة لقضايا ظاهري وهيدلى وفيرجينيا، التى جرى الربط بينها جميعها وبين أفغانستان وباكستان. ومن ثم فإن إشارة أوباما إلى "المتطرفين الموجودين داخل حدودنا" أضافت إلى الطنطنة بشأن الخطر الجسيم الذى يشكله الإرهاب و"التطرف العنيف" فيما يُفترض بالنسبة لمواطنى الولايات المتحدة، وهو تهديد أجوف بدرجة لا تبرر إرسال عدد إضافي من الجنود قدره ثلاثون ألفاً إلى أفغانستان.

إلا أن الواقع يتحدى هذه الطنطنة، مثلما يبيّن الفصل الأخير من هذا الكتاب. ومن المثير للاهتمام اعتراف مؤسسة راند هى نفسها، وهى مؤسسة يمينية، بأن الخطر الذى يمثله "الإرهاب" بالنسبة للأمريكيين محدود. فقد ذكر جريجورى تريفيرتون، فى صحيفة لوس أنجلوس تايمز، إن عدد الأمريكيين الذين قتلوا فى هجمات إرهابية على نطاق العالم لم يتجاوز قط المائة فى السنوات الخمس التى انقضت منذ عام ٢٠٠١، وكان عددهم يتجاوز بالكاد العشرات فى بعض السنوات.

ولنقارن هذا العدد بعدد أولئك الذين قتلتهم الأعاصير وعددهم ٦٣، وأولئك الذين لقوا مصرعهم فى حوادث درجات وعددهم ٦٩٢، وأولئك الذين لقوا مصرعهم فى حوادث مرتبطة بالمركبات وعددهم ٦١٦، ٤١^(١٢).

وفى عام ٢٠٠٩، ذكرت وزارة الخارجية أن عدد الأمريكيين الذين قُتلوا فى ذلك العام فى مختلف أنحاء العالم نتيجة للإرهاب كان مجموعهم الكلى لا يتجاوز تسعة. وأصيب أربعة عشر شخصا، واختُطف أربعة أشخاص^(١٣)، ولكى ننظر إلى تلك الأرقام من المنظور الصحيح، أفاد مكتب إحصاءات العمل بحدوث ٤ ٣٤٠ حالة وفاة فى عام ٢٠٠٩ نتيجة لأحداث تتعلق بمكان العمل أو للتعرض للخطر فى مكان العمل^(١٤)، ويبلغ عدد الوفيات الناجمة عن حوادث السيارات ٣٠ ٧٩٧^(١٥)، ومع ذلك لم يعلن أحد الحرب على مؤسسات العمل أو على الشركات التى تصنع السيارات. والأدهى من ذلك أن تقريراً عن الإرهاب أصدرته وزارة الخارجية فى أبريل ٢٠٠٩ يذكر أن " القاعدة ... والشبكات المرتبطة بها ظلت تخسر أرضاً، بنيوياً، وفى محكمة الرأى العام العالمى على السواء." ومع ذلك، أكد التقرير أن هذه المنظمات " ظلت تمثل أكبر تهديد إرهابى للولايات المتحدة وشركائها"^(١٦)، وهذا كله لا يكشف الانفصام بين الطنطنة والواقع فحسب بل يكشف أيضا آليات تعبئة سياسة قائمة على الخوف. ويجدر التشديد على أن التهديد الذى يمثله الإرهاب هو أزمة مصنطنة، بمعنى أنها أزمة مفيدة لتبرير الحرب ومواصلة انتهاكات الحريات المدنية داخليا. والرعب الأخضر مفيد الآن بقدر ما كان الرعب الأحمر مفيدا أثناء الحرب الباردة.

والطابع الجوهرى الذى ينطوى عليه تصوير جميع المسلمين بفرشاة الجهاد العنيف يناسب تماما طنطنة المستشرقين بشأن " صدام الحضارات". وكان هذا بمثابة مشكلة بالنسبة لإدارة أوباما، التى كانت تبذل وقتئذ جهدا متضافرا لتحريف تلك الحجة فى صالح استراتيجية " مناهضة التمرد"، التى نوقشت فى الفصل السابع. وقد أصدر مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية تقريرا حدد فيه الخطوط العريضة لقضيتى ظاظى وهيدلى وقال إن على الولايات المتحدة، مع حاجتها إلى قمع " التحول

الراديكالى للإنترنت، أن توازن هذا بجهود لـ " خرق " نظرية " صدام الحضارات " - ليس لأنها نظرية قابلة بطبيعتها للاعتراض عليها بل لأن القاعدة تستخدم نفس الحجة فى جهودها لتجنيد أفرادها^(١٧)، وهذا التوازن يتطلب قدرا من البراعة الخطابية، وهى خاصة من خواص الإمبرياليين الليبراليين فى إدارة أوباما، الذين كانوا قادرين بالفعل على استخدامها.

ومن ثم يشير التقرير مؤيدا إلى أن " مسؤولى البيت الأبيض قد نبذوا بالفعل عبارات من قبيل "الحرب على الإسلام الراديكالى". بيد أن معدى التقرير يضيفون أن هذه اللفتات الخطابية غير كافية بالنظر إلى واقع الحرب. فالتحدى الرئيسى هو "كيفية موازنة الحاجة إلى مكافحة الإرهاب العالمى (والمعنى المقصود هنا هو توسيع نطاق الإمبراطورية) بتقهقرات فى التدخل العسكرى المباشر الواسع النطاق" (والمقصود هنا هو الخسائر الواسعة النطاق ومشاكل الاحتلال). وكان هذا هو التحدى الذى ورثته إدارة أوباما. وعلى الرغم من التخلي المتعمد عن استخدام عبارات من قبيل " الحرب على الإرهاب " والتخفيف من بعض أسوأ أشكال الطنطنة التى تتم عن فوييا الإسلام من قبل إدارة بوش، فإن التحديات الإمبريالية، وكذلك فشل استراتيجية مناهضة التمرد فى السنوات اللاحقة، قد أعاد فى نهاية المطاف إدارة أوباما إلى مكافحة الإرهاب ووطننتها المقابلة.

الجدل بشأن "مسجد جراوند زيرو"

كانت النتيجة الفورية للهستيريا بشأن " الإرهابى الداخلى المنشأ " هو أن دعاة الخوف من الإسلام الذين يمثلون أقصى اليمين (ويرد المزيد عنهم فى الفصل التالى) الذين عقدوا الأمل طويلا على السيطرة على النقاش القومى استطاعوا أن يحققوا ذلك. فقد احتلوا بؤرة المسرح فى أعقاب جدل تسببوا فيه يدور حول تشييد مركز مجتمعى إسلامى فى منطقة جنوب مانهاتن. وفى عام ٢٠٠٩، اقترح الإمام فيصل

عبد الرؤوف، الذى كان إماما فى منطقة جنوب.مانهاتن منذ أكثر من ربع قرن، تشييد مركز على غرار مركز الشبان المسيحيين الكائن فى الشارع رقم ٩٢ والمركز المجتمعى اليهودى فى مانهاتن. وكان الهدف من المركز المقترح هو العمل على زيادة فهم طائفة المسلمين. ويشير اسم المركز، وهو دار قرطبة، إلى مدينة قرطبة، بإسبانيا، التى كانت مركزا ثقافيا رئيسيا تابعا للإمبراطورية الإسلامية التى حكمت شبه جزيرة أيبيريا (انظر الفصل الأول). ولم تكن قرطبة تمثل أوج تطور فكرى فقط بل كانت تمثل أيضا حقبة تعايش سلمى فيما بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

وكان الإمام رؤوف، الذى يصف نفسه بأنه "مسلم معتدل"، يتصور وجود مركز مجتمعى يضم مرافق ترويحية من قبيل حمام سباحة، وملعب لكرة السلة، وجيمانزيوم، ومدرسة لتعليم فن الطهى، واستوديوهات فنية، ومركز لرعاية الطفل، فضلاً عن مكان للصلاة تشتد الحاجة إليه من أجل المسلمين المقيمين فى الحى. وكانت خطته هى تمكين الناس الذين ينتمون إلى جميع الأديان من التفاعل. ورؤوف شخصية من شخصيات المؤسسة أجرى تمارين لصالح مكتب التحقيقات الفيدرالى ووزارة الخارجية منذ أحداث ١١ سبتمبر؛ وقد أشرنا إليه فى الفصل السابع فيما يتعلق بالمشورة التى قدمتها فى عام ٢٠٠٧ المجموعة التى تضع السياسة بشأن تحسين علاقات الولايات المتحدة مع "العالم الإسلامى".

وكان المعتقد هو أن عهد أوباما سيكون عهدا يمكن أن يعيد فيه "المسلمون الأختيار" تشكيل الأجندة السياسية. وعندما نشرت صحيفة نيويورك تايمز تحقيقا إخباريا فى صفحتها الأولى بشأن دار قرطبة فى ديسمبر ٢٠٠٩، كانت النبرة العامة إيجابية، حتى وإن كانت قد أشارت بقدر من القلق إلى ما قد يعنيه بناء مركز مجتمعى إسلامى على مقربة شديدة من جراوند زيرو. فقد صرح رؤوف لصحيفة نيويورك تايمز بقوله "إننا نريد درء المتطرفين"^(١٨)، وأعربت أم أحد ضحايا أحداث ١١ سبتمبر أيضا على الملأ عن تأييدها للمركز الإسلامى^(١٩)، وأعرب مايكل بلومبيرج عمدة مدينة نيويورك عن تأييده للمشروع، وكذلك مسؤولو المدينة. وحتى لورا إنجراهام، مذيعة

نشرة الأخبار فى محطة فوكس التليفزيونية اليمينية، بدت غير مضطربة: ففى مقابلة مع ديزى خان الشريكة فى تأسيس دار قرطبة أجريت فى ديسمبر ٢٠٠٩، أعربت إنجراهام عن تأييدها للمشروع. وذكرت لخان، حتى مع قولها إن بلدانا غالبية سكانها من المسلمين، بدءا من المملكة العربية السعودية إلى لبنان، متعصبة ضد المسيحيين، "لست أجد أشخاصا كثيرين لديهم اعتراض حقا على المشروع. ... ويروق لى ما تحاولين القيام به"^(٢٠).

وفى ٦ مايو ٢٠١٠ صوتَ المجلس المجتمعى لمدينة نيويورك مؤيدا بالإجماع للمشروع. وكما وثق جاستين إيليو، مندوب صحيفة SALON، المسألة، لم يصبح مشروع دار قرطبة مشروعاً جدليا حتى^(٢١). مايو ٢٠١٠، ٢١ فاستجابة لقرار المجلس المجتمعى، نشرت بامبلا جيلير، وهى من المونين اليمينيين، مقالة بعنوان "مسجد وحشى يشق طريقه فى ظل الموت والدمار الإسلاميين اللذين حدثا فى مركز التجارة العالمى". وكتبت تقول فى تعليقها "هذه هى السيطرة والتوسع الإسلاميان. فالموقع لم يُحددُ بمحض الصدفة. تماما مثلما أقيم مسجد الأقصى فوق قمة المعبد فى القدس". وفى اليوم التالى، شنت جماعتها 'أوقفوا أسلمة أمريكا SIOA، حملة شعارها: "أوقفوا بناء المسجد ٩١١!"^(٢٢). وبينما لم تكن هذه هى المرة الأولى التى نُشرت فيها مدونات جماعات دعاة الخوف من الإسلام المنظمة عن المركز المجتمعى، فإن اللحظة التى تنتظرها تلك الجماعات جاءت فى نهاية الأمر فى أعقاب الهستيريا بشأن "الإرهاب الداخلى المنشأ"، التى أفسحت مجالا لمن يمثلون أقصى اليمين لتأجيج نيران العنصرية.

ودعت حركة "أوقفوا أسلمة أمريكا"، التى يستند اسمها إلى فكرة أن المسلمين يتآمرون من أجل السيطرة على الولايات المتحدة، إلى احتجاج فى ٢٩ مايو ضد ما أسمته جيلير "المسجد الوحشى ٩١١". وجيلير من المعجبين بجيرت ويلدرز، السياسى الهولندى الذى يمثل أقصى اليمين (ويبادلها هو نفس الشعور، بالنظر إلى دعايته الزاعقة للكتاب التى اشتركت فى تأليفه بشأن رئاسة أوباما) ومن المعجبين بالفاشيين

الصرحاء وعصابات الشوارع من قبيل رابطة الدفاع الإنجليزية التي تهاجم المسلمين والمهاجرين بشكل روتيني، وقد زعمت يوما ما أن السود في جنوب أفريقيا يشنون "إبادة جماعية" ضد البيض^(٢٣)، وقد كتبت، باعتبارها صهيونية عتيدة، عمودا في صحيفة إسرائيلية أشارت فيه إلى مصطلح "فلسطيني" قائلة إنه مصطلح "زانف" وحضت الإسرائيليين على "تعليق صوتكم والصمود بفخر. وعدم التخلي عن أى شيء. وعدم تحريك قطعة حجر. ومقابل كل صاروخ يُطلق، ألقوا قنبلة تفرغ هوائى. واستردوا غزة، وقوموا بتأمين يهودا والسامرة"^(٢٤).

ولاحقا، بدأت صحيفة نيويورك بوست تنشر مقالات نقلت باستفاضة ما قالته جيلير وطنظنتها اللاذعة. وزعمت إحدى المقالات كذبا أن الموعد المحدد لافتتاح دار قرطبة هو ١١ سبتمبر ٢٠١١، ويقول إليوت إن هذه هي اللحظة التي انتشر فيها هذا الخبر انتشار الحريق الجامح، بحيث نال اهتماما إعلاميا ليس فحسب في 'فوكس نيوز' وغيرها من المنافذ المحافظة بل أيضا في وسائل الإعلام العامة. ومع ذلك، حتى في هذه المرحلة، كان المركز المجتمعي لا يزال بعيدا عن أن يصبح رمزا "لعدم حساسية" المسلمين. فعندما هاجم مارك ويليامز، وهو أحد زعماء حركة 'حزب الشاي'، الإمام رؤوف، انتقد ساسة مدينة نيويورك وويليامز وأكدوا تأييدهم للمركز^(٢٥)، وكانت المقالات التي نشرها وويليامز في مدونته خسيصة. فقد كتب يقول: "إن حيوانات الله الذين يُعتبر أى يوم بالنسبة لهم يوما عظيما لارتكاب مذبحه يسيل روالهم على الاستجابة الإيجابية التي يحصلون عليها من مسؤولي مدينة نيويورك بشأن اقتراح بناء صرح مكون من ١٣ طابقا لمسلمي ١١ سبتمبر الذين اختطفوا ٤ طائرات. وسيتكون الصرح من مسجد من أجل عبادة إله الإرهابيين القرد و 'مركز ثقافى' للدعاية لإبادة جميع الأشياء التي لا توافق عليها جماعتهم"^(٢٦).

وواصل أقصى اليمين حملته الممولة تمويلا جيدا ضد المركز المجتمعي الإسلامى. واستغلت المدونة المحافظة "Pajamas Media"، التي حصلت على ٣.٥ ملايين دولار من أوبرى تشيرنيك، وهو من دعاة الخوف من الإسلام سيئى السمعة وصهيونى

يميني، موقعها لمعارضة إقامة المركز المجتمعي^(٢٧)، وكتب فرانك جافني، وهو من المحافظين الجدد، في يونيو يقول إن "مسجد جرواند زيرو مصمم لأن يكون رأس جسر دائمة للشريعة في وجهنا، ومنصة لبث الإلهام بطموحات المؤمنين الظاهرة"^(٢٨)، وردد نيوت جينجريتش هذه النقطة على شاشات "فوكس نيوز"، قائلا إن المركز يمثل "انتصار" المسلمين^(٢٩)، وكان هناك تنسيق جيد لنقاط الحديث؛ فقد استخدم دانييل بايس، وهو من المحافظين الجدد، نفس الصيغة اللغوية، قائلا إن المبنى "يفوح منه الانتصار الإسلامي"^(٣٠)، ولكن هذا النمط الهجومي لم يقتصر على عالم "فوكس نيوز" و "واشنطن تايمز" و "نيويورك بوست" الإعلامي اليميني فعندما ضم نيوت جينجريتش وسارة بالين أصواتهما، امتد "الجدل" إلى المجال العام. فقد تبجح جينجريتش قائلا "إن النازيين لا يملكون حق وضع لافتة على مقربة من متحف محرقة اليهود في واشنطن. ولن نقبل أبدا أن يقيم اليابانيون موقعا على مقربة من بيرل هاربر"^(٣١)، وإيجازاً، استغلت الشخصيات السياسية مصداقيتها لإضفاء الشرعية على تبجحات أقصى اليمين.

وبعد مايو، بدأ يتزايد أكثر فأكثر عدد الأصوات الناقدة للمشروع التي تجد مأوى لها في وسائط الإعلام العامة. ودخلت رابطة مناهضة التشهير الموالية لإسرائيل بثقلها، قائلة إن بناء المركز "في ظل" مركز التجارة العالمي أمر ينم عن عدم الحساسية لأنه سيسبب ألماً لضحايا أحداث ١١ سبتمبر^(٣٢)، ووصف رودى جوليانى المسجد بأنه "تدنيس"^(٣٣)، ومن المؤكد أن بعض وسائط الإعلام العامة دافعت عن المسلمين والمركز، وعن صورة الولايات المتحدة بالتالي كمجتمع متسامح متعدد الأعراق. فقد دافع العمدة بلومبيرج عن المركز في خطاب ألقاه بينما بدأ تمثال الحرية في الخلفية أثناء إلقائه له^(٣٤)، واتخذت شخصيات ليبرالية عامة من أمثال كيث أولبرمان وجون ستيوارت وستيفين كولبرت موقفا صارما أيضاً ضد المتعصبين وفضحت العنصرية الكامنة في لب مشروع أولئك المتعصبين.

ونشرت صحيفة " نيويورك تايمز " تحقيقا إخباريا في صفحتها الأولى بعنوان "عندما انتعش جيب عربى فى منطقة جنوب المدينة"، ساقته فيه فكرة أن العرب (والمسلمين) يشكلون جزءا لا يتجزأ من المجتمع الأمريكى^(٣٥)، ونشرت مجلة " تايم " تحقيقا أشارت إليه على غلافها وتساءلت فيه قائلة " هل أمريكا لديها رهاب من الإسلام؟"^(٣٦)، وتحت هذا التساؤل الذى نُشر على الغلاف كان هناك رمز الإسلام، وهو الهلال والنجمة، مملوءا بعلم الولايات المتحدة. بيد أن هذه التغطية كانت متناقضة. فبينما دافعت مجلة " تايم " عن المسلمين ضد الهجمات العنصرية، لم تبين مقاتلتها الصلات بين رهاب الإسلام والحرب على الإرهاب. وعلاوة على ذلك، نشرت المجلة قبل بضعة أسابيع فحسب من صدور هذا الغدد صورة على غلافها لامرأة أفغانية مجدوعة الأنف، بعنوان " ما يحدث إذا انسحبنا من أفغانستان"، معززة بذلك الصلة بين الإسلام والعنف ضد المرأة ومرددة فى الوقت ذاته حجة " العبء الواقع على عاتق الرجل الأبيض" القديمة^(٣٧).

وقد نجحت محاولة أقصى اليمين وصمّ المركز بأنه " مسجد الانتصار" لأنها استندت إلى الهستيريا الإعلامية التى أوجتها إدارة أوباما فى الأشهر السابقة. فثوبه الهياج التى دارت حول " الإرهاب الداخلى المنشأ" فتحت الباب، وكانت المسألة مسألة وقت فقط قبل أن يتدخل أقصى اليمين راقصا (أو ربما بخطوة الأوزة). وهذه القوى، إلى جانب قطاعات من الحزب الجمهورى، حققت نجاحا كبيرا فى تحديد شروط الجدول لدرجة أن نسبة تتراوح من ٥٤ إلى ٦٨ فى المائة من الأمريكين أعربت عن معارضتها لتنفيذ المشروع فى موقعه المقترح^(٣٨)

وهذه المعارضة نشأت إلى حد لا يستهان به نتيجة للدور الذى لعبه ساسة الحزب الديمقراطى، الذين كانت مواقفهم بشأن المركز المجتمعى تتراوح من الحياد إلى العداء على طول الخط. وكانت استجابة نانسى بيلوسى، رئيسة مجلس النواب، هى التساؤل عن تمويل المعارضة للمشروع. وفى اليوم التالى أضافت قائلة إن موقع المشروع هو

"قرار محلي" وإن حرية الديانة هي حق دستوري^(٣٩). بيد أن هذا الدفاع الفاتر نوعا ما بدا شاحبا مقارنةً بالوطننة التي لجأ إليها الجانب الآخر.

فقد قرر هارى ريد، زعيم الأغلبية ونظير بيلوسى فى مجلس الشيوخ، أن يعلن معارضته للمشروع، قائلا إنه يعتقد، على الرغم من أن التعديل الدستوري الأول يحمى حرية الديانة، أن "المسجد ينبغي بناؤه فى مكان ما آخر"^(٤٠)، وقال جيف جرين، الذى كان يخوض الانتخابات الأولية لمجلس الشيوخ، إن "المنطق البديهي واحترام أولئك الذين فقدوا أرواحهم وأجسادهم يوفران سببا معقولا يدعو إلى بناء المسجد فى مكان ما آخر"^(٤١)، ثم جاء هوارد دين، الديمقراطي الليبرالى، الذى قال إن هذا المشروع "يمثل إهانة حقيقية لأولئك الذين فقدوا أرواحهم" فى هجمات ١١ سبتمبر. وقال، فى مقابلة أجرتها معه محطة إذاعة نيويورك، إنه يود أن يرى المركز وقد بُنى فى موقع آخر أقل إثارة للجدل^(٤٢).

ومع تكشف أبعاد هذا النقاش غير المتوازن، أدخل الرئيس أوباما تحفظا على أقواله السابقة المؤيدة للمشروع بقوله إنه بينما يؤكد حقوق جميع الناس الدينية فإنه لا يعلق بقوله هذا على "حكمة اتخاذ قرار بناء مسجد هناك"^(٤٣)، وسرعان ما تكيف أوباما مع الضغط اليميني؛ فعندما أعلن تيرى جونز، القس الذى يقيم فى فلوريدا، عن خطته لحرق القرآن فى ١١ سبتمبر لم يقل أوباما إن هذا عمل كرهه، وإنه يشكل تعديا على الحرية الدينية، أو إنه يعيد إلى الأذهان عمليات حرق الصليبان التى قامت بها جماعة الكلوكلاكس كلان فى الجنوب، بل قال إنه يعرض للخطر "الأمن القومى وسيضع جنود الولايات المتحدة الموجودين فى العراق وأفغانستان" فى طريق الأذى: "وهذا يمكن أن يؤدي إلى زيادة تجنيد أفراد سيكونون على استعداد لنسف أنفسهم فى مدن أمريكية أو مدن أوروبية"^(٤٤)، وأجج فحسب استدعاء أوباما لشبح القنابل البشرية فى مدن أمريكا مرجل الكراهية النابعة من رهاب الإسلام.

فقد أظهرت استطلاعات للرأى العام أجريت فى منتصف عام ٢٠١٠ أن ما يقرب من ٢٠ فى المائة من الأمريكيين كانوا يعتقدون أن أوباما "مسلم سرا" وأن هذا يجعله

غير صالح كرئيس. واختار أوباما، بدلا من الطعن في افتراضات متهميه العنصرية، أن يؤكد أوراق اعتماده كمسيحي. ولم يؤد هذا الموقف سوى إلى إضفاء مصداقية على فكرة وجود خطأ ما في أن يكون المرء مسلما. وإيجازاً، ومع بضعة استثناءات (من قبيل كيث إليسون، وهو أول مسلم يُنتخب في الكونجرس)، تحول الإمبرياليون الليبراليون في الحزب الديمقراطي إلى أقصى اليمين بشأن هذه المسألة. ولذا، ليس مما يدعو للدهشة أن اليمين استطاع أن يحدد شروط النقاش.

تصاعد شبكة فوبيا الإسلام

إن الجدل بشأن دار قرطبة لم يكن، بطبيعة الأمر، أول هجوم لأقصى اليمين على المسلمين. فكما يقول ماكس بلومينثال، إن الجدل بشأن "مسجد جراوند زيرو" هو "ثمرة حملة منظمة طويلة الأجل من جانب اتحاد كونفيدرالي محكم يضم النشطاء والعناصر الفاعلة التابعة للجنح اليمينية الذين ركزوا في البداية على فوبيا الإسلام بعد هجمات ١١ سبتمبر مباشرة، ولكنه لم يكتسب كتلة حرجة إلا أثناء عهد أوباما"^(٤٥)، وهو يفسر ذلك قائلاً إن الجهود بدأت في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، عندما تكون ائتلاف مكون من جماعات يهودية تتراوح من رابطة مناهضة التشهير إلى اللجنة اليهودية الأمريكية وإلى لجنة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية للتصدى لما اعتبرته زيادة مفاجئة في النشاط الموالي للفلسطينيين في الجامعات. وكان المستهدفون الرئيسيون في الجامعات هم المتخصصون في شؤون الشرق الأوسط الذين طعنت أعمالهم في السرد اليميني للسياسة المتعلقة بالشرق الأوسط بوجه عام وللنزاع العربي - الإسرائيلي بوجه خاص.

ووفر كتاب مارتين كيرمر "الأبراج العاجية المقامة على الرمال: فشل دراسات الشرق الأوسط في أمريكا" (الذي نُشر عام ٢٠٠١) الذخيرة الفكرية اللازمة لسوق حجة مفادها أن باحثي شؤون الشرق الأوسط لا أمريكيون بسبب انتقاداتهم لإسرائيل

وللسياسة الخارجية للولايات المتحدة^(٤٦)، فقد أصدر كريمير، الذى درس على يد برنارد لويس، كتابا أجاج محاولة لاستهداف الفكر الانتقادى وقمعه. وكما يقول جويل بينين، " إن ما يضىفى عليهم جسارة هو صلاتهم بالمسؤولين فى المستويات العليا والمتوسطة فى إدارة بوش "، ولا سيما صلاتهم بالمحافظين الجدد الذين يتشاطرون معهم رؤيتهم العالمية^(٤٧). وهو يضيف قائلا إن " المحافظين الجدد لديهم صلات سياسية أقوى كثيرا من الصلات السياسية التى أستطاعت اللجنة اليهودية الأمريكية ورابطة مناهضة التشهير ولجنة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية أن تعبئها. " ولكن هذه الوحدة لم تكن من قبيل المصادفة. بل إذا كان لويس وزكريا وغيرهما هم الأساس الفكرى الذى جرى حشدده لصياغة الحرب الدعائية بعد أحداث ١١ سبتمبر (على النحو الذى جرت مناقشته فى الفصل السابع)، فإن كريمير ودانييل بايبس وديفيد هورويتز وغيرهم عملوا كنشطاء فى العالم يحاصرون الفكر الانتقادى. وكانت مهمتهم هى كفالة أن تظل صفة الحرب على الإرهاب لا جدال فيها وعدم تشكيك الباحثين الذين توجد لديهم المعرفة والقدرة اللازمتان لفضح الأكاذيب فى دعايتهم. بل إن بوش رشع بايبس لشغل مقعد فى مجلس إدارة معهد السلام التابع للولايات المتحدة والممول فيدراليا، الذى كان يُفترض فيه أن ينتج معرفة من أجل المساعدة فى تسوية النزاعات. غير أن ترشيح بايبس أحبط، ولكن هذه الخطوة تمثل ولع المحافظين الجدد بالتحكم فى الفكر.

وقد قام بايبس بعد ذلك بتأسيس الموقع الشبكى 'Campus Watch'، الذى يُجزم بأن باحثى شؤون الشرق الأوسط لا أمريكيون. ويفسر الموقع الشبكى، مستخدما عبارات تكاد لا تخفى عنصريته، سبب احتمال ذلك؛ فقد ذكرت إحدى الصفحات التى نُشرت على الموقع، وأزيلت منذ ذلك الحين، أن " دراسات الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة أصبحت حكرا على عرب الشرق الأوسط الذين " جلبوا آراءهم معهم^(٤٨). " ٤٨ وكانت الخطوة المنطقية التالية هى استهداف العرب. وفى حقيقة الأمر، حدث أول هجوم بارز شنه الموقع الشبكى على جوزيف مسعد الأستاذ بجامعة كولومبيا. وأعد

مشروع ديفيد، وهو جماعة ممولة من مؤسسة "Hillel" تأسست للتأثير صراحة على المناقشات الجامعية بشأن إسرائيل، فيلما وثائقيا بعنوان "Columbia Unbecoming" زعم أن الطلبة اليهود يتعرضون للترويع من قبل الأساتذة العرب وأن الجو السائد في حرم جامعة كولومبيا مفعم بمعادة السامية. وأسهم ديفيد هورويتز في هذا الهجوم بأن وصف مسعدا بأنه "خطير" في كتابه "أساتذة الجامعة: أخطر ١٠١ من أساتذة الجامعة في أمريكا". وانهاالت الأموال من شبكة من المصادر (ترد مناقشتها بمزيد من التعمق في الفصل التالي)، وازداد الضغط على إدارة جامعة كولومبيا. وزاد من تأجيج الحريق أنتوني وينر، عضو الكونجرس الديمقراطي، بدعوته إلى طرد مسعد. ولكن في نهاية الأمر شن طلبة جامعة كولومبيا وهيئة التدريس فيها حملة دفاعا عن مسعد هزمت دعاة الخوف من الإسلام. ولم يفز مسعد بكرسى الأستاذية فقط بل فاز أيضا بجائزة Lionel Trilling ذات المكانة الرفيعة لامتيازه في الدراسة البحثية.

وبالنظر إلى أن مشروع ديفيد لم تردعه هذه الهزيمة فإنه حول اهتمامه إلى جمعية بوسطن الإسلامية، التي كانت تحاول بناء مركز لخدمة المسلمين في روكسبيري. فقد شن مشروع ديفيد حملة دعاوى قضائية ودعاية، زاعما أن المركز يحصل على أموال من مصادر من قبيل جماعة الإخوان المسلمين والوهابيين في المملكة العربية السعودية. وتحركت وسائل الإعلام اليمنية، بدءا من صحيفة بوسطن هيرالد التي يصدرها ميردوخ وانتهاءً بالقنوات المحلية التابعة لمحطة فوكس التلفزيونية. ورددت صحيفة بوسطن جلوب هذه الحجة أيضا في سلسلة من التقارير الصحفية التي ساقته فكرة أن المركز سيصبح مكانا لتدريب خلايا إرهابية سرية^(٤٩).

ومع ذلك فشلت مرة أخرى شبكة دعاة الخوف من الإسلام. وهذه المرة هزمها جهد متعدد الأديان شنه اليهود الليبراليون، الذين نجحوا في درء المتاجرين بالخوف. ففي عام ٢٠٠٨، أقيم المركز المجتمعي؛ ولم يتحقق قط أي من توقعات مشروع ديفيد الرهيبة. ومع ذلك، يقول بلومينتال، "إن الحرب الصليبية المحلية أوجدت مخططا فعلا

لإثارة حالة هستيرية مضادة لإنشاء مراكز إسلامية ومساجد في مختلف أنحاء البلد، مع استقطاب نوعية من الشخصيات التي ستشكل في السنوات المقبلة شبكة مناهضة للمسلمين تلقى اهتماما وتحقق نجاحا^(٥٠).

وفي حقيقة الأمر كان أول نجاح لتلك الشبكة هو حملة ضد ديبى المنتصر، التي كانت ستتولى منصب مديرة أكاديمية خليل جبران الدولية. وقد اقترح بناء هذه الأكاديمية، وهي مدرسة ابتدائية عامة علمانية منهجها إنجليزي - عربى، فى بروكلين كأحدى سبع وستين مدرسة ثنائية اللغة فى منظومة مدينة نيويورك التعليمية. فقد اتهمت ديبى المنتصر، وهي معلمة تنحدر من أصول يمنية وتعمل منذ أمد طويل، بأنها جهادية وأنها أنكرت أحداث ١١ سبتمبر، وكان ذلك الاتهام موجهاً إليها من قبل ائتلاف أوقفوا بناء المدرسة، وهو ائتلاف شنته شبكة دعاة فوبيا الإسلام. فقد وصفت باميليا جيلير، التي كانت تسن أسنانها كمحاربة من دعاة رهاب الإسلام، ديبى المنتصر فى مدونتها بأنها "عارضت الحرب على الإرهاب"، وبأنها كانت مرتبطة بمجلس العلاقات الأمريكية - الإسلامية، بل وواتتها الجرأة لقبول جائزة من هذه الجماعة "الراديكالية". وتمادت باميليا جيلير، كأنما لم يكن ذلك كافيا، بحيث اتهمت ديبى المنتصر بـ "إنكار جريمة الإبادة التي ارتكبت ضد اليهود"^(٥١)، وزعم دانييل بايبس، الذى شارك أيضا فى الحملة ضد مسعد ومركز بوسطن الإسلامى، أنه ينبغي وقف بناء المدرسة لأن "التعليم باللغة العربية محمّل حتما بمضامين القومية العربية والإسلام"^(٥٢)، وبلغت الحملة حد نبرة الحمى عندما وجد دعاة الخوف من الإسلام صورة لقميمص (تى - شيرت) عليها شعار "انتفاضة مدينة نيويورك" أنتجته جماعة النساء العربيات الناشطات فى مجال الفنون ووسائل الإعلام، وهي منظمة نسائية عربية محلية. والصلة الضعيفة بين تلك المنظمة وديبى المنتصر هي تقاسمهما مكتبا مع رابطة الأمريكيين اليمنيين التي كانت ديبى المنتصر عضوا فى مجلسها. وكان هذا هو كل ما يحتاج إليه دعاة الخوف من الإسلام لوصف ديبى المنتصر بأنها جهادية.

وقد نشرت صحيفة 'نيويورك بوست' خبراً ذكر أن القميص (التي - شيرت) كان 'فيما يبدو دعوة إلى انتفاضة على طريقة غزة في مدينة نيويورك'^(٥٣)، وقد رد على محاولات ديبى المنتصر شرح معنى وأهمية مصطلح 'انتفاضة' ناطق باسم رابطة مناهضة التشهير ووصف منظمة النساء العربيات الناشطات في مجال الفنون ووسائل الإعلام بأنها "مؤيدة نشطة لجماعتي حزب الله وحماس الإرهابيين". وتآلف جميع المشتبه فيهم المعتادون وتصاعد الضغط. واضطرت ديبى المنتصر، بعد أن تعرضت لحملة تحرش وترويع شخصيين مكثفة، إلى الاستقالة عندما تراجع مؤيديها السابق العمدة بلومبيرج. وفي نهاية الأمر أنشئت أكاديمية خليل جبران الدولية، وأقامت ديبى المنتصر دعوى قضائية على المدينة، وتعلمت شبكة دعاة الخوف من الإسلام دروساً قيّمة بشأن كيفية شن حملة ناجحة وممارسة الضغط على المسؤولين المنتخبين. ولم يمض وقت طويل حتى واتتهم فرصة أخرى في شكل مشروع دار قرطبة، حتى وإن كان انتصارهم في هذه الحالة جزئياً فقط. فقد استطاعوا أن يسيطروا على الرأي العام. وتصاعدت الاعتداءات على المساجد والمراكز المجتمعية في مختلف أنحاء البلاد، وغير مؤسسو دار قرطبة اسم الدار إلى "Park51" الأكثر محايدة. ومع ذلك، استمرت خطط تشييد المركز وافتتح في نهاية المطاف عام ٢٠١٢.

* * *

لقد ركّز هذا الفصل على التحول الداخلي عن العدو المسلم "المتريص هناك" إلى "الإرهابيين" في أذهاننا. وبينما أدى المحاربون دعاة الخوف من الإسلام دوراً رئيسياً في تكثيف الهجمات على المسلمين، فإنهم لم يكن بوسعهم أن ينجحوا لولا أن دعاة الخوف من الإسلام الليبراليين مهدوا لهم السبيل. فاستراتيجية أوياما المتمثلة في تصعيد الحرب على أفغانستان اعتمدت على وسائل الإعلام العامة لإثارة حالة هستيريا بشأن "الإرهابيين ذوي النشأة الداخلية". وفور رفع الستار، استغل

المحاربون دعاة الخوف من الإسلام (الذين كانوا ينتظرون بشغف في المقصورات، ويقومون ببروفات لاستراتيجيات حملتهم الهجومية ويقومون بضبطها) الفرصة التي حانت لهم بوجود جدل بشأن "مسجد جراوند زيرو". وأتناول في الفصل التالي شبكة دعاة الخوف من الإسلام تلك بمزيد من التفصيل، مبيّنة مصادر تمويلها وصلاتها بمراكز الفكر ومؤسسة السياسة الخارجية.

الفصل العاشر

فوبيا الإسلام والمكارثية الجديدة

بينما كان الجدل الذي أحاط ببناء "مسجد جراوند زيرو" هو الذي وضع أشد دعاة الخوف من الإسلام تطرفا في بؤرة الضوء، فإن الإرهابي اليميني النرويجي أندرس بهرينج بريفيك هو الذي يدينون له بالفضل في جعلهم من الصعب تجاهلهم. فبريفيك، الذي قتل سبعة وسبعين شخصا في حادث تفجير قنبلة وإطلاق النار جماعيا في عام ٢٠١١، استشهد في بيانه بعدة شخصيات بارزة من دعاة رهاب الإسلام. وقد تصدر القائمة روبرت سبنسر (الذي اشترك مع جيلير في تأسيس حركة 'أوقفوا أسلمة أمريكا')، بحيث ذكره بريفيك ١٦٢ مرة في نقده الساخر العنيف المفعم بالكراهية^(١). وفي هذا السياق، نُشرت في عام ٢٠١١ سلسلة من المقالات والتقارير الصحفية التي سعت إلى إلقاء الضوء على الطابع المنظم لشبكة رهاب الإسلام، ومصادر تمويلها، ونطاقها الدولي. فعلى سبيل المثال، ظهر ديفيد بيروشمالي في تقرير صحفي مطول نشرته صحيفة 'نيويورك تايمز' بوصفه العقل المدبر للحملة الصليبية الرامية إلى حظر استخدام الشريعة في محاكم الولايات المتحدة^(٢). ونوقشت توجهات ستيفين إمرسون وفرانك جافني وبييل فرينش في تقرير صحفي تحقيقي بشأن مصادر تمويل دعاة رهاب الإسلام^(٣). ونشر مركز التقدم الأمريكي تقريرا مفصلا بعنوان 'شركة الخوف: جذور شبكة فوبيا الإسلام في أمريكا'^(٤)، قامت بتغطيته قطاعات من وسائل الإعلام العامة.

وكان هذا تطورا محمودا من حيث إن هذه التقارير وغيرها ساعدت على إلقاء ضوء تشتد الحاجة إليه على شبكة دعاة فوبيا الإسلام المتطرفين. بيد أنها لم تصل إلى المدى الكافى. فعلى سبيل المثال، شدد تقرير شركة الخوف، بصورة مستمرة ومتكررة على أن شبكة فوبيا الإسلام تتكون من مجموعة صغيرة محكمة من أفراد لديهم نفوذ يتجاوز أعدادهم. وحتى على الرغم من أن التقرير متعمق إلى حد كبير من حيث إظهاره الصلات بين المتطرفين والمحافظين الجدد، فضلا عن شخصيات سياسية أخرى ومؤسسات محافظة ووسائل إعلام عامة، فإنه أصر مع ذلك على أن دعاة فوبيا الإسلام هم جماعة هامشية خارج نطاق السياسة العامة. وفى نهاية الأمر، حتى وإن كانت هذه التقارير وغيرها مفيدة من حيث فضح آليات دعاة فوبيا الإسلام المتشددين، فإنها قاصرة لأنها لا تبين الطابع المؤسسى للعنصرية المناهضة للمسلمين.

وينبرى هذا الفصل لوضع المتعصبين اليمينييين فى السياق الأوسع نطاقا الذى يعملون فيه. وسأدعى، تشبها بديفيد كوت، أن المتطرفين يعملون على إشاعة جو من الخوف يعزز أهداف الإمبراطورية. فقد أظهر كوت فى كتابه 'الخوف الكبير' أن المكارثية لا تتعلق فحسب بعضو واحد خارج عن السيطرة فى مجلس الشيوخ بل تتعلق بنظام سياسى (يشمل الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء) أتاح لشخصية مثل جوزيف مكارثى أن يحدد الأجندة السياسية. فقد كان مكارثى أداة مفيدة فى الملاحقة القضائية الخاصة بالحرب الباردة، لا سيما فى إشاعة جو من الخوف يمكن فيه المعاقبة على الانشقاق وتحييده. ويؤدى دعاة فوبيا الإسلام اليمينيون دورا مماثلا أثناء حقبة الحرب على الإرهاب. فهم ليسوا "عناصر خارجية أجنبية" بل يظهرون من داخل المؤسسة السياسية، وجهاز الأمن، والأوساط الأكاديمية، ومراكز الفكر، ووسائل الإعلام العامة. ومن ثم، فإن المكارثيين الجدد هم نتاج هياكل الإمبراطورية الأمريكية ويصلحون تماما داخلها ويتمثل دورهم فى تجاوز الحدود، وليسوا على الإطلاق "متسللين" إلى نظام جيد لولا ذلك.

المكارثيون الجدد

توجد أربع مجموعات مترابطة من الأشخاص الذين تكاتفوا لإعطاء صورة شريرة ومخيفة " للعدو المسلم" وإشاعة الخوف والكرهية. وتضم هذه المجموعات أفرادا من معسكر المحافظين الجدد كرسوا أنفسهم لمطاردة " الإرهابى المسلم؛ وصهاينة ينسجم هدفهم المتمثل فى قمع توجيه النقد لإسرائيل مع منطق فوييا الإسلام؛ واليمين المسيحي، الذى انضم إلى صفوف المحاربين دعاة فوييا الإسلام؛ ومجموعة مسلمين (ومسيحيين) سابقين من الشرق الأوسط وجنوب آسيا استفادوا من مهاجمة الإسلام بعنف.

المحافظون الجدد والصهاينة

كان فرانك جافنى ودانييل بايبس اثنين من المحافظين الجدد القيايين الذين ركزوا على سياسة فوييا الإسلام. فقد كان جافنى، كما نُكر من قبل، نائبا لمساعد وزير الدفاع فى عهد ريجان عمل تحت رئاسة ريتشارد بيرل خلال الفترة من عام ١٩٨٣ حتى عام ١٩٨٧ وبالنسبة لجافنى، كان من السهل عليه أن يتحول من محارب فى الحرب الباردة إلى محارب من دعاة فوييا الإسلام. فهو أحد كبار مستشارى مجموعة أمريكيون من أجل الانتصار على الإرهاب (AVOT)، وهى مجموعة تابعة لمشروع 'القرن الأمريكى الجديد' (PNAC)^(٥). وتذكر مجموعة أمريكيون من أجل الانتصار على الإرهاب، التى يرأسها ويليام بينيت، وهو من المحافظين، على موقعها الشبكي أنها "مكرسة للانتصار فى الحرب على الإرهاب" من خلال "تشكيل الرأى العام، والتشجيع على اتباع سياسة خارجية تستند إلى المبادئ التى تأسست أمريكا عليها، وزيادة البحوث بشأن الإسلام والتأسلم، والالتزام الراسخ بالمبادأة بمهاجمة أولئك الذين سيلقون اللوم على أمريكا"^(٦).

ويصور هذا البيان الاستراتيجية التي يتبناها المحافظون الجدد من أجل "كسب" الحرب على الإرهاب. ويتمثل جانب جوهرى من هذه الاستراتيجية فى معركة كسب الرأى العام. فقد عرض المحافظون الجدد بقوة، فى جرائد مؤسسة السياسة الخارجية، رؤيتهم وجادلوا ضد النماذج الأخرى من قبيل النماذج التى يدعو إليها الواقعيون (انظر الفصل السابع). فمقالة كريستول - كاجان المحورية التى نُشرت عام ١٩٩٦ بشأن "الهيمنة العالمية الخيرة"^(٧). لم تحاجج فحسب ضد الواقعية وشددت على أن السيطرة الأمريكية على العالم ستكون خيرة وفى صالح جميع الأمم، بل شددت أيضا على ضرورة كسب تأييد الرأى العام الأمريكى لهذه الفكرة؛ قائلة إن الأمريكين يجب "توعيتهم"، و "إلهامهم" ليتقبلوا مسؤولياتهم الخاصة باعتبارهم من مواطنى الإمبراطورية^(٨). ولم يكن معنى هذا الخدمة العسكرية فقط بل أيضا إيجاد إحساس إيديولوجى "بوجود رسالة" فى التدخلات الإمبريالية، استنادا إلى الإيمان بـ "العظمة الأمريكية"^(٩).

وما الذى كان يمثل سبيلا للترويج لهذه الإيديولوجيا أفضل من خلق عدو يعلو على ما عداه من الأعداء، وهو "الأشرار المسلمون" - و "الفاشيون الإسلاميون" لاحقا - الذين ينبغى لأمريكا، العظيمة والخيرة، أن تثنى الحرب عليهم؟ وقد وفرت أحداث ١١ سبتمبر للمحافظين الجدد العدو الذى كانوا يحتاجون إليه للترويج لرؤيتهم. فكما يقول كوبر، المحافظون الجدد "يشعرون بأقصى درجات الراحة عندما يتوافر لهم ... منافس إيديولوجى يمكن أن يحدوا موقفهم ضده"^(١٠)، وبينما احتفل المحافظون الجدد من أمثال بودهوريتز بانتهاء الاتحاد السوفييتى، يقول كوبر إنه "كان من الواضح أنه أحس بالضياح" لافتقاره إلى غريم جديد^(١١)، وهذا الإحساس ينطبق بوجه عام. فبورين يلاحظ أيضا أثناء إجرائه مقابلات مع شخصيات بارزة من المحافظين الجدد من أجل كتابه "المخططات الإمبريالية" أن "معظمهم كانوا يتلفون على إيجاد بديل للدور المنشط والموحد الذى لعبته الحرب الباردة بالنسبة لهم"^(١٢). وقد اتخذ هذا العدو الجديد شكل الإسلام. فكما يوضح بيان جماعة أمريكيون من

أجل الانتصار على الإرهاب ليس الفصيل العنيف من الحركة الإسلامية فحسب هو الذى ترغب الجماعة فى " إجراء بحوث بشأنه"، بل أيضاً " الإسلام والتأسلم " ككل. ومن ثم ينبغى ألا يكون من دواعى الاستغراب أن يصبح كون المرء مسلماً فحسب أمراً جديراً بالتشكك، وفقاً لهذا المنطق. فقد كان جافنى، تشبهاً بممارسات الكارثيين، واحداً من كثيرين زعموا أن أوباما ربما كان " مسلماً فى السر"^(١٣). والمعنى الضمنى هنا هو، بطبيعة الأمر، أن كونه مسلماً هو سبب كافٍ لعدم الثقة فيه.

وينطوى الجانب الأخير من جوانب استراتيجية مجموعة أمريكيون من أجل الانتصار على الإرهاب على إسكات الآراء المنشقة. فتلك المجموعة لديها، كما يعلن موقعها الشبكي بفخر، " التزام راسخ بالمبادأة بمهاجمة أولئك الذين سيلقون اللوم على أمريكا." وهذا بمثابة إعلان حرب صريح على المسلمين واليسار. فمن يستهدفهم هم أشخاص فى البلدان التى تقطنها أغلبية من المسلمين، لا سيما العرب، واليسار فى الغرب، لا سيما اليسار الأمريكى. وقد حاجج المحافظون الجدد محاجة شديدة بأن الولايات المتحدة كانت قوة من قوى الخير فى الشرق الأوسط وأن الناس فى تلك المنطقة هم لذلك الذين يجب أن يلوموا أنفسهم على حالة بلدانهم. وهذه الحجة لا ينشرها أمثال بايبس ولويس فحسب بل تنشرها أيضاً شخصيات عامة من أمثال فريد زكريا وتوماس فريدمان^(١٤). فأيان حرسى على، وهى من المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالمحافظين الجدد، تضىف شرعية على هذه الحجة من خلال وضعها كـ " مخبرة من أهل البلد". فهى، التى تنحى باللائمة على الإسلام لطفولتها الصعبة فى الصومال (وكل شيء آخر تقريباً)، تقول " لماذا توجد حساسية مفرطة لدى المسلمين إزاء الانتقاد ولماذا لا يفعلون أى شيء بشأنه سوى الاستجابة بنفى مضمونه أو ادعاء أنهم ضحية؟"^(١٥). وإيجازاً، فإن المسلمين الذين يحاولون أن يلقوا باللوم المشروع عند باب الولايات المتحدة يتظاهرون بأنهم الضحية. وتصوّر ذلك بطريقة تنم عن مزيد من الإحساس بالاستعلاء إرشاد مانجى، وهى متعاونة إيديولوجية أخرى مع الإمبراطورية، عندما تطلب إلى " رفاقها المسلمين" أن " ينضجوا"، مصرة بشدة على

أن الولايات المتحدة كانت نصيرة لحقوق الإنسان وأن " لا إسرائيل ولا أمريكا هما السبب في بؤس المسلمين" (١٦).

وقد تصدرت الجماعات التي نوقشت في الفصل السابق مهاجمة اليسار، لا سيما اليسار الأكاديمي، من قبيل مشروع ديفيد وحركة "Campus Watch" فبعد كتاب كريمير ' الأبراج العاجية المقامة على الرمال ' صدر كتاب ' التحالف غير المقدس: الإسلام الراديكالي واليسار الأمريكي ' (٢٠٠٤) لليساري السابق ديفيد هورويتز، ثم كتاب أندرو مكارثي ' الجهاد العظيم: كيف يخرب الإسلام واليسار أمريكا ' (٢٠١٠). فهذان الكتابان يحاولان، استنادا إلى حجة كريمير الجدلية السابقة التي مفادها أن أقسام دراسات الشرق الأوسط في الجامعات ليست محقة بشأن سياسة الولايات المتحدة، إلقاء الشبكة على نطاق أوسع، بحيث أدانا اليسار ككل وصورا وجود تحالف تآمرى بين المسلمين واليسار. وكما شاهدنا في الفصل السابع، يرجع منشأ هذه الحجة إلى ثمانينيات القرن العشرين والمؤتمرات ذات التأثير التي نظمها معهد جوناثان الصهيوني.

وقد مضى بريفيك بهذه الحجة إلى استنتاجها المنطقي عندما قام باغتيال مراقبين في معسكر يديره حزب العمل النرويجي الاجتماعي - الديمقراطي. ومع أن المحافظين الجدد اتصلوا من المسؤولية عن أفعال بريفيك، فإن الهدف الصريح لهجماتهم الإيديولوجية هو إسكات الآراء المنشقة وترويع النشطاء. وعملية الترويع هذه جرى القيام بها من خلال حملات تشويه السمعة والتحرش من جانب دعاة فوبيا الإسلام، ولكن الجهاز القانوني يقوم بها أيضا. فكما ذكر الفصل الثامن، لم يستهدف العاملون في مجال إنفاذ القانون المسلمين والنشطاء المسلمين فحسب بل استهدفوا أيضا الجماعات التقدمية. وهذه الممارسات، التي بدأت أثناء عهد بوش، وسّعت إدارة أوباما نطاقها وعززتها. وهذا ينبغي ألا يثير دهشتنا. فبعد كل شيء. صدر قانون سميث، الذي استُخدم لاضطهاد اليسار أثناء الحرب الباردة، في عهد الرئيس الديمقراطي فرانكلين ديلاانو روزفلت.

وإضافة إلى جماعة 'أمريكيون من أجل الانتصار على الإرهاب'، كان مركز جافنى للسياسة الأمنية فعالا فى الترويج للدعاية المناهضة للمسلمين. فكما يقول مؤلفو كتاب 'شركة الخوف'، مركز السياسة الأمنية هو 'مصدر رئيسى للسياسة والهاقنة الذين ينتمون إلى الجناح اليمىنى وللمنظمات الشعبية التى تنتمى إلى ذلك الجناح، بحيث يزودهم ويزودها بسلسلة منتظمة من التقارير التى تشوه صورة الإسلام وتحذر من أخطار الإسلام والمسلمين الأمريكىين"^(١٧). وإضافة إلى ذلك المركز، فإن المصادر الرئيسية الأخرى للعنصرية المناهضة للمسلمين هى منتدى الشرق الأوسط الذى يعمل فيه بايبس، وحرقة 'Jihad Watch' التى يعمل فيها روبرت سبنسر، وحرقة 'أوقفوا أسلمة أمريكا' التى يتزعمها كل من بامىلا جيلير وروبرت سبنسر، والمشروع التحقيقى بشأن الإرهاب الذى يتزعمه ستيفن إمرسون، و "جمعية أمريكىين من أجل الوجود القومى' التى يتزعمها ديفيد بيروشمالى. فقد نشرت هذه الجماعات، معاً، فكرة وجود مؤامرة من المسلمين للسيطرة على الولايات المتحدة وأن الإسلاميين قد "اخترقوا" جميع مستويات المجتمع. وهى لا تميز بين المسلمين العاديين والإسلاميين، زاعمة أن الأمريكىين المسلمين لديهم روابط مع منظمات إرهابية ويريدون إحلال الشريعة محل دستور الولايات المتحدة. وتتشبهت هذه الجماعات بالدفاع عن أمريكا بقدر تشبثها بالتزامها بالدفاع عن إسرائيل ضد المسلمين والعرب.

ومع أن هذه الحجج لم تتمكن من اقتحام المجال العام إلا بعد أحداث ١١ سبتمبر، فإن تاريخها أطول من ذلك. ففى عام ١٩٩٤، عرضت محطة الإذاعة العامة "PBS" فيلم ستيفن إمرسون 'الجهاد فى أمريكا'، الذى ادعى أن جماعات إرهابية سرية تعمل فى الولايات المتحدة تشكل خطرا جسيما على الأمن القومى. وقد صنع إمرسون اسمه كصحفى عامل فى صحيفة "US News and World Report"، حيث تدرج فى المناصب إلى أن أصبح كبيراً للمحررين فى مجال قضايا الأمن القومى، ثم أصبح يكتب عن الإرهاب لحساب محطة "CNN" ولم يُعرض فيلم 'الجهاد' على شاشة محطة التلفزيون العامة فحسب بل إنه فاز أيضا بجائزة جورج بولك الرفيعة المكانة

كأفضل فيلم وثائقي تليفزيوني. ثم قام إمرسون بعد ذلك بتكوين 'المشروع التحقيقي بشأن الإرهاب' في عام ١٩٩٥ كى يتقياً باستمرار أكبر نظريات التآمر التى تدور حول 'التهديد الإسلامى'. وكان من بين كتبه 'الجهاد الأمريكى: الإرهابيون الذين يعيشون بيننا' (٢٠٠٢)، و'شركة الجهاد: دليل للإسلام المناضل فى الولايات المتحدة' (٢٠٠٦). وبالنسبة لهذه الزمرة، لا يوجد 'مسلمون أخيار'. فعندما عين كريس كريستى أحد المسلمين قاضيا فى ولاية نيوجيرسى، اتهم إمرسون كريستى بأن 'له علاقة غريبة مع الإسلام الراديكالى' (١٨). وتبجحت المدونة ديبى سكلاسل، حتى لا يتفوق عليها أحد، قائلة إن كريستى 'خنزير حلال' وإن القاضى سهيل محمد من مؤيدى حماس (١٩).

وقد كان الجهاز القانونى ساحة هامة لدعاة رهاب الإسلام الذين ينتمون إلى الجناح اليميني. فد يفيد بيروشمالى يعمل مستشارا قانونيا لمركز السياسة الأمنية (CSB). وكان ضالعا بنشاط أيضا فى الجدل حول دار قرطبة بوصفه مستشارا قانونيا لمنظمة 'أوقفوا أسلمة أمريكا' (SIOA). وفى يونيو ٢٠١١، كتب بيروشمالى تقريرا فى صحيفة منتدى الشرق الأوسط التى يصدرها دانييل باييس 'Middle East Quarterly'، استشهد به على نطاق واسع، وزعم فيه أن ٨٠ فى المائة من المساجد الموجودة فى الولايات المتحدة تروج للعنف أو تؤيده (٢٠). بيد أن أهم مساهمة له فى شبكة فوييا الإسلام ربما كانت إرساء الأساس القانونى للحملة المناهضة للشريعة. وقد اشترك بيروشمالى مع فرائك جافنى فى إعداد تقرير بعنوان 'الشريعة: التهديد المائل أمام أمريكا' (٢١). حفز ما يناهز ٢٠ ولاية على النظر فى حظر استخدام الشريعة. وبينما لعب بيروشمالى دورا هاما فى الموجة المناهضة للشريعة، كما يبين الفصل الثامن، فإن الجهاز القانونى ليس معاديا لهذه المواقف. فييروشمالى ليس عنصرا خارجيا بالنسبة لذلك الجهاز يحاول إفساد نظام عادل لولا ذلك باعتباره عنصرا داخليا ومكارثيا جديدا يدفع النظام نحو اليمين بدرجة أكبر.

وقد ساعد ديفيد جوباتز بيروشمالي على جمع معلومات مبكرة بقيادته حملته "عملية مسح للشريعة في أمريكا: معرفة العدو" (٢٢). وكان جوباتز، قبل أن يصبح من المحاربين دعاة الخوف من الإسلام، يعمل في الشرق الأوسط في مكتب التحقيقات الخاصة التابع للسلح الجوى الأمريكى. وقد بنى حياته المهنية بعد أحداث ١١ سبتمبر بزعمه أن الجماعات الداعية إلى الحقوق المدنية للمسلمين من قبيل مركز العلاقات الأمريكية - الإسلامية هي فى حقيقة الأمر واجهات لمنظمات إرهابية. وقد اشترك فى تأليف كتاب 'مافيا المسلمين: داخل العالم السفلى السرى الذى يتأمر من أجل أسلمة أمريكا' (٢٠٠٩)، الذى استخدمه الساسة اليمينيون لاستهداف مركز العلاقات الأمريكية - الإسلامية وجماعات أخرى.

وضم ديفيد هورويتز صوته الحاد إلى هذه الحملة الصليبية بمهاجمته لرابطة الطلبة المسلمين (MSA)، وهى جماعة جامعية لها عشرات الفروع فى الجامعات الموجودة فى مختلف أنحاء البلد. فهورويتز يزعم أن تلك الرابطة "تكذب بشأن مهمتها الأساسية، وهى الدفع بالجهاد الإسلامى ضد يهود الشرق الأوسط ومسيحييه، وضد الولايات المتحدة فى نهاية المطاف. ... ومن دواعى الأسف أن أكاذيب الرابطة (مثل المنظمتين الشقيقتين لها 'مركز العلاقات الأمريكية - الإسلامية' و'جمعية الأمريكيين المسلمين') تنجح فى دفع المواطنين الراغبين الذين ينتمون إلى اليسار السياسى والمواطنين عن غير قصد الذين ينتمون إلى الوسط الغافل إلى تأييد تلك الجماعات وحمائتها" (٢٣). وإيجازاً، فإن منطق دعاة الخوف من الإسلام أولئك الذين يمثلون أقصى اليمين هو أنه لا يوجد "مسلمون أختيار" وأن منظمات المسلمين هي فى حقيقة الأمر، رغم نواياها المعلنه، واجهات للإخوان المسلمين أو للوهابيين، قصدها هو مهاجمة اليهود والمسيحيين. ومع أن هذه الطنطنة تمثل تطرفاً، فإن هذه الآراء لا تختلف كثيراً عن نظريات "التحول إلى الراديكالية" التى يسوقها مكتب التحقيقات الفيدرالى وإدارة شرطة مدينة نيويورك ونوقشت فى الفصل الثامن. فشريط الفيديو الدعائى 'الجهاد الثالث'، الذى عُرض على ضباط شرطة مدينة نيويورك كجزء

من تدريبهم، يدل على هذا التداخل بين المكارثيين الجدد والمؤسسة الأمنية. فقائمة الشخصيات التي أجريت مقابلات معها من أجل هذا الفيلم الوثائقي الزائف لا تضم دعاة الخوف من الإسلام اليمينيين فقط بل تضم أيضا شخصيات من قبيل مأمور شرطة مدينة نيويورك راي كيلي، وعمدة مدينة نيويورك السابق رودلف جوليانى، ومدير وكالة المخابرات المركزية السابق جيمس وولزى، ورئيس أمن الوطن السابق توم ريدج، وعضو مجلس الشيوخ عن ولاية كينتيكيت جور ليبرمان، وآخرين (٢٤). ويتمثل دور أشخاص من أمثال هورويتز، فى إطار تقسيمهم للعمل، فى كسب الرأى العام من خلال الدعاية، وقد نظم هورويتز "أسبوع الوعى بالفاشية الإسلامية"، الذى جلب شخصيات بارزة متعصبة ضد المسلمين إلى الجامعات فى عام ٢٠٠٧، وينتسب مركز الحرية التابع له إلى منظمة روبرت سبنسر 'Jihad Watch'، وتُنشر مقالات سبنسر عن الجهاد بصفة منتظمة فى مجلة 'Front Page' التى يصدرها هورويتز.

ويبين كتاب 'شركة الخوف' الصلات المتبادلة بين مختلف المحاربين دعاة الخوف من الإسلام ومدى تنسيقهم لأنشطتهم. فحملة رهاب الإسلام هذه جمعت بين المحافظين الجدد وشخصيات أخرى من نفس العشيرة من قبيل الصهاينة اليمينيين، والمسيحيين الذين يمثلون أقصى اليمين، والمسلمين والمسلمين سابقا المحافظين. وإيجازا، وكما سنرى بعد هنية، اتحد المنتمون إلى الجناح اليميني بمختلف أنماطهم تحت راية العنصرية المناهضة للمسلمين. وقد تلقوا موارد كبيرة من المنظمات اليمينية لشن هجماتهم على المسلمين، الإيديولوجية والجسدية على حد سواء. فقد ساهمت سبع مؤسسات بما يقرب من ٤٣ مليون دولار لهؤلاء المكارثيين الجدد خلال الفترة ما بين عامى ٢٠٠١ و ٢٠٠٩ والممولون الرئيسيون هم الصندوق الرأسمالى للجهات المانحة، ومؤسسة ريتشارد ميلون سكايڤ، ومؤسسة ليند وهارى برادلى، ومؤسسات نيوتون د. وروشيل ف. بيكر والصندوق الاستثنائى الخيرى التابع لهما، ومؤسسة راسل بيرى، وصندوق 'Anchorage' الخيرى، وصندوق أسرة ويليام روزنوالد، ومؤسسة فيربوك (٢٥).

واثنتان من هذه المؤسسات (هما مؤسستا بيكر وبيري) ملتزمتان صراحة بالترويج لما تريان أنه مصالح اليهود (لا سيما الصهيونية)، وثمة مؤسسة ثالثة، هي مؤسسة فيربروك، أكثر تطرفاً حتى منهما في توجيهها الصهيوني. فهذه المؤسسة، التي يديرها أوبري وجويس تشرنيك " قدمت تمويلاً لجماعات تتراوح من رابطة مناهضة التشهير (ADL) ولجنة تحرى الدقة في تقديم التقارير عن الشرق الأوسط في أمريكا (CAMERA)، وهي غطاء يميني وموالٍ لإسرائيل لممارسة الرقابة على وسائل الإعلام، إلى المستوطنين الإسرائيليين العنيفين الذين يعيشون على الأرض الفلسطينية وشخصيات من قبيل روبرت سبنسر المؤلف الأكاديمي الزائف، كما تذكر صحافة ماكس بلومينتال التحقيقية^(٢٦). ويساهم تشرنيك أيضاً في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى (WINEP) ومعهد هادسون. ومن الجدير بالذكر أن هذه المؤسسات والجماعات اليمينية لا تمثل آراء غالبية الأمريكيين اليهود، حتى وإن كانت تدعى ذلك. فقد سأل استطلاع لمعهد جالوب أجرى في أغسطس ٢٠١١ مجيبين ينتمون إلى جماعات دينية شتى عما إذا كانوا يعتقدون أن المسلمين الأمريكيين يتعاطفون مع القاعدة. وأجاب سبعون في المائة من الأمريكيين اليهود بكلمة لا؛ وكانت الجماعات الوحيدة التي كانت نسبة إجابتها بـ "لا" أعلى هي المسلمون والملاحدون^(٢٧). ومن الواضح أن هذا أمر يتعلق بالسياسة، لا بالديانة. فالمحافظون من جميع الأنماط يعتبرون فوبيا الإسلام فعالاً في تعزيز أجنداتهم الفردية.

أقصى اليمين المسيحي

إن اليمين المسيحي يشكل جزءاً لا يتجزأ من عربة فوبيا الإسلام ويؤيد إسرائيل بحماسة. فبالنسبة للحركة الإنجيلية المسيحية، تُعتبر إسرائيل ذات أهمية جوهرية؛ فالإنجيليون يعتقدون أن اليهود سوف يعودون إلى إسرائيل قبل عودة المسيح. وبينما يعتقدون أيضاً أن اليهود سيتحولون إلى المسيحية، فإنهم يؤيدون تأييداً راسخاً وجود دولة يهودية على أرض فلسطين^(٢٨). ومن ثم، فقد اصطف اليمين المسيحي مع

الصهاينة فى شيطنة الفلسطينيين. إذ كان اليمين المسيحى، على الأقل منذ ثمانينيات القرن الماضى، قاعدة هامة للحزب الجمهورى. وفى حقيقة الأمر، أصبح اليمين المسيحى والحزب الجمهورى من بين أشد الصهاينة تطرفا (حتى وإن كانا يعتقدان أن اليهود لا يمكن أن يكون مآلهم هو الجنة). وهذا يمثل تحولا عن سبعينيات القرن الماضى وما قبلها، عندما كانت لإسرائيل صورة عالمية "ديمقراطية اجتماعية" وكان الديمقراطيون الليبراليون هم أشد أنصار الصهيونية حماسية. وقد زادت أحداث ١١ سبتمبر من تدعيم التحالف بين اليمين المسيحى والمحافظين الجدد والصهاينة. وكان الاتساق بين سياسة الولايات المتحدة والسياسة الإسرائيلية معناه، كما يقول هاجوبيان، "اعتبار الدول العربية/المسلمة و/أو الحركات الموجودة داخلها إرهابية أو نصيرة للإرهاب"^(٢٩). بالنسبة للإنجيليين، "يشكل اعتداء قنابل بشرية فلسطينية على إسرائيل اختبارا هاما فى الكفاح العالمى ضد الإرهاب الإسلامى"^(٣٠).

ومن ثم، انضمت أصوات إنجيليين من أمثال جون هاجى ويات روبرتسون وجيرى فالويل وفرانكلين جراهام وراف فريد إلى حملة مهاجمة الإسلام. فقد وصف جراهام الإسلام بأنه "ديانة شريرة ومؤذية إلى حد كبير". فبالنسبة لجراهام، "الإسلام الحقيقى" يدعو إلى ضرب الزوجات وقتل الأطفال الزناة ولذا "لا يمكن ممارسته" فى الولايات المتحدة^(٣١). وإضافة إلى هذه الشخصيات الراسخة، استفاد من حملة الكراهية هذه مقلدون آخرون، من قبيل قس فلوريدا السيسى الصيت حديثا تيرى جونز، الذى برز على الساحة الدولية بإعلانه أنه سوف يحرق نسخة من القرآن^(٣٢). وتوجد صلات متعددة بين اليمين الدينى وبقية شبكة الخوف من الإسلام، التى تشمل جماعات من قبيل جماعة مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل. وترتبط أيضا ارتباطا وثيقا باليمين الدينى حركة حزب الشاى. فثمة جماعات على مستوى الولايات وعلى المستوى المحلى، لا سيما فى ولايات تينيسى وكاليفورنيا وفلوريدا، قفزت بحماس على القطار غير المشروع الذى يمثله فوبيا الإسلام^(٣٣). وفى ميرفريسبورو، بولاية تينيسى، تحالف المتعصبون الذين ينتمون إلى حزب الشاى

مع اليمين الدينى لوقف بناء مركز إسلامى، وبلغ بهم الأمر أنهم أشعلوا حريقا فى موقع بناء المسجد. وقد ساعدتهم فى ذلك جماعات من قبيل جماعة "ACT for America"، التى أسستها بريجيت جبريل (وهى مسيحية لبنانية)، وهى حركة اشترك أعضاؤها فى تجمعات حاشدة ليس فحسب فى تينيسى بل أيضا فى فلوريدا وولايات أخرى.

ويؤدى أشخاص من قبيل بريجيت جبريل نورا هاما فى شبكة فوييا الإسلام، فهم يضيفون شرعية على الاعتداءات العنصرية على المسلمين والعرب من خلال شهادتهم الشخصية. فبرجيت جبريل تجوب البلد لتتحدث عن مدى بشاعة المسلمين فى حقيقة الأمر، استنادا إلى تجربتها المفترضة أثناء نشأتها فى لبنان. وقد فسرت فى مناسبة مناهضة للإرهاب أقيمت فى جامعة ديوك عام ٢٠٠٤ الاختلافات بين العرب (والمسلمين) والإسرائيليين على النحو التالى: "إن المسألة مسألة بربرية مقابل حضارة. إنها مسألة ديمقراطية مقابل ديكتاتورية. إنها مسألة خير مقابل شر" (٢٤). وكان عنوان كتابها الأول عنوانا كاشفاً، وهو 'لأنهم يكرهون: ناجية من الإرهاب الإسلامى تحذر أمريكا' (٢٠٠٦).

المسلمون السابقون

لقد لعبت مجموعة كبيرة كاملة من الأشخاص، معظمهم "مسلمون سابقون"، دور إضفاء المشروعية هذا. ومن المنظرين الإيديولوجيين من هذا القبيل نونى درويش، وهى مديرة منظمة 'مسلمون سابقون متحدون'، التى اشتركت فى تأسيسها مع وفاء سلطان ووليد شويات وبن وراق. ونونى درويش أصلها مصرى ونشأت فى غزة. وهى تؤمن بأن الإسلام "سيدمر نفسه لأنه ليس ديانة حقيقية" (٢٥). وقد أقر بايبس وسبنسر وهورويتز وأيدوا كتبها المعنونة 'الآن يسمونى كافرة: لماذا نبذت الجهاد من أجل أمريكا' (٢٠٠٦)، و'إسرائيل والحرب على الإرهاب' (٢٠٠٧)، و'العقاب القاسى وغير العادى: المضامين العالمية المخيفة للقانون الإسلامى' (٢٠٠٩).

وقد ألقى كل من نونى درويش وشويات، إلى جانب وليد فارس، وهو أستاذ بجامعة الدفاع القومى ومن المساهمين فى محطة 'فوكس نيوز'، محاضرات بانتظام أمام المسؤولين عن إنفاذ القانون بشأن " الإرهاب" ^(٣٦). ويقود فارس عمليات تنظيم حلقات دراسية للموظفين الحكوميين ويلقى خطبا فى مؤتمرات بشأن إنفاذ القانون وأمن الوطن. وهو يقدم دورات دراسية بشأن الإرهاب لمركز الاستخبارات المضادة والدراسات الأمنية (CI CENTRE)، الذى يمثل إحدى عمليات عديدة يقوم بها أقصى اليمين وتغذى صناعة التدريب على مكافحة الإرهاب. وكما يقول توم سينكوتا، تتألف صناعة التدريب على مكافحة الإرهاب هذه من " درع كاملة من شركات تقدم تدريبا على أساليب المراقبة، والأمن السيبرى (الحاسوبى)، واكتشاف القنابل، وسلامة المدارس، والبنية التحتية البالغة الأهمية" ^(٣٧). وتتكون مجموعة فرعية من هذه الصناعة من جماعات تقدم دورات دراسية لوكالات إنفاذ القانون بشأن " الجهاد" والخطر الذى يشكله بالنسبة للأمن القومى. ويملا فارس عقول جمهوره بنظرياته التأميرية عن وجود استراتيجية جهادية لاختراق المؤسسات الرئيسية فى الولايات المتحدة من قبيل قطاع الدفاع، والأوساط الأكاديمية، والمنظمات المجتمعية. ومن بين كتبه كتاب ' الجهاد فى المستقبل: الاستراتيجية الإرهابية ضد أمريكا ' (٢٠٠٥)، وكتاب ' حرب الأفكار: الجهاد ضد الديمقراطية ' (٢٠٠٧)، وكتاب ' المجابهة: كسب الحرب على الجهاد فى المستقبل ' (٢٠٠٨).

كذلك يقول شويات لجمهوره إن مركز العلاقات الأمريكية - الإسلامية (CAIR) والجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية هما " الجهازان الإرهابيان لوضع القوانين: الشريعة والقرآن والحديث" ^(٣٨). وشويات أكثر تطرفا حتى من زملائه المسلمين السابقين. فهو يرى وفقا لمعتقداته المسيحية الجديدة أن المسلمين سيحاربون إلى جانب الشيطان على الأرض أثناء " أوقات نهاية" النبوة الإنجيلية ^(٣٩). ورغم هذه الادعاءات الغريبة (أو ربما بسببها)، يروج له بحماس زملاؤه فى شبكة فويا الإسلام. فقد اندفع جافنى قائلا بحماس " فى السنوات الخمس والعشرين التى قضيتها فى واشنطن لم

أسمع قط شيئاً بارعاً هكذا ولم أسمع الحقيقة تُقال بهذا القدر من البلاغة من أحد ما^(٤٠). وفي عام ٢٠١١ دفعت له وزارة أمن الوطن خمسة آلاف دولار لكي يبصق هذا الهراء في مؤتمر بشأن إنفاذ القانون عُقد في ساوث داكوتا^(٤١).

التتقيف ، والدعاية الإعلامية

إن الترويج لمتطرفين من هذا القبيل بوصفهم " مثقفين " لدى أوساط العاملين في مجال إنفاذ القانون حفز مؤسستي "CINCOTTA" و "Political Research Asso' cates" على إصدار تقرير عن ثلاث منظمات للتدريب على مكافحة الإرهاب هي: الرابطة الدولية لضباط مكافحة الإرهاب، والرابطة الدولية للحلول الأمنية، ومركز الاستخبارات المضادة والدراسات الأمنية. وتستعين هذه الجماعات بدعاة الخوف من الإسلام اليمينيين وتنظّم بصفة منتظمة مؤتمرات من أجل العاملين في مجال إنفاذ القانون. وفي هذه البيئة لا يشذ دعاة الخوف من الإسلام اليمينيون؛ بل إنهم في حقيقة الأمر مناسبون تماما داخل الهياكل القانونية والسياسية الراسخة وكثيرا ما يتشاركون المسرح مع شخصيات عامة من المؤسسة الأمنية. ومن ثم، أدرج مركز الاستخبارات المضادة والدراسات الأمنية (CI CENTRE) بورت جوس ومايكل هايدن، المديرين السابقين لووكالة المخابرات المركزية، كمتحدثين في مؤتمر " رحلة السفينة بشأن التجسس"، وهو مؤتمر موضوعه الاستخبارات عُقد على متن سفينة سياحية. (كانت الكلمة التي ألقاها جوس تحمل عنواناً كاشفاً هو " الأصولية الراديكالية والحضارة الغربية (اليهودية - المسيحية) غير قابلين للتوافق"^(٤٢). وعندما يستخدم مكتب التحقيقات الفيدرالي أعمال روبرت سبنسر والمستشرق رفائيل باتي في تدريباته، فإنه يفعل هذا لأن ذلك العمل يتوافق مع إطاره الإيديولوجي القائم، أو - إذا تحرينا الدقة، مع آراء الشرائح المحافظة في مكتب التحقيقات الفيدرالي والجهاز الأمني (انظر الشكل الوارد في إحدى الصفحات التالية). فمجلة "Wired" وجدت وفضحت عرضاً بتقنية باور بوينت لوحدة مكتب التحقيقات الفيدرالي المعنية

بالاتصالات المتعلقة بإنفاذ القانون مستندا إلى الرأي المتسم بدرجة بالغة من التشويه الذي يعتنقه المحاربون دعاة الخوف من الإسلام بشأن الإسلام^(٤٣). واستجابة لهذا وربما لأمر أخرى تكشففت، دعت إدارة أوباما إلى إعادة النظر في مواد مكافحة الإرهاب التي تستخدمها وكالاته^(٤٤). وفي حقيقة الأمر توجد خلافات فيما بين مختلف فروع الحكومة بشأن كيفية النظر إلى "الإرهاب الإسلامي"، مثلما صوّرت الفصول السابقة.

وإضافة إلى هذا الدور "التثقيفي" داخل الجهاز الأمني، تبث شبكة دعاة الخوف من الإسلام أراعاها إلى الجمهور. وهي لا تفعل ذلك من خلال وسائل الإعلام اليمينية فقط، من قبيل شبكة الإذاعة المسيحية وفوكس نيوز وبقية إمبراطورية ميردوخ، بل أيضا في وسائل الإعلام العامة، حيث لا يشكك أحد في معظم الأحيان في آرائها المتطرفة. فعدا عن بضعة تقارير إعلامية من قبيل تلك التي قدمها أندرسون كوبر الذي يعمل في شبكة سي إن إن (CNN)، والذي قدم تحقيقا بشأن وليد شويات^(٤٥). وبضعة تحقيقات إخبارية بثتها الإذاعة العامة الوطنية (NPR)، كان هناك تجاهل إلى حد كبير لهذا الاتجاه المقلق. بل إن أشخاصا من قبيل إمرسون كان وصولهم إلى وسائل الإعلام العامة أمرا يسيرا وجاهزا. فقد استشهدت بأقواله صحف رئيسية باعتباره "خبيرا في الإرهاب"، ونُشرت أعمدته الصحفية في صحيفة "وول ستريت جورنال"، واستعانت به محطة "NBC" باعتباره محللا لشؤون الإرهاب، بحيث ظهر على شاشاتها خمسين مرة خلال أول شهرين بعد أحداث ١١ سبتمبر^(٤٦). كذلك، ظهر بايس ١١٠ مرات على شاشات التلفزيون وأجريت معه ٤٥٠ مقابلة إذاعية خلال الفترة ما بين سبتمبر ٢٠٠١ وسبتمبر ٢٠٠٢^(٤٧).

ويصور مثال واحد كيفية تضخيم الدعاية الكارثة للإسلام في وسائل الإعلام العامة. فقد ظل المكارثيون الجدد يزعمون مدة طويلة أن ٨٠ في المائة من المساجد يسيطر عليها الجهاديون. وفي عام ٢٠٠٤، ذكر بيتر كنج، عضو الكونجرس الجمهوري

في برنامج 'Sean Hannity' الذي تبثه شبكة فوكس نيوز أن " ما يتراوح من ثمانين إلى خمسة وثمانين في المائة من المساجد في هذا البلد سيطر عليها الأصوليون الإسلاميون". ودعم زعمه هذا بالاستشهاد بالبحث الذي أجراه إميرسون وبابيس.^(٤٨) وتكرر هذا الهراء مرة تلو الأخرى من جانب دعاة الخوف من الإسلام، حتى في وسائل الإعلام العامة. ففي عام ٢٠١٠، ذكرت بامبلا جيلير على شبكة سي إن إن (CNN) أن " أربعة من كل خمسة مساجد تدعو إلى الكراهية"^(٤٩). وفي مارس ٢٠١١، عقد بيتر كنج جلسات استماعه " بشأن الرعب الأخضر" التي دارت حول التحول المفترض إلى الراديكالية في أوساط المسلمين الأمريكيين. وبعد بضعة أشهر، في يونيو ٢٠١١، زعم بيروشمالي نفس الزعم في التقرير الكاذب المذكور أعلاه. وأقر جافني على الفور في عموده في صحيفة 'واشنطن تايمز' استنتاجات جلسات الاستماع^(٥٠). وخالصة هذه الدعاية هي أن قلة في وسائل الإعلام هي التي شككت في جلسات الاستماع التي عقدها كنج، مما أضفى مصداقية على فكرة أن المسلمين يجري بالفعل " تحويلهم إلى الراديكالية" ومن اللازم مساعدتهم ورصدهم بطرائق مماثلة للطرائق التي اتبعت مع " الحمر" في حقبة الحرب الباردة.

والحراك الدينامي العام يتمثل في كون وسائل الإعلام اليمينية هي مراكز الدعاية التي تنم عن قوبيا الإسلام، الذي يمتد بعدئذ إلى وسائل الإعلام العامة إما مباشرة، عن طريق المحاربين دعاة الخوف من الإسلام، أو عن طريق ساسة متعاطفين من أمثال كنج ونيوت جينجريتش وميشيل باخمان وألان ويست وغيرهم. وكما رأينا في الفصل السابق، أثناء الجدل الذي سُمى تسمية زائفة هي الجدل بشأن " مسجد جراوند زيرو"، زاد الديمقراطيون فحسب من تأجيج النيران وساعدوا على إيصال طنطنة قوبيا الإسلام إلى وسائل الإعلام العامة، وإن يكن بطرائق أقل شدة. ولعبت أيضا عدة شخصيات عامة هذا النور، ونتطرق إليها في ما يلي.

الممكنون في وسائط الإعلام العامة والليبراليون

إن نظراء جبريل وشوبات وفارس الأكثر براعة منهم هم أشخاص من قبيل آيان حرسى على وفؤاد عجمى وأزار نفيسى وإرشاد منجى وكنعان ماكيا وبين وراق. فهؤلاء الأفراد يسهل عليهم بدرجة أكبر كثيرا الوصول إلى وسائط الإعلام العامة لأن لغتهم أكثر "معقولة" وتروج لهم شخصيات سياسية ذات نفوذ. إذ يقول حميد دباشى، فى كتابه 'بشرة سمراء، وأقنعة بيضاء'، إن هؤلاء الأشخاص، الذين يشير إليهم بأنهم "مخبرون من أهل البلد"، يعززون العنصرية المناهضة للمسلمين والمناهضة للعرب من خلال ما يسردونه من حكايات مقبضة عن بلدانهم الأصلية. وهو يذكر أن المنظرين الإيديولوجيين العنائة فى إمبراطورية الولايات المتحدة سعوا بنشاط بعد أحداث ١١ سبتمبر مباشرة إلى المثقفين العملاء [المخبرين من أهل البلد الراغبين فى مساعدة الولايات المتحدة، وبخاصة نوو الأصل الإيرانى والعربى والباكستانى]. وكانت مهمتهم هى ادعاء أنهم حجة، وادعاء أنهم نوو المصادقية، وادعاء أن لديهم المعرفة المحلية وذلك بإبلاغهم الجمهور الأمريكى بالفظائع التى تُرتكب فى منطقة مولدهم، بحيث يبررون بذلك المخططات الإمبريالية للولايات المتحدة باعتبارها تمثل عملية تحرير^(٥١). وهو يضيف قائلاً إن هذا المنطق "كان صريحا فى بعض الأوقات، كما فى كتابات فؤاد عجمى وكنعان ماكيا أثناء التجهيز لغزو العراق؛ وكان ضمنيا فى بعض الأحيان، كما فى حالتى نفيسى وحرسى على"^(٥٢).

فآيان حرسى على اشتغلت بالسياسة الهولندية مدة قصيرة قبل أن تقبل وظيفة فى معهد إنتربرايز الأمريكى للفكر الذى يسيطر عليه المحافظون الجدد. وقد اضطرت آيان، وهى أصلا من الصومال، إلى الاستقالة من مقعدها فى البرلمان الهولندى بعد أن تبين أنها كذبت فى طلبها الحصول على اللجوء السياسى إلى هولندا^(٥٣). وقد رحب بها المحافظون الجدد بأذرع مفتوحة، وأصبح كتابها 'كافرة' من أكثر الكتب توزيعاً لعدة أسابيع حسبما ذكرت صحيفة نيويورك تايمز. وبعد رحلتها عبر المحيط الأطلنطى، قامت بتأليف كتابها 'بنوية: من الإسلام إلى أمريكا؛ رحلة شخصية عبر

صدام الحضارات' (٢٠١١)، الذي أعادت فيه ترديد الأكاذيب البالية عن صدام القيم المفترض بين الإسلام والغرب.

أما أزار نفيسى فقد سافرت أيضا من إيران إلى الولايات المتحدة، حيث احتضنها برنارد لويس، وأصبحت زميلة لفؤاد عجمى فى جامعة جونز هوبكنز، وموظفة لدى بول وولفوويتز^(٥٤). ويومياتها 'قراءة لوليتا فى طهران' تحكى قصة إنقاذها سبعة طلبة فى طهران بدعوتهم إلى منزلها لتدرّس لهم كتاب 'لوليتا' لنابوكوف وغيره من أمهات الكتب الكلاسيكية الغربية. ونجحت نفيسى، بقيامها بذلك، فى إعادة كتابة تاريخ إيران وتحويل شعبها إلى شخصيات كاريكاتيرية. وكما يقول دباشى، "تتوارى إيران كلها كأمة وثقافة ومجتمع وواقع وراء قصة بطلة منغمسة فى ذاتها وسعيدة للغاية بأفعالها البطولية وانتصاراتها الدونكيشوتية"^(٥٥). وقد وضعت صحيفة 'نيويورك تايمز' كتابها على قائمتها لأكثر الكتب مبيعا لمدة تجاوزت مائة أسبوع. وتُرجم الكتاب إلى عشرات من اللغات واعتمد على نطاق واسع فى خلاصات الدورات الدراسية بالجامعات فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة.

وساهمت أيان حرسى على وأزار نفيسى وإرشاد منجى (وهو كندى ينحدر من أصول مصرية وجنوب آسيوية) أكبر مساهمة فى الحجة القائلة بأن الولايات المتحدة ينبغى أن تدافع عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة فى "عالم المسلمين". وفى ما يلى اقتباس مرة أخرى لما قاله دباشى:

تُنكر الآن بصورة روتينية كأهداف رئيسية للتدخلات الإمبريالية الأمريكية حقوق الإنسان وحقوق المرأة على وجه الخصوص بعد مصالح الأمن القومى. ويتمثل دور حرسى على ونفيسى وإرشاد منجى وأمثالهم فى التكلّم فى صالح هذه الرؤى المتعمقة باعتبارها جزءا لا يتجزأ من المهمة الإنسانية التى تمثل لبّ الإمبريالية الأمريكية. فتقديم نقد عنيف، باللغة الإنجليزية من أجل السوق الأمريكية والأوروبية، لحقوق المرأة فى إيران (نفيسى) أو ختان الإناث فى أفريقيا (حرسى على)، أو حقوق المثليين والمثليات جنسيا فى الإسلام بوجه عام (إرشاد منجى) يضع

سلطة تصحيح تلك الأخطاء فى أيدي القراء الأجانب ومسؤوليهم المنتخبين، لا فى أيدي المجتمعات المتضررة^(٥٦).

فنفيسى وشركاؤها يحاولون التذرع بطنطنة عبء الرجل الأبيض، بدلا من أن يقفوا تضامنا مع الرجال والنساء فى البلدان التى تقطنها أغلبية من المسلمين والذين يكافحون فى سبيل الحقوق بمختلف أنواعها.

وقد كان خطاب حقوق الإنسان محوريا فى الحرب الدعائية التى يشنها المحافظون الجدد. ولذا من المهم إدراك أن هذه الطنطنة الليبرالية ليست ببساطة معقل الإمبرياليين الليبراليين بل تمثل لب توجه المحافظين الجدد أيضا. وما هو مختلف فى طنطنة الإمبرياليين الليبراليين هو أنها تحاول فصل الإسلام عن التأسلم كما يشاهد فى أعمال الراحلين كريستوفر هيتشنز وبول بيرمان ومارتن أميس ونيك كوهين وبرنارد - هنرى ليفى وأندرو أنتونى^(٥٧). فأرون كوندنانى يقول إن هؤلاء

الليبراليين الجدد ينحون جانباً (عن حق) هذه الحجج عن طبيعة الإسلام وأنماط التاريخ الإسلامى [كما يعبر عنها لويس والمستشرقون] ويركزون اهتمامهم، بدلا من ذلك، على التأسلم، وهو حركة سياسية حديثة، يعتبرونها (عن غير حق) مناظرة للستالينية أو الفاشية. فالتأسلم يُنظر إليه على أنه صفة يستخدمها الاستبداد الأوروبى الحديث وغريبة أساسا عن "الإسلام التقليدي". والتمييز بين الإسلام والتأسلم هام، لأنه يحمى هذا الخطاب من تهم فوييا الإسلام المباشرة، فهذه هو، بعد كل شيء، "إيديولوجيا سياسية فى القرن العشرين ذات جنور أوروبية، لا ديانة شرقية^(٥٨)".

وهيتشنز، الذى كان يكتب عمودا بصفة منتظمة فى مجلة "Nation"، أصبح فى سنواته اللاحقة أحد أقطاب فوييا الإسلام الليبراليين المفوهين. فهو يستهدف، فى كتابه "الله ليس عظيما"، جميع الديانات، قائلا، أشبه بقولتير إلى حد كبير، إن الدين "يسم كل شيء" ومسؤول عن إيجاد أنظمة طغيان فى العصور القديمة والحديثة على حد سواء. غير أن انتقاداته انتقائية: فهو يتهم صدام حسين باستخدام الإسلام

لتحقيق مكسب سياسى ولكنه لا يقول شيئا عن جورج دابليو بوش الذى ولد مرة أخرى كمسيحى وعن لجوئه إلى الدين لتبرير أهداف سياسته. ويتمادى هيتشنز فى تبجحه ليلقى باللوم على الإسلام لحالة العراق المروعة بعد غزو واحتلال العراق بقيادة الولايات المتحدة. وفى التحليل الأخير، على الرغم من انتقاده لديانات العالم الرئيسية من منطلق تكافؤ الفرص، فإن كتابه يساعد على تعزيز السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وهذا أمر يكاد لا يدعو للدهشة بالنظر إلى أنه " مال نحو المحافظين الجدد وظهر بصورة متكررة فى برامج الأحاديث اليمينية وشوهد بصفة منتظمة مع ديفيد هورويتز"، مثلما لاحظ ريتشارد سيمور^(٥٩).

وعلى العكس من ذلك، يتردد إمبريالليون ليبراليون آخرون من أمثال مايكل إجناتيف وبول بيرمان ترددا أكبر فى الارتباط علنا بالمحافظين الجدد^(٦٠). وقد أيد بيرمان، الذى ينتمى إلى ما يسميه اليسار " المناهض للاستبداد"، الحرب على العراق فى عام ٢٠٠٣ لأن " القاعدة ... وحزب البعث الذى ينتمى إليه صدام حسين هما اتجاهان داخل ظاهرة أكبر كثيرا، هى ظاهرة استبداد المسلمين"^(٦١). وكما يلاحظ كوندناني، كان هيتشينز يشاطر بيرمان رأيه المتمثل فى أنه " فور كسب الغرب معركته التاريخية ضد الشيوعية، ظهر استبداد جديد - هو التأسلم - كقوة سياسية. والغرب، كما يُقال، ملزم أخلاقيا بالقضاء على هذا التهديد الاستبدادى فى العالم الإسلامى وأيضا فى أوساط المسلمين"^(٦٢). ومن ثم، على الرغم من استخدام الإمبراليين الليبراليين لغة أكثر رصانة، فإنهم يسوقون فى نهاية الأمر حجة مماثلة لحجة المحافظين الجدد (انظر، مثلا، كتاب بودهوريتز ' الحرب العالمية الرابعة: الكفاح الطويل ضد الفاشية الإسلامية) ولحجة المحاربين دعاة فويبا الإسلام. فقد قال دانييل بايس على نفس النحو إن " ما كانت النازية أو الفاشية تمثله بالنسبة للحرب العالمية الثانية وما كانت اللينينية الماركسية تمثله بالنسبة للحرب الباردة، يمثلها الإسلام المناضل بالنسبة لهذه الحرب [أى الحرب على الإرهاب]"^(٦٣).

العنصرية العامة

لقد شاركت مجموعة واسعة التنوع من الأشخاص والجماعات فى خلق " تهديد إسلامي " شيطاني. وما شاهدناه فى هذا الفصل هو أن المكارثيين الجدد لا يمثلون حالات شاذة فى نظام يكون عادلاً ومحايداً لولا ذلك، رغم آرائهم المتطرفة فى عنصريتها؛ ويتمثل دورهم فى تجاوز الحدود. وإيجازاً، كانت المجموعة الأولى من المكارثيين الجدد التى نوقشت فى هذا الفصل هى فصيل من المحافظين الجدد الذين كرسوا أنفسهم للدعاية المناهضة للمسلمين من خلال جماعات ومنظمات شتى. ولكن، بالنظر إلى أنهم يشكلون جزءاً من مؤسسة السياسة الخارجية أو من المؤسسة العسكرية أو من وكالة المخابرات المركزية أو من وزارة الدفاع أو من أفرع أخرى للجهاز الأمنى فإن إيديولوجيتهم يرددها ويؤيدها آخرون يشاطرونهم آراءهم ولكنهم قد لا يوصفون صراحة بأنهم من المحافظين الجدد. ومن المحاربين الآخرين دعاة فوبيا الإسلام أشخاص يمينيون من أنماط شتى، صهاينة، وأصوليين مسيحيين، ومسلمين سابقين ومسيحيين يمينيين من الشرق الأوسط وجنوب آسيا. وحججهم يجعلها مستساغة بدرجة أكبر دعاة فوبيا الإسلام الليبراليون الذين يعملون فى الأوساط الأكاديمية، ووسائط الإعلام العامة، ومراكز فكر شتى.

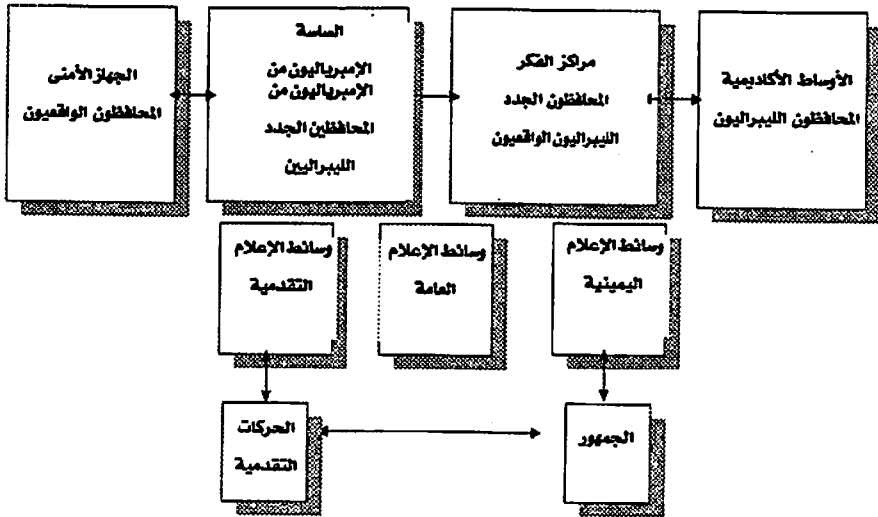
ويحاول الرسم البيانى الوارد فى إحدى الصفحات التالية تصوير مصادر فوبيا الإسلام هذه وأثرها على الخطاب العام. وسيلحظ القارئ عدم وجود مربع منفصل لدعاة فوبيا الإسلام. وهذا يرجع إلى أنهم، كما هو مبين أعلاه، يشكلون جزءاً من المؤسسة ويوجدون داخل مراكز الفكر المعنية بالسياسة الخارجية، والجامعات والكليات، والطبقة السياسية، والجهاز الأمنى (التي تعرف بأنها أفرع الحكومة التى تتراجع عن الحرب على الإرهاب فى الخارج وكذلك فى الداخل). وقد لعبت مراكز الفكر دوراً متزايد الأهمية فى تشكل السياسة الخارجية كما شاهدنا فى الفصل السابع. فكما يقول لورانس ديفيدسون فى كتابه " السياسة الخارجية: خصخصة المصلحة الوطنية الأمريكية"، تلعب أفضل مراكز الفكر تمويلاً دوراً حاسماً فى تشكيل السياسة

الخارجية وتحديد شروط النقاش العام من خلال ظهور أعضائها المتكرر بوصفهم "خبراء" فى وسائل الإعلام العامة. والأوساط الأكاديمية هى مصدر آخر من مصادر الأفكار التى كثيرا ما تكون مرتبطة بمراكز الفكر وبالساسة. فشخصيات سياسية من كل من الحزبين الجمهورى والديمقراطى ربطت أهداف سياستها بطنطنة فوبيا الإسلام، واستخدم جمهوريون كثيرون العنصرية المناهضة للمسلمين لتعزيز حملاتهم الانتخابية. وأخيرا، يوجد لدى المؤسسة الأمنية أفراد يسعون إلى تحقيق رؤاهم بشأن الأمن القومى والداخلى وكثيرا ما تسعى إليهم وسائل الإعلام بوصفهم "خبراء". فقد تبين من تحقيقات مجلة "Wired" أن " المؤسسة العسكرية الأمريكية علمت قادتها فى المستقبل أن حرباً كاملة على مسلمى العالم البالغ عددهم ١,٤ مليار شخص ستكون ضرورية لحماية أمريكا من الإرهابيين الإسلاميين"^(٦٤). وكان من بين الخيارات المختلفة التى طُرحت بحو مدن بأكملها (مثلما حدث مع هيروشيما) واستهداف "السكان المدنيين أينما كانت هناك ضرورة لذلك". ومع أن البنتاجون أوقفت هذا التدريب منذ ذلك الحين، فإن الضابط المسئول عن إلقاء هذه المحاضرات يحتفظ بوظيفته داخل المؤسسة العسكرية؛ ورُقّى " القادة والضباط من مختلف الرتب" الذين تلقوا دورته التدريبية واستمعوا إلى تبجحاته بحيث تولوا مهام أعلى مستوى منذ ذلك الحين^(٦٥). وأخيراً، تجدر الإشارة إلى أن هذه الجماعات كلها تتفاعل فيما بينها. فمثلا، وردت فى تقرير مركز السياسة الأمنية (CSP المعنون " الشريعة: التهديد المائل أمام أمريكا " مقالات لجافنى ويوروشالى ومكارثى وغيرهم من دعاة فوبيا الإسلام، ولكن وردت فيه أيضا مقالات لجنرالات عسكريين (وليام بويكين وإدوارد سويستر) ولسؤولين فى مكتب التحقيقات الفيدرالى ووكالة المخابرات المركزية (جون جواندولو وجيمس وولسى)، وآخرين من المؤسسة الأمنية الذين يشاطرونهم آراءهم^(٦٦). والخطوط التى تربط بين مختلف المربعات يُقصد بها تبيان هذه الصلات.

ومن هذا التحليل يمكن استخلاص أن مكارثية القرن الحادى والعشرين ليست نتاج فرد واحد فقط: فهى نتاج الجهد الجماعى لمن ينتمون إلى الجناح اليميني فى

الأوساط الأكاديمية، وأوساط مراكز الفكر، والعاملين في المجال السياسي، والمؤسسة الأمنية. ولكن الرعب الأخضر، مثله تماما مثل نظيره في القرن العشرين، يؤيده ويقره الليبراليون الموجودون في كل مجال الذين يشاطرون المحافظين التزاما مشتركا بإمبريالية الولايات المتحدة. ومع ذلك من الجدير بالذكر أن فويا الإسلام أقل فعالية من نظيره الأحمر كعامل من عوامل إشاعة الخوف. فإثناء الحرب الباردة، كان الاتحاد السوفييتي يشكل بلا جدال تهديدا شديدا للولايات المتحدة مدججا بالأسلحة النووية. ولا يمكن أن يقال الشيء نفسه عن الجماعات الإسلامية الراديكالية، وهو ما يعترف به حتى أفراد المؤسسة الأمنية طواعية. إذ إن " الرعب الأخضر " لا يمكن أن يكون فعالا إلا إلى حد ما؛ ويجب إحيائه باستمرار في الذاكرة العامة من خلال مشاهد إعلامية من أجل إبقاء الخوف حيا. ويشارك المحافظون والليبراليون على حد سواء في هذه الجهود.

ولكن في بعض الأحيان يحدث صدام بين هذين الجناحين من فويا الإسلام. فكما شاهدنا أعلاه، أوقفت البنتاجون تدريبها المتطرف التابع من رهاب الإسلام؛ ودعت إدارة أوباما إلى إجراء تحقيق بشأن التدريب على مكافحة الإرهاب. وهذه الصدمات ترجع إلى الاختلافات في الاستراتيجية. فعلى سبيل المثال، عندما هدد قس فلوريدا تيرى جونز بحرق القرآن في الذكرى السنوية التاسعة لهجمات ١١ سبتمبر، كان على إدارة أوباما أن تكبح جماحه. وكان هذا يتعلق بتشديد إدارته على كسب الأفتدة والعقول في " عالم المسلمين " أكثر مما كان يتعلق بالتزام أوباما بمكافحة فويا الإسلام. فقد قال أوباما، بعد تعزيزه فكرة أن الولايات المتحدة أمة تقوم على التسامح الديني، عن جونز، في مقابلة تليفزيونية، " إننى أريد منه فحسب أن يدرك أن هذا العمل المثير الذى يحاول القيام به يمكن أن يعرض شبابنا رجالا ونساء العسكريين الموجودين فى العراق والموجودين فى أفغانستان لخطر كبير^(١٧). وكانت العودة إلى مكافحة التمرد معناها أن الاستفزازات الواضحة من هذا القبيل لا بد من التحكم فيها حتى مع تعزيز منطق الإمبراطورية.



هوبيا الإسلام والنقاش العام

وما صدّ أمثال ترى جونز لم يكن تصرفات الإمبرياليين الليبراليين بل تصرفات الأشخاص العاديين في فلوريدا الذين نظموا أنفسهم وتظاهروا ضد هذا التعصب الأعمى. فجماعات شعبية من قبيل منظمة 'جينزفيل إنترناشيونال الاشتراكية'، ومنظمة 'طلبة من أجل العدالة في فلسطين'، ومنظمة 'Standup Florida'، ومنظمة العفو الدولية، ومنظمة 'طلبة جينزفيل من أجل مجتمع ديمقراطي' عبأت صفوفها ضد جونز وأخرجت إلى الشوارع في ١١ سبتمبر ٢٠١٠ مئات من الأشخاص لوقف حرق نسخ من القرآن خارج كنيسة جونز. وقد نجحت هذه الجماعات؛ فلم تُحرق نسخ من القرآن في ذلك اليوم^(٦٨). والمربع الوارد في الرسم البياني ممثلاً للحركات التقدمية موضوع إلى جانب المربع المكتوب عليه "الجمهور"، لأن الناشطين يظهرون من صفوف الأشخاص العاديين للاعتراض على العنصرية بجميع أشكالها. ولدى الحركات التقدمية القدرة على إعادة تشكيل النقاش وصدّ العنصرية، والتأثير على ما تقوله الشخصيات السياسية، بل وحتى دفعها إلى اليسار. وقد كان الطلبة وأعضاء هيئة

التدريس الليبراليون والراديكاليون على حد سواء جزءا من هذه الحركات منذ أمد طويل، وكثيرا ما تمتد مشاركتهم إلى بحوثهم وتدريسهم. ومن خلال هذا النشاط على مستوى القواعد الشعبية يمكن النجاح فى مكافحة العنصرية وإحداث تحول فى المجتمع بأكمله.

خاتمة

مكافحة فوبيا الإسلام

لقد انتقلنا فى هذا الكتاب من القرن السابع إلى القرن الحادى والعشرين وتبين لنا أن العلاقة بين " الشرق " و " الغرب " لم تكن تتسم بـ " صدام حضارات " عبر التاريخ. ورأينا أيضا أن النُخب الحاكمة عبأت صورة " خطر المسلمين " الداهم لتحقيق أجندة سياسية، سواء كانت سيطرة البابوية على أوروبا فى القرن الحادى عشر أو التوسع الأمريكى الآن. والعدو الخارجى يقترب عادةً بعنو داخلى يجرى توليد خوف وكراهية سانغين ضده. وبالتالي فإن فوبيا الإسلام يتعلق بالسياسة لا بالديانة؛ ولذا يجب مكافحة فوبيا الإسلام فى عالم السياسة.

والحزب الديمقراطى ليس حليفاً فى هذا الكفاح. فقد ظن بعض اليساريين، ومسلمون كثيرون، أن رئاسة أوباما ستخفف من الخوف الخبيث من الإسلام الذى أطلق عنانه أثناء عهد بوش وأنها ستبطل ذلك الخوف. بيد أنه لم يُحتجز عشرات الآلاف من الأمريكيين المسلمين أو يجرى ترحيلهم فى السنوات التالية لأحداث ١١ سبتمبر فحسب، بل إن مئات الآلاف جرى " استجوابهم " ومن ثم اعتبرتهم وزارة أمن الوطن التى أنشئت حديثاً موضع شك. وقد كان هناك قدر كبير من الأمل إبان انتخابات عام ٢٠٠٨ فى أن يتغير هذا كله مع قدوم رئيس ديمقراطى جديد. وتبين من استطلاع للرأى العام أجراه مجلس العلاقات الأمريكية - الإسلامية أن ٨٩ فى المائة من الأمريكيين المسلمين أعطوا أصواتهم لأوباما؛ وأن ٢ فى المائة فقط منهم صوتوا

صالح جون ماكين، الجمهورى. وأعلن أكثر من الثلثين أنهم ديمقراطيون، وذكر ٦٩ فى المائة أنهم مستقلون، وتبين أن ٤ فى المائة فقط جمهوريون^(١). بيد أن أمالهم تحطمت. فقد بدت دلائل الخيانة فى أثناء الحملة الانتخابية نفسها. فأوباما، عندما "أتهم" بأنه مسلم، نفى التهمة وأكد معتقداته المسيحية. ودأب أيضا على تجنب طائفة المسلمين. فقد طلب إلى امرأتين ترتديان الحجاب، قبل إلقائه خطابا مقرررا فى ديترويت، أن تنتقلا من وراء المنصة حتى لا تبدو أى منهما فى نفس الإطار مع المرشح أوباما.

وإذا كان اليمين ينتقد أوباما لكونه "مسلم فى السر" فإن الليبراليين كانوا طرفاً أيضا فى هذا الهجوم. فعلى سبيل المثال، كتب إوارد لوتواك، وهو زميل مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، وهو مركز إمبريالى واقعى/ليبرالى من مراكز الفكر، مقالا من مقالات الرأى فى صحيفة 'نيويورك تايمز' كان، كما يقول حامد دباشى "مناهضا للمسلمين، وينم تماما عن كراهية الإسلام بدرجة غير مسبوقة ومخزية"^(٢). وكان فحوى حجة لوتواك هو أن أوباما مسلم (لأن والده كان مسلما) وأن المسلمين ملزمون بحكم ديانتهم بإعدامه لأنه اعتنق المسيحية. وفى مواجهة هذا الهراء فى وسائط الإعلام التى يفترض فيها أنها ليبرالية، من السهل فهم السبب الذى جعل الأمريكين المسلمين يعتقدون أنهم ينبغى ألا ينتقدوا أوباما أثناء الحملة الانتخابية وأن عليهم بدلا من ذلك أن يصوتوا له وينتظروا.

بيد أن انتظارهم راح سدى. فقد واصل أوباما بعد فوزه فى الانتخابات اتباع أجندة سياسة بوش الخارجية فى مدة ولايته الثانية. وبينما تراجع خطيبا عن استخدام لغة فوييا الإسلام الخسنة فإنه أرسل عمليا ثلاثين ألف جندى إضافى إلى أفغانستان، وقام بتوسيع نطاق الحرب على باكستان، وحاول تغيير وضع اتفاق القوات فى العراق بحيث لا يمدد احتلال الولايات المتحدة للعراق فحسب بل يمنح حصانة أيضا لجنود الولايات المتحدة من المقاضاة أمام المحاكم العراقية. ولم يقم فحسب بشن عدد من الهجمات بواسطة الطائرات بدون طيار على أفغانستان

وباكستان أكبر كثيرا من عدد الهجمات المماثلة التي شنّها سلفه بل إنه أدمج أيضا تلك الهجمات في استراتيجياته بشأن اليمن والصومال. وقدم عرضا لإظهار ولأنه لإسرائيل ولم يقم، مثله مثل كل رئيس سابق، بمنع الهجمات الإرهابية على الفلسطينيين.

وفي سياق الانتفاضات العربية التي حدثت في عام ٢٠١١، أيدت إدارة أوباما في البداية حلفاءها الديكتاتوريين (من قبيل حسنى مبارك الذى كان رئيسا لمصر، وهو صديق شخصى لأسرة كلينتون)^(٣). وعندما بات واضحا أن أولئك الحلفاء سيجرى إبعادهم عن السلطة تبنى أوباما الربيع العربى، علنا على الأقل، بينما كان يؤيد فى الوقت ذاته قوى الثورة المضادة فى مختلف أنحاء المنطقة. وواصلت الولايات المتحدة تمويل المؤسسة العسكرية المصرية، وهى المصدر الرئيسى للثورة المضادة فى ذلك البلد. وفى كل مكان آخر التزم البيت الأبيض فى عهد أوباما الصمت، مثلما حدث عندما لم تُخمد المملكة العربية السعودية تمرد الشيعة لديها فحسب بل أرسلت أيضا جنودا إلى البحرين لقمع الانتفاضة فى ذلك البلد. ولو كان أوباما قد أراد أن يتدخل إلى جانب المتظاهرين المناصرين للديمقراطية فى البحرين، لكان قد استخدم الأسطول الخامس، المرابط هناك. ولكنه اختار بدلا من ذلك أن يؤيد القوى الموالية للغرب فى ليبيا وسوريا كوسيلة لإزاحة الحلفاء المتذبذبين ونزع فتيل الحركات التى تطالب بالديمقراطية الحقيقية والتغيير الاجتماعى الحقيقى.

وعلى الصعيد الداخلى، هاجم أوباما المسلمين والعرب بمواصلته سياسات بوش المتمثلة فى التعذيب، والتنكيل غير العادى، والمقاضة الاستباقية. وما زال المسلمون الأمريكيون يتعرضون للتحرش والاضطهاد من قبل الدولة. فمسرحة "الإرهاب الداخلى المنشأ" تصاعدت فحسب فى عهد أوباما عام ٢٠٠٩، مما مهد السبيل للمحاربين من دعاة فوبيا الإسلام الذين يمثلون أقصى اليمين. بل إن أوباما تمادى أكثر من بوش من عدة نواح. فقد حصل للرئيس على سلطة إعدام مواطنى الولايات المتحدة الذين يُشتبه فى وجود روابط لهم بالإرهاب بدون بذل جهد كبير من قبيل

إجراءات المحاكمة أو عبء الإثبات غير الضروري فيما يبدو؛ فقد نُفذ حكم الإعدام بإجراءات موجزة في رجل الدين والمواطن الأمريكي أنور العولقى عام ٢٠١١، ووقع أوباما أيضا قانون الترخيص الخاص بالدفاع القومي، الذي يتيح للمؤسسة العسكرية، بين جملة أمور أخرى، احتجاز مواطنى الولايات المتحدة "الذين يُشتبه في صلتهم بالإرهاب" بدون توجيه تهمة لهم. واعتمد أوباما سياسات بوش ودونتها في القانون مع أن ذلك أمر غير دستوري وغير قانونى، وفقا لاتحاد الحريات المدنية الأمريكية^(٤). وحتى رغم أن هذه العملية قد أبعدت أفراد أسر المسلمين بعضهم عن بعض.

وبدلا من أن يصدّ أوباما المقاضاة الاستباقية والممارسة العنصرية المتمثلة في استهداف المسلمين قبل أن يفعلوا أى شيء فعلا، فإنه عززهما. وأماط اللثام عن استراتيجيته "لمكافحة التحول إلى الراديكالية" عام ٢٠١١، مما أضفى مصداقية على البرامج القائمة فى أوساط إنفاذ القانون بشأن التحول إلى الراديكالية. وقال أوباما، فى البيان الافتتاحى لوثيقة استراتيجيته، إن "القاعدة والمنظمات المنتسبة إليها حاولت مؤخرا تجنيد أشخاص هنا فى الولايات المتحدة وتحويلهم إلى الراديكالية، كما شاهدنا فى العديد من المخططات والهجمات، ومن بينها الهجوم المميت الذى تعرّض له منذ عامين جنودنا فى فورت هود". وبعد أن قضى أوباما وقتا طويلا عام ٢٠٠٩ فى التشديد على خطر الإرهابيين داخل حدود الولايات المتحدة، كما نوقش فى الفصل التاسع، فإنه طرح خطة لكبح "الإرهاب الداخلى المنشأ" بالتماس مساعدة طائفة المسلمين. بيد أن الخوف الليبرالى من الإسلام لا يستهدف جميع المسلمين. فهو يعترف بوجود "مسلمين أختار"، وهم أولئك الذين يتعاونون مع أهداف الإمبراطورية. ومن ثم، ذكر أوباما أن المسلمين "أقدر على تولى الدور القيادى لأنهم يعرفون أوساطهم أفضل المعرفة". وأغدق فى مديح الأمريكين المسلمين الذين عملوا مع المسؤولين عن إنفاذ القانون، ودعا إلى مزيد من هذا العمل. وتلتمس الوثيقة دعم المدرسين والمدرّبين وأفراد طائفة المسلمين، الذين يتعين تحويلهم إلى نظام مخبرين

على غرار المكارثية^(٥). ويمضى التقرير، متمسكا بمبادئ الخوف الليبرالي من الإسلام، ليقول "علينا أن نتصدى لدعاية القاعدة القائلة بأن الولايات المتحدة فى حالة حرب مع الإسلام بطريقة ما" ويؤكد بدلا من ذلك أن "الإسلام جزء من أمريكا، وهى بلد يعتز بالمشاركة النشطة من قبل جميع مواطنيه، بصرف النظر عن خلفيتهم ومعتقداتهم. فنحن نعيش فى ظل ما ترفضه القاعدة بعنف، وهو الحرية الدينية والتعددية." وأضاف أوباما قائلا "إن تنوع خلفياتنا ودياناتنا الثرى يجعلنا أقوى". وهذا يمثل الأسلوب الذى يعمل به الخوف الليبرالي من الإسلام: وهو رفض مهاجمة الإسلام بعنف، ثم الشروع فى طرح مقترحات تستهدف المسلمين. فعندما عقد النائب بيتر كنج جلسات استماعه على غرار المكارثية فى مارس ٢٠١١ لتحديد مدى تحول المسلمين إلى الراديكالية فى الولايات المتحدة، فإنه تعرض لهجوم عن حق من قبل الليبراليين. ومع ذلك، فى شهر أغسطس من ذلك العام، عندما أضيف أوباما طابعا مؤسسيا على هذه العملية من خلال استراتيجيته "لمكافحة التحول إلى الراديكالية" لم يكن هناك أى مظهر من مظاهر الاحتجاج تقريبا.

وفى حقيقة الأمر، القاعدة تمثل قوة عديمة الأهمية، وقدرتها على تجنيد أفراد فى الولايات المتحدة محدودة للغاية. وحتى أعضاء جهاز الأمن يعترفون بذلك. فقبل شهر من إصدار وثيقة "مكافحة التحول إلى الراديكالية"، ذكرت صحيفة 'واشنطن بوست' أن من المعتقد على نطاق واسع فى وكالة المخابرات المركزية، فضلا عن أوساط مسؤولى مكافحة الإرهاب، أن القاعدة قد قُضى عليها تقريبا^(٦). وتوصلت إلى نفس هذا الاستنتاج مقالة بقلم جون مولر نُشرت فى مجلة "Foreign Affairs" بعنوان "الحقيقة بشأن القاعدة"^(٧). ومع ذلك، رغم عدم وجود أى دليل نى مصداقية يشير إلى أن القاعدة ظلت تشكل تهديدا للأمن القومى، أطلقت إدارة أوباما خطة لزيادة التصنيف العنصرى للأمريكيين المسلمين. لماذا؟ ثمة عدد من الأسباب، ولكن أحدها هو بالتأكيد أن استراتيجية "مكافحة التمرد" - أى محاولة "كسب الأفئدة والعقول" - كانت تفشل إلى حد كبير فى الخارج. ولذا اضطر أوباما إلى التحول إلى مكافحة الإرهاب وإحياء العدو "الإرهابى الإسلامى"، وإن يكن تحت قناع ليبرالى.

ويجدر التشديد على أن ما يجعل هذا أمرا غادرا بشدة هو قدرة أوباما على القيام بذلك مع إقناعه للجمهور بحيثيات مناهضته للعنصرية. وعلاوة على ذلك، فإن هذا التركيز على المسلمين كإرهابيين يصرف الاهتمام عن الإرهابيين المسيحيين اليمينيين الذين يواصلون مهاجمة عيادات الإجهاض. وقد أشارت وثيقة أوباما، التي صدرت بعد فترة وجيزة من قيام أندرس بهرينج بريفيك، الإرهابى المسيحى الذى يمثل أقصى اليمين، بتنفيذ هجوم مفجع فى النرويج، إلى التحول صوب إدراج الاستغلاليين البيض تحت مظلة الإرهابيين. بيد أنها أصرت على أن " القاعدة والمنظمات المنتسبة والمنظمة إليها تمثل الخطر الإرهابى المحقق ببلدنا"^(٨). وظلت طائفة المسلمين هى محور التركيز الأول لاستراتيجية " مكافحة التحول إلى الراديكالية". ولذا ينبغى ألا يكون استمرار مسؤولى إنفاذ القانون فى التجسس على المسلمين واختراقهم أثناء عهد أوباما مدعاة للدهشة. فكما يقول عبد الملك مجاهد ، وهو أحد زعماء ائتلاف المسلمين المناصر للسلام، " إن طائفة المسلمين فى الولايات المتحدة تعيش فى معسكر اعتقال تقريبا منذ أحداث ١١ سبتمبر. فمنذ ذلك الحين، استجوب مكتب التحقيقات الفيدرالى ما ينوف على ٧٠٠ ٠٠٠ مسلم. وهذا معناه أن زهاء ٥٠ فى المائة من جميع أسر المسلمين قد تعرضت لهذا 'التحقيق'. وجميع المساجد تقريبا جرى تفتيشها بحثا عن قنابل نووية أو لأسباب أخرى تثير الخوف. وهذا هو مستوى الثقة الذى ننعم به فى أوساط المسلمين"^(٩).

وقد تعلم رضا شتا بشكل مباشر أنه لا نفع فى الارتباط بمؤسسة إنفاذ القانون. فقد عمل مع مكتب التحقيقات الفيدرالى والشرطة، بحيث كان يدعو الضباط إلى مسجده لتناول الإفطار، بل وكان يتناول العشاء مع العمدة بلومبيرج. وكان يمثل تجسيدا لكل شيء وصفته الإمبريالية الأمريكية بأنه " المسلم الخير". ومع ذلك صدر تكليف لضابط شرطة سرى ومخبر بالتجسس عليه وبمواصلة مراقبة مسجده. وقال شتا، عندما علم أن نفس الأشخاص الذين دعاهم إلى مسجده ينظرون إليه على أنه شخص مشتبه فيه: " إن هذا أمر مؤسف للغاية. ... ما الذى يشعر به المرء عندما يرى ذلك من أشخاص منحهم ثقته؟" بل إن تقرير محطة "CBS" الذى ورد فيه ذلك يمضى

ليقول إن "الانفصام بين أن يكون المرء شريكا ومشتبها فيه في أن واحد أمر شائع في أوساط بعض مسلمي مدينة نيويورك. فبعض نفس المساجد التي زارها قادة المدينة للتعبير عن تحالفاتهم القوية مع طائفة المسلمين وضعت أيضا تحت مراقبة إدارة شرطة مدينة نيويورك، واخترقها في بعض الحالات ضباط ومخبرون سريون" (١٠). وساهمت إدارة أوباما بأموال فيدرالية في برنامج التجسس التابع لإدارة شرطة مدينة نيويورك (١١).

وقد بدأت قطاعات من طائفة المسلمين تصد ذلك بعد سنوات من عمليات التضليل تحت حكم رئيس ديمقراطي، فعلى سبيل المثال، في المراحل الأولية لانتخابات عام ٢٠١٢، اعترضت أقلية متزايدة من الأمريكيين المسلمين على بقائها في خلفية الحافلة. ففي فلوريدا، عندما رفضت رئيسة اللجنة القومية الديمقراطية، ديبى واسرمان شولتز، دعوة لحضور مناسبة استضافتها منظمة إسلامية، فإنها تعرضت للتوبيخ. فقد قال الناشط محمد مالك، مويخاً الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء، " لا أظن أن المسألة تتعلق ببضع تفاحات فاسدة، فما دام رهاب الإسلام مستريحا في كنف مؤسساتنا السياسية والاجتماعية، ستظل التهديدات للمشاركة الكاملة والكرامة والحقوق المدنية حية وعفوية" (١٢). وقد أظهرت أرقام استطلاعات الرأي العام تدنى ثقة الأمريكيين المسلمين في أوباما؛ ففي عام ٢٠١١، كان سبعة من كل عشرة من الأمريكيين المسلمين ينظرون إلى أوباما نظرة إيجابية، مقارنة بتسعة من كل عشرة في عام ٢٠٠٧، (١٣). وفي أوساط الزعماء الدينيين المسلمين، قاطع ١٥ رجلا من رجال الدين في مدينة نيويورك مأدبة الإفطار السنوية المشتركة بين الأديان التي أقامها عام ٢٠١١ بلومبيرج الذي يفترض فيه أنه متسامح دينيا، وبعثوا برسالة احتجاج وقّع عليها أيضا حاخامات وراهبات وقساوسة (١٤). وأصدر مائة إمام في منطقة نيويورك بيانا تأييدا للمظاهرة المناهضة للحرب التي أقيمت في أبريل ٢٠١١، وقد قام بحشد هذا التأييد نشطاء في الائتلاف القومي المتحد المناهض للحرب، بمساعدة من ائتلاف المسلمين المناصر للسلام.

وعندما ثارت هوجة المحاربين دعاة فوييا الإسلام ضد المساجد والمراكز المجتمعية الإسلامية المقترحة فى مختلف أنحاء البلد، تكافت ائتلافات صغيرة من نشطاء تقدميين للتصدى لذلك. ففى مدينة نيويورك، أقامت عدة جماعات يسارية ائتلافات لتخطيط إجراءات ضد هجوم الجناح اليمىنى على المركز المجتمعى الإسلامى المقترح. وفى ١١ سبتمبر ٢٠١٠، كان عدد التقدميين يفوق بمراحل عدد المتعصبين فى مظاهرتين متوازيتين فى المنطقة الجنوبية من مانهاتن. فقد سار آلاف من أهالى نيويورك من مختلف الألوان والأحجام لمعارضة فوييا الإسلام، وهم ينشدون قائلين "السلام عليكم، المسلمون محل ترحيب هنا." أما المتعصبون، الذين جرى شحنهم من خارج المدينة إلى حد كبير، فقد تراجعوا. وافتتح فى عام ٢٠١١ "Park51" وقد تكررت هذه الجهود فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة، مسفرة فى بعض الأحيان عن انتصارات، وفى أحيان أخرى عن هزائم. وعبأت فروع مركز العلاقات الأمريكية - الإسلامية (CAIR) صفوفها ضد التعصب المناهض للمسلمين ووفرت الدفاع القانونى الذى تشدد الحاجة إليه من أجل أفراد الطائفة المحاصرين. وكانت أسر أولئك المستهدفين مصدرا مستمرا للمقاومة ضد العنصرية المناهضة للمسلمين. فقد كافحت، إلى جانب محامين تقدميين، لتحقيق العدل لأفرادها وإثارة الوعى العام. وبحلول نهاية العقد الأول بعد أحداث ١١ سبتمبر، تجمعت هذه الأسر من مختلف أنحاء البلد فى مؤتمرات شتى للبدء فى شن كفاح جماعى ضد المقاضاة الاستباقية وإساءة معاملة السجناء. وبعد أن انكشف أمر "برنامج التصنيف البشرى" التابع لإدارة شرطة نيويورك، دعت منظمة "DRUM"، وهى منظمة تناصر حقوق المهاجرين من جنوب آسيا كان لها نشاطها الذى يدور حول العنصرية المناهضة للمسلمين، إلى مظاهرات ومؤتمرات صحفية. ثم تبنى النشطاء فى حركة 'احتلوا وول ستريت' هذه المسألة، بحيث ساعدوا على تنظيم تجمعات حاشدة للدعوة إلى استقالة راي كيلي مأمور إدارة شرطة نيويورك. وفى تلك التجمعات، ربط النشطاء صراحة بين استهداف إدارة شرطة مدينة نيويورك للسود واللاتينيين والقمع الوحشى لمحتجى حركة 'احتلوا وول ستريت' وبين تصنيفها العنصرى للعرب والمسلمين.

ومن الممكن مكافحة فوبيا الإسلام من خلال جهود شعبية كهذه. وفي سياق ضروب الكفاح هذه، يتضح أن من المهم ربط القضايا المحلية بالسياق الأوسع نطاقاً. فكما ذكرت حركة 'احتلوا وول ستريت'، ينتفض " ٩٩ فى المائة" ضد أقلية صغيرة موجودة على قمة المجتمع تستفيد ليس فحسب من نظام اقتصادى جائر بل أيضا من نظام سياسى جائر. وكما يقول مجاهد: " أولا، إن فوبيا الإسلام، والحرب، والإرهاب هى كلها ظواهر مترابطة. ومن ثم علينا أن نكافح الحرب وفوبيا الإسلام، فضلا عن الإرهاب. ثانيا، الكراهية والفرق ليسا المشكلتين اللتين تواجههما طائفة المسلمين وحدها، فهناك طوائف أخرى تواجهها مشاكل مماثلة. ويمكننا وعلينا أن نتحد مع أكبر عدد ممكن من القوى لشن حركة مقاومة"^(١٥).

وفى حقيقة الأمر، المسلمون والعرب وغيرهم ممن " يبدون مسلمين" ليسوا الأشخاص الوحيدين الذين سيستفيدون من كفاح ناجح ضد فوبيا الإسلام. فهذا الكفاح يخدم أيضا مصالح الغالبية العظمى من الأمريكيين، الذين سرقت تريليونات الدولارات من رعايتهم الصحية وتعليمهم وبنيتهم التحتية ووسائل نقلهم العامة ووجهت إلى آلة الموت. ولن تستفيد الطبقة العاملة من الأمريكيين بجميع أعراقهم شيئا من غنائم الإمبراطورية، وستخسر كل شيء. والمظاهرات المتعددة الأعراق التى جابت شوارع ستاتن آيلاند إلى ميرفبريزبورو إلى جينزفيل اعتراضا على الاعتداءات على المساجد تُبين أن هذا التضامن ممكن. فالسبيل الوحيد إلى تحدى مناخ الخوف والكراهية هو مجابهة التعصب أينما أطل برأسه، والقيام فى الوقت ذاته بإيجاد بديل للأحزاب السائدة التى لم تفشل فحسب فى التصدى للعنصرية بل أججتها بهمة ونشاط. فالسياسة التى تربط بين التعديات على الحقوق المدنية وبين السياسة الإمبريالية التى تنتهجها الولايات المتحدة هى وحدها التى يمكن أن تبين أن التعصب ضد المسلمين يتعلق بإيجاد مناخ سياسى تستطيع فيه الولايات المتحدة غزو بلدان أخرى حسبما تشاء وتخدم الانشقاق فى الداخل.

وفي نهاية الأمر، تُجبر الغالبية العظمى من الناس العاديين في مختلف أنحاء العالم على العيش في ظل نظام جائر وظالم بدرجة بالغة. وقد أظهر عام ٢٠١١ أن هذا النظام بأوليواته الضالة لن ينمحي بدون تحديه. والثورات التي شهدتها تونس ومصر امتدت ليس فحسب إلى بلدان أخرى في المنطقة بل أيضا إلى أوروبا والولايات المتحدة. وتعلم المحتجون فنون الاستراتيجية والتكتيكات بعضهم من بعض عندما أصبحت الأماكن العامة مراكز رئيسية للتحركات. فبدأ من ميدان التحرير في مصر، إلى ميدان اللؤلؤ في البحرين، إلى بويرتا دل سول في مدريد، وميدان سينتاجما في أثينا، وحديقة زوكوتي في مدينة نيويورك، كرمّت لحظات الاحتجاج بوعى ذاتي إحداها الأخرى من خلال تحيات التضامن ومحاكاة التكتيكات. وكانت التحركات جميعها، رغم الاختلافات المحلية، موجهة ضد نظام نسبة الواحد في المائة. فثمة أشخاص في الغرب كانت نجاحات نظرائهم في تونس ومصر إلهاماً لهم، بدلا من أن يشعروا بالإشفاق على أشقائهم العرب وشقيقاتهم العربيات. وبدلا من "العبء الواقع على عاتق الرجل الأبيض" بدأت تتخلق سياسة تضامن دولي.

وقد كانت آخر مرة تكاتف فيها الناس من مختلف أنحاء العالم قبل ما يقرب من نصف قرن. فالكفاح في سبيل التحرر الوطني الذي اجتاح العالم، بدءاً من الهند إلى الجزائر، في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية أزعج مراكز الإمبريالية، حتى عندما بدأ الكفاح ينبثق داخل أوروبا والولايات المتحدة. ونحن الآن على أبواب حقبة مماثلة. حقبة ثورة تحمل في طياتها إمكانية إقامة مجتمع جديد تماما متحرر من العنصرية والحرب: عالم جديد يُعامل فيه باحترام كل فرد بصرف النظر عن العرق أو الأصل الإثني أو القومية أو الديانة، عالم تُلقى فيه بإيديولوجية قويا الإسلام في سلة مهملات التاريخ، وسيكون هذا بداية ذلك.

الهوامش

1. Bernard Lewis, "The Roots of Muslim Rage," *Atlantic Monthly*, September 1990.

1. Images of Islam in Europe

1. Norman Daniel, *Islam and the West: The Making of an Image* (One World: Oxford, 1960), reprint, 1993, 14–15.
2. See R. W. Southern, *Western Views of Islam in the Middle Ages* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1962), 16–19.
3. Maxime Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam* (London: I. B. Tauris, 2002), 5.
4. Jason Webster (author of *Andalus: Unlocking the Secrets of Moorish Spain*, New York: Doubleday, 2004), quoted in the documentary film *An Islamic History of Europe* (London: BBC Four, 2009), directed by Rageh Omaar. Available at <http://www.youtube.com/watch?v=x0IaCK-7z5o>.
5. Southern, *Western Views of Islam*, 21.
6. Iman Feisal Abdul Rauf, interview by Joseph Ward III, *Intersections International*, July 16, 2010, available at http://www.intersectionsinternational.org/files/ImamFeisalAbdulRauf_InterviewTranscript.pdf.
7. George Saliba, *Islamic Science and the Making of the European Renaissance* (Cambridge, MA: MIT Press, 2007).
8. Zachary Lockman, *Contending Visions of the Middle East: The History and Politics of Orientalism* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), 31.
9. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 14–15.
10. John Esposito, *The Islamic Threat: Myth or Reality?*, 3rd ed. (New York: Oxford University Press, 1999), 39.
11. *Ibid.*, 39.
12. Quoted in Neil Faulkner, "A Marxist History of the World, Part 31: Crusade and Jihad," *Counterfire*, April 11, 2011, available at <http://www.counterfire.org/index.php/articles/a-marxist-history-of-the-world/11777-a-marxist-history-of-the-world-31-crusade-and-jihad>.

13. Southern, *Western Views of Islam*, 5.
14. *Ibid.*, 5.
15. Daniel, *Islam and the West*, 100.
16. *Ibid.*, 35.
17. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 21–22.
18. *Ibid.*, 29.
19. *Ibid.*, 24–27.
20. Quoted in Esposito, *Islamic Threat*, 41.
21. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 36.
22. Lockman, *Contending Visions*, 41.
23. *Ibid.*, 42.
24. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 37.
25. Lockman, *Contending Visions*, 45–6.
26. *Ibid.*, 47.
27. Edward Said, *Orientalism* (New York: Vintage, 1978), 118.
28. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 59.
29. *Ibid.*, 46–47.
30. Daniel, *Islam and the West*, 312.
31. Emmanuel Chukwudi Eze, *Race and the Enlightenment: A Reader* (Oxford: Blackwell Publishers, 1997), 5.
32. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 48–49.

2. Colonialism and Orientalism

1. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 9–10.
2. Arthur Goldschmidt Jr. and Lawrence Davidson, *A Concise History of the Middle East*, 9th ed. (Boulder, CO: Westview, 2010), 162.
3. Said, *Orientalism*, 82.
4. *Ibid.*, 83–84.
5. *Ibid.*, 87.
6. Hans Koning, *The Conquest of America: How the Indian Nations Lost Their Continent* (New York: Cornerstone Press, 1993), 27.
7. George Fredrickson, *Racism: A Short History* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002), 40–47.
8. *Ibid.*; see chapter 2.
9. See also Eric Williams, *Capitalism and Slavery* (London: David and Charles, 1964), 7–20, and Robin Blackburn, *The Making of New World Slavery* (New York: Verso, 1997), 12–15.
10. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 65.
11. Quoted in Melani McAlister, *Epic Encounters: Culture, Media and US Interests in the Middle East since 1945* (Berkeley: University of California Press, 2005), 9.
12. Lockman, *Contending Visions*, 58.
13. Rodinson, *Europe and the Mystique of Islam*, 62.
14. *Ibid.*, 60.
15. Quoted in Lockman, *Contending Visions*, 94.
16. David Spurr, *The Rhetoric of Empire* (Durham, NC: Duke University Press, 1993), 113.
17. Quoted in Lockman, *Contending Visions*, 78.
18. Quoted in Richard Seymour, *The Liberal Defence of Murder* (New York: Verso, 2008), 99.
19. Raphael Patai, *The Arab Mind* (New York: Hatherleigh Press, 2002).

20. Quoted in Esposito, *Islamic Threat*, 230.
21. Douglas Little, *American Orientalism: The United States and the Middle East since 1945* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2002), 11.
22. *Ibid.*, 12.
23. *Ibid.*, 13.
24. Mark Twain, quoted in *ibid.*, 13.
25. McAlister, *Epic Encounters*, 14–20.
26. Little, *American Orientalism*, 13.
27. Said, *Orientalism*, 294–95.
28. Lockman, *Contending Visions*, 102.
29. Said, *Orientalism*, 297.
30. *Ibid.*, 296.
31. Lockman, *Contending Visions*, 129–30.
32. Sidney Lens, *The Forging of the American Empire: From the Revolution to Vietnam; A History of US Imperialism* (Chicago: Pluto Press and Haymarket Books, 2003), 179.
33. John Foster Dulles, quoted in McAlister, *Epic Encounters*, 45.
34. Henry Luce, quoted in *ibid.*, 47.
35. *Ibid.*, 55.
36. Lens, *Forging of the American Empire*, 367–68.
37. Daniel Lerner, *The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East* (New York: Free Press, 1965).
38. Everett Rogers, *Diffusion of Innovations*, 5th ed. (New York: Free Press, 2003).

3. The Persistence of Orientalist Myths

1. John McCain, town hall meeting, Lakehall, MN, October 10, 2008. Footage from Associated Press available from Youtube at <http://www.youtube.com/watch?v=jrnRU3ocIH4>. Accessed August 24, 2011.
2. Associated Press, "Obama Says He's Christian, Not Muslim," *The Boston Channel*, October 2008. Available at <http://www.thebostonchannel.com/r/15101761/detail.html>, accessed September 9, 2011.
3. *Wikipedia*, s.v. "List of Countries by Muslim Population," last modified September 9, 2011, accessed September 9, 2011.
4. Maxime Rodinson, *The Arabs* (Chicago: University of Chicago Press, 1979).
5. Said, *Orientalism*, 296.
6. Peter Morey and Amina Yaqin, *Framing Muslims* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011); Stephen Sheehi, *Islamophobia: The Ideological Campaign against Muslims* (Atlanta: Clarity Press, 2011); Jack Shaheen, *Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People*, 2nd ed. (New York: Olive Branch Press, 2009).
7. Quoted in Lockman, *Contending Visions*, 69.
8. See for instance Barbara Hodgson, *Dreaming of East: Western Women and the Exotic Allure of the Orient* (Vancouver: Greystone Books, 2005); Reina Lewis, *Rethinking Orientalism: Women, Travel, and the Ottoman Harem* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2004); Reina Lewis and Nancy Micklewright, eds., *Gender, Modernity and Liberty: Middle Eastern and Western Women's Writings: A Critical Sourcebook* (London: I. B. Tauris, 2006); and Sara Mills, *Discourses of Difference: An Analysis of Women's Travel Writing and Colonialism* (New York: Routledge, 1991), all of which have analyzed European women's contributions to discourse on the "East" in the eighteenth and nineteenth centuries. What these authors show is that while some of the dominant myths about

Muslim women are echoed here, there are also other accounts that contest the notion of Muslim women as horribly oppressed.

9. Leila Ahmed, *Women and Gender in Islam* (New Haven, CT: Yale University Press, 1992), 152–153.
10. Quoted in Bill Sammon, "Bush Urges Afghans to Help Oust Taliban," *Washington Times*, September 26, 2001, accessed October 26, 2009.
11. Laura Bush, quoted in Sharon Smith, "Using Women's Rights to Sell Washington's War," *International Socialist Review* 21, January–February 2002, available at http://www.isreview.org/issues/21/afghan_women.shtml, accessed April 10, 2012.
12. Malalai Joya, *A Woman among Warlords* (New York: Scribner, 2009).
13. Deepa Kumar, "Heroes, Victims, and Veils: Women's Liberation and the Rhetoric of Empire Post-9/11," *Forum on Public Policy* 4, no. 2 (2008): 23–32.
14. N. C. Aizenman, "Nicaragua's Total Ban on Abortion Spurs Critics," *Washington Post*, November 28, 2006, available at <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/11/27/AR2006112701577.html>, accessed October 28, 2009. See also Michelle Ralston and Elizabeth Podrebarach, "Abortion Laws around the World," Pew Forum on Religion & Public Life, September 30, 2008, available at www.pewforum.org/Abortion/Abortion-Laws-Around-the-World.aspx.
15. Dilip Hiro, *Holy Wars: The Rise of Islamic Fundamentalism* (New York: Routledge, 1989).
16. Maxime Rodinson, *Muhammad* (New York: New Press, 2002).
17. Asma Barlas, "Believing Women" in Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qur'an (Austin: University of Texas Press, 2002).
18. See Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (Oxford: Clarendon Press, 1956), cited in Ahmed, *Women and Gender in Islam*, 43.
19. Rodinson, *Muhammad*, 230.
20. Ahmed, *Women and Gender in Islam*, 62.
21. The Egyptian civilization (3100–333 BCE) ended with the Greek conquest of Egypt.
22. Quoted in Ahmed, *Women and Gender in Islam*, 29.
23. Pope Benedict XVI, "Faith, Reason, and the Univeristy: Memories and Reflections," delivered September 12, 2006 in Regensburg, Germany, transcript available at http://news.bbc.co.uk/2/shared/bsp/hi/pdfs/15_09_06_pope.pdf, accessed April 10, 2012.
24. Quoted in Mahmood Mamdani, *Good Muslim, Bad Muslim* (New York: Doubleday, 2005), 45.
25. Quoted in Maxime Rodinson, *Marxism and the Muslim World* (New York: Monthly Review Press, 1981), 50.
26. Lockman, *Contending Visions*, 79–80.
27. Earl of Cromer, quoted in Said, *Orientalism*, 38.
28. Richard Seymour, "The Changing Face of Racism," *International Socialism Journal* 126 (April 2010), available at <http://www.isj.org.uk/?id=638>, accessed April 9, 2012.
29. Karim H. Karim, *Islamic Peril: Media and Global Violence*, 2nd ed. (New York: Black Rose Books, 2003).
30. Talal Asad, *On Suicide Bombing* (New York: Columbia University Press, 2007).
31. Rudolph Guiliani, remarks delivered at Republican presidential debate, May 3, 2007, in Simi Valley, CA, transcript available at <http://2008election.procon.org/pdf/Rep20070503.pdf>, accessed September 9, 2011.
32. See in particular Stephen Jay Gould's excellent *The Mismeasure of Man*, revised and expanded edition (New York: W. W. Norton, 1996).
33. Tariq Ali, *The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihad, and Modernity* (New York: Verso, 2002), 54.

34. Saliba, *Islamic Science*.
35. Pope Benedict XVI, "Faith, Reason, and the University."
36. Anthony DiMaggio, "Fort Hood Fallout: Cultural Racism and Deteriorating Public Discourse on Islam," *ZNet*, December 3, 2009, accessed January 18, 2010.
37. Tunku Varadarajan, "Going Muslim," *Forbes*, November 9, 2009, available at <http://www.forbes.com/2009/11/08/fort-hood-nidal-malik-hasan-muslims-opinions-columnists-tunku-varadarajan.html>, accessed January 18, 2010.
38. Amitabh Pal, *"Islam" Means Peace: Understanding the Muslim Principle of Nonviolence Today* (Westport, CT: Praeger, 2011).
39. Lockman, *Contending Visions*, 19.
40. Ali, *Clash of Fundamentalisms*, 40.
41. Colin Wells, quoted in John Feffer, *Crusade 2.0: The West's Resurgent War on Islam* (San Francisco: City Lights Books, 2012), 36.
42. Andrew Curry, "The First Holy War," *U.S. News and World Report*, August 23, 2005.
43. Quoted in Said, *Orientalism*, 32–33.
44. Quoted in Little, *American Orientalism*, 15.
45. See Paul D'Amato's critique of Niall Ferguson's book *Empire*: "When Britannia Waived the Rules," *International Socialist Review* 32, November–December 2003, available at <http://www.isreview.org/issues/32/ferguson.shtml>, accessed April 9, 2012.
46. After a week in Afghanistan, leader Medea Benjamin reversed Code Pink's antiwar position. See Aunohita Mojumdar, "Code Pink Rethinks Its Call for Afghanistan Pull-out," *Christian Science Monitor*, October 6, 2009, <http://www.csmonitor.com/World/Asia-South-Central/2009/1006/p06s10-wosc.html>, accessed April 10, 2012.
47. Lens, *Forging of the American Empire*; William Blum, *Rogue State* (Monroe, Maine: Common Courage Press, 2000); Stephen Kinzer, *Overthrow: America's Century of Regime Change from Hawaii to Iraq* (New York: Times Books, 2006).
48. Quoted in Little, *American Orientalism*, 28.
49. *Ibid.*, 27–28.
50. Ervand Abrahamian, *A History of Modern Iran* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008).
51. Goldschmidt and Davidson, *Concise History*, 190–93 and 198–201.
52. Bernard Lewis, interview by David Horowitz, "A Mass Expression of Outrage against Injustice," *Jerusalem Post*, February 25, 2011, available at <http://www.jpost.com/Opinion/Columnists/Article.aspx?id=209770>, accessed April 9, 2012.
53. *Ibid.*

4. Allies and Enemies: The United States and Political Islam

1. *New York Times*, "US Warship Becomes Arab Court in Miniature for Ibn Saud's Voyage," February 21, 1945.
2. Little, *American Orientalism*, 194–95.
3. Quoted in *ibid.*, 27.
4. *Ibid.*, 195–96.
5. Dwight D. Eisenhower, "The Eisenhower Doctrine on the Middle East: A Message to Congress," *Department of State Bulletin* 36, no. 917 (January 21, 1957): 83–87. Available at <http://www.fordham.edu/halsall/mod/1957eisenhowerdoctrine.html>, accessed September 22, 2011.
6. Quoted in Robert Dreyfuss, *Devil's Game: How the United States Helped Unleash Fun-*

- damentalist Islam* (New York: Henry Holt, 2005), 121.
7. Rachel Bronson, *Thicker than Oil: America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia* (Oxford: Oxford University Press, 2006), 74.
 8. Dreyfuss, *Devil's Game*, 72–73.
 9. *Ibid.*, 76–85.
 10. Joyce Battle, *US Propaganda in the Middle East: The Early Cold War Version*, National Security Archive Briefing Book 78 (Washington, DC: National Security Archive, 2002). Available at <http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/essay.htm>, accessed September 15, 2011.
 11. *Ibid.*, 20.
 12. See chapter 4 of Dreyfuss, *Devil's Game*.
 13. *Ibid.*, 97–104.
 14. *Ibid.*, 125.
 15. Walter Laqueur, *Communism and Nationalism in the Middle East* (New York: Praeger, 1956), 6.
 16. Fawaz Gerges, *America and Political Islam: Clash of Cultures or Clash of Interests?* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), 40.
 17. *Ibid.*, 41.
 18. *Ibid.*, 42.
 19. Madawi Al-Rasheed, *A History of Saudi Arabia* (New York: Cambridge University Press, 2002).
 20. See Gilles Kepel, *Jihad: The Trail of Political Islam* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003), chapter 3; also Bronson, *Thicker than Oil*, and As'ad AbuKhalil, *The Battle for Saudi Arabia: Royalty, Fundamentalism, and Global Power* (New York: Seven Stories Press, 2003).
 21. See chapter 7 of Dreyfuss, *Devil's Game*.
 22. *Ibid.*, 172.
 23. Ronald Reagan, "Remarks at the Annual Dinner of the Conservative Political Action Conference," speech delivered March 1, 1985, *Public Papers of the Presidents of the United States: Ronald Reagan, 1985*, Bk 1 (Washington, DC: United States Government Printing Office, 1988), 228.
 24. Dreyfuss, *Devil's Game*, 113–16.
 25. For more about the dynamics of the Iranian revolution, see Nikki Keddie, *Modern Iran: Roots and Results of Revolution* (New Haven, CT: Yale University Press, 2003); Maryam Poya, "Iran 1979: Long Live Revolution . . . Long Live Islam?" in Colin Barker, ed., *Revolutionary Rehearsals* (London: Bookmarks, 1987); and Saman Sepehri, "The Iranian Revolution," *International Socialist Review* 9, August–September 2000.
 26. Gerges, *America and Political Islam*, 43.
 27. *Ibid.*, 66.
 28. Saadia Toor, *The State of Islam: Culture and Cold War Politics in Pakistan* (London: Pluto Press, 2011).
 29. Dreyfuss, *Devil's Game*, 244.
 30. Robert M. Gates, *From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How They Won the Cold War* (New York: Simon and Schuster, 1996).
 31. Zbigniew Brzezinski, interview by A. G. Frank, *Nouvel Observateur*, January 15–21, 1998.
 32. The last description—"definitely dictator material"—was not typically a pejorative in the eyes of the CIA. Tim Weiner, *Blank Check: The Pentagon's Black Budget* (New York: Warner Books, 1990), 32.
 33. Reagan, "Remarks," 228.

34. Steve Coll, "Anatomy of a Victory: CIA's Covert Afghan War," *Washington Post*, July 19, 1992.
35. Mamdani, *Good Muslim*, 128, 135
36. John Cooley, *Unholy Wars: Afghanistan, America and International Terrorism* (London: Pluto Press, 2002), 70.
37. *Ibid.*, 70–72.
38. *Ibid.*, 71–73.
39. Mamdani, *Good Muslim*, 130
40. Gerges, *America and Political Islam*, 111.
41. Kepel, *Jihad*, 10.
42. Gerges, *America and Political Islam*, 122–23.
43. Ahmed Rashid, *Taliban: Militant Islam, Oil and Fundamentalism in Central Asia* (New Haven, CT: Yale University Press, 2000).
44. Little, *American Orientalism*, 42.
45. On the portrayal of Arabs in Hollywood, see Shaheen, *Reel Bad Arabs*.
46. Fred Halliday, *Islam and the Myth of Confrontation* (New York: I. B. Tauris, 2003), 188.
47. Israel Ministry of Foreign Affairs, "Benjamin Netanyahu," August 10, 2005, available at http://www.mfa.gov.il/MFA/MFAArchive/2000_2009/2003/2/Benjamin%20Netanyahu, accessed September 15, 2011.
48. Shaul Mishal and Avraham Sela, *The Palestinian Hamas: Vision, Violence, and Coexistence* (New York: Columbia University Press, 2006), 21.
49. Dreyfuss, *Devil's Game*, 197.
50. Gerges, *America and Political Islam*, 52.
51. Kepel, *Jihad*, 9.
52. See chapter 9 of Gerges, *America and Political Islam*.
53. Kepel, *Jihad*, 10.
54. Samih Farsoun, "Roots of the American Antiterrorism Crusade," in Elaine Hagopian, ed., *Civil Rights in Peril* (Chicago: Haymarket Books and Pluto Press, 2004), 137.
55. Gerges, *America and Political Islam*, 52.
56. Lewis, "Roots of Muslim Rage."
57. Judith Miller, "The Challenge of Radical Islam," *Foreign Affairs*, Spring 1993, available at <http://www.foreignaffairs.com/articles/48755/judith-miller/the-challenge-of-radical-islam>, accessed April 10, 2012.
58. See Gerges, *America and Political Islam*, 20–28.
59. Quoted in *ibid.*, 80.
60. *Ibid.*, 91.

5. The Separation of Mosque and State

1. Willard Oxtoby and Alan Segal, *A Concise Introduction to World Religions* (Oxford: Oxford University Press, 2007), 200.
2. Lewis, "Muslim Rage."
3. *Ibid.*
4. Bernard Lewis, *What Went Wrong? The Clash between Islam and Modernity in the Middle East* (New York: Harper Perennial, 2003). Quoted in Mamdani, *Good Muslim*, 23.
5. Samuel Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York: Simon and Schuster, 1997), 217.
6. Olivier Roy, *The Failure of Political Islam* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996), 13–14.

7. Ali, *Clash of Fundamentalisms*, 29.
8. Goldschmidt and Davidson, *Concise History*, see chapter 3.
9. Some scholars argue that during the reign of the first four descendants of Muhammad, the "righteously guided" caliphs, religious and political power were synonymous. Yet Ayooob suggests that even during this era it was politics that drove religious war. See Mohammad Ayooob, *The Many Faces of Political Islam: Religion and Politics in the Muslim World* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2008).
10. Roy, *Failure of Political Islam*, 14.
11. Ayooob, *Many Faces*, 5.
12. *Ibid.*, 11.
13. Goldschmidt and Davidson, *Concise History*, 108–9.
14. Roy, *Failure of Political Islam*, 29.
15. Ayooob, *Many Faces*, 11.
16. Goldschmidt and Davidson, *Concise History*, 114.
17. Ayooob, *Many Faces*, 5.
18. *Ibid.*, 13.
19. *Ibid.*
20. Esposito, *Islamic Threat*, 52.
21. Goldschmidt and Davidson, *Concise History*, 173–74.
22. *Ibid.*, 173–74.
23. *Ibid.*, 228.
24. Rodinson, *Arabs*, 97.
25. Esposito, *Islamic Threat*, 49.
26. Roy, *Failure of Political Islam*, 33.
27. *Ibid.* See also Joel Beinin and Joe Stork, "On the Modernity, Historical Specificity, and International Context of Political Islam," in *Political Islam: Essays from Middle East Report* (Berkeley: University of California Press, 1997), 5–6.
28. Roy, *Failure of Political Islam*, 33. Salafist thought has been influential in various Sunni Islamist circles. The connections with Wahhabism are close, particularly since both traditions draw on the teachings of a fourteenth-century *ulama* named Ibn Taymiyya (see Kepel, *Jihad*, 219–20). Today, the Wahhabis prefer to be called Salafis: see Fawaz Gerges, *Journey of the Jihadist: Inside Muslim Militancy* (Orlando, FL: Harcourt, 2006), 106. As an aside, let us note that not all Wahhabis are radicals. While Saudi Arabia is a Wahhabi nation, only a small subset of Saudis are jihadi extremists. The Wahhabi-Salafi jihadis based in the tribal areas of Pakistan offer a literal and even stricter interpretation of Wahhabi-Salafi doctrine.
29. Kepel, *Jihad*, 34.
30. *Ibid.*
31. Dreyfuss, *Devil's Game*, 20. While there are many connections between the various Islamist forces that Dreyfuss points out well, each of these currents also has its own history. In India, for instance, after the last Muslim ruler was deposed by the British in 1857, Muslims found themselves in the minority in a country dominated by Hindus. The Deobandi Islamic movement came into being shortly afterward, in 1867, as a response to this situation. It was founded as a means to provide Muslims in the Indian subcontinent with a set of rules to live by, in order to preserve Islam in a country where Muslims were a minority. Toward this end, the Deobandis trained a core of *ulama* to issue fatwas, or legal opinions, to make sure that Muslims in India conformed to their very rigorous and conservative interpretation of Islam (Kepel, *Jihad*, 223). In this, the Deobandis became very similar to the Wahhabis and in the later part of the

- twentieth century established close ties with them in the context of US-sponsored activities in Pakistan (57–58).
32. Rodinson, *Arabs*, 100–101. See also Laqueur, *Communism and Nationalism*, on popular discontent with feudal landowners and corrupt regimes in Lebanon. The Lebanese Communist Party was in power at this time (after 1954). No doubt it influenced the Baath party's shift leftward. Similarly, student struggles in Egypt in 1952–55 (which were Communist-led) and workers' strikes must have impacted Nasser (*Communism and Nationalism*, 54–57 on Egypt, 163 on Lebanon).
 33. John-L. Esposito and John O. Voll, *Islam and Democracy* (New York: Oxford University Press, 1996), 5.
 34. Rodinson, *Arabs*, 111.

6. Political Islam: A Historical Analysis

1. Ervand Abrahamian, *Khomeinism: Essays on the Islamic Republic* (Berkeley: University of California Press, 1993), 19.
2. Nikki Keddie, ed., *Religion and Politics in Iran: Shi'ism from Quietism to Revolution* (New Haven, CT: Yale University Press, 1984). See also Kepel, *Jihad*, 39–42.
3. Abrahamian, *Khomeinism*, 24–26. See also Nikki Keddie, *Roots and Results of Revolution* (New Haven, CT: Yale University Press, 2003), 193.
4. Ayoob, *Many Faces*, 4–5.
5. Khaled Hroub, *Hamas: A Beginner's Guide* (Ann Arbor, MI: Pluto, 2006), 15.
6. *Ibid.*, 13.
7. Sa'id al Ghazali, "Islamic Movement versus National Liberation," *Journal of Palestine Studies* 17, no. 2 (Winter 1988): 177.
8. Tareq Ismael, *The Arab Left* (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1976), 79.
9. *Ibid.*, 89.
10. *Ibid.*, 79.
11. Rodinson, *Arabs*, 115.
12. Kepel, *Jihad*, 82.
13. Dreyfuss, *Devil's Game*, 153.
14. Phil Marshall, "The Children of Stalinism," *International Socialism Journal* 68 (1995): 118–19.
15. See Laqueur, *Communism and Nationalism*, for a discussion of these struggles.
16. Tareq Ismael, *The Communist Movement in the Arab World* (New York: Routledge, 2005).
17. *Ibid.*, 21.
18. *Ibid.*, 19–20.
19. *Ibid.*, 55.
20. Marshall, "Children of Stalinism," 122.
21. *Ibid.*, 120.
22. Paul Lubeck, "Antinomies of Islamic Movements under Globalization," Center for Global, International, and Regional Studies Working Paper Series, 1999. Available at www2.ucsc.edu/globalinterns/wp/wp99-1.PDF, accessed October 12, 2011.
23. Kepel, *Jihad*, 66.
24. Roy, *Failure of Political Islam*, 49.
25. *Ibid.*, 50.
26. *Ibid.*
27. Chris Harman, "The Prophet and the Proletariat," *International Socialism Journal* 64

- (Autumn 1994): 8–10. Available at www.marxists.de/religion/harman/index.htm, accessed October 12, 2011.
28. *Ibid.*, 9–10.
 29. Kepel, *Jihad*, 6.
 30. Dreyfuss, *Devil's Game*, 161–62.
 31. Hroub, *Hamas*, 69, 125.
 32. Roy, *Failure of Political Islam*, 41–42.
 33. Cihan Tu, et al., "Nato's Islamists," *New Left Review* 44 (March–April 2007): available at <http://www.newleftreview.org/?view=2657>, accessed April 9, 2012.
 34. Harman, "Prophet," 23–24.
 35. Khaled Hroub, *Hamas: Political Thought and Practice* (Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 2000), 44.
 36. See also Deepa Kumar, "Behind the Myths about Hamas," *International Socialist Review* 64 (March–April 2009).
 37. Patrick Cockburn, *Muqtada al-Sadr, the Shia Revival, and the Struggle for Iraq* (New York: Simon and Schuster, 2008).
 38. Anand Gopal, "Who Are the Taliban?," lecture at the Socialism 2010 Conference, Chicago, June 17, 2010.
 39. Miles Amooore, "Pakistan Puppet Masters Guide the Taliban Killers," *Times of London*, June 13, 2010.
 40. Jonathan Schanzer, "Palestinian Uprisings Compared," *Middle East Quarterly*, Summer 2002, 27–37. Available at www.meforum.org/206/palestinian-uprisings-compared, accessed October 12, 2011.
 41. *Ibid.*, 114–16.

7. The Foreign Policy Establishment and the "Islamic Threat"

1. Project for the New American Century, *Rebuilding America's Defenses: Strategy, Forces and Resources for a New Century* (Washington, DC: Project for the New American Century, 2000), 9, available at <http://www.newamericancentury.org/publicationsreports.htm>, accessed April 4, 2012.
2. *Ibid.*, 83.
3. Gary Dorien, *Imperial Designs: Neoconservatives and the New Pax Americana* (New York: Routledge, 2004).
4. *Ibid.*, 7.
5. Stewart Patrick and Shepard Forman, *Multilateralism and US Foreign Policy: Ambivalent Engagement* (Boulder, CO: Lynne Rienner, 2002), 7.
6. *Ibid.*
7. Danny Cooper, *Neoconservatism and American Foreign Policy: A Critical Analysis* (New York: Routledge, 2011), 14 (both quotes).
8. Dorien, *Imperial Designs*, 21.
9. Quoted in *ibid.*, 11.
10. *Ibid.*, 13.
11. Charles Krauthammer, "The Unipolar Moment," *Foreign Affairs*, 1990.
12. Dorien, *Imperial Designs*, 39.
13. *Ibid.*, 40.
14. *Ibid.*
15. Maria Ryan, *Neoconservatism and the New American Century* (New York: Palgrave Macmillan, 2010), 22.

16. Ibid., 14.
17. Quoted in Geroges, *America and Political Islam*, 24.
18. Max Boot, "What the Heck Is a 'Neocon'?" *Wall Street Journal*, December 30, 2002.
19. Seymour, *Liberal Defence*, 160.
20. Ibid., 159–60.
21. Dorien, *Imperial Designs*, 196.
22. Robert Kaplan, *Arabists: The Romance of an American Elite* (New York: Free Press, 1995).
23. Stephen Sniegoski, *The Transparent Cabal: The Neoconservative Agenda, War in the Middle East, and the National Interest of Israel* (Norfolk, VA: Enigma Editions, 2008), 84.
24. Quoted in *ibid.*, 26.
25. Quoted in Ryan, *Neoconservatism*, 34.
26. Dorien, *Imperial Designs*, 197.
27. Sniegoski, *Transparent Cabal*, 52.
28. Noam Chomsky, *Fateful Triangle: The United States, Israel and the Palestinians* (Cambridge, MA: South End, 1999), 455.
29. Sniegoski, *Transparent Cabal*, 5.
30. Benjamin Netanyahu, ed., *International Terrorism: Challenge and Response* (New Brunswick, NJ: Transaction Books, 1981).
31. Ibid., 3.
32. Ibid., 6.
33. All quotes taken from *ibid.*, 5.
34. Ibid., 6.
35. Robert Moss, "The Terrorist State," in Netanyahu, ed., *International Terrorism*, 128.
36. Mordecai Abir, "The Arab World, Oil and Terrorism," in Netanyahu, ed., *International Terrorism*, 135–41.
37. Benjamin Netanyahu, ed., *Terrorism: How the West Can Win* (New York: Farrar, Strauss and Giroux, 1986), 12.
38. Ibid., 11.
39. Bernard Lewis, "Islamic Terrorism?," in Netanyahu, ed., *International Terrorism*, 66.
40. Ibid., 67.
41. Élie Kedourie, "Political Terrorism in the Muslim World," in Netanyahu, ed., *International Terrorism*, 70.
42. Ibid., 72.
43. Ibid., 76.
44. Quoted in Halliday, *Islam and the Myth of Confrontation*, 190–91.
45. Dreyfuss, *Devil's Game*, 197.
46. Halliday, *Islam and the Myth of Confrontation*, 190.
47. Ryan, *Neoconservatism*, 57.
48. Ibid.
49. Seymour, *Liberal Defence*, 23.
50. Jean Bricmont, *Humanitarian Imperialism: Using Human Rights to Sell Wars* (New York: Monthly Review Press, 2006), 20.
51. Stephen M. Walt, "What Intervention in Libya Tells Us about the Neocon-Liberal Alliance," *Foreign Policy*, March 21, 2001, available at http://walt.foreignpolicy.com/posts/2011/03/21/what_intervention_in_libya_tells_us_about_the_neocon_liberal_alliance, accessed April 4, 2012.
52. Ibid.
53. Quoted in Noam Chomsky, *The New Military Humanism* (Monroe, ME: Common Courage, 1999), 14.

54. Jean-Marc Coicaud, *Beyond the National Interest: The Failure of UN Peacekeeping and Multilateralism in an Era of U.S. Primacy* (Washington, DC: United States Institute of Peace Press, 2007), 119.
55. *Ibid.*, 117.
56. Chomsky, *New Military Humanism*, 14.
57. See Sheehi, *Islamophobia*.
58. Quoted in Dreyfuss, *Devil's Game*, 85.
59. Lee Wengraf, "Operation Restore Hope, 1992–1994," *International Socialist Review* 77 (May–June 2011).
60. Madeleine Albright, interview by Leslie Stahl, *60 Minutes*, CBS, May 12, 1996, clip available at <http://www.youtube.com/watch?v=FbIX1CP9qr4>, accessed April 4, 2012.
61. Phyllis Bennis, *Challenging Empire: How People, Governments, and the UN Defy US Power* (Northampton, MA: Olive Branch, 2006).
62. Quoted in Ryan, *Neoconservatism*, 78.
63. *Ibid.*, 79.
64. *Ibid.*, 142.
65. Patrick and Forman, *Multilateralism*, 23.
66. Quoted in Richard A. Clarke, *Against All Enemies: Inside America's War on Terror* (New York: Free Press, 2004), 32.
67. United States Department of Defense, *National Security Strategy*, 2010 USNSS 2 (Washington, DC: United States Department of Defense, 2010), available at www.whitehouse.gov/sites/default/files/rss_viewer/national_security_strategy.pdf, accessed April 4, 2012.
68. Quoted in Jessica Tuchman Matthews, "September 11, One Year Later: A World of Change." Carnegie Endowment for International Peace policy brief, August 2002, available at <http://carnegieendowment.org/2002/08/18/september-11-one-year-later-world-of-change/ekx>.
69. Sheehi, *Islamophobia*, 44.
70. *Ibid.*, 78.
71. Quoted in *ibid.*
72. Cooper, *Neoconservatism*, 92.
73. Sheehi, *Islamophobia*, 56.
74. United States Army, *Counterinsurgency* (Washington, DC: United States Department of Defense, 2006), available at <http://www.fas.org/irp/doddir/army/fm3-24.pdf>, accessed April 4, 2012.
75. James Udris, Michael Udris, and James Der Derian, *Human Terrain*, DVD, UDRIS Film and OXYOPIA Productions (Oley, PA: Bullfrog Films, 2010).
76. Leadership Group on U.S.–Muslim Engagement, "Changing Course: A New Direction for U.S. Relations with the Muslim World" (Washington, DC: U.S.–Muslim Engagement Project, 2009), available at http://www.usmuslimengagement.org/storage/usme/documents/Changing_Course_Second_Printing.pdf, accessed April 4, 2012.
77. Barack Obama, "A New Beginning," speech delivered in Cairo, Egypt, June 4, 2009, video and transcripts available at <http://www.whitehouse.gov/blog/NewBeginning/transcripts>, accessed April 4, 2012.
78. Joseph S. Nye Sr., "Get Smart: Combining Hard and Soft Power," *Foreign Affairs*, July 2009.
79. Quoted in Ryan Lizza, "The Consequentialist," *New Yorker*, May 2, 2011.
80. United States Department of Defense, *National Security Strategy*, 3.
81. Ty Cobb, "The Defense Strategic Guidance: What's New, What Is the Focus, Is It

- Realistic?," *Harvard Law School National Security Journal*, January 8, 2012, available at <http://harvardnsj.org/2012/01/the-defense-strategic-guidance-whats-new-what-is-the-focus-is-it-realistic/>, accessed April 4, 2012.
82. United States Department of Defense, *Sustaining U.S. Global Leadership: Priorities for 21st Century Defense* (Washington, DC: United States Department of Defense, 2012), available at http://www.defense.gov/news/Defense_Strategic_Guidance.pdf, accessed April 4, 2012.
 83. *Ibid.*, 1.
 84. *Ibid.*, 2.
 85. *Ibid.*, 2.
 86. *Ibid.*, preface.
 87. *Ibid.*, 6.

8. Legalizing Racism: Muslims and the Attack on Civil Liberties

1. Moustafa Bayoumi, *How Does It Feel to Be a Problem?* (New York: Penguin, 2008), 3.
2. Stephen Downs, *Victims of America's Dirty Wars: Tactics and Reasons from COINTELPRO to the War on Terror* (Albany, NY: Project Salam, 2012), 71, available at http://project-salam.org/downloads/Victims_of_Americas_Dirty_Wars.pdf.
3. Stephan Salisbury, *Mohamed's Ghosts: An American Story of Love and Fear in the Homeland* (New York: Nation Books, 2010), 23.
4. Associated Press, "Documents Show NYPD Infiltrated Liberal Groups," *New York Times*, March 23, 2012, available at http://www.nytimes.com/aponline/2012/03/23/us/ap-us-nypd-intelligence.html?_r=1, accessed April 4, 2012.
5. Rick Perlstein, "How FBI Entrapment Is Inventing 'Terrorists'—and Letting Bad Guys Off the Hook," *Rolling Stone*, May 15, 2012, available at <http://www.rollingstone.com/politics/blog/national-affairs/how-fbi-entrapment-is-inventing-terrorists-and-letting-bad-guys-off-the-hook-20120515>, accessed May 22, 2012.
6. Salisbury, *Mohamed's Ghosts*, 128.
7. Elaine Hagopian, "Minority Rights in a Nation-State: The Nixon Administration's Campaign against Arab Americans," *Journal of Palestine Studies* 5, no. 1/2 (Autumn 1975): 97–114, quote on pp. 100–101.
8. Hagopian, *Civil Rights in Peril*, 11.
9. *Ibid.*, 18–19.
10. John F. Sugg, "Steven Emerson's Crusade," *Extra!*, January–February 1999, available at <http://www.fair.org/index.php?page=1443>, accessed April 4, 2012.
11. Ian F. Haney Lopez, "The Social Construction of Race," in Julie Rivkin and Michael Ryan, eds., *Literary Theory: An Anthology*, 2nd ed. (Oxford: Blackwell, 2004), 964–74.
12. Hagopian, *Civil Rights in Peril*, 31.
13. Cited in *ibid.*, 39.
14. *Ibid.*, 44.
15. Salisbury, *Mohamed's Ghosts*, 125.
16. *Ibid.*, 36.
17. *Ibid.*, 37.
18. *Ibid.*, 11.
19. Faiza Patel, *Rethinking Radicalization* (New York: NYU School of Law, 2011), 20.
20. Center for Human Rights and Global Justice, *Targeted and Entrapped: Manufacturing the "Homegrown Threat" in the United States* (New York: NYU School of Law, 2011),

- 10–11, available at www.chrgj.org/projects/docs/targetedandentrapped.pdf, accessed April 4, 2012.
21. Associated Press, "Highlights of AP's Probe into NYPD Intelligence Operations," last updated March 23, 2012, available at <http://www.ap.org/media-center/nypd/investigation>, accessed April 4, 2012.
 22. New York Police Department, "The Demographics Unit," PowerPoint presentation, published by Associated Press, available at <http://wid.ap.org/documents/nypd-demo.pdf>, accessed March 29, 2012.
 23. Quoted in David B. Caruso, "NYC Mayor, Yale Leader Spar over Muslim Spying," *USA Today*, February 22, 2012, available at http://www.usatoday.com/USCP/PNI/Nation/World/2012-02-22-BCUSNYPD-IntelligenceUniversities4th-Ld_ST_U.htm, accessed April 4, 2012.
 24. Alex Kane, "Newark Mayor and Yale President Slam NYPD Spying Program," *Mondoweiss*, February 24, 2012, available at <http://mondoweiss.net/2012/02/newark-mayor-and-yale-university-head-slam-nypd-spying-program.html>, accessed April 4, 2012.
 25. Jeanné Theoharis, "Guantánamo at Home," *Nation*, April 2, 2009, available at <http://www.thenation.com/article/guant%C3%A1namo-home>, accessed April 4, 2012.
 26. Center for Human Rights and Global Justice, Asian American Legal Defense and Education Fund, *Under the Radar: Muslims Deported, Detained, and Denied on Unsubstantiated Terrorism Allegations* (New York: NYU School of Law, 2011), available at <http://chrgj.org/projects/docs/undertheradar.pdf>, accessed April 4, 2012.
 27. *Ibid.*, 2.
 28. *Ibid.*, 4.
 29. *Ibid.*, 4–5.
 30. Alia Malek, ed., *Patriot Acts: Narratives of Post-9/11 Injustice* (San Francisco: McSweeney's, 2011), 23.
 31. Bayoumi, *How Does It Feel*, 26.
 32. Downs, *Victims of America's Dirty Wars*, 17.
 33. Project Salam is analyzing about 750 cases, of which it has found 150 to be cases of preemptive persecution. See the database of cases at projectsalam.org.
 34. Michael Ratner, interview by Nicole Colson, "A New Stage in the War on Dissent," *Socialist Worker*, October 19, 2010, available at <http://socialistworker.org/2010/10/19/new-stage-in-the-war-on-dissent>, accessed April 4, 2012.
 35. Downs, *Victims of America's Dirty Wars*, 22.
 36. *Ibid.*, 14.
 37. Quoted in Jeanne Theoharis, "My Student, the 'Terrorist,'" *Chronicle of Higher Education*, April 3, 2011, available at <http://chronicle.com/article/My-Student-the-Terrorist/126937/>, accessed April 4, 2012.
 38. *Ibid.*
 39. Downs, *Victims of America's Dirty Wars*, 28.
 40. Center for Human Rights and Global Justice, *Targeted and Entrapped*, 2.
 41. *Ibid.*
 42. Ted Conover, "The Pathetic Newburgh Four," *Slate*, November 23, 2010, available at http://www.slate.com/articles/news_and_politics/jurisprudence/2010/11/the_pathetic_newburgh_four.html, accessed April 4, 2012.
 43. *Ibid.*
 44. James Donaghy, "We're Lost without *Lost* and Can No Longer Count on 24," *Guardian* (UK), May 21, 2010, available at <http://www.guardian.co.uk/tv-and-radio/2010/may/22/television-lost>, accessed April 4, 2012.

45. Downs, *Victims of America's Dirty Wars*, 17.
46. Charles Kurzman, *Muslim-American Terrorism in the Decade since 9/11* (Chapel Hill, NC: Triangle Center on Terrorism and Homeland Security, 2012), available at http://sanford.duke.edu/centers/tcths/documents/Kurzman_Muslim-American_Terrorism_in_the_Decade_Since_9_11.pdf, accessed April 4, 2012.
47. Ibid.
48. Charles Kurzman, David Schanzer, and Ebrahim Moosa, "Muslim American Terrorism since 9/11: Why So Rare?," *Muslim World* 101:464–83. doi: 10.1111/j.1478-1913.2011.01388.x, available at http://sanford.duke.edu/centers/tcths/documents/Kurzman_Schanzer_Moosa_Muslim-American_Terrorism.pdf, accessed April 4, 2012.
49. Ibid., 471.
50. Ibid., 475.
51. United States Department of State, *Country Reports on Terrorism 2010* (Washington, DC: US State Department, 2010), available at <http://www.state.gov/s/ct/rls/crt/2009/index.htm>, accessed April 4, 2012.
52. United States Department of State, "Terrorism Deaths, Injuries, Kidnappings of Private U.S. Citizens, 2010," in *Country Reports on Terrorism 2011* (Washington, DC: US State Department, 2011), available at <http://www.state.gov/j/ct/rls/crt/2010/170267.htm>, accessed April 4, 2012.
53. Zaid Jilani, "Chart: Only 15 Americans Died from Terrorism Last Year—Fewer Than from Dog Bites or Lightning Strikes," *Think Progress*, August 25, 2011, available at <http://thinkprogress.org/security/2011/08/25/304113/chart-only-15-americans-died-from-terrorism-last-year-less-than-from-dog-bites-or-lightning-strikes/>, accessed April 4, 2012.
54. Susan Heavey, "Study Links 45,000 U.S. Deaths to Lack of Insurance," Reuters, September 17, 2009, available at <http://www.reuters.com/article/2009/09/17/us-usa-healthcare-deaths-idUSTRE58G6W520090917>, accessed April 4, 2012.
55. Hagopian, *Civil Rights in Peril*, 38.
56. Patel, *Rethinking Radicalization*, 1.
57. Mitchell D. Silber and Arvin Bhatt, *Radicalization in the West: The Homegrown Threat* (New York: NYPD Intelligence Division, 2007), 5, available at http://www.nypdshield.org/public/SiteFiles/documents/NYPD_Report-Radicalization_in_the_West.pdf, accessed April 4, 2012.
58. Quoted in Patel, *Rethinking Radicalization*, 15.
59. United States Department of Homeland Security, *Rightwing Extremism: Current Economic and Political Climate Fueling Resurgence in Radicalization and Recruitment* (Washington, DC: United States Department of Homeland Security, 2009), available at <http://www.fas.org/irp/eprint/rightwing.pdf>, accessed April 4, 2012.
60. Downs, *Victims of America's Dirty Wars*, 39.
61. Center for Human Rights and Global Justice, *Targeted and Entrapped*, 16.
62. Patel, *Rethinking Radicalization*, 3.
63. Ibid., 8.
64. United States Department of Defense, *Protecting the Force: Lessons from Fort Hood* (Washington, DC: United States Department of Defense, 2010), available at http://www.defense.gov/pubs/pdfs/DOID-ProtectingTheForce-Web_Security_HR_13jan10.pdf, quoted in Patel, *Rethinking Radicalization*, 9.
65. Clark McCauley and Sophia Moskalenko, "Individual and Group Mechanisms of Radicalization," in Laurie Fenstermacher et al., eds., *Protecting the Homeland from International and Domestic Terrorism Threats* (College Park, MD: National Consortium for the Study

of Terrorism and Responses to Terrorism, 2010), available at http://www.start.umd.edu/start/publications/U_Counter_Terrorism_White_Paper_Final_January_2010.pdf, quoted in Patel, *Rethinking Radicalization*, 9.

66. *Ibid.*, 13.

67. Arun Kundnani, "The FBI's 'Good' Muslims," *Nation*, September 19, 2011, available at <http://www.agenceglobal.com/article.asp?id=2629>, accessed April 4, 2012.

68. *Ibid.*

9. Green Scare: The Making of the Domestic Muslim Enemy

1. CNN, "Woman in Pennsylvania," *American Morning*, March 10, 2010, accessed March 25, 2010 through Campus Westlaw Research.
2. SourceWatch, "Taking the Fight to the Terrorists," *SourceWatch*, August 11, 2008, available at http://www.sourcewatch.org/index.php?title=Taking_the_fight_to_the_terrorists, accessed January 20, 2012.
3. Quoted in Gerry J. Gillmore, "Bush: West Point Grads Answer History's Call to Duty," American Forces Press Service, June 1, 2002, available at <http://www.defense.gov/news/newsarticle.aspx?id=43798>, accessed January 20, 2012.
4. Kurzman, Schanzer, and Moosa, "Muslim American Terrorism since 9/11."
5. *Ibid.*, 466.
6. Arun Kundnani, "Islamism and the Roots of Liberal Rage," *Race and Class* 50, 2 (2008): 40-68.
7. Deepa Kumar, "Jihad Jane: Constructing the New Muslim Enemy," *Fifth Estate Online*, April 2010, available at http://www.fifth-estate-online.co.uk/comment/Jihad_Jane_Deepa_Kumar.pdf, accessed January 20, 2012.
8. Anthony DiMaggio, "Fort Hood Fallout: Cultural Racism and Deteriorating Public Discourse on Islam," *Znet*, December 3, 2009, available at <http://www.zcommunications.org/fort-hood-fallout-cultural-racism-and-deteriorating-public-discourse-on-islam-by-anthony-dimaggio>, accessed January 20, 2012.
9. Jerry Markon, "Pakistan Arrests Five Virginia Men at House with Jihadist Ties," *Washington Post*, December 10, 2009.
10. Tunku Varadarajan, "Going Muslim," *Forbes*, November 2009.
11. Barack Obama, "Remarks by the President in Address to the Nation on the Way Forward in Afghanistan and Pakistan," speech delivered in West Point, New York, December 1, 2009, transcript available at <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/remarks-president-address-nation-way-forward-afghanistan-and-pakistan>, accessed April 5, 2012.
12. Gregory F. Treverton, "Terrorists Will Strike America Again," *Los Angeles Times*, January 19, 2010, available at <http://articles.latimes.com/2010/jan/19/opinion/la-oe-treverton19-2010jan19>, accessed April 10, 2012.
13. United States Department of State, *Country Reports on Terrorism 2008* (Washington, DC: United States Department of State, 2008), 298-99, available at <http://www.state.gov/documents/organization/122599.pdf>.
14. United States Department of Labor, "Fatal Occupational Injuries by Industry and Event or Exposure," Bureau of Labor Statistics, available at <http://www.bls.gov/iif/oshwc/cfoi/cftb0241.pdf>, accessed January 20, 2012.
15. National Highway Safety Administration, "Fatality Analysis Reporting System (FARS) Data Tables," NCSA Data Resource Website, available at <http://www-fars.nhtsa>

- .dot.gov/Main/index.aspx, accessed January 20, 2012.
16. United States Department of State, *Country Reports on Terrorism 2008*.
 17. Rick "Ozzie" Nelson and Ben Bodurian, "A Growing Terrorist Threat?," Center for Strategic and International Studies, March 2010, available at http://csis.org/files/publication/100304_Nelson_GrowingTerroristThreat_Web.pdf, accessed January 20, 2012.
 18. Quoted in Ralph Blumenthal and Sharaf Mowjood, "Muslim Prayers and Renewal near Ground Zero," *New York Times*, December 9, 2009.
 19. Justin Elliot, "How the 'Ground Zero Mosque' Fear Mongering Began," *Salon*, August 16, 2010, available at http://www.salon.com/2010/08/16/ground_zero_mosque_origins/, accessed January 20, 2012.
 20. Laura Ingraham, interview with Daisy Khan, Fox News, December 21, 2009, available at http://www.youtube.com/watch?v=q7WbTv_gsx4, accessed December 1, 2010. Fox News filed copyright infringement notifications against sites that posted the video (see <http://www.aolnews.com/2010/08/17/laura-ingrahams-change-of-heart-on-the-ground-zero-mosque/> for an example), and it no longer appears on the Fox News website.
 21. Elliot, "How the 'Ground Zero Mosque' Fear Mongering Began."
 22. Pamela Geller, "Monster Mosque Pushes Ahead," *Atlas Shrugs*, May 6, 2010, available at http://atlashrugs2000.typepad.com/atlas_shrugs/2010/05/monster-mosque-pushes-ahead-in-shadow-of-world-trade-center-islamic-death-and-destruction.html, accessed January 20, 2012.
 23. Chris McGreal, "The US Blogger on a Mission to Halt 'Islamic Takeover,'" *Guardian*, August 26, 2010, available at <http://www.guardian.co.uk/world/2010/aug/20/rightwing-blogs-islam-america>, accessed January 20, 2012.
 24. Pamela Geller and Eliza Saxon, "Indomitable Israel," *Israel National News*, May 11, 2008, available at <http://www.israelnationalnews.com/Articles/Article.aspx/7968>, accessed January 20, 2012.
 25. Julie Shapiro, "Politicians Rally against Tea Party Bashing of World Trade Center Mosque," *DNAINFO*, May 20, 2010, available at <http://dnainfo.com/20100520/manhattan/politicians-rally-against-tea-party-bashing-of-world-trade-center-mosque>, accessed January 20, 2012.
 26. Quoted in Oliver Willis, "Mark Williams Calls Allah a 'Monkey God': Is He Still Welcome on CNN's Air?," *Media Matters for America*, May 18, 2010, available at <http://mediamatters.org/blog/201005180064>, accessed January 20, 2012.
 27. Wajahat Ali, Eli Clifton, Matthew Duss, Lee Fang, Scott Keyes, and Faiz Shakir, *Fear Inc.: The Roots of the Islamophobia Network in America* (Washington, DC: Center for American Progress, 2011), 22, available at <http://www.americanprogress.org/issues/2011/08/pdf/islamophobia.pdf>, accessed January 20, 2012.
 28. Quoted in *ibid.*, 30.
 29. Quoted in Edward Wyatt, "Three Republicans Criticize Obama's Endorsement of Mosque," *New York Times*, August 14, 2010, available at <http://www.nytimes.com/2010/08/15/us/politics/15reaction.html>, accessed April 5, 2012.
 30. Quoted in Ali et al., *Fear Inc.*, 44.
 31. Newt Gingrich, *Fox & Friends*, Fox News, August 16, 2010, available at <http://mediamatters.org/nmtv/201008160005>, accessed April 5, 2012.
 32. Abraham Foxman, "The Mosque at Ground Zero," *Huffington Post*, August 2, 2010, available at http://www.huffingtonpost.com/abraham-h-foxman/the-mosque-at-ground-zero_b_668020.html, accessed January 20, 2012.

33. Quoted in Elliot, "How the 'Ground Zero Mosque' Fear Mongering Began."
34. Adam Lisberg, "Mayor Bloomberg Stands Up for Mosque," *Daily Politics*, August 3, 2010, available at <http://www.nydailynews.com/blogs/dailypolitics/2010/08/bloomberg-stands-up-for-mosque.html>, accessed January 20, 2012.
35. David W. Dunlap, "When an Arab Enclave Thrived Downtown," *New York Times*, August 24, 2010, available at <http://www.nytimes.com/2010/08/25/nyregion/25quarter.html>, accessed April 5, 2012.
36. Bobby Ghosh, "Islamophobia: Does America Have a Muslim Problem?," *Time*, August 30, 2010, available at <http://www.time.com/time/magazine/article/0,9171,201193600.html>, accessed April 5, 2012.
37. Aryn Baker, "Afghan Women and the Return of the Taliban," *Time*, August 9, 2010, available at <http://www.time.com/time/magazine/article/0,9171,200740700.html>, accessed April 5, 2012.
38. Rasmussen Reports, "20% Favor Mosque Near Ground Zero, 54% Oppose," *Rasmussen Reports*, July 22, 2010, available at http://www.rasmussenreports.com/public_content/politics/general_politics/july_2010/20_favor_mosque_near_ground_zero_54_oppose, accessed January 20, 2012. See also Jordan Fabian, "Public Strongly Opposes Ground Zero Mosque," *The Hill*, November 8, 2010, available at <http://thehill.com/blogs/blog-briefing-room/news/113747-poll-public-strongly-opposes-ground-zero-mosque->, accessed January 20, 2012.
39. Brian Montopoli, "Nancy Pelosi Questions Funding of NYC Mosque Criticism," *CBS News Political HotSheet*, August 18, 2010, available at http://www.cbsnews.com/8301-503544_162-20014003-503544.html, accessed January 20, 2012.
40. Chris Cillizza, "Democrats Divided over Proposed New York City Mosque," *Washington Post*, August 17, 2010, available at <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2010/08/16/AR2010081605425.html>, accessed April 5, 2012.
41. *Ibid.*
42. Glenn Greenwald, "Howard Dean: 'Mosque' Should Move," *Salon*, August 18, 2010, available at http://www.salon.com/2010/08/18/dean_19/, accessed January 20, 2012.
43. Associated Press, "Obama Clarifies Statement in Mosque Debate," *NBC New York*, August 17, 2010, available at <http://www.nbcnewyork.com/news/local-beat/Obama-Backs-Mosque-Near-Ground-Zero-100665264.html>, accessed January 20, 2012.
44. Quoted in David Jackson, "Obama: Quran Burning Is 'Stunt' that Threatens Troops," *USA Today*, September 9, 2010, available at <http://content.usatoday.com/communities/theoval/post/2010/09/obama-quran-burning-is-stunt-that-threatens-troops/1>, accessed January 20, 2012.
45. Max Blumenthal, "The Great Islamophobic Crusade," *Tom Dispatch*, December 19, 2010, available at <http://maxblumenthal.com/2010/12/the-great-islamophobic-crusade/>, accessed January 20, 2012.
46. Joel Beinin, "The New American McCarthyism: Policing Thought about the Middle East," *Race and Class* 46, no. 1 (2004): 101–15.
47. *Ibid.*, 109.
48. *Ibid.*, 110. Beinin quotes this assertion, and it was also cited on the media watchdog website *SourceWatch* (see http://www.sourcewatch.org/index.php?title=Daniel_Pipes). While the phrase has been taken down from the *Campus Watch* website, the site still links to articles that quote it; a [campus-watch.org](http://www.campus-watch.org) site search for the phrase "Middle East studies in the United States has become the preserve of Middle East Arabs" returned 123 articles on April 5, 2012.
49. Jeff Jacoby, "The Boston Mosque's Saudi Connection," *Boston Globe*, January 10, 2007,

- available at http://www.boston.com/news/globe/editorial_opinion/oped/articles/2007/01/10/the_boston_mosques_saudi_connection/?page=full, accessed April 5, 2012.
50. Blumenthal, "Great Islamophobic Crusade."
 51. Pamela Geller, "NYC Public School Madrasa a Failure," *Atlas Shrugs*, March 8, 2011, available at http://atlasshrugs2000.typepad.com/atlas_shrugs/khalil_gibran_international_academy/, accessed January 20, 2012.
 52. Daniel Pipes, "A Madrasa Grows in Brooklyn," *New York Sun*, April 24, 2007, available at www.nysun.com/foreign/madrassa-grows-in-brooklyn/53060/, accessed April 5, 2012.
 53. Chuck Benner and Jana Winter, "City Principal Is 'Revolting,'" *New York Post*, August 6, 2007, available at http://www.nypost.com/p/news/regional/item_UerzwwF7fcSQY8YOP1In4K, accessed April 5, 2012.

10. Islamophobia and the New McCarthyism

1. Ali et al., *Fear Inc.*, 1.
2. Andrea Elliot, "The Man behind the Anti-Shariah Movement," *New York Times*, July 30, 2011, available at <http://www.nytimes.com/2011/07/31/us/31shariah.html>, accessed April 5, 2012.
3. Bob Smietana, "Anti-Muslim Crusaders Make Millions Selling Fear," *Tennessean*, October 24, 2010, available at <http://www.tennessean.com/article/20101024/NEWS01/10240374/Anti-Muslim-crusaders-make-millions-spreading-fear>, accessed January 25, 2012.
4. Ali et al., *Fear Inc.*
5. Beinlin, "New American McCarthyism," 103.
6. See the AVOT website: http://www.claremont.org/projects/projectid.35/project_detail.asp, accessed January 25, 2012.
7. William Kristol and Robert Kagan, "Toward a Neo-Reaganite Foreign Policy," *Foreign Affairs*, July 1, 1996, available at <http://www.foreignaffairs.com/articles/52239/william-kristol-and-robert-kagan/toward-a-neo-reaganite-foreign-policy>, accessed April 5, 2012.
8. Maria Ryan, *Neoconservatism and the New American Century* (New York: Palgrave Macmillan, 2010), 79.
9. Ibid.
10. Cooper, *Neoconservatism*, 12.
11. Ibid.
12. Dorien, *Imperial Designs*, 2.
13. Elliot, "Man behind the Anti-Shariah Movement."
14. In his *New York Times* column, Friedman focuses blame on internal conditions such as autocratic governments and population explosion, among other factors, as a way to explain the harsh economic conditions in the Arab world. US imperialism and its economic arms, the IMF and World Bank, are of course left blameless. See Thomas Friedman, "Green Shoots in Palestine," *New York Times*, August 4, 2009, available at <http://www.nytimes.com/2009/08/05/opinion/05friedman.html>, accessed April 5, 2012.
15. Emma Brockes, "Ayaan Hirsi Ali: 'Why Are Muslims So Hypersensitive?'" *Guardian* (UK), May 7, 2010, available at www.guardian.co.uk/world/2010/may/08/ayaan-hirsi-ali-interview, accessed April 5, 2012.
16. Quoted in Sheehi, *Islamophobia*, 103.
17. Ali et al., *Fear Inc.*, 3.
18. Quoted in *ibid.*, 51.

19. Debbie Schlusel, "HAMASGOP: Chris Christie Calls Opponents of Hamas 'Crazies,'" *Debbie Schlusel Blog*, July 29, 2011, available at <http://www.debbieschlusel.com/40455/hamasgop-chris-christie-calls-opponents-of-hamas-crazies/>, accessed January 25, 2012.
20. Cited in Ali et al., *Fear Inc.*, 41.
21. *Ibid.*, 37.
22. *Ibid.*, 39.
23. David Horowitz, "Muslim Liars: How the Muslim Students Association Deceives the Naïve," *Front Page*, April 27, 2011, available at <http://frontpagemag.com/2011/04/27/muslim-liars-how-the-muslim-students-association-deceives-the-naive-2/>, accessed January 25, 2012.
24. See the list of interviewees at *The Third Jihad's* website, http://www.thethirdjihad.com/about_new.php, accessed April 5, 2012.
25. Ali et al., *Fear Inc.*, 14.
26. Blumenthal, "Great Islamophobic Crusade."
27. Nicole Naurath, "Most Muslim Americans See No Justification for Violence," Abu Dhabi Gallup Center, August 2, 2011, available at <http://www.gallup.com/poll/148763/muslim-americans-no-justification-violence.aspx>, accessed January 25, 2012.
28. Samih Farsoun, "Roots of the American Antiterrorism Crusade," in Hagopian, ed., *Civil Rights in Peril*, 150–52.
29. Elaine Hagopian, "The Interlocking of Right-Wing Politics and US Middle East Policy: Solidifying Arab/Muslim Demonization," in Hagopian, ed., *Civil Rights in Peril*, 194.
30. Quoted in Farsoun, "Roots," 152.
31. Quoted in Ali et al., *Fear Inc.*, 75.
32. *Ibid.*, see chapter 3.
33. *Ibid.*, 64.
34. Quoted in *ibid.*, 66.
35. Quoted in *ibid.*, 58.
36. Thom Cincotta, *Manufacturing the Muslim Menace: Private Firms, Public Servants, and the Threat to Rights and Security* (Somerville, MA: Political Research Associates, 2011), available at http://www.publiceye.org/liberty/training/Muslim_Menace_Complete.pdf, accessed January 25, 2012.
37. *Ibid.*, 15.
38. Quoted in *ibid.*, 31.
39. *Ibid.*, 31.
40. Quoted in Ali et al., *Fear Inc.*, 57.
41. *Ibid.*
42. Cincotta, *Manufacturing the Muslim Menace*, 23.
43. Spencer Ackerman, "FBI's '101 Guide' Depicted Muslims as 7th-Century Simpletons," *Wired*, July 27, 2011, available at <http://www.wired.com/dangerroom/2011/07/fbi-islam-101-guide/>, accessed January 25, 2012.
44. Spencer Ackerman, "Obama Orders Government to Clean up Terror Training," *Wired*, November 29, 2011, available at <http://www.wired.com/dangerroom/2011/11/obama-islamophobia-review/>, accessed May 22, 2012.
45. Anderson Cooper, interview with Walid Shoebat, *Anderson Cooper 360*, CNN, July 13, 2011, available at <http://www.youtube.com/watch?v=pjN00dBhZVk>, accessed January 25, 2012.
46. Will Youmans, "The New Cold Warriors," in Hagopian, ed., *Civil Rights in Peril*, 111.
47. *Ibid.*, 112.
48. WND, "Congressman: Muslims 'Enemy amongst Us,'" *WND*, February 13, 2004,

- available at <http://www.wnd.com/2004/02/23257/>, accessed January 25, 2012.
49. Quoted in Ali et al., *Fear Inc.*, 86.
 50. *Ibid.*, 41.
 51. Hamid Dabashi, *Brown Skin, White Masks* (London: Pluto, 2011), 72–73.
 52. *Ibid.*, 35.
 53. Sheehi, *Islamophobia*, 97.
 54. Dabashi, *Brown Skin*, 14.
 55. *Ibid.*, 76.
 56. *Ibid.*, 35–36.
 57. Kundnani, “Islamism.”
 58. *Ibid.*, 42.
 59. Seymour, *Liberal Defence*, 241–42.
 60. *Ibid.*, 12.
 61. *Ibid.*
 62. Kundnani, “Islamism,” 44.
 63. Youmans, “New Cold Warriors,” 119.
 64. Noah Schachtman and Spencer Ackerman, “U.S. Military Taught Officers: Use ‘Hiroshima’ Tactics for ‘Total War’ on Islam,” *Wired*, May 10, 2012, available at, <http://www.wired.com/dangerroom/2012/05/total-war-islam/all/1>, accessed May 22, 2012.
 65. *Ibid.*
 66. William J. Boykin et al., *Shariah: The Threat to America* (Washington, DC: Center for Security Policy, 2010).
 67. Suzan Clarke and Rich McHugh, “President Obama Says Terry Jones’ Plan to Burn Korans Is ‘a Destructive Act,’” *ABC Good Morning America*, September 9, 2010, available at <http://abcnews.go.com/GMA/president-obama-terry-jones-koran-burning-plan-destructive/story?id=11589122#.TxBi8oH4WSo>, accessed January 25, 2012.
 68. Joe Cenko, “Gainesville’s Victory over Bigotry,” *Socialist Worker*, September 17, 2010, available at <http://socialistworker.org/2010/09/17/gainesville-victory-over-bigotry>, accessed January 25, 2012.

Conclusion: Fighting Islamophobia

1. Council on American-Islamic Relations, “American Muslims and the 2008 Elections,” November 7, 2008, available at http://www.cair.com/Portals/0/pdf/Post_2008_Election_American_Muslim_Poll.pdf, accessed January 22, 2012.
2. Dabashi, *Brown Skin, White Masks*, 121.
3. Hillary Clinton, interview by Kirit Radia, al-Arabiya network, March 2, 2009, partial transcript available at <http://abcnews.go.com/blogs/politics/2011/01/secretary-clinton-in-2009-i-really-consider-president-and-mrs-mubarak-to-be-friends-of-my-family/>, accessed April 6, 2012.
4. Amanda Simon, “President Obama Signs Indefinite Detention into Law,” ACLU website, December 1, 2011, available at <http://www.aclu.org/blog/national-security/president-obama-signs-indefinite-detention-law>, accessed January 22, 2012.
5. Barack Obama, “Empowering Local Partners to Prevent Violent Extremism in the United States,” August 2011, available at http://www.whitehouse.gov/sites/default/files/empowering_local_partners.pdf, accessed January 22, 2012.
6. Greg Miller, “US Officials Believe al-Qaeda on the Brink of Collapse,” *Washington Post*, July 26, 2011, available at <http://www.washingtonpost.com/world/national-security>

- /al-qaeda-could-collapse-us-officials-say/2011/07/21/gIQAFu2pbl_story.html, accessed April 6, 2012.
7. John Mueller, "The Truth about al-Qaeda," *Foreign Affairs*, August 2, 2011, available at http://www.foreignaffairs.com/articles/68012/john-mueller/the-truth-about-al-qaeda?oth-internal-magazine-the_truth_about_al_qaeda-110111, accessed April 6, 2012.
 8. Obama, "Empowering Local Partners," 1.
 9. Abdul Malik Mujahid, interview by Eric Ruder, "The United States of Islamophobia," *Socialist Worker*, January 19, 2010, available at <http://socialistworker.org/2012/01/19/united-states-of-islamophobia>, accessed April 6, 2012.
 10. "NYPD Spied on Muslim Anti-Terror Partners," *CBS News*, October 6, 2011, available at <http://www.cbsnews.com/stories/2011/10/06/national/main20116496.shtml>, accessed January 22, 2012.
 11. Associated Press, "White House Helps Pay for NYPD Muslim Surveillance," *USA Today*, February 27, 2012, available at <http://www.usatoday.com/news/nation/story/2012-02-27/white-house-muslim-NYPD/53267060/1>, accessed April 6, 2012.
 12. Quoted in Ashley Lopez, "Muslim Activists Say that Democratic Party Is Taking their Vote for Granted," *Florida Independent*, March 21, 2012, available at <http://floridaindependent.com/73346/muslim-activists-say-democratic-party-is-taking-their-vote-for-granted>, accessed April 6, 2012.
 13. Andrew Stern, "Most American Muslims Are Satisfied Obama Backers," Reuters, August 30, 2011, available at <http://in.reuters.com/article/2011/08/30/idINIndia-59043020110830>, accessed April 6, 2012.
 14. Chris Hawley, "Muslims Upset by NYPD to Boycott Mayor's Breakfast," Associated Press, December 29, 2011, available at http://www.ap.org/pages/about/whatsnew/wn_122911a.html, accessed January 22, 2012.
 15. Mujahid, "United States of Islamophobia."

المؤلف في سطور:

ديبا كومار

أستاذ مساعد الدراسات الإعلامية ودراسات الشرق الأوسط بجامعة روتجرز،
وهي مؤلفة كتاب "Corporate Media, Globalization and UPS Strike"، وقد عرضت
تحليلها لظاهرة فوبيا الإسلام من خلال منافذ متعددة في أنحاء العالم المختلفة، وكان
من بينها هيئة الإذاعة البريطانية BBC و USA Today و Philadelphia Inquirer.

المترجمة فى سطور:

أمانى فهمى

- تخرجت فى عام ١٩٦٢ فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، جامعة القاهرة.
- التحقت فى عام ١٩٦٢ بوكالة أنباء الشرق الأوسط مترجمة.
- التحقت فى عام ١٩٧٤ بالأمم المتحدة مترجمة فى إدارة الترجمة العربية، وتدرجت فى مناصبها فأصبحت مراجعة، ثم كبيرة مترجمين، فمسؤولة عن تدريب المترجمين وتقييم أدائهم، إلى أن تولت رئاسة الإدارة فى عام ٢٠٠٠.
- منحتها فى عام ٢٠٠٠ مجلة روز اليوسف وسام الاحترام، ومنحتها مجلة حواء ميدالية تقدير باعتبارها أول سيدة وأول شخصية مصرية تتولى رئاسة إدارة الترجمة العربية فى الأمم المتحدة منذ إنشاء تلك الإدارة فى خمسينيات القرن العشرين.
- تولت فى عام ٢٠٠٥ ترجمة قانون البنوك العراقى الجديد بتكليف من صندوق النقد الدولى.
- تولت على مدى ست سنوات ترجمة تقرير التنمية البشرية الذى يصدر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية، ويعتبر أهم تقرير دولى يحدّد مدى نجاح دول العالم فى تحقيق التنمية البشرية مقيساً بمؤشرات عديدة.
- تولت ترجمة مئات الدراسات والتقارير المتخصصة المهمة بتكليف من منظمات دولية شتى، من بينها الأمم المتحدة واليونسكو ومنظمة الصحة العالمية واليونسيف ومنظمة الأغذية والزراعة والمنظمة العالمية للأرصاد الجوية وصندوق الأمم المتحدة للسكان وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة.

- صدرت لها فى أواخر سبعينيات القرن الماضى أول ترجمة عربية لوثيقة متخصصة سرية تحمل عنوان "كيف يعمل مفاعل ديمونة الإسرائيلى".
- لها مساهمات ضخمة و متميزة فى الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية فى ترجمة المصطلحات المستحدثة فى مجالات مختلفة من بينها القانون الدولى والمحلى وقانون البحار، والتكنولوجيا، والفضاء الخارجى، والاقتصاد، والمحاسبة، والمعلوماتية.
- نُشرت لها ترجمة لمجموعة مسرحيات قصيرة للكاتب المسرحى البريطانى هارولد بنتر، ونُشرت لها تراجم لأشعار أفريقية وآسيوية نقلاً عن اللغة الإنجليزية. وكانت من أوائل من نُشرت لهم تراجم فى مجلة "جاليرى ٦٨" الطليعية التى كانت تصدر فى القاهرة فى أواخر ستينيات القرن العشرين.
- شاركت فى إعداد كتاب "كافافى شاعر الإسكندرية" (الشاعر والفنان التشكيلى أحمد مرسى) وذلك بترجمة نبذة عن حياة كافافى.
- صدرت لها حتى الآن عن المركز القومى للترجمة سبعة مجلدات فى سلسلة دساتير العالم، ويتضمن المجلد الأول منها ترجمة دساتير الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الروسى وألمانيا وفرنسا والصين ويتضمن المجلد الثانى ترجمة دستور الهند. ويتضمن المجلد الثالث ترجمة دستورى اليابان والبرازيل. ويتضمن المجلدان الرابع والخامس ترجمة دستورى إيران واليونان وترجمة دستورى إيطاليا وأستراليا. وصدر لها فى عام ٢٠١١ مجلدان يتضمن الأول منهما ترجمة دستور تركيا ويتضمن الثانى ترجمة دستور جنوب أفريقيا. وقد حظيت ترجمة دستور تركيا باهتمام كبير فى أوساط المتخصصين والمثقفين والأحزاب السياسية فى مصر على خلفية النقاش الدائر فيها حول صياغة الدستور المصرى الجديد بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

التصحيح اللغوي: خالد مصطفى

الإشراف الفني: حسن كامل